فيرونيكا هنري
VERONICA HENRY

أنْ تَجِدَ الحُبّ في مَكتَبَة

ترجمة
مهدي سليمان



أن تجد الحب في مكتبة

فيرونيكا هنري

ترجمة مهدي سليمان

دار شفق للنشر والتوزيع 2019

استهلالٌ

فبراير ١٩٨٣

لم يكن ليُصَدِّقَ ذلك بتَّةً لو أنَّكَ طرَحْتَ عليه الفكرةَ قبل سنةٍ خلت. لم يكن ليصدِّقَ بأنَّه سيكون واقفًا في متجرٍ خاوٍ على عروشِه ومعه طفلةٌ جالسةٌ في عربتها، وهو يفكِّرٍ جدًّيًا في التقدُّم بطلب لشِّرائه.

ظفر بعربة الطفلة بضربةِ حظٍّ. إذ كان قد رأى إعلانًا عن بيعِ معدَّات حديقةٍ في حيٍّ راقٍ في أكسفورد الشمالية، ولم يستطعِ طبعُه الشغوفُ بالصفقات الرابحة، وهو طبعٌ سَّاكنٌ فيه، مقاومةَ إغرائها. فالزَّوجان، صاحبا العربة، لديهما طفلانِ صغيرانِ ولكنّهما سينتقلانِ إلى باريس. بَدَتِ العربةُ وكأنَّها لا تزالُ جديدة، من النوعِ الذي ربّما استخدمته المَلكةُ لحَملِ أطفالِها فيها؛ أو ربَّما يمكننا القولُ إنَّ مربِّيَةَ أطفالِ الملكةِ هي مَن استخدمته. طلَبتْ صاحبةُ العربة ثمَنَها خمسةَ جنيهاتٍ فقط. وكان يوليوس متأكّدًا بأنّ ثمنَها فوقَ ذلك، وبأنّ المرأةَ كانت تُظْهِرُ نحوه لطفَها ليس إلّا. بَيدَ أنّ جُلَّ ما تعلَّمَه من الأحداث في الآونة الأخيرة علَّمه أن يتقبَّلَ لطفَ الآخرين؛ أن يتقبَّلَه بصدرٍ رحبٍ ووجهٍ بشوشٍ قبل أن يُغيِّروا رأيَهم. ولذلك، ما

كان منه إلَّا أنْ اشتراها، وغَسَلَها بعنايةٍ وحرصٍ بسائل تنظيف ميلتُنِ رغم أنّها بَدَت في ظاهرِها عربةً نظيفةً جدًّا، واشترى لها فَرْشَةً جديدة وأغطيةً جديدة وها هي الآن مُلْكُه: العشُّ المثالي لأغلى ما يملكُ؛ لطفلتِه الغاليةِ إلى أنْ تبلغ سنَّ المشي.

متى يبدأ الأطفالُ المشي؟ لا معنى لطرح هذا السؤال على ديبرا -أمُّه الغريبة الأطوار- البعيدة عن الواقع بعض الشيء، الجاثمة باطمئنان في شقّتها في القبو؛ شقّةٍ تفوحُ منها رائحةُ البتشولي(1) في حيّ ويستبورن غروف، الحيّ الذي تشوبُ الغشاوةُ ذكرياتِ طفولته فيه. فوَفقَ ما قالته أمُّه، ديبرا، كان يوليوس قادرًا على القراءة عندما كان عمرُه سنتَين، وتلك أسطورةٌ لم يقتنع بها اقتناعًا مطلقًا. ربّما يكون ذلك صحيحًا؛ لأنّه لا يتذكّر لحظةً من لحظاتِ طفولته لم يكن فيها قادرًا على القراءة. فالقراءةُ عنده مثلُ التنفُّس. ومع ذلك، لم يكن ليعتمدَ على أمّه لتنهالَ عليه بالنصائح المتعلِّقة بتربيةِ الأبناء. غالبًا ما ظنَّ أنَّ اجتيازَه مرحلةَ الطفولة دونَ أن يُصابَ بأيّ أذيّة ليس سوى ضربٍ من ضروب المعجزات. إذْ اعتادتْ أمُّه على تركِه وحيدًا، في سريره، بينما ذهبت إلى الحانة الواقعة في زاوية الشارع لتقضِيَ أمسيّاتها فيها. سألَتْه: «ما الذي سيحدثُ لكَ إذا تركتكَ لساعة واحدة فقط؟» ربّما يفسِّر ذلك حرصَه الشديد على ابنته. فقد شقَّ عليه أن يديرَ ظهرَه لها حتّى ولو لحظة.

حَمْلَق حوالَيه إلى الجدران العارية مرَّةً أخرى. لا مفرَّ من رائحة الرطوبة، وما الرطوبة سوى مصيبةٍ من جملةِ مصائب. اجتاحت العفونةُ الدَّرَجَ المفضي إلى المَشْرَفِ(2)، وباتَ متعفِّنًا للغاية حتّى إنّه لم يستطع صعودَه. ملأتِ النافذتان الناتئتان الواقعتان على جهتَي الباب الأمامي المتجرَ بضوء لؤلؤيّ، منيرًا ألواحَ الأرضية المصنوعة من خشب البلوط الذهبي وديكورات الجصّ المزخرفة على السقف. كما جعل الغبارُ المتجرَ يبدو من العالم الآخر: متجرَ أشباحٍ بدا، متجرًا ينتظر، ينتظر حدثًا ما ليحدث، ينتظرُ تحوُّلًا، أو ترميمًا، أو نهضةً ما.

قال دلّال المكتب العقاري:

- كان المتجرُ صيدليةً في الأصل. ومن ثَم تحوَّلَ إلى متجرِ موادّ عتيقة. لا بأسَ، نعم عتيقة - فأنتَ لم ترَ قطّ مثل هذا الكمّ الهائل من القذارة في حياتك.

ينبغي له الحصولُ على بعض النصائح الاحترافية حقًّا. مسحٌ إنشائيٌّ، عرضُ أسعار من أحدهم لإنشاء مدماكٍ عازلٍ للرطوبة في الحيطان، ولكن يوليوس شعر بالدُّوار وشرع قلبه

يدقُّ. صحيحٌ. يعرف أنّ ذلك صحيح. فالطابقان العلويان كانا مثاليين له وللطفلة ليعيشا فيهما. ليعيشا فوق المتجر.

المتجر الذي صار مكتبة.

كان قد باشر البحث قبل ثلاثة أسابيع، حيث قرَّر بأنه بحاجة إلى القيام بتحرُّك إيجابي إنْ أراد هو وابنته أن يعيشا معًا حياةً تشبه حياةَ الناس العادية. أمعنَ التفكيرَ في خبراته، وإمكاناته، وملكاته، والمناحي العملية لكونه أبًا أعزبًا، وقرَّر بأنه ما من خِيارٍ متاحٍ أمامَه سوى خِيارٍ واحدٍ بالفعل.

أتبع ذلك بزيارةٍ إلى المكتبة العامّة، ووضعَ نسخةً من الدليل الإعلاني على الطاولة، ثم وضعَ بجانبها خريطةً تفصيليةً للمقاطعة. رسم دائرةً حول أكسفورد نصفُ قطرِها خمسةَ عَشَر ميلًا، متسائلًا عن معنى أنْ يعيش المرءُ في أَحياء كريسمَس كومُن، أو دَكْلِنْغتُن، أو غوسي. ثم استعرض بتمعنٍ المكتبات المصنَّفة كافّةً في الدليل ووضع إشارة (+) على البَلدات التي تقع فيها. نظَرَ إلى بقيّة البلدات؛ البلدات التي لا يوجد فيها مكتباتٌ على الإطلاق. هناك زُهاءُ ستٍّ منها بلا مكتبات. جهَّز قائمةً بأسمائها، ومن ثمَّ، خلال الأيام القليلة التالية، زارها بلدةً بلدة، مرتحلًا وَفقَ جدولِ نقلٍ معقَّدٍ صاعدًا في هذا الباص

ونازلًا من ذاك. كانتِ البلداتُ الثلاثُ الأولياتُ موحشةً، وهامدةً لا حياة فيها، وفَقَدَ كلَّ الحماسة التي أَخَذَتْ بناصيته حتَّى إنّه أوشكَ على التخلِّي عن فكرته، ولكنّ شيئًا ما في اسم بيزبروك أدخلَ السُّرورَ على قلبه، ولذا قرَّر أن يلقيَ نظرةً واحدةً أخيرةً عليها قبل أن يتخلَّى عن خياله الجامح.

تقع بيزبروك في منتصف مقاطعة كوتسوُلد(3)، على المحيط الخارجي للدائرة التي رسمها: دائرةٍ تصلُ إلى أقصى مسافة أرادَها. ترجَّل من الباص ونظر في الشارع السريع. كان عريضًا ومزدانًا بصفوف الشَّجَر، تنتشرُ على أرصفتِه مبانٍ ذهبيةٌ مرتَّبَةٌ ترتيبًا سيماؤه الفوضى. انتشرت فيه أيضًا متاجرُ تُحَفٍ عتيقة، وملحمة تقليدية عُلِّقَتْ فيها الأرانب والتَّدَارِج(4) في الخارج والنقانق السميكة في الواجهة، وخانٌ قديمُ الطراز ممتدٌّ كيفما اتّفقَ وبضعةُ مقاهٍ جميلة ومحلُّ أجبان. كانت الجمعية النسائية تعقد سوقًا خارج دار البلدية، حيث نُصِبَتْ طاولاتٌ ذوات حوامل خشبية انتشر عليها كعكٌ كبيرٌ ينزُّ منه المربَّى، وقِفَافُ خضارٍ لا يزالُ الترابُ عالقًا بها، وأصصَ أزهارٍ عشبية خضراءَ تدلَّتْ منها أكمام الزهور الأرجوانية الغامقة والصفراء.

كانت بيزبروك تعجُّ بالحركة، حركةٍ هادئةٍ ولكنّها ذاتُ مغزى، مثلما النحل في ظهيرة يومٍ قائظ. توقَّف الناسُ في

الشارع وتحدَّثَ أحدُهُم مع الآخر. وبدت المقاهي مكتظةً بمرتاديها على نحو يسُرُّ الناظرَ إليها. خشخشةُ آلاتِ دفعِ النقود تصدحُ في الجوّ؛ فقد كان الناسُ يتسوَّقون بشغفٍ وحماسة. وهناك مطعمٌ فخمٌ جدًّا انتصبت خارج بابه شجرة غارٍ إضافةً إلى قائمة طعام مذهلة معروضةٍ ضمن إطارٍ زجاجيٍ تروِّج لوجباته المحضَّرة على الطراز الحديث. لا بلْ إنَّ البلدة تحوي بين ظهرانيها مسرحًا صغيرًا جدًّا يَعْرِضُ مسرحية أهمّية أن تكونَ جَادًّا(5). في ذلك بشارةُ خيرٍ نوعًا ما. فيوليوس يحبُّ أوسكار وايلد. وأجرى إحدى أطروحاته البحثية عنه؛ كان عنوانُها تأثيرُ أوسكار وايلد في دبليو. بي. ييتس.

عدَّ المسرحية فألًا حسنًا، ولكنّه استمرَّ يجوبُ الشوارع. وخشي أن ينعطفَ عند زاويةٍ ما ولا يجدُ ما كان يأملُ في العثور عليه. ها هو الآن إذًا، في بلدة بيزبروك، أرادَها أن تكون منزلَه ومقامَه، بل منزلَهما ومقامَهما معًا. ومع ذلك، اكتنف هذه البلدةَ لغزٌ محيِّر؛ إذ كيف يمكنُ لمكانٍ جذَّابٍ مثل هذا ألَّا يكونَ فيه مكتبة؟

من نافلةِ القولِ أنّ بلدةً لا مكتبة فيها مثلُ جسدٍ بلا قلب.

فمن شأن المكتبة أن تزيدَ بهاءَ البلدة بهاءً، وسينعكس ذلك على كلّ سكّان بيزبروك. تخيَّل يوليوس كلَّ مَن مرَّ به وكأنَّه زبون محتمل. تخيَّلهم جميعًا، متجمهرين، طالبين مشورتَه، وهو يدسُّ ما اشترَوه من كتبٍ في كيس، وقد عرف ما يحبُّون وما لا يحبُّون من كتب، مُنَحِّيًا كتابًا معينًا لزبونٍ بعينِه، عارفًا أنَّ هذا الكتابَ هو ما يفضّلُه ذلك الزبون، ناظرًا إليهم وهم يستعرضون العناوين، متابعًا البهجةَ ترتسمُ على مُحيَّاهم وهم يكتشفون مؤلِّفًا جديدًا؛ وعالَمًا جديدًا. سأل دلّالَ العقارات:

- هل سيقبل البائعُ عرضًا أقلَّ من القيمة الحقيقية للمتجر؟

هزَّ الدلّال كتفَيه وقال:

- لا يسعُك سوى أن تسألَه.

- العقار يحتاجُ إلى الكثير من الإصلاحات.

- السعرُ المعروضُ للمتجر يراعي هذا الجانب.

حدَّد يوليوس المبلغ الذي سيدفعُه وقال:

- هذا أفضلُ عرضٍ لديّ، ولا عرضَ عندي سواه. ليس بإمكاني أن أدفعَ أكثرَ من ذلك.

عندما وقَّع يوليوس العَقْدَ بعد أربعة أسابيع، لم يكن منه إلَّا وأنْ اجتاحه الذهول. هو ذا هنا، وحيدًا في العالم (لا بأسَ، فأمُّه موجودة، ولكنّ فائدتَها مثل فائدة إبريق شاي مصنوع من قوالب الشوكولا) وليس معه سوى طفلةٍ ومكتبة. بينما مدَّت الطفلةُ يدَها بأصابعِها المتباعدةِ بعضها عن بعض، أعطاها إصبَعَه لتمسكَ به وهو يقول في قرارة نفسه: يا لَه من موقفٍ استثنائي ذلك الذي آلت إليه أحواله! القدرُ غريبٌ بالفعل.

ماذا كان سيحصل لو أنَّه لم يرفع رأسهَ وينظر في تلك اللحظة بالذات؛ تلك اللحظة التي مضى عليها الآن حوالي سنتين؟ ماذا لو أنّه أبقى ظهرَه إلى الباب وتابعَ إعادةَ ترتيبِ قسمِ كتب الرحلات، تاركًا زميلَه يساعدُ الفتاة ذات الشَّعْر الأَحمر...

بعد ستة أشهر، وأسابيعَ من نفض الغبار والقذارة والنَّشْر والتكنيس والدًّهْن، والفواتير المرتفعة، والكثير من لحظات

الذعر المطلق، وعدد كبير من الأغراض التي أحضرت إلى المتجر، أُعيدَ تعليقُ اليافطة خارج المتجر، وقد خُطَّتْ عليها بألوانٍ زرقاءَ غامقةٍ وذهبية عبارة «مكتبة نايتِنْغيل». لم يكن هناك فيها متّسعٌ لإضافة عبارة « مورِّدو المواضيعِ القرائيةِ لذوي الرأي الأريب»، ولكنّه صار ما صار عليه؛ صار بائعَ كتبٍ.

بائعُ كتبٍ من الطراز الرفيع.

(1) شجيرة صغيرة تنمو في جنوب شرق آسيا، ذات أوراقٍ تطلق زيوتًا عطرية فوَّاحة ولذا فإنَّها تستخدم في صناعةً العطور. (جميع الهوامش من إضافة المترجم من مصادر متعددة أهمها موسوعة ويكيبيديا بالنسبة لتواريخ الأعلام، وقواميس كولينز وأكسفورد والمعاني. وإذا كان الاقتباس مأخوذًا مباشرة من مصدرٍ واحد فهو مذكورٌ بجانبه).

(2) بهوٌ صغيرٌ مثل السقيفةِ، يقع بين طابقَين لزيادة الاستفادة من المساحة، ولا يصنَّف من الطوابق.

(3) منطقةٌ تضمُّ سلسلةً من الهضاب الواطئة في جنوب غرب إنجلترا، وكانت فيما مضى مركزًا لصناعة الأصواف.

(4) جمع (تَدْرُج) وهو طائرٌ من رتبة الدجاجيات، موطنُه الأصليُّ الأناضولُ والصين. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

(5) مسرحيةٌ تنتمي إلى جنس الكوميديا الساخرة من تأليف الكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠).

الفصل الأول

بعد ثلاثين عامًا...

ماذا تفعل وأنتَ تنتظرُ إنسانًا وهو يسلِّم الروح؟ يمكنُك، دونما مبالغةٍ، أن تجلسَ إلى جانبه في كرسيّ بلاستيكيّ ذي مساندَ لا يناسبُ أبدًا حجمَ مؤخّرةِ كلّ مَن يجلس عليه، منتظرًا إيَّاه حتّى يلفظَ آخرَ أنفاسِه لأنّه لم يعد هناك مزيدٌ من أمل.

ما من شيءٍ بدا مناسبًا لتزجية الوقت. هناك غرفةٌ في آخرِ الممرّ مخصّصة لمشاهدة التلفزيون، ولكنّ مشاهدة التلفزيون بدت أمرًا فظًا. على أيّ حالٍ، لم تكن إِميليا من عشَّاق التلفزيون فعلاً.

لم تكن تهوَى الحياكة، أو التطريزَ، أو لعبةَ السودوكو.

لم تكن ترغب في الاستماع إلى الموسيقا خشيةَ إزعاجِه. فحتّى أفضلُ سمَّاعاتِ الأذنَين يتسرَّبُ منها مقدارٌ معيَّنٌ من قرع طبول الموسيقا. واستخدام السمَّاعات فيه ما فيه من

الإزعاج وأنتَ في القطار؛ وربّما يزيدُ إزعاجُها إزعاجًا وأنت تسمَعُها وأنتَ على سرير موتك. لم تُرِدْ تصفُّحَ الإنترنت على هاتفها المحمول. بدا ذلك أعلى درجات الوقاحة في قائمة وقاحات القرن الحادي والعشرين.

ولم يكن هناك أيُّ كتابٍ على وجه الأرض يمكنه أن يثيرَ انتباهَها في هذه اللحظة ذاتها.

ولذا جلست قربَ سريره وغَفَتْ. بين الفَينةِ والأخرى استيقظَت وقد اجتاحَتْها نوبَةُ خوفٍ، وهي تتوجّسُ خيفةً أن تفوتَها لحظة تسليمِه للروح. ومن ثَم، كانت تمسكُ يدَه بضعَ دقائق. يدُه جافَّة وباردةٌ نوعًا ما وقد ارتخَت دونما حراكٍ في يدَيها. ثقلت يدُه في نهاية المطافِ وأشعرَها ذلك بالحزن، ولذا أرخَتْها ووضعتها فوقَ غطاء السرير.

وعادت لتغفوَ مرَّةً أخرى.

من حين لآخر أحضرت لها الممرضاتُ الشوكولا الساخنة، رغم أنّها شوكولا ليس لها من اسمِها نصيبٌ. إذْ إنّها لم تكن ساخنةً، بل فاترةً، وكانت إِميليا على يقينٍ مُطْلَقٍ بأنّه ما من حبَّةِ

كاكاو واحدة بذلَت في سبيل تحضيرِها. لم تكن سوى ماءٍ صوفي اللون فاتِحَه، محلَّى حلاوة خفيفة.

أضواءُ الليل في مستشفى البلدة باهتةٌ، يلفَحُها اصفرارٌ يبعث في النفس الغثيانَ. أجهزةُ التدفئة في أعلى درجة والحُجْرَةُ الصغيرةُ تُوحي بالاختناق. حَمْلَقت إلى غطاء السرير الرقيق، بأشكاله المرسومة زهورًا برتقالية وصفراءَ، ومعالمُ جسدِ أبيها مرتسمةٌ تحتَه، ساكنًا كلَّ السكون وضئيلًا كلَّ الضآلة. رأتْ الخُصَلَ القليلةَ من الشعر المجعَّد فوق جلدة رأسِه وقد ذوى لونُها. طالما كان شعرُه الكثيفُ إحدى سماته المميَّزة. واعتاد تمسيدَ شعره بأصابعِه بينما كان ينظرُ في اقتراحِ ما، أو عندما كان يقفُ أمامَ إحدى طاولات العرضِ وهو يحاول أن يقرِّرَ ماذا يضعُ عليها، أو عندما كان يتحدَّثُ على الهاتف مع زبون من زبائنه. كان شعره جزءًا منه بالضبط مثلما كان الوشاحُ الكشميري الأزرق الفاتح الذي أصرَّ على ارتدائه، وقد لفَّه لفَّتَين حول عنقِه، رغمَ وجودِ دليلٍ على انتشار العُثِّ فيه. تخلَّصَت إِميليا من العُثِّ بسرعة عندما رأته أولَ مرّة. وشكَّت بأنّه انتقلَ إليه عن طريقِ معطفِ المخمل البني السميك الذي اشترته من حانوت البالَة الخيري(6) في الشتاء الماضي، وشعرت بتأنيب الضمير لأنّ العُثَّ انتشر في قطعة الثياب الوحيدة التي بدا أنَّ لأبيها مزاجًا في ارتدائها.

ما انفكّ يشتكي حينئذٍ من شعوره بالضيق. في واقع الأمر، لم يكن يشتكي؛ لأنّه لم يكن من النمط الذي يشتكي ويئنُّ. عبَّرت إِميليا عن قلقِها على حالته، وبخَّر قَلَقَها برواقيته التي تعدّ سِمَةً مميّزةً له، ولذا لم يعد القلقُ الشديدُ يساورُها إزاءَ ذلك. فلم يكن منها إلَّا أن استقلَّت الطائرةَ مُيَمِّمَةً صوبَ هونغ كونغ. إلى أنْ جاءتها المكالمةُ الهاتفيةُ، الأسبوعِ الماضي، تطلبُ منها العودة.

قالت لها الممرضة عبر الهاتف:

- أعتقد أنه ينبغي لكِ العودة إلى إنجلترا. سيَغْضَبُ أبوك منّي لأنّي اتصلت بكِ. فهو لا يريدُ أن يقلقَك. ولكن...

باحت تلك «اللكن» بكلّ ما أرادَتْ إخبارَها به. عادت إِميليا على متن أول طائرة. وعندما وصلتْ تظَاهرَ أبوها بأمَاراتِ الانزعاج، ولكنّ الطريقة التي أمسك بها يدَها، بكلّ إحكامٍ وشدّة، أنبأتْها بكلّ ما أرادَتْ معرفته.

قالتِ المُمرّضة:

- يعيش مرحلة إنكارِ المرض. وهو يجابِهُهُ دونَ هَوادةٍ. أنا آسفة جدًّا لقول ذلك، ولكنّنا نبذلُ كلَّ ما في استطاعتنا ليرتاح.

أومأت إِميليا برأسِها، وقد فهمت أخيرًا. نعم ليرتاحَ، وليس ليعيشَ؛ ليرتاح.

لم تبدُ عليه أي علامات الألم أو الضيق الآن. أكل بعض جيلي الليمون في اليوم السابق، وقد ملأته الحماسة لملاعق الجيلي الأخضر المرتعشة. تخيَّلت إِميليا أنَّ الجيلي رطَّبَ شفتيه الظمآنتين ولسانَه الجاف. شَعرتْ وكأنها كانت تطعم عصفورًا صغيرًا عندما مدَّ رقبته لكي يصل إلى الملعقة ويلتقمها بفمه. بعد ذلك استلقى وقد نال منه الإرهاقُ بسبب الجهدِ الذي بذلَه. لم يأكل سوى الجيلي على مدى عدَّة أيَّام. ولم يكن يقيمُ وَأْدَهُ سوى خليطٍ متداخلٍ من المسكِّنَات والمهدِّئات التي كان يتناولُها بصورة متناوبةٍ حتّى تحقِّق أقصى عناية مخفِّفة ممكنة. أدَّى الأمرُ بإِميليا لأن تُكِنَّ الكُرْهَ لكلمة «مخفِّفة». باتت كلمةً تنذرُ بالشؤم، وشكَّت أحيانًا بعدم جدواها. فمن حين لآخر ظهرت على أبيها علاماتُ الكَربِ، سواء أكان ذلك بسبب الألم أم بسبب معرفة المخبوء الذي لا دراية لها به، ولكنّها عرفَت في تلك اللحظات بأنّ العلاجَ لم يكن يؤتِ أكلَه. فالتعديلُ الحاصلُ في إعطائه المسكّناتِ، رغم إعطائها له في

موعدِها، لمَّا يثمر قطّ بالسرعة المتوخّاة. ممّا سبّب لها الضيق. كانت دوَّامةً لا نهاية لها البتة.

ومع ذلك، لم تكن دوَّامةً بلا نهاية لأنّ كلَّ شيءٍ آيلٌ إلى نهايةٍ حتمًا. تجاوزت إِميليا حالةَ الصدمةِ الحرجة ولم يكن هناك أيُّ معنى في أنْ تأملَ شفاءَ أبيها. فحتّى أكثر الناس تفاؤلًا ممّن يؤمنون بالمعجزات يعرفون ذلك الآن. ولذا لم يكن هناك ما يمكنُ عملُه سوى الدعوةِ له بخلاصٍ سريعٍ يرأفُ بحاله.

رَفَعَت المُمرِّضة غطاءَ السرير ونظرَت إلى قدمَيه، وفركَتْهما بأصابعِها الناعمة. النظرة التي رمقَت بها الممرّضة إِميليا أبلغَتها بأنّ الأمرَ لن يحتاجَ وقتًا طويلًا الآنَ. بَشَرَتُه شاحبةٌ كالحةٌ، بلون تمثالٍ رخاميّ.

ردَّت المُمرّضة عليه الغطاءَ وربَّتَتْ على كتف إِميليا. غادرت بعدئذٍ، فلا كلمات يمكنُها أن تقولَها. كانت لعبة انتظار. بذلوا كلَّ ما في وُسعِهم. لم يكن هناك أيُّ شعورٍ بالألم، كما يمكنُ لأيِّ امرئٍ أن يظُنّ. جوٌّ هادئٌ، ساكنٌ، فالموتُ الوشيكُ يُعَامَلُ بوقار خاشع. ولكن مَن يدري ما يريدُه فعلًا والدُها المحتَضِر؟ ربّما يفضِّلُ الاستماعَ إلى موسيقا حبيبِه إلغَر(7) بالصوت العالي، أو الاستماع إلى النشرة الجوية المعادة

الخاصّة بأحوال البحار(8)؟ أو أن يستمعَ للممرّضات وهنَّ يتبادلنَ القيلَ والقالَ ويتمازحنَ متحدِّثاتٍ عن الشخص الذي خَرَجْنَ معه الليلة الماضية وماذا سيطبخنَ على العَشاء؟ ربّما يكونُ تشتيتُ تفكيرِك بموتِك الوشيكِ باللجوء إلى الاستماع إلى تفاصيل الحياة اليومية بكلّ دقائقِها وسيلةً تسرِّي الهمَّ عنك؟

جلستْ إميليا وتساءلَت كيف يمكن لها أن تجعله يشعُرُ بحبّها، وهو يغادرُ هذا العالمَ رويدًا رويدًا. لو استطاعت أن تنزعَ قلبَها وتعطيَه إيَّاه، لفعلَت. هذا الرجلُ الرائعُ الذي منحها الحياةَ، وكان حياتَها، وها هو موشِكٌ على الرحيل وتركِها وحيدةً.

همسَت في أذنَيه، ذكرياتُ الماضي ولحظاتُه المنصرمة. قصَّت عليه القَصَص. قرأَت عليه قصائدَه الأثيرة على قلبه.

حكَت له عن المكتبة. قالت له:

- سأتولّى رعايتَها من بعدِك. وسأضمنُ بألاّ تغلقَ أبوابَها أبداً. لن يحصل ذلك ما دمتُ حيَّة. ولن أبيعَها لإيان مينِدب، بصرف النظر عن السعر الذي سيعرضُه عليَّ؛ لأنّ المكتبة لا تُقدَّر

بثمن. كلّ مجوهرات العالم لا شيء مقارنة بها. فالكتبُ أغلى من الجواهر.

كانت مقتنعةً بذلك كلّ الاقتناع بالفعل. فما الذي تستفيدُه من جوهرة؟ لا تمنحُك سوى لمعانِ أَلَقِ آني. فالجوهرة تصدر بريقَها لثانية؛ ولكن يمكن لكتابٍ أَن يطلِّق بريقَه إلى الأبد.

ساورتها الشكوك إنْ كان إيان مينِدب قد قرأ كتابًا في حياته من قبل. جعلها ذلك غاضبةً جدًّا؛ وهي تتذكّرُ الضغطَ الذي مارسَه على أبيها في وقتٍ لم يكن يُحْسَدُ عليه فيه. حاول يوليوس أن يقلِّل من أهمّية ذلك، ولكنّها رأت مظاهرَ الغضب وقد انتابته، وملأه الخوفُ على المكتبة وموظّفيها وزبائنها. أخبرَها الموظَّفون كيف لازمَه الاضطرابُ بسبب ذلك، ومع ذلك ما انفكّت تلومُ نفسَها مرّةً أخرى لأنّها كانت بعيدةً جدًّا عنه. وها هي الآن مُصمّمة على طمأَنَتِه، بحيث يمكن له أن يرحل، وهو مطمئنُ البال من أنّ مكتبة نايتِنْغيل باقيةٌ في أيدٍ تتعهّدُها وترعاها.

بدَّلَتْ مكان جلوسِها على المقعد عسَاها تجد مكانًا أكثرَ راحة.

انتهى بها الأمرُ وقد انحنَت إلى الأمام وأراحَت رأسَها بين ذراعَيها على الجزءِ الخلفيّ من السرير. كانت متعبةً تعبًا يفوقُ الوصف.

كانت عقاربُ الساعة تشيرُ إلى الساعة الثانية والتاسعة وأربعين دقيقة ليلًا عندما ربَّتَتْ المُمرّضة على كتِفِها. باحت تلك التربيتةُ بكلّ ما أرادت المُمرّضة قولَه. لم تكن إِميليا متأكدةً من أنَّها كانت نائمةً أم مستيقظةً قبلًا. وحتّى في هذه اللحظة لم تكن متأكّدةً من أنّها كانت نائمةً أم مستيقظةً؛ لأنّها شعرَت وكأنَّ رأسَها كان في مكان آخرَ، وكأنَّ كلَّ ما حولها يبدو متثاقلًا بعضَ الشيء وبطيئًا. عندما انتهتْ الإجراءات كافّة وأُرْسِلَ في طلب الحانوتي، خرَجَتْ لتتنشَّق هواء الفجر، الهواءُ باردٌ جدًّا مثل برودة المشرحة، والضوءُ شاحبٌ. بدا وكأنَّ العالَمَ فَقَدَ كلَّ ألوانه، إلى أنْ رأت أضواءَ إشارات المرور قُربَ مخرج المستشفى تتحوَّلُ من الأحمر إلى الكهرمانيّ فالأخضر. شعرَت بأنَّ الأصواتَ مكتومةٌ، وكأَنَّ أذنَيها لا تزالان صمّاوان بالماء بعد خروجها من السباحة.

هل سيبدو العالم مكانًا مختلفًا دون أن يكون أبوها فيه؟ لا تعرف إجابة عن ذلك حتّى الآنَ. تنفَّسَت الهواءَ الذي لم يعد بإمكانه أن يتنَفَّسَه، وتذكَّرت منكبَيه العريضَين؛ منكبيه اللذين تربَّعت عليهما عندما كانت صغيرة، وهي تهمِزُ صدرَه بكعب

حذائها ليسرعَ في ركضِه، وهي تثني أصابعَ يديها في شَعْرِه الكثيف الذي لامس ياقتَه؛ الشَّعْرُ الذي ضربته خُصلاتٌ من الشيب مُذْ بلغَ سنَّ الثلاثين. أمسكت ساعةَ يدِه المصنوعةَ من الفضّة الخالصة، بحزامِها المصنوعِ من جلدِ التمساح التي كان يضعُها على معصمِه كلَّ يوم، ولكنّها نزعتها من يدِه قبلَ وفاته؛ لأنّها لم تكن ترد لأي شيء أن يسحجَ بَشَرَتَه الرقيقة كالورق، وتركتها فوق المنضدةِ التي بجانب سريرِه في حالِ احتاجَ أن يعرفَ الوقت؛ لأنّها أَدَقُّ في توقيتِها من الساعة الموضوعة فوق مكتب الممرضة؛ كان الوقتُ الذي تنبّئ به ساعةُ يدِه يحملُ بين ثناياه مدّةً زمنيةً تتيحُ له البقاءَ مدّةً أطولَ في هذا العالم. ولكن هذا الوقت السحري الذي تنبئ به ساعة يده لم يكن قادرًا على وَقفِ الموتِ المحتَّم.

ركَبَت سيّارتَها. هناك علبةٌ من النعناع المنكَّه بالزبدة على المقعد المجاور لمقعدِها كانت قد أحضرَتْها لأبيها. قشّرت حبّةً وقذفَتها في فمِها. كان ذلك أول شيء تأكلُه منذ إفطارِ اليوم الفائت. مصَّتْها إلى أنْ كشطَت الحبَّة سقف حلقِها، وشتَّتَ وجَعُ حلقها كلّ ما كان يعتمل في رأسِها لحظة.

كانت قد أتَتْ على نصف العلبة عندما انعطفت صوبَ شارع بيزبروك السريع وأسنانها يغمرها السُكَّر. كانت البلدة الصغيرة غارقةً في الفجر الرَّماديِّ الفاتح المائلِ إلى الزُّرْقَة. بدت

موحشةً؛ فأحجارُها الذهبيةُ بحاجةٍ إلى ضوء الشمس لكي يمنحَها البهاء. في الضوء غيرِ المكتملِ بَدَتْ مثلَ زهرةٍ منثورٍ مخيفة، ولكن ما هي سوى بضع ساعات إلّا وتنبثقُ مثلَ سيِّدةٍ شابّة تبهرُ الأنظارَ بظهورِها أولَ مرّة في مناسبةٍ اجتماعية، ساحرةً كلّ مَن يحملقُ ببصرِه إليها. كانت مثالًا صارخًا عن بلدة جذَّابة بسبب طرازها العتيق إضافةً إلى أنّها بلدةٌ إنجليزيةٌ قُحَّة، بمداخل أبوابِها وعوارضِ شبابيكِها المصنوعةِ من خشب البلوط ونوافذها المشبَّكة، وأرصفتها الحجرية وصناديق بريدها الحمراء وصفِّ أشجار الليمون المشذَّبة. لم يكن هناك قبحٌ ذو سطوح مستوية، لا شيء تستقبحه العين، لا شيء فيها سوى السِّحْر.

بجانب الجسر الحجري الذي يقع فوق ساقية الماء التي أخذت البلدة اسمها(9) منها تقع مكتبة نايتِنْغيل، بطوابقها الثلاثة وواجهتها المُشكَّلة من قسمين، وفيها نافذتان مصنوعتان من خشب الغار وبابٍ أزرقَ غامق. وقفت إِميليا في الخارج، حيث نسيمُ طلائعِ الصبح العلامةُ الوحيدة على الحركة في البلدة النائمة، ونَظَرَت إلى المبنى الذي كان البيت الوحيد الذي لم تعرف سواه. أينما حَلَّت وارتحَلَت في العالم، ومهما عملَت من أعمال، كانت حجرتُها الواقعةُ فوقَ المكتبة لا تزالُ هنا؛ معظمُ أغراضِها لا تزالُ هنا. رصيدُ اثنين وثلاثين عامًا من الأغراض المكوَّمة والمقتنيات الشخصية.

انسلَّت عبر المدخل الجانبيّ ووقفَت لحظةً على الأرضية المُبَلَّطَة. أمامَها البابُ المُفضي إلى الشقّة في الأعلى. تذكَّرت أباها ممسكًا يدَها وهي صغيرة، حيث كان يمشِّيها وهي نازلةٌ على تلك الدَّرَجات. احتاج الأمرُ منها ساعاتٍ، ولكنّها كانت مصمّمةً على المشي، وكان هو صبورًا. عندما كانت في المدرسة، اعتادت أنْ تنزل راكضةً على الدَّرجات، وهي تثبُ فوق كلّ درجتَين معًا، حقيبتُها المدرسية على ظهرها، وتفاحةٌ في يدها، وهي متأخّرة دائمًا. بعد سنواتٍ من ذلك، تسلَّلت عبر الدَّرج بقدمَين حافيتَين وهي عائدةٌ من حفلة. لم تفعل ذلك لأنَّ أباها كان شديدًا أو أنه قد يصرخُ عليها، بل كان الأمرُ مجرَّدَ ما تفعلُه عندما تكون في السادسةَ عشرةَ وبالغتَ قليلًا في شرب الكثير من نبيذ التفاحِ وأنتَ عائدٌ إلى المنزل في الثانية بعد منتصفِ الليل.

إلى يسارِها البابُ الذي يبرزُ من وراء طاولة حساب المكتبة. دفعته بيدِها وفتحته ودلفت إلى المكتبة. ضوءُ الصباح الباكر بدا جسورًا وهو يدخل عبر النافذة، وإن كانت تلك أول طلائعه. ارتجفتْ قليلًا عندما ماج الهواء في الداخل. شعرت بإحساس من الترقُّب: الشعور ذاته الذي يكتنفُها عندما تسافرُ راجعة في الزمن أو إلى مكانٍ آخر كلّما دخلت إلى مكتبة نايتِنْغيل. كان يمكنُ لها أن تكونَ في أيّ مكانٍ وزمانٍ تشاء. هذه المرّةُ فقط لم

تستطع ذلك. ستتخلّى عن أيّ شيء حتّى تعودَ إلى الزمن الذي كان فيه كلُّ شيء على ما يُرام.

شعرت وكأنّ الكتبَ كانت تسألُها عن الأحوال. لقد رَحَل، أرادت أن تُخْبِرَ الكتبَ بذلك، ولكنّها لم تفعل؛ لأنّها خشيَت أن يخونَها صوتُها. إضافةً إلى أنّ التفكير على هذا النحو أمرٌ سخيف. فالكتبُ هي التي تنبّئك بالأخبار، بكلّ ما تريد أن تعرفَه، رغمَ أنَّكَ لا تبادلُها الحديث.

واقفةً وسط المكتبة، شعرتْ رويدًا رويدًا بإحساس من الراحة يستولي عليها، سكينةٌ أراحت روحها. فأبوها لا يزالُ هنا، وسطَ أغلفةِ الكتبِ وكعوبها المنتصبة. زَعَمَ أنّه كان يعرفُ كلَّ كتابٍ في مكتبته. ربّما لم يقرأ كُلَّ كتابٍ منها مِن ألفِه إلى يائه، ولكنّه فهم سببَ وجودِ كلّ كتابٍ هنا، وما هو غرضُ المؤلّفِ من كتابه، ومَنْ هُم، بناءً على ذلك، القُرَّاءُ الذين سيقرؤون هذا الكتاب أو ذاك، من أبسط كتب الأطفال المصوَّرة من الكرتون السميك وحتى أثقل المجلَّدات وأكثرها امتلاءً بالطلاسم.

في المكتبة سجَّادةٌ حمراءُ غاليةٌ، وقد بهتَت وبليَت الآن. واصطفَّت على الجدران صفوفٌ وصفوفٌ من الأرفف الخشبية، وامتدَّت حتّى بلغَت السقف؛ ويوجدُ سلَّمٌ للوصول إلى

الكتب الأشدُّ غرابةً الموضوعة على الأرفف العالية جدًّا. وُضِعَتْ الرِّوايات والقصص في مُقدّمة المكتبة، والمراجع في آخرها، أمّا الطاولات في المنتصف فقد عُرِضِتْ عليها كتب الطبخ والفنِّ والرحلات. وفي الأعلى، في المَشْرَف، كان هناك مجموعةٌ من الطبعات الأولى والكتب النادرة المستعمَلة، داخلَ صناديقَ زجاجيّةٍ مُقْفَلَةٍ. كان يوليوس سيِّد هذه المملكة من الكتب جميعها وهو جالسٌ على عرْشِه خلف طاولة الحساب الخشبية. خلفه رزمٌ من الكتب التي طلبَها القُرَّاء، ملفوفةٌ بورقٍ بنيّ ومربوطةٌ بخيط. وكان هناك آلةُ حسابٍ مزخرفةٌ تُخَشْخِشُ عند فتحها، وجدَها في متجرٍ للخردة، ورغم أنّه لم يعد يستخدمُها، فقد احتفظ بها، كقطّعة ديكور، وكان أحيانًا يحتفظُ في دُرْجِها بقطع السكاكر المصمَّمة على شكلِ فئرانٍ ليعطيَها للأطفال الصِّغار الذي يتميَّزون على وجه الخصوص بالصبرِ والطيبة.

هناك دائمًا فنجانُ قهوةٍ نصف ملآن على طاولة الحساب بدأ شربَه ولن ينهيَه أبدًا؛ لأنّه سيدخلُ في محادثة مع أحدِ الزبائن وينسى أمرَه ويتركُه حتّى يبردَ. فروَّادُ المكتبةِ يتقاطرون ليتجاذبوا أطرافَ الحديثِ مع يوليوس طوالَ الوقت. كان إنسانًا تفيضُ منه النصيحةُ والمعرفة والحكمة، والأهمُّ من كلّ ذلك، كان يفيضُ باللطف.

ونتيجةً لذلك، أصبحت المكتبةُ محجًّا لشرائح المجتمع كافّة من بيزبروك ومن المناطق المحيطة بها. شعرَ سكّانُ البلدة بالفخر بمكتبتهم. كانت مكانًا للراحة والألفة. ما كانَ منهم إلّا أن احترموا صاحبَها، لا بل إنّهم حتّى هاموا به. فلأكثرَ من ثلاثين عامًا أشبَعَ عقولَهم وقلوبَهم، يساعدُه في ذلك ويمدُّ له يدَ العون في السنوات الأخيرة مساعدوه في المكتبة، وأوّلُهم مِلْ الودود المفعم بالحيوية، الذي حافَظَ على المكتبة مرتبةً، وديڤ العابدُ للموضة القُوْطية(10)، الذي كان يعرفُ تقريبًا كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ عن الكتب مثل يوليوس ولكنّه نادرًا ما كان يتكلَّمُ، مع العلم أنّه يستحيلُ إيقافُه عن الكلام إذا ما شَرَعَ فيه.

جالَ في خاطر إِميليا أنَّ أباها لا يزال هنا، جاثمًا في آلاف الصفحات، وملايين الكلمات؛ فلا بدَّ أنّ في المكتبة ملايين وملايين من الكلمات. بكلّ تلك الكلمات، والبهجة التي أدخلتها على قلوب الناس على مرّ السنين، بدافع الهروب، أو المتعة، أو التعليم... غيَّر أبوها عقولَ هؤلاء القوم. غيَّر حياتَهم. يرجع القرار لها لمتابعة مسيرة أبيها حتّى تستمرَّ ذكراه حيَّةً، أقسمت على ذلك بينها وبين نفسِها.

ستخْلُدُ ذكرى يوليوس نايتِنْغيل إلى الأبد.

* * *

غادرت إِميليا المكتبة وصعدت إلى الأعلى نحو الشقّة. كانت متعبةً جدًّا وعاجزةً حتّى عن تحضير كوبٍ من الشاي. كانت بحاجة للاستلقاء ولملمة أفكارها. لم تعد تشعرُ بأيّ شيء بعدَ الآن، لم تعد تشعرُ بالصدمة أو الحزن، شعرت فقط بكآبةٍ واهنة تُثْقِلُ جسدَها. ها هو أسوأ الأمور قد حَدَث، حدَثَ أسوأ ما كان ممكنًا، ولكن بدا بأنَّ العالم لا يزال مستمرًا في دأبه. أنبأها بذلك البرق الذي سرعان ما لمع في السماء رويدًا رويدًا. سمعت شدو الأطيار، أيضًا، وعبست لصياحها الشادي الذي يعلن موعد فجر جديد. أحتمًا لن تطلع الشمس؟ أحتمًا سيبقى العالم معتمًا إلى الأبد؟

بدَت كلُّ الغُرفِ وقد تسرَّبَ منها الدفءُ. المطبخ، بمائدته العتيقة المصنوعة من خشب الصنوبر وخزائنه البالية القديمة، كان باردًا جدًّا ومتواضع الحال. غرفة الجلوس متقهقرة خلف ستائرها نصف المسحوبة. لم تستطع إِميليا النظرَ إلى الأريكةِ لترى إنْ كانت لا تزالُ تحملُ آثارَ أبيها: لم تستطع أن تُحصيَ عددَ الساعات التي قضَيَاها معًا وهما متكوِّران فوقها يشربان الشايَ أو الكاكاو أو النبيذَ، يقلِّبان صفحاتِ كتابٍ عاكِفَين على قراءته حينئذٍ، بينما كانت موسيقا برامز(11) أو أغاني بيلي هوليداي(12) أو جوني ميتشل(13) تصدحُ في آلة

الفونوغراف. لم يُعْجَب يوليوس قطّ بالتكنولوجيا الحديثة، وكان هواه يكمنُ في آلة الفونوغراف، ولا يزالُ يجلّ أيّما إجلال مكبِّرات الصوتِ من ماركة غْرَنْدِغ أوديوراما. ولكنّها باتت الآنَ مكبِّرَاتٌ صامتةٌ من أيّ صوتٍ منذُ مدّة لا بأسَ بها.

اتَّجَهَتْ إِميليا صوبَ غرفةِ نومِها الواقعةِ في الطابق الثاني، أزاحت غطاءَ السرير وصعدَت السريرَ النحاسيَّ المرتفعَ الذي ما انفكّت تنامُ فيه منذُ زمنٍ بعيد. سحبَت وسادةً من كومة الوسائد وضمَّتْها إليها، بغيةً الحصولِ على الدفءِ والراحةِ على حدٍّ سواء. سحبَت ركبتَيها واستعدَّت للبكاء. ولكنّه كان بكاءً بلا دموع. انتظرَت وانتظرَت، ولكنّ عينَيها كانتا ناشفتَين. فكَّرت في قرارة نفسِها بأنّها لا شكَّ وحشٌ، وحشٌ غيرُ قادرٍ على النحيب.

استيقظَت في وقتٍ لاحقٍ على وقعِ طرقاتٍ ناعمةٍ على باب الشقّة. همَّت بالاستيقاظ، واستغربَت لماذا كانت في السرير بكامل ملابسها. إدراكها للواقع ضيَّقَ عليها صدرَها ولم تُرد شيئًا سوى الانسلال عائدةً إلى النسيان التي كانت في غياهبه. ولكنّ هناك أشخاصاً عليها مقابلتُهم، وأشياءَ ينبغي فعلُها، وقراراتٍ كي تُتَّخَذ. كما كان هناك طارقٌ بالباب ينتظرُ الجواب. ركضت نازلةً وهي مرتديةٌ جواربَها وفتحت البابَ بِحَذَرٍ شديد.

- حبيبتي الحُلوة.

جون ستولوارت، جون الرهيبة، التي تُعدُّ، بلا جدال، أفضلَ زبونةٍ لمكتبة نايتِنْغيل منذ أن تقاعَدَت وأقامَت في بيزبِروك قبل سنوات ثلاث. حلَّت مكانَ يوليوس في المكتبة عندما أُدْخِل إلى مستشفى البلدة لمّا بدا أنّها المرة الأخيرة التي يدخله فيها. أدارت جون شركَتَها الخاصّةَ لأكثرَ من أربعين عامًا وكانت فقط راغبةً رغبةً كبيرةً في تسلُّم مقاليدِ الأمور في المكتبة رفقة مِلْ وديف. بهيئَّتِها الجسدِيةِ الجميلة، وشعرِها الكثيفِ الداكنِ، ومجموعةِ خلاخيلِها الفضّية، بَدَت على أقلِّ تقديرٍ أصغرَ بعشرِ سنواتٍ من سِنِي عمرِها السبعين. كانت تتمتّعُ بطاقة صبيةٍ شابّة في العشرين، وذهنٍ متّقِد وقلبِ أسدٍ هصور. شكّتْ إِميليا أول وهلةٍ في وجود عَلاقة رومانسيةٍ بينَ جون وأبيها -إذ إنَّ جون مُطَلَّقَة مرّتين- ولكنّ صداقتَهما كانت فوقَ الشُّبُهات؛ صداقةً عذريةً صافية.

أدركت إِميليا أنّه كان ينبغي لها الاتصال بجون فور وفاة أبيها. ولكنّها لم تمتلك القوةَ ولا الكلمات ولا الشجاعة. وهي لا تمتلك أيًّا من تلك الخصال الآن. اكتفَت بالوقوف بالباب،

وعانَقَتْها جون عناقًا ناعمًا ودافئًا بنعومة ودفء السترة الكشميرية التي كانت تتدثَّر بها.

قالت جون بنبرة خفيضة ناعمة:

- يا طفلَتي المسكينة!

آنَ تلك اللحظة فقط، وجدت إِميليا نفسَها قادرةً على البكاء.

- ما من داعٍ لفتحِ المكتبة اليوم.

قالت جون لإِميليا فيما بعد، بعدما بكَت وباحت بما في فؤادِها من حزنٍ ووافقت أخيرًا على أن تحضِّرَ لنفسِها بعضَ الفطور. ولكنّ إِميلِيا كانت مصرَّةً على أن تبقى المكتبةُ مفتوحةً وقالت:

- يأتي الجميع إلى المكتبة يوم الخميس، فهو يومُ انعقاد السوق.

في نهاية المطاف، تبيَّن بأنّ ذلك هو أفضل الحلول التي يمكن لها أن تُقْدِمَ عليها. صُعِقَ مِلْ، الثرثار في العادة، وكأنّما على رأسه الطيرُ من هول الصدمة. وتحدَّث ديف، ذو الإجابات المقتضبة في العادة، خمسَ دقائق، دون أن يسحبَ نفسًا، عن أنَّ يوليوس علَّمَه كلَّ ما يَعْلَم. شغَّل مِلْ إذاعةَ كلاسِك إف. إم. على مذياع المكتبة بحيث لا يشعرون بالحاجة لملء فراغاتِ الصمتِ. ووضع ديف، الذي يتميَّز بالعديد من المهارات الغريبة ومن بينها الخطّ، لوحةً على واجهة المكتبة كتب فيها:

يؤسفُنا ببالغِ الحُزنِ والأسى أن ننعِيَ إليكم

وفاةَ المغفورِ له يوليوس نايتِنْغيل

الذي انتقلَ إلى جوارِ ربّهِ، بعدَ معاناةٍ قصيرةٍ مع المرض

كان أبًا محبوبًا؛ وكان نِعْمَ الصديقُ، ونِعْمَ بائعُ الكتب

فتحوا أبواب المكتبة في وقت متأخّر، ولكنّهم فتحوا على أيّ حال. تقاطَرَ حشدٌ من الزبائن على مدار اليوم، ليقوموا بواجبهم تجاه الفقيدِ بتعزيةِ ابنتِه إِميليا. أحضرَ بعضُهُم بطاقاتٍ؛ وآخرون وجبات اللحم والخضار وعلبةً مليئة بفطائر الزبدة؛ وأحضر زبونٌ آخرُ قنينةَ شاسنيا مونتغاشيه، نبيذَ أبيها المفضَّل، ووضعَها على طاولة الحساب. لم تكن إِميليا بحاجة لأن يقنعَها أحدٌ بأنَّ أباها كان رجلًا رائعًا، ولكنّها أدركَت في نهاية المطافِ بأنّ كلَّ مَن عرفه لديه القناعة ذاتَها أيضًا. حضَّر مِلْ أعدادًا لا تُحصَى من أكواب الشاي في المكتب الخلفي وجاء بها محمولةً على صينية.

- تفضَّلوا إلى العشاء.

قالت جون عندما قلبوا أخيرًا لافتة المكتبة معلنين فيها انتهاءَ ساعاتِ العمل بعد مدّة طويلةٍ من وقتِ الإغلاقِ المعتاد.

قالت إِميليا، التي لم تستطع تقبُّل فكرةِ تناول الطعام:

- لستُ جائعةً كثيرًا.

لم تكن جون لتَقْبَل عدمَ رغبتها بالأكل كردٍّ على دعوتها. فما كان منها إلَّا وسحبتْ إميليا بلطفٍ وعادت بها إلى كوخها الواقع على تخوم بلدة بيزبروك. كانت جون من النوع الذي يحتفظ دائمًا بفطيرة الراعي(14) جاهزة لتوضع في الفرن. فلم يكن من إِميليا إلَّا وأقرَّت بأنها شعرت بقوة أكبر بعد أن تناولت قطعتين، ومَنَحَها ذلك رباطةَ الجأش لمناقشة المسائل التي لم تكن راغبة بالتطرُّق إليها. قالت بعد ذلك:

- لا يمكنني أن أتحمّل إقامة جنازة كبيرة.

- إذاً فلا تقيمي جنازة كبيرة.

قالت جون وهي تغرف بعضَ آيس كريم الڤانيلا لتضعَه على الفطيرة.

- فلتكن جنازةً صغيرةً خاصّة، ويمكننا أن نقيمَ حفلَ تأبين بعدَ بضعةِ أسابيعَ. ذلك أفضلُ بكثير. كما سيكون أمامَك الوَقتُ الكافي لتنظيم الحفل تنظيمًا لائقًا.

انسكبَت دمعةٌ على آيس كريم إِميليا. ثم مسحَت الدمعةَ التي تلتها.

- ما الذي سنفعله من دونه؟

ناولتها جون علبةَ صلصةِ الكاراميل المملَّح، ثم أجابت:

- لا أعرف. هناك بعض الأشخاص الذين يتركون فراغًا أكبر من غيرِهم، وأبوك واحدٌ من هؤلاء.

دعَتهَا جون لتنامَ عندَها، ولكنّ إِميليا أرادت العودة إلى البيت. فمن الأفضل دائمًا للمرءِ أن يَحْزَنَ في سريرِه وليس في أسِرَّة الآخرين.

شغَّلت الأضواءَ في غرفة الجلوس. بجدرانِها الحمراءِ الغامقةِ وستائرِها المُوَشَّاةِ الطويلة، بَدَتِ الغرفةُ وكأنَّ فيها كتبٌ أكثر ممّا في المكتبة. غطَّت خزائنُ الكتب جدارَين من جدرانها، وكان هناك كتبٌ مكوّمة حتّى ارتفاعات عالية في كلّ مكان:

على عتباتِ النوافذ، وعلى الرفِّ الواقعِ فوقَ الموقد، وعلى البيانو. إضافةً إلى الكتب، كان هناك تشيلّو أبيها الثمين، جاثمًا في مسنده. لَمَسَتْ خشبَه الناعم، وانتبهت إلى أنَّه كان مكسوًّا بالغبار. ستعزف عليه غدًا. ليست بارعةً في العزف مثل أبيها، ولكنّها كرهَت فكرةَ أن يتوقّف تشيلو أبيها عن العزف، وتَعْرِف بأنَّه لن يحبِّذ هو تلك الفكرة أيضًا.

ثم مضت صوبَ خزانة الكتب؛ خزانتِها هي، رغم أنّه لم يعُد هناك فيها أيّ متّسعٍ لكتابٍ منذُ زمنٍ بعيد. مرَّرت إصبَعها على كعوب الكتب. أرادت أن تقرأَ كتابًا يريحُها؛ كتابًا يعودُ بها إلى طفولتِها. ليس كتابًا من كتبِ لورا إنغولز وِلدَر(15) - إذْ لا طاقة لها بقراءة شيءٍ عن شخصيّة «پا» اللطيفة الضخمة في هذه اللحظة. لا رغبة لها أيضًا بقراءة كتابٍ من كتب فرانسِس هَدْجسُن بورنيه(16) - إذ يبدو أنَّ كلَّ بطلات كتبها يتيمات، ويتيمةً صارت إميليا أيضًا، الآن. سحبت كتابها الأثيرَ جدًّا على نفسها، بغلافه القُماشي الأحمر والكتابة الذهبية على كعبه، وقد التوى بسبب قِدَمِه، واصفرّت أوراقُه. كتاب نساء صغيرات. جلست على الأريكة قرب الموقد، ومدَّت ساقَيها فوق جانب الأريكة وأراحت خدَّها على وسادة مخملية. حلّقت، خلال لحظات، في القراءة وصارت جالسةً بجانب الموقد في بوسطن، مع جو مارش وأخواتها ومارمي، في زمن يبعدُ مئاتِ السنين وفي مكانٍ يبعدُ آلافَ الأميال...

* * *

مع نهاية الأسبوعِ التالي، شعرت إِميليا بالخواء والإرهاق. أظهروا جميعًا لطافةً ورزانةً وقالوا كلِمات رائعة عن أبيها، بيد أنّ الشعور بالخواء العاطفي كان سيِّدَ الموقف بالنسبة لها.

أُقِيْمَت جنازةٌ صغيرة خاصّة ليوليوس في محرقة جثث الموتى، لم يحضرها سوى أُمِّه ديبرا، التي جاءت في القطار من لندن، وأندريا، صديقة إِميليا الحميمة منذ أيام المدرسة، وجون.

قبل أن تغادر لحضور الجنازة، نظرت إِميليا إلى نفسها في المرآة. ارتدت معطفًا طويلًا أسودَ كالذي يرتديه الجنود وجزمةً لامعةً كالتي يلبسُها الفرسان، شعرُها الأحمر الغامق منسدلٌ على كتفيها. عيناها واسعتان، تحتهما بُقَعٌ؛ عينان يحدِّدُهما حاجباها ورموشُها الكثيفة. كانت ألوان شعرها وبشرتها وعينيها تشبه ألوان شعر أمها وبشرتها وعينيها، وقد عرَفت ذلك من الصورة الموضوعة على البيانو، في حين ورثت الهيئة الجسدية والشفاه المكتنزة عن أبيها. وَضَعَتْ في أذنَيها الأقراطَ التي أهداها إيّاها في عيد الميلاد الماضي بأصابع

مرتعشة وفتحت قنينة نبيذ الشاسنيا مونتغاشيه التي قدَّمَها المُعَزُّون هديةً لها، ورشفت منها كأسًا واحدة فقط، قبل أن ترتديَ قبّعة من فرو الثعالب الصناعي المتناسبة تمامًا مع لون شَعْرِهَا. تساءلت مدّة وجيزة إنْ كانت تبدو على هيئة ممثّلي الكومبارس الذين يشاركون في المسرحيات ويرتدون ثيابًا تنتمي لزمان آخر، ولكنّها رأت أنّ ذلك أمرٌ غيرُ مهمّ.

في اليوم التالي، وبعد أن أوصلوا جدَّتَها لكي تعودَ في قطار بادنغتُن- إذ إنَّ ديبرا لم تكن تحبُّ البقاءَ بعيدًا عن لندن مدّة طويلة- رافقتها أندريا على الطريق المفضي إلى فندق بيزبروك أرمز. وهو نُزُلٌ تقليديٌّ تؤمُّه العربات، جميع طوابقه من الحجر المستخدم في رصف الطرقات وجدرانه مكسوّة بالخشب وفيه قاعةٌ للطعام يُقدَّمُ فيها دجاجُ كييف وشرحات اللحم مع المشروم والنبيذ الأبيض وفيه عَرَبةُ حلويات عتيقة الطراز. كان هناك شيءٌ ما يبعث على الراحة في أسلوب لصق الجدران بورقٍ من ماركة فارو آند بول، ألصقت بطريقة لم تصل إلى مستوى العوارض الخشبية. لم يدَّعِ الفندقُ مظهرًا غيرَ مظهرِه الحقيقيّ. كان دافئًا وودودًا، رغم أنّ القهوة كانت رديئةً.

تكوَّرت إِميليا وأندريا على أريكة في ركنٍ في حانة الفندق وطلبتا شوكولا ساخنة.

قالت أندريا، التي كانت امرأة عملية على الدوام:

- إذاً، ماذا تنوين أن تفعلي؟ مكتبة

- ينبغي أن أترك وظيفتي. لا يمكن أن تبقى الوظيفةُ محجوزةً لي إلى أجلٍ غيرِ مسمًّى وأنا لا أعرفُ متى أتركها.

كانت تدرِّس اللغة الإنجليزية في مدرسة لغات دولية في هونغ كونغ. أضافت:

- لا يمكنني أن أقضيَ حياتي وأنا أنتقلُ من بلدٍ إلى آخرَ إلى الأبدِ ولا شيء سوى ذلك.

- لا أرى أيَّ مانعٍ في ذلك.

هزَّت إِميليا رأسَهَا وقالت:

- حان الوقتُ لكي أرتِّبَ أموري. انظري إلى حالنا أنا وأنتِ - أنا لا أزال أعيشُ على الترحال؛ وأنتِ تعاركين في هذه الدنيا كأنّك رجلٌ شديدُ البأس.

انتقلت أندريا من وظيفة استقبال المكالمات الهاتفية في شركة استشارات مالية عندما تركت المدرسة وشرعت في الدراسة للامتحانات في مدرسة مسائية وباشرت تأسيس عملِها الخاصّ كمحاسبة. وهي تدير الآنَ الدفاتر المحاسبية للعديد من الشركات الصغيرة التي ازدهرت في بلدة بيزبروك في السنوات القليلة الماضية. وهي تعرفُ أنّ غالبيةَ القوم يكرهون كرهًا عظيمًا تنظيمَ أمورِهم المالية ولذلك كانت تقومُ لهم بذلك لكي لا يتكبَّدوا مقدارًا كبيرًا من الخسائر. وقد نجحت في ذلك نجاحًا كبيرًا. قالت أندريا التي لم يكن من طبعِها اللّفُ والدوران بخصوص المواضيع المهمة:

- لا أمانع في عقد المقارنات. ماذا ستفعلين بالمكتبة؟

هزَّت إِميليا كتفيها وقالت:

- ما من خيار أمامي. وَعَدْتُ أبي أنْ أبقيها مفتوحةً. سيتقلَّب في قبره إنَّ ظنَّ بأنني سأغلقها.

لم تنبس أندريا ببنت شفة لحظة. كان صوتُها ناعمًا ولطيفًا عندما تتحدَّث. ثم ما لبثت أنْ قالت:

- يا إِميليا، ليس من الضرورة دائمًا الالتزام بالوعود التي تُقَالُ بجانب سرير شخص يحتضر. سيَّما إذا لم تكن وعودًا عملية. بالطبع كُنْتِ جادّة كلّ الجدّ في وعدك حينئذٍ، ولكنّ المكتبة كانت حياة أبيك. ولا يعني ذلك أنّها ستكون حياتك أنتِ. سيتفهّم هو ذلك. أعرف أنّه سيتفهّم ذلك.

- لا أحتملُ فكرةَ ذهاب المكتبة من بين يدي. دائمًا ما كنت أرى نفسي وقد استلمت مقاليدَ أمورِها في النهاية. ولكنّي حَسِبْتُ أنّ ذلك سيحصلُ عندما أصيرُ في سنّ أبي. وليس الآن. حَسِبْتُ أنَّ أمامَه عشرين سنةً أخرى يعيشُها على الأقلّ.

شَعرتْ بعينيها تفيضان بالدموع. ثم أضافت:

- لا أعرف حتّى إذا كانت المكتبة قادرةً على الاستمرار.
بدأتُ بالنظر في الحسابات ولكن يبدو كلُّ ما فيها غيرَ واضحٍ لي.

- لا عليكِ، أنا مستعدّة لتقديم أيّ مساعدة ممكنة. تعرفين ذلك.

- اعتاد أبي القول بأنه لا يجيدُ إجراءَ الحسابات. وأنا أيضًا لا أجيدُها فعليًّا. تبدو لي الأمور وكأنّه يعوزها شيءٌ من التنظيم. أظنُّه ترك الحبل على غاربه لتلك المسائلِ حتّى النهاية. هناك بضعُ صناديقَ مليئةٌ بالإيصالات. وكومةٌ رهيبةٌ من المظاريف غيرُ المفتوحة التي لم أستطع النظر في أمرِها حتّى الآنَ.

- ثقي بي، لا يوجدُ فيها مسائلُ لم أتعامل معها من قبلُ.

تنهَّدَتْ أندريا ثم أضافت:

- أتمنّى لو لم يلجأ البشرُ إلى الإنكار عندما يتعلّق الأمرُ بالمال. فذلك يجعلُ المسألةَ كلَّها معقّدةً جدًّا وينتهي بهم الأمرُ وقد كلَّفهم ذلك مبلغًا كبيرًا جدًّا في النهاية.

- سيكون أمرًا رائعًا لو ألقيتِ نظرة على الحسابات من أجل خاطري. ولكن دون أن تجوري على نفسكِ في الأجرة.

أشارت إِميليا بإصبعها إليها وأضافت:

- فأنا سأدفع لكِ أجرة مناسبة.

- أنا سعيدة جدًّا لمساعدتك. كان أبوك دائمًا لطيفًا معي وقد نشأنا معًا في ربوع هذه البلدة.

ضحكت إِميليا. وقالت:

- أتذكرين عندما حاولنا أن نزوِّجَه أُمَّكِ؟

خنَّت أندريا وهي تحملق إلى كأس نبيذها، وقالت:

- كان يمكن لذلك أن يتحوَّل إلى كارثة.

كانت والدة أندريا هِبِّيَّةً بعض الشيء، ومهووسة بعيدان البَخُّور والتنانير الفضفاضة. تمرَّدَتْ أندريا تمردًا كلّيًّا على موقف أمّها من مهرجان وودستُك(17) وكانت امرأة تقليدية جدًّا، وشديدة الطموح، إضافة إلى أنّها أكثر امرأة التزامًا بالقانون رأتها إميليا في حياتها. لا بل إنّها بدَّلت اسمها من «أُتُمْ» عندما بدأَت مشوارَها في عالم الأعمال، على أساس أنّه ما من أحدٍ سيتعاملُ مع مُحاسِبةٍ اسمِها «أُتُمْ» على محمل الجِدّ. «فقد ظنُّوا بأنّ حساباتِهم لن تُنَظَّم على نحوٍ صحيح».

كان يوليوس طيِّعًا ليِّنًا ولا يُقيمُ وزنًا للشؤون المالية للمكتبة. ففكرةُ أن يكونَ والد إميليا ووالدة أندريا معًا جعلت من ابنتَيهما تكادانِ تموتان من الضحك الآنَ، ولكنّهما، عندما كانتا في الثانيةَ عشرةَ من عمرهما، ظنَّتا أنّ تلك فكرة رائعة.

بعد أن انتهتا من الضحك، تنهَّدَت إِميليا وقالت:

- لم يهتد أبي إلى سبيل أيّ امرأة قطّ.

- أوه، كُفِّي عن قول ذلك. فكلُّ النساء في بيزبروك كُنَّ يعشقْنَ أباك. جعلهنَّ جميعاً يلاحقنه ويدرن في فَلَكِه.

- نعم، أعرف ذلك. لم يكن في عوزٍ من صحبة الإناث. ولكن سيكون الأمرُ رائعًا بالنسبة له لو أنّه اَلتقى امرأةً مميَّزة.

- كان رجلًا سعيدًا يا إِميليا. تلك مسألةٌ لا لبسَ فيها.

- كُنْتُ أشعرُ بالذنب دائمًا. ربَّما يرجع ذلك إلى أنَّه بقي عازبًا بسببي.

- لا أظنُّ ذلك. لم يكن أبوك من النمط الذي يحبُّ التضحية. أظنُّه كان سعيدًا بمَن كان يرافقهنَّ. أو ربّما كانت لديه امرأةٌ مميّزةٌ ولكنّنا لم نعرف بأمرها وحسب.

أومأت إِميليا برأسها وقالت:

- آمل ذلك... آمل ذلك بالفعل.

دار في خَلَدِهَا بأنَّها لن تستطيعَ أن تعرفَ ذلك أبدًا الآنَ. فطوال حياتها لم يكن هناك سواها هي وأبوها؛ والآن رحل أبوها، رحل ورحلت معه كلُّ قصصِه وأسرارِه.

(6) حانوت يبيعُ الأغراضَ المستعملةَ ويستفيدُ من المال الناتج من البيعِ في الأعمال الخيرية.

(7) السيْر إدوارد إلغَر (١٨٥٧ – ١٩٣٤): مؤلِّفٌ موسيقيٌّ إنجليزيّ.

(8) نشرةٌ تُذيعُها هيئةُ الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي) وتتناولُ أحوالَ الطقسِ في البحارِ المحيطةِ بالجزر البريطانية.

(9) بيزبروك حيث إنّ (brook) تعني ساقية الماء.

(10) موضة بدأت في مطلع ثمانينيّات القرنِ العشرين في إنجلترا وتتميّز بالموسيقا الصاخبة والملابس السوداء.

(11) يوهان برامز (١٨٣٣ – ١٨٩٧): موسيقيٌّ ألمانيٌّ تمزجُ مؤلّفاتُه الموسيقيةُ ما بين الكلاسيكيّ والرومانسيّ.

(12) بيلي هوليداي (١٩١٥ – ١٩٥٩): مغنّيةٌ وكاتبةُ أغاني جاز أمريكية.

(13) جوني ميتشل (١٩٤٣ – ....): مغنّيةٌ وكاتبةُ أغانٍ كندية.

(14) وجبةٌ من اللحم المفروم تعلوها طبقةٌ من البطاطا المهروسة. وتُعْرَفُ أيضًا باسم فطيرة الأكواخ.

(15) لورا إنغولز وِلدَر (١٨٦٧ – ١٩٥٧): كاتبةٌ أمريكيةٌ مؤلّفةُ سلسلةِ المنـزل الصغير.

(16) فرانسِس هَدْجسُن بورنيه (١٨٤٩ – ١٩٢٤): روائيةٌ ومسرحيةٌ بريطانيةٌ-أمريكية.

(17) مهرجان موسيقي أقيم في مدينة نيويورك عام ١٩٦٩ وجذب أكثر من أربعمئة ألف مشاهد.

الفصلُ الثاني

١٩٨٢

تقعِ المكتبةُ في شارع لِتِلْ كليرندُن. بعيدًا عن الصخب والجَلَبَة اللذين يميِّزان وسط بلدة أكسفورد ومقابل كنيسة سينت جايلز. متهاديةً بين عدد قليل من متاجر الملابس الحديثة والمقاهي المتناثرة. فبالإضافة إلى أحدث إصدارات الروايات والقصص والكتب المصوَّرة، كانت المكتبة تبيع معدَّات الرسَّامين وامتازت ببيئة من الأريحية أكثر من البيئة الأكاديمية التي تميِّز مكتبة بلاكوِل أو غيرها من مكتبات الكتب الفكرية في البلدة. كانت المكتبةَ تنتمي إلى ذلك النمط من المكتبات التي تسرق الوقت: إذ صار معروفًا أنَّ أهالي البلدة اعتادوا تفويت الاجتماعات ومواعيد القطارات، وهم تائهون فيها بين أرففها.

بدأ يوليوس نايتِنْغيل العملَ هناك؛ ليكملَ تسديدَ قيمة منحته الدراسية منذ أن جاء أول مرة إلى أكسفورد، قبل أَزْيَد من أربع سنوات. وقد حصل الآنَ على شهادة الماجستير، ولم يكن يرغب في مغادرة أكسفورد أو المكتبة. لم يكن راغبًا في مغادرة الحياة الأكاديمية أيضًا، فعليًّا، ولكنّه يَعْلَمُ بأنه يجب عليه أن يتابع حياته، ولم تكن حياته تتميّزُ بخلفية تمكّنه من

الاستمرار في طلب العِلْم. كما لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا سيفعلُه بعد ذلك.

قرَّر أن يقضيَ الصيفَ الموالي لحصوله على الماجستير في ادِّخار بعض المال، حيثُ عمل في المكتبة بدوامٍ كامل. ربّما يطيبُ له أن ينطلقَ بعدئذٍ في بعض الأسفار قبل ًأن يباشرَ في الترتيب المضني لنُسَخِ السيرة الذاتية وطلبات التقدّم إلى الوظائف والمقابلات. فَكَّر بينه وبين نفسِه، أنّه من دون أن يحقّق بدايةً رائعةً، فلا شيءَ يمكنُه أن يجعلَ منه شخصًا يُشَارُ إليه بالبنان. كان قد أخرج بضعَ مسرحيّاتٍ، ولكن مَنْ مِنَ الناس لم يفعل ذلك؟ حرَّرَ مجلةً مختصّةً بالشِّعر، ولكن، وعلى منوال المسرح، فعددُ من يحرِّر مجلّات الشعرِ أيضًا كبيرٌ جدًّا. شغفَ بحضور حفلات الموسيقا والنبيذ والفتياتِ الجميلات؛ ولم يكن ثمّة شيءٌ استثنائيٌّ في شخصيّته، ما خلا أنَّ معظمَ الناس أبدَوا مشاعرَ الحبّ نحوه على ما يبدو. وحيث إنّه فتى من غرب لندن، له أمٌّ عزباء تقلِّد أبناء الطبقة الأرستقراطية رغم أنّها لا تملكُ شروى نقير، فقد دَرَسَ في مدرسة شاملة(18) كبيرة في أحياء لندن القديمة. كان قادرًا على حُسن التَّصرُّف في غوغاء المدن، مع تميُّزِه بحُسن الخلق، ولذا سهل عليه كثيرًا الاختلاط بأبناء عِلْيَةِ القوم المتهندمين وأبناء المدارس الثانوية العلمية(19) الذين كان لديهم مقدارٌ أقلَّ من الثقة بالنفس من أقرانهم طلبة المدارس الحكومية.

كانت آخر عطلة أسبوعية في شهر أغسطس، وكان يفكِّر في الذهاب لزيارة أمّه والتوجّه إلىٍ مهرجان نوتنغ هِل. ما فتئ يذهب إلى هناك مذ كان طفلاً صغيرًا وكان مغرمًا بجوّ المهرجان؛ بصوتِ آلةِ الباص الجهير؛ بشذى المخدّرات العابق؛ بالإحساس بأنَّ أيَّ شيء يمكن أن يحدث. كان على وشك إغلاق المكتبة عندما فُتِحَ الباب وهفَّت منه فتاة. شَعْرُها عَكِشٌ، أحمرُ لامعٌ- لا يمكن أن يكون لونًا طبيعيًّا؛ إذ بدا أحمرَ مثلَ لون صناديق البريد الحمراء- وبشرة بيضاء بلون الخزف الصيني، يزدادُ بياضُها في انعكاسه على تخريمة فستانها الأسود. حدَّثَتْه نفسُه بأنَّها بدَتْ مثل نجمة، مثل مغنّية من هاتيك المغنِّيَات اللاتي يتجوَّلن هنا وهناك وكأنهنّ خرجن من غرفة تبديل الملابس وارتدينَ كلَّ ما فيها من ثياب.

- أريد كتابًا.

قالت له، وقد هالته المفاجأةُ عندما سمع لكنَتَهَا. فتاة أمريكية. والأمريكيون، من واقع تجربته، يتقاطرون وهم قابضين بأيديهم على الكتيِّبَات السياحية والكامِرات، وما اعتادوا أن تبدوَ هيئتُهم وكأنَّهُم خارجين من نادٍ ليليّ. أجابها، وهو يأملُ بأنّ نبرةَ صوتِه قد تشعرُها بالضيق، دونَ أن تكونَ نبرة لاذعة:

- حسنًا، لقد جئتِ إلى المكان الصحيح، إذًا.

نظرت إليه، وباعدَت ما بين سبَّابتها وإبهامها بمقدار إنشين وقالت:

- ينبغي أن يكون الكتابُ بهذا السُّمْك على الأقل. وينبغي له أن يكفيَنَي في رحلة العودة بالطائرة إلى بلدي. رحلة عشر ساعات. ولا تنسَ أنّي أقرأُ بسرعة.

- حسنًا.

كان يوليوس يحبُّ الولوج مباشرةً إلى لُبِّ الموضوع، ولذا قال لها:

- طيِّب. أول كتاب أقترحه عليكِ هو آنا كارينينا.

ابتسمت، وبدت كاملة الأوصاف بأسنانها البيضاء، وقالت:

- « كلُّ العائلاتِ السعيدةِ تتشابه، لكن لكلِّ عائلةٍ تعيسةٍ أسلوبُها الخاصُّ في التعاسة»(20).

أومأ برأسه موافقًا.

- حسنًا. ما رأيكِ بيوليسيس؟ جيمس جويس؟ هذا الكتاب سيبقيكِ هادئة.

وقفتْ وقفةً مسرحيةً وقالت: « نعم أنا قلت نعم، سأفعل، نعم». اقتبست ما قالته مولي بلوم، زوجة البطل العربيدة، وتخيَّل يوليوس لحظة كيف أنّها بدت تمامًا مثل مولي، قبل أن يذكِّر نفسَه بأنّ شخصية مولي ليست سوى شخصية روائية متخيَّلة. أذهَلَتْه بإجاباتها. لم يكن يعرف العديد من الأشخاص الذين يستطيعون سردَ اقتباسات ممّا كتبه جيمس جويس. رفض أن يُذعِنَ للخوف من معرفتها الشاملة الواضحة وضوح الشمس بالأدب. سيُنْزِلُ من معايير ما يقترحُه عليها من كتبٍ إلى كتابٍ أكثر جماهيريَة، ولكنّه كتابٌ طالما أعجب به.

- ما رأيك أن تأخذي كتابَ العالم كما يراه غارپ(21)؟

ابتسَمَت ابتسامةً جَذْلَى. بانت على خدِّها الأيمن غمَّازةٌ كبيرةٌ تبلغُ حدًا يفوقُ الوصف.

- اقتراح جيِّد. فأنا أحبُّ جون إرفنغ. ولكنّي أُفضِّل رواية فندق نيو هامپشير على رواية غارپ.

ابتسم يوليوس. مرَّ وقتٌ طويلٌ لم يلتقِ فيه بشخصٍ واسعِ القراءةِ مثل هذه الفتاة. عرف قُرَّاءً من الطِراز الرفيع، بالطبع، فأكسفورد تفيضُ بهم. ولكنّهم كانوا أمْيَلَ لأنِ يكونوا من طينة المثقَّفين المتعجرِفين. ومع ذلك فهذه الفتاة تشكِّل تحدّيًا له.

- ما رأيكِ برواية ميدلمارش(22)؟

فتحت فاهاً لتردَّ، واستطاع أن يستنتجَ من فوره بأنّه اقترح عليها كتابًا لم تقرأه من قبلُ. لطيفٌ منها أنْ ضحكت وقالت:

- رائع. أعندكَ نسخةٌ منها؟

- بالطبع.

أرشدَها إلى رفّ الكتبِ وسحب كتابًا برتقاليًّا من كلاسيكيّات دار نشر بينغوِن.

وقفا هناك لحظة، يوليوس حاملًا الكتاب، والفتاة تنظر إليه. ثم ما لبثت أنْ سألَتْه:

- ما كتابُكَ المفضَّل؟

ارتبك. ارتبك من السؤال ذاته ومن قيامِها بسؤاله. قلَّب الأمرَ في ذهنه. كان على وشك أن يجيبَ عندما رَفَعَت إصبعًا من أصابعها وقالت:

- يحقُّ لكَ أن تجيبَ إجابةً واحدةً فقط.

- ولكن هذا السؤالَ يشبه سؤالَ المرء عن أحبِّ أبنائه إلى قلبه!

- لا مفرَّ من الإجابة.

رأى أنّها مصرَّةٌ على موقفِها. لديه جواب: رواية ١٩٨٤(23)، رواية صغيرة ولكنّها مشغولةٌ بحرفيّة كاملة، ولم تفشل قطّ في إرسال القشعريرة والإثارة فيه، ولكنّه لم يكن يريدُ أن يعطيَها الجواب بتلك السهولة. قال لها دون أن يدري من أين جاءته تلك الشجاعة:

- سأجيبكِ إذا وافقتِ على الخروج معي لتناول مشروب.

شبّكت ذراعَيها وأمالت رأسَها إلى جانبٍ واحد. وقالت:

- لا أعرفُ إنْ كانت لديَّ الرغبةُ في ذلك.

ولكنَّ ابتسامتَها كذَّبَت ما قالته.

- ينبغي لكِ أن تكوني راغبة.

أجابَها، وسارَ مبتعدًا عنها صوبَ طاولةِ الحساب، آملًا بأنّها ستتبعه. كانت غريبةَ الأطوار. أرادَت أن تدخل معه في شجارٍ ولم يُرِد هو الاستسلام. كان مصمّمًا على أن يجارِيَها في قدراتها.

تَبِعَتْه. سجَّل ثمنَ الكتاب على آلة حساب النقود وأعطَتْه جُنيهًا. ثم قال لها:

- هناك فرقة موسيقية تقدّم عرضًا الليلة. في الحفلة نبيذُ تفاحٍ قويّ وشبابٌ قذرون، ولكنّي لا أستطيعُ أن أفكّرَ بطريقة أفضلَ من هذه بالنسبة لفتاة أمريكية لكي تقضي ليلتها الأخيرة في إنجلترا.

دسَّ الكتابَ في الكيس وأعطاها إيَّاه. كانت تحملقُ إليه بنظرةٍ أقربَ إلى عدمِ التصديقِ، تشوبُها مسحةٌ من الافتتان.

كان يوليوس دائمًا واثقًا من نفسه ثقةً رزينةً مع الفتيات. احترمهنّ. أحبّهنّ لعقولهنَّ لا لأشكالهنَّ، وجعله ذلك نوعًا ما جذَّابًا في نظرهنّ. فقد كان رصينًا، ومع ذلك اكتنفه مقدارٌ قليل من الغموض. كان مختلفًا كل الاختلاف عن طلاب المدارس الداخلية الخاصة المغرورين في أكسفورد. كما كان يرتدي ثيابه بطريقة مختلفة قليلًا أيضًا؛ فقد كان يبدو مثل بوهيمي رومانسي، بجاكيتٍ ووشاح مخمليَين، وفتح لون شعره على نحو خفيف. إضافة إلى أنّه كان وسيمًا، بخدودٍ وعيونٍ واسعة، وكانَ أحيانًا يعلِّمها بقلم كُحْل.

أَكْسَبَتْه نشأَتُه في لندن الشجاعة لفعل ذلك دون خوفٍ من ازدراءِ أولئك الذين لا يفهمون موضةَ العصرِ الذي يعيشون فيه.

قالت أخيرًا:

- وما المانع من الخروج معك بحقّ الجحيم؟

- سأكونُ هناك اعتبارًا من الساعة الثامنة.

* * *

أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة وعشرين دقيقة عندما وصل إلى الحانة. لم يجد لها أي أثر. ولم يستطع التأكد إذا ما كانت قد تأخَّرَت أو أنها جاءت وذهبت. أو أنها ببساطة لن تأتي أبدًا. لم يكن ليجعل التفكير بذلك يقضُّ مضجَعه. فلربما تقصد أن تربكه عمدًا...

طلب كأسًا من نبيذ التفاح الداكن من نضد الحانة، ثم تذوَّق درجة طعم التفاح المعتَّق فيه، وخرج بعدها إلى خارج الحانة عساه يجد مقعدًا يجلس عليه متدثرًا بآخر ما تبقّى من ضوء الشمس. كانت حانةً معروفةً ولكنّها تشهدُ بعضَ الصَّخَب نوعًا ما وقد أحبَّها بسبب بساطتِها. ودائمًا ما كانت تستضيفُ فرقًا موسيقيّةً جيِّدة. ساد الأجواءَ إحساسٌ بالاحتفائية والترقُّب؛ وداعٌ أخيرٌ من الشمس في هذا الأسبوع الأخير من أسابيع الصيف. شعر يوليوس باقترابِ تغيُّر وشيك في حياته. لم يكن متأكدًا إنْ كان ذلك التغيُّر له علاقة بالفتاة ذات الشعر الأحمر، ولكن ساوره شعورٌ بأنَّه ربّما يكون تغيُّرًا له عَلاقة بها.

في التاسعة، شعر بتربيتة قوية على كتفه. التَفَتَ، هي ذي قد جاءت.

- لم أكن أنوي المجيء. لأنني لا أريد أن أقعَ في حبِّك ومن ثم أضطر إلى السفر بالطائرة غدًا.

- الوقوع في الحبّ أمرٌ اختياريٌّ.

- ليس دائمًا.

بَدَتْ جدّية.

- طيِّب، دعينا نرى ماذا بوسعنا أن نفعلَ لتجنُّبِ ذلك.

وقف وأمسك بقدح نبيذه الفارغة، ثم أضاف:

- هل جرَّبْتِ شرب نبيذ عصيرِ التفاح من قبل؟

- لا.

بَدَتْ متشكِّكة.

أحضر لها نصف كأس؛ لأنّه من المعروف أنَّ الرجالَ البالغين يبكون بعدَ شربِهم مجرَّدَ كأسَين من هذا المشروب الخاصّ. شاهدا الفرقة، فرقةٌ تمزجُ أغاني البوب الصاخبة بالأغاني الغجرية بشكلٍ مجنون، واستمعا إلى أغانٍ عن انفطار القلوب وليالي الحصاد المقمرة. ابتاع لها نصفَ كأسٍ آخرَ وحملق في ابتسامتها المتكاسِلة وعيونها نصف المغمضة. لم يرغب بفعل أيّ شيءٍ أكثر من تمسيدِ خُصلات شعرِها المتموِّج الطويل بأصابعه؛ شعرُها الذي يشبه شعرَ شخصيّات لوحات رسَّامي حركة فناني ما قبل الرفائيلية.

- أين ستنامين الليلة؟

سألها، بينما بدأت الفرقة تلملم آلاتها الموسيقية وشرع السكارى الماجنون يتلمَّسون طريقهم خارِجِين من الحانة صوب أجواء الليل الدافئة.

شبَكَت ذراعيها حول رقبته، ودفعت جسده بقوة نحو جسدها، ثم همست قائلة: «معك»، شفتاها على شفتيه، مذاقهما مذاق تفاح آخر الصيف.

فيما بعد، وهما مستلقيان ويعانق أحدُهما الآخر في بقايا حرارة الليل، تمتمت قائلة:

- لم تقل لي أبدًا.

- ماذا؟

- ما كتابك المفضَّل؟

- ١٩٨٤.

فكَّرَتْ بجوابه، وأصدَرَت إيماءة موافِقة، أغمضت عينيها وخلدت إلى النوم.

* * *

استيقظ صباح اليوم التالي، محاطًا بإحكام بذراعها الناصعة البياض كبياض الزَّنبَق. تساءل عن موعد إقلاع طائرتها، وكيف ستصل إلى المطار، وإن كانت حزمت أمتعتها؛ فَهُمَا لم يناقشا هذه الحيثيات في الليلة الفائتة. لم يرغب في إيقاظها؛ لأنّه شعر بالأمان وهي قريبةٌ منه هذا القرب. لم يشعر بمثلِ هذا الشعورِ من قبلُ. شعورٌ بالكمال المطلق. جعل ذلك الشعور العددَ الكبيرَ من الكتب التي قرأها تكتسي بالجدوى الكاملة. كان يظن أنَّه فهم ما في تلك الكتب، على المستوى الفكري، ولكن الآن اجتاحه وعيٌ أعمقُ بما فيها. بالكاد استطاعَ أن يتنفّسَ من فرطِ شعورِه بروعةِ ذلك.

إذا بقي ساكنًا وهادئًا جدًّا، فربّما لن تستيقظ. وقد تفوتها الطائرة. ربّما يمكنه أن يقضيَ أربعًا وعشرين ساعةً ساحرةً أخرى معها.

ولكنّ يوليوس كان يتحلَّى بالمسؤولية أساسًا. لم يعتد أن يكون أرعنًا جدًّا. ولذا أمسك بخُصلة من خُصلات شعرها ودغدغ خدَّها حتّى تململَت في نومِها.

همس لها قائلًا:

- هيَّا. ينبغي أن تعودي إلى بلدِك اليوم.

تمتمت ريبِكا بصوت خفيض:

- لا أريد العودة.

مرَّر يدَه على بشرتها الدافئة العارية وقال:

- يمكنك أن ترجعي إلى هنا فيما بعدُ.

لمس حبَّات النمش واحدة إثرَ أخرى. كان هناك المئاتُ منها. بل الآلاف. لن يكفيَه الوقتُ أبدًا حتّى يلمسَها جميعها قبل أن تغادر.

- متى موعد رحلتك؟ وكيف ستذهبين إلى المطار؟

لم تجب عليه. أمسكت ذراعَه ونظرت إلى الساعة في معصمِه.

- موعد رحلتي في الواحدة.

ضبَط المنبِّه. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة.

- يا ويلي! يجب أن تنهضي. لن تستطيعي الوصول في الموعد أبدًا. سأوصلك بالسيارة، ولكني لا أعتقد بأنك ستصلين هناك في الموعد المحدَّد.

كان يلملم ملابسه، ويرتديها على عجل. لم تتحرك من مكانها. قالت:

- لن أذهب.

كان يرفع بنطاله الجينز. حملق إليها.

- ماذا؟

- اتَّخَذْتُ قراري الليلة الماضية.

نهَضَتْ، شعرُها مبعثرٌ في كلّ مكان.

- أريدُ أن أبقى هنا. معكَ.

ضحك يوليوس وقال:

- لا يمكنُكِ ذلك.

شعرَ بذُعرٍ خَفِيفٍ.

نظرَت إليهِ وهي في منتصفِ السرير، وقد علَتَها مسحةٌ من البراءة الساذَجة.

- ألا تشعرُ بما أشعر به ؟ ألا تشعرُ بأنّك عثرتَ على حبِّ حياتِك؟

- طيِّب، نعم، ولكن...

كانت ليلةً مذهلةً، عليه أن يقرَّ بذلك. وتُيِّمَ بها، إنْ كانت تلك هي الكلمة الصحيحة التي تستخدم في هذا المقام. ولكن يوليوسٍ كان حكيمًا بما يكفي ليدركَ بأنّ المرءَ لا يتّخذُ قرراتٍ آنيّةً عشيَّةَ عَلاقةٍ عابرةٍ تدومُ ليلةً واحدة.

يبدو أنّ ريبِكا فكَّرت بطريقة مختلفة.

- هذا يبدو منطقيًّا بالتمام والكمال. أريدُ أن أتخصَّصَ في اللّغة الإنكليزية. وأريدُ أن أفعلَ ذلك في أفضلِ مكانٍ في العالم. وما ذلك المكانُ سوى هنا؛ في أكسفورد، صحيح؟

- حسنًا، نعم. أفترض ذلك. أو في كيمبردج.

- أتمتّع بما يكفي من الذكاء. أعرف ذلك. إذا كُنْتُ قادرةً على الالتحاق بجامعة براون، فيمكنني أن ألتحقَ بأكسفورد.

ضحك يوليوس مرةً أخرى. ليس عليها، ولكن على ثقتِها بنفسِها. فكلُّ الفتيات اللاتي عرفَهنّ لم يكنَّ قطّ وقحاتٍ عند الحديث عن قدراتهنّ. فقد رُبِّيْنَ ليكنَّ متواضعاتٍ غيرَ مُحبَّاتٍ للفت الأنظار. أمّا ريبِكا، فقد ألبَسَتْ ذكاءَها رداءً من التفاخر.

شبكت ذراعَيها وقالت:

- لا تضحك عليَّ.

- أنا لا أضحك عليكِ. أظنُّ فقط بأنّك متهوّرةٌ قليلاً.

كان ذلك أقلَّ ما يمكنُه قولُه.

- لن أصعدَ على متنِ تلك الطائرة.

ازْدَرَدَ يوليوس ريْقَه. كانت جادَّة. إضافةً إلى أنه ما من سبيل أمامها للحاق بالطائرة الآن. وحسب معلوماتِه، ليس عندها مكان آخرَ تذهبُ إليه.

- ماذا سيقول والداك؟

- وكيف لهما أن يجادلاني بهذا الشأن؟

- أظنُّ أنّهما سيفعلان ذلك بكلّ سهولة. ألا يفترضُ بكِ أن تلتحقي بالجامعة؟

- نعم. ولكن أتعرفُ أمرًا؟ لم أشعر بأنّي في المكان الصحيح. كنت سألتحقُ بها فقط لأنّ ذلك ما هو متوقّع منّي أن أفعلَه. ولكنّ هذا الشعور صادق. أشعر بذلك هنا.

ضغطت بقبضتها على قلبها. نظر يوليوس إليها بحَذَرٍ، غيرَ متأكّدٍ إن كانت جادّة. عرف العديدَ من الفتيات الحالماتً ولكن كان لديهنّ في العادة حدودٌ لنزواتهنّ. شعر بالقلق، فالجمعُ بينَ الذكاءِ والفطنةِ والغنى لا شكَّ قاتل، وهو متأكدٌ كلَّ التأكّدِ أنَّ ريبِكا جَمَعَتْ في شخصِها تلك الخِصال الثلاثة. صار في جَعبَتِه ما يكفيه من التبصُّرِ في أمورِ حياتِها ليعرفَ أنَّها حياةٌ متميّزةٌ جدًّا.

وهذا هو السرُّ الكامنُ وراءَ شعورِها بأحقيّتها بحيازةِ الامتيازِ المطلق.

زحفَت مسرعةً ناهضةً من السرير وقالت:

- ذلك ما أستحقّه. سأحصلُ على وظيفة. هنا. في أكسفورد. وسأخوضُ امتحانَ الدخول وأحصلُ على مقعد لأدرسَ هنا في العام القادم.

بَدَت مخبولةً بعضَ الشيء. لم يكن متأكّدًا من كيفية التعامل معها.

كانت غريبةً بالنسبة له. فالمحاججاتُ العادية لن تؤتِ أكلَها. قرّر أن يتظاهر بأنّه حسبَها تمزح. قال لها:

- هذا تأثيرُ نبيذ التفاح. لقد سبَّب لكِ ذلك.

- تظنّني أمزح، صحيح؟

حكَّ يوليوس رأسَه وقال:

- لستُ متأكدًا إن كنتِ قد فكَّرتِ مليًّا في الأمر.

- بالتأكيد فكَّرْت. أقصد، ما المشكلة في ذلك؟ ولم لا؟ قل لي، بجد، ما المانع؟ الأمر لا يشبه هروبي مع المغنّي الرئيس في فرقةٍ من فرق الروك. أريد الالتحاق بأفضل جامعة في العالم. وبالتأكيد هذا شيء جيد؟

كانت واحدة من أولئك الناس المثيرين للغيظ الذين يجعلون أكثر الأفكار جنونًا تبدو أفكارًا تلقى الاستحسان على نحو كبير.

- اسمعيني! دعيني أوصلك إلى المطار. يمكنك تغيير تذكرتك، والعودة إلى بلدك وبحث الموضوع مع والديك. وإذا وافقَا، يمكنكِ العودة.

- هل سببتُ لكَ الذعر؟

- تريدين الحقَّ، نعم، فعليًّا سبَّبْتِ لي بعضَ الذعر.

أَقْبَلَتْ وأحاطَت عنقَه بذراعَيها. تنفَّس عبَقَها، وقلبُه يدقّ. شعرَ بالخفَّة بسبب قلّة النوم وبسببها بشكل أساس. وشعر بموجةِ

إثارةٍ تسري في جسده، ولكنّه شعر أيضًا بالمسؤولية؛ لأنّه عرف بأنّ ردَّة فعلِه ستفضي إلى ما حدث لاحقًا: إلى مستقبلهما. ينبغيٍ له السيطرة على زمام الأمور؛ وأن يبطئ من إيقاع سيرِها قليلا.

سألَتْه بإلحاحٍ:

- هذا أروعُ ما حصل معي في حياتي. أنتَ وأنا. ألا تشعرُ بذلك؟

- حسنًا، نعم. بالفعل شعور رائع. أنا...أشعر بتلك الروعة.

رأى يوليوس بأنّها كانت في قمّة الفرح. أمَا مِنْ لحظة تأتي وتتوقّف فيها عن الاستسلام لمشاعرِها وتدرك بأنّها كانت تحلُم؟ ألن تأتيَ اللحظة التي تدركُ فيها أنّ ما يعتملُ في بالِها أمرٌ محفوفٌ بالتعقيدات؟ أضاف:

- ولكنّي لا أزالُ أظنُّ بأنّه ينبغي لكِ بحث الموضوع مع والديكِ.

وهو يقول ذلك، حسب أنه كان مملًا وهو يتلفَّظ بما قاله. ولكنه لن يتحمل مسؤولية قيامها بقلب عالي حياتها سافلها، أو التسبّب في تأجيج سخط عائلتها. قالت:

- سأتّصل بهما. الآن.

من خلال ردَّة فعل ريبِكا، لمِ يبدُ أنه خطر في بالها بأنَّ والديها قد لا يحسبان فكرتها فكرةً جيِّدة.

- أظنهما سيفرحان فعلًا. فأبي يحب إنجلترا، وزارها في برنامج تبادل طلابي عندما كان أكبر من سنِّي بقليل وقضى ستة أشهر هنا. وهذا هو السبب الذي حدا به لإرسالي إلى هنا في الصيف. أين يمكنني أن أجد أقرب هاتف؟

- يوجد هاتف يعمل بالقطع النقدية في الأسفل في القاعة. ولكن يجب عليك أن تُدْخِلِيْ القطعة النقدية بالمقلوب حتى يعمل. ثمَّ، هل تظنين بأنهما سيُسرَّان إذا أيقظتيهما الآن؟ ربما ينبغي لكِ الانتظار حتى الظُّهْر.

- ربما تكون محقًا. فالساعة هناك الثالثة ليلًا. فلنذهب ونأكل شيئًا بانتظار حلول الظُّهْر. فأنا أكاد أموت من الجوع!

اصطحبها إلى مطعم إنجليزي تقليدي يقدِّم وجباتٍ مقليّة- وهو العلاج الأقوى للاستيقاظ من السُّكْر- ودعا ربَّه أنْ تهدأ، ولو قليلًا، التأثيرات المجتمعة معًا لنبيذ التفاح وليلتهما الليلاء بعد أن يتناولا بعض الطعام. ولكن ذلك لم يحصل. في الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم كانت أكثر تصميمًا من قبل على تنفيذ خطّتَها. بَدَت وطيدة العزم وهي تحادثهما عبر الهاتف. تخيَّل يوليوس والديها في مطبخهما الفخم في نيو إنغلاند وقد هالتهما الصدمة لمعرفتهما أنهما لن يذهبا إلى المطار في تلك الظهيرة لاستقبالها بعد عودتها. تساءَل إنْ كانا متعوِّدَين على رحلات ريبِكا المزاجية. وتساءَل إذا ما كانت ستصعدُ نحو الأعلى في بضعِ دقائق، مكسورة الخاطر وقد عدلت عن رأيها بالبقاء هنا.

أصغى إلى صوتِها وهو يجلجلُ عبرَ الدَّرَج.

- أكسفورد تناسبني جدًّا، يا أبي. حالما وطئتُ أرضَها أدركتُ ذلك. هذا هو المكان الذي أرغب في أن أكون فيه. هذا هو المكان الذي أريد أن أدرس فيه. إنها تسري في عظامي ودمي وقلبي وروحي...

رفع يوليوس حاجبيه مندهشًا. كانتْ مقْنِعَة جدًّا.

- أنتَ تعرف أنّها مكانٌ رائعٌ. قلتَ لي ذلك بعظمة لسانك. كلُّ ما عليكَ أن تفعلَه هو أن تأتيَ إلى هنا وترى ذلك بنفسك. إذا لم توافق على قراري، سأرجعُ معك إلى البيت. هذا عهدٌ بيني وبينك يا أبي.

يا لَلهول! كانت مُفَاوِضَةً لا يشقُّ لها غبار بكلّ ما في الكلمة من معنى.

عادت صاعدة على الدرج وقفزت إلى وسط سريره.

- سيأتي أبي إلى هنا مرة أخرى. يرى بأنها فكرة رائعة، ولكنه يريد أن يرى كل شيءٍ بنفسه.

نظر يوليوس حواليه في الغرفة.

- لن يُسَرَّ خاطره كثيرًا بهذه الغرفة.

كان يوليوس يحبُّ غرفته، ولكنها لم تكن النوع من الغرف الذي يدخل السرور على قلب أبٍ من الآباء. كان قد دهن الجدران بدهانٍ أرجواني غامق مزرَّق. واكتست الجدرانُ بالصور التي جمعَها على مرِّ السنين، صور أبطالِه وبطلاتِه، من هيمنغوي إلى مارلين مونرو. ويوجدُ مسجِّلة أسطوانات موسيقية في الزاوية- وهي أغلى ما لديه من مقتنيات- ورزمة من الأسطوانات يصلُ ارتفاعُها إلى أربعة أقدام. على الأرضية فَرْشَةٌ لها وظيفتان: أريكةٌ وسرير. ثيابُه معلّقة على علاَّقة ملابس متنقّلة، بذلات اشتراها من محلّات بيع الملابس المستعملة التي يعود ريعها إلى مؤسسات خيريَّة ومجموعة من القبَّعات. كان شابًا متأنقًا نوعًا ما. في زاوية أخرى غلاَّيَة ماء وموقد غاز. رغم نيّاته الطيِّبة كان هناك الكثير من علب نودلز من ماركة بُتْ نودل الفارغة في سلة المهملات بشكلٍ يَصعُبُ عليه عدُّها. هناك الكثير من الأشياء الممتعة التي يمكنُ عملُها أكثر من محاولة تحضير طعام مغذٍ في بؤرة الخطر الصحي الواقع في الأسفل، أي المطبخ. كان يوليوس يحبُّ الطعام، والطبخ، ولكنّه لم يُرِدْ أن يصاب بالكُزَاز. قالت ريبِكا:

- لا بأس. لستُ مضطرَّةً لجعله يرى هذه الغرفة. سأقول له إنّني أسكنُ في سكن البنات وإنّني أبحثُ عن سكن. كما أنّنا بحاجة لأن نضمنَ أن تبقى بعيدًا عن ناظريه.

قال يوليوس مصعوقًا بعضَ الشيء:

- أوه.

شبكت ذراعَيها حوله.

- لا أقصد الإهانة كما بدا من نبرة صوتي. إذا عرف أبي أنّ هناك شابًّا في الأمر، فسيجرجرني إلى أمريكا من قفا رقبتي. أعطِنِي بضعة أسابيع. ثم يمكنني أن أذكر اسمك أمامه بشكل طبيعي. وربّما يمكنك أن تأتي إلى نيو إنغلاند لقضاءِ عطلة عيد الميلاد!

أومأ يوليوس برأسه، دون أن يُصابَ بالذعر ولو قليلًا من الخُطة. جرت الأمور بسرعة كبيرة نوعًا ما بالنسبة له. إذ إنّه لم يتعرَّف عليها، في نهاية الأمر، سوى البارحة، وقد قَلَبَتْ

حياتها كليًّا رَأسًا على عقب بناءً على ليلة واحدة قضيَاها معًا. ومع ذلك ينبغي له أن يعترف: الانجذاب الحاصل بينهما لا يمكن إنكاره. كان مسحورًا بها؛ وكانت مسلوبة العقل به. جسديًا وعقليًّا وروحيًّا. انجذابٌ سكَنَ جوارحهما ودوَّخهما حتى الثمالة. فَرِحَ في سرِّه لجرأتها. كان متأكّدًا بدرجة كبيرة بأنَّه لا يملكُ مقدارَ شجاعتِها. فهو، أيًّا تكن العواقب، لا يملك ما يخسره إذا ما وافَقَهَا على خطَّتها.

* * *

ما إنْ وصل والدُها يوم الخميس التالي ونزل في فندق راندولف إلَّا وكانت ريبِكا قد أقنعت مدير يوليوس بأن يعيِّنها بدوامٍ جزئي في المكتبةِ. في أول يوم عمل لها هناك، رتَّبَتْ كافّةً الصناديق المتنوّعة التي تحوي كتبًا قديمة في المستودع وقامت إمَّا بإرجاعها إليه أو وضعها على الأرفف، وهو عمل كان الجميع عازفٌ عن القيام به.

كما أنّها زارت الكليات واستفسرَت بدقّة من العديد من مديري القبول عن احتمالية حصولها على مقعدٍ دراسي. عادت ومعها رزمةٌ من أوراق الامتحانات السابقة لمراجعتها. أمامها أقلُّ من شهرين لتطلع أثناءهما على محتويات امتحان القبول.

ذهل يوليوس. عندما تريد هذه الفتاة شيئًا ما، فهي تبذلُ كلَّ طاقتِها للحصول عليه.

- عرفتُ بأنّ حياتي ستتغيّرُ عندما التقيتُ بكَ. هذا اللقاءُ هو أكثرُ الأشياء التي حصلَت معي متعةً في حياتي. لا أستطيعُ أن أصدِّقَ بأنَّه كان يمكن لي أن أحزم أمتعتي ومن ثم ألتحق بأكثر الجامعات مللًا على وجه الأرض في هذه اللحظة ذاتها.

عندما سار يوليوس صوبَ البابِ ليفتحَه لها بعد عودتِها من زيارةِ أبيها، لم يعرفها. كانت ترتدي بنطالًا رماديًّا وكنزة بيضاء، شعرُها ممشَّطٌ في اتجاهَين من المنتصف ومربوطٌ إلى الوراء على شكل تسريحة ذيل فرس أنيقة. انْفَجَرَتْ ضاحكةً إذْ رأت وجهَه المذهول.

سحبَتْ شعرَها من رباطه وبدأت تحلّ أزرارَ قميصِها وهي تندفعُ بجانبِه وتصعدُ الدَّرَج.

- يظنّني عبقرية. تجوَّلنا في الأماكن العتيقة المحبَّبة على قلبه كافّة، وقد وقع كليًّا في غرام أكسفورد. وسيكون ذلك أمرًا رمزيًّا يدلّ على مكانةٍ مرموقة، فلا أحدَ من أصدقائه لديه ابنة تدرس في الجامعة في إنجلترا. سيدفع لي أجرة السكن، والرسوم الدراسية إذا قُبِلْت في الجامعة. وينبغي أن أسافر إلى أمريكا في أعياد الشكر والميلاد والفصح. هذا هو الاتفاق الذي أبرمناه. هذا ثمنٌ ليس بكبير، وينبغي لي دفعُه كشرطٍ من شروط الاتفاق.

ارتميا على الشراشف المجعَّدة، يضحكان فرحًا، يضحك أحدهما على الآخر وعلى الإثارة التي أثمرَتها مغامرتها الجديدة. لم يستطع يوليوس مقاومة حماسة ريبِكا أو مكرها أو جسدها. كان هناك صوتٌ ضئيلٌ خفيضٌ نبَّهه لكي يتوخَّى الحذر، ولكن وبينما أعْمَلَ أصابعه في شعرها الأحمر وبعثَرَه مرة أخرى ومرر شفتيه على جسدها، سَهُلَ عليه تجاهل ذلك الصوت. فهو أكبر منها وأكثر حكمة. ويمكنه أن يتولّى زمِامَها.

أولا يستطيعُ ذلك؟ يعرف يوليوس أنّ الأمرَ مختلفٌ هذه المرّة؛ فهذا انجذابٌ وَفق مقياسٍ آخرَ، انجذابٌ مختلفٌ عن كلّ ما جرَّبه من قبلُ. تساءَل إنً كان هذا حبًّا جنونيًّا، أو أنّه سيصيرُ حبًّا حقيقيًّا؟ وإن كان الأمرُ على ذلك النحو، فأيُّ نوع من الحبّ هو؟ فقد عرف من قراءاته في بطونِ الكتبِ بأنَّ

الحبَّ ليس دائمًا قوّة تدومُ إلى الأبدِ، ولكنّه سيبذلُ قُصارى جُهدِه لكي يجعلَ حبَّه لها حبًّا دائمًا.

ومع ذلك، ساورَه شعورٌ بأنّ ريبِكا غيرُ قادرةٍ على التحكّم بمشاعرِها بالطريقة ذاتِها التي يستطيعُ هو فيها ذلك. فقد كانت تَفُوْقُه بمراحلَ عاطفةً وتهوُّرًا. ففي وقتٍ قصيرٍ وحسب، استطاع أن يكتشفَ بأنّها شخصٌ ليس أهلًا للثقة نوعًا ما، وآخر شيءٍ تفعلُه مع هذا النمطِ من البشرِ هو أن توقعَهم في حبائلك. وهكذا سيمنحُها قلبَه، ولن يقيِّد أسلوبَها في التفكير.

في أثناء ذلك، عرَّفها على المزيد من الأماكن في عالمِها الجديد. ما أروع إعادة اكتشاف أكسفورد بعيون شخص آخر! فقد أمضى هنا أكثرَ من أربع سنواتٍ حتّى الآنَ، ولم يعد يرى الجمال والدهشة بالطريقة نفسها إلى حدّ ما. وبدأ يظنّ بأنّ كلّ سكّان البلدة يعيشون في عُشٍّ وثيرٍ من الحجارة والأروقة والحدائق المعشوشبة والدرّاجات الهوائية. ولكنّه كان فخورًا بذلك أشدَّ الفخر، وتعريف ريبكا على معالم المدينة جعله يدركُ لماذا كان يتصرَّف ببطء متعمَّد، وكيف أنّه لم يشأ اتخاذَ قرارٍ يخصُّ مستقبلَه في حال انطوى ذلك على مغادرة أكسفورد، وها هو الآن يجدُ نفسَه غيرَ مضطرّ لفعل ذلك.

أرَاهَا غرفتَه في جامعتِهِ العتيقة، وشهَقَت مندهشةً من قِدَمِها ومرافِقها الأساسية البسيطة وهيئتها التي بَدَت عليها وكأنّها خارجة مباشرة من أجواء رواية زيارة أخرى إلى برايدشيد(24).

سألَتْه ضاحكةً:

- وأين دُمية تيدي بير؟

- أعدكِ بأنّني لن أكون أقلَّ شأنًا من سيباستيان فلايت(25). فلا أملكُ الآنَ بيتًا فخمًا آخذك إليه.

قالت، وهي تتصنَّعُ خيبةَ الأمل:

- وأنا تخيَّلتُ نفسي مثلَ سيِّدة المنزلِ الكبير.

قال وهو يجذبُها نحوَه:

- سيكون لنا منزلُنا الصغير. ربّما لن يكونَ مثل منزل برايدشيد، ولكنّه سيكونُ ملكًا لنا. اصطحبَها إلى حفلة موسيقية كان هو أحد عازفيها. عزَف على التشيلُّو، وكانت الفرقة الموسيقية، بلا أدنى شكّ، فرقةً من الدرجة الثالثة؛ لأنّ أكسفورد تعجُّ بالموسيقيّين والعازفين البارعين، ولم يكن ليجاريَ مستوى أيٍّ من الفرق الراقية، ولكنّها توسَّمَتْ فيه العازف المدهش، وهي جالسةٌ في صفّ المقاعد الأمامي في الكنيسة دون أن تحيدَ بصرها عنه ولو مرة واحدة أثناء عزف مقطوعة فوريه(26) «جُنَّاز الموتى».

- أيوجد شيء لا تتقنه؟ لم أقابل شخصًا قطّ يتقن العديد من المهارات.

- تقصدين الدندنة بأنغامٍ على التشيلُّو وتحضير طبق الدجاج بالخضراوات؟

ضحك ضحكةً مديدة، مستصغرًا من نفسه. دُهِشَت أيضًا من مهاراته في الطبخ، وهي مهارات تعلَّمها بنفسه وتستند إلى سنوات من التجريب والأخطاء ناجمة عن عدم اهتمام أمه الصارخ بأيّ طعام يطهى في البيت ويوضع في طبق.

استنتَجَا بأنّه يمكن لهما البقاء معًا في أكسفورد خلال السنوات الأربع القادمة أثناء دراستها. كان يوليوس عازمًا على إيجاد وظيفةٍ ذات مردودٍ أكبر من عمله في المكتبة، بحيث يتسنَّى لهما العثور على منزل صغير يستأجرانه. قالت ريبِكا:

- لا داعي للقلق كثيرًا. كل ما ينبغي لي فعله هو الاتصال بأهلي ليرسلوا إليّ المزيدَ من المال إذا تقطَّعَت بنا السُبُل.

نظر إليها يوليوس، وقد هالَه مقالُها.

- لن نلجأ لفعل شيء كهذا.

لم يؤمن بفكرة اقتراض المرء المال من والديه. كان ذلك أول الدروس التي علَّمها إيَّاها؛ فكرة الاعتماد على النفس. وفهمتْ هذا المبدأ، حتّى في ظلّ معرفته أنَّها لا تزال تتلقَّى الدعمَ الماليَّ من والديها. لم يتوقّع منها أن تتصرفَ بين عشيةٍ وضحاها عن عادات ما فتأت تمارسُها طوالَ حياتِها.

رحلَ الصيفُ وحلَّ الخريفُ، وفاق الخريفُ الصيفَ في الشاعرية. مشيا مشاويرَ طويلةً قربَ النهر وأكلا النقانق وشرائح البطاطا في الحانة، وتجوَّلا وشاهدا المعروضات المثيرة للفضول كافّةً في متحف بِتْ ريفرز، ودهشت دهشة كبيرة من مجسَّم طائر الدودو(27) المحنَّط، كما ذهبا لحضور المزيد من الحفلات الموسيقية. معرفتها الموسيقية ضئيلة، ولكنّ يوليوس عرَّفها على فِرَق الرباعي الوترية والفرق الموسيقية الهاوية؛ والأعمال الكورالية التي أسالت الدموع على وجنتَيها، وفِرق الجاز التي تعزفُ بتكاسلٍ بعد ظهيرة الأحد.

كما درَّسها تحضيرًا لامتحان دخول الجامعة، وحثَّها على قراءة النصوص وحفظ الاقتباسات وكتابة مقالة تلو أخرى. لم يكن سبب ذلك حاجتها إلى التحفيز. فقد كانت متحفِّزة أكثر من أيّ طالب رآه في حياته، وكانت ذاكرتها على ما يبدو لا يفوتها شيء. إذ تميَّزَتْ بقدرتها على حفظ كتابات كثيرة بمجرد قراءتها مرّة واحدة. قالت له:

- أنا فلتة من فلتات الزمن. استطعتُ قراءة كتاب ماذا فَعَلَت كاتي(28) كاملًا وأنا في السابعة.

- أنتِ فلتةٌ بالفعل.

كان يمازحها، ولكنّه كان في الواقع مرتعدًا بعضَ الشيء من قدراتها العقلية. حسِب أنّها قد تستولي على العالَم بذكائها. ومع ذلك لم تُغْرِق نفسها في الدراسة. كانت ترغب في الترويحِ عن نفسها بقدر ما كانت ترغب في الولوج إلى الجامعة. اعتنى بها عندما أثملها السُّكْر أول مرة في حياتها، وجعلها تجرِّب الخمَّارة أول مرَّة في حياتها أيضًا، وأعطاها درسًا في السياقة في سيَّارته الميني البُنّية القديمة حول مطار حربي مهجور. كانت معها رخصةُ سياقةٍ أمريكية، ولكنّ ناقلَ الحركة كان أمرًا محيِّرًا بالنسبة لها، وكان سعيدًا في قرارة نفسه أنّها احتاجت وقتًا أكثر قليلًا حتّى تفهم كيفية التحكّم بالدبرياج. ناكَفَها ممازحًا:

- إذًا، فأنتِ لستِ كاملة.

استشاطت غضبًا منه.

خاضت امتحان القبول في الجامعة وكانت واثقة من أنّها ستنجح (ومع ذلك افتتن يوليوس مرة أخرى بهذه الثقة التي

تمتلكُها وشرح لها أنّ جميع الطلاب في إنجلترا يتقبَّلون فكرة رسوبهم في كل امتحانات القبول التي يخوضونها). قالت لوالديها بأنّها انتقلت من غرفتها المفروشة المستأجرة لتعيش في منزلٍ مشترك، دون التطرُّق إلى الكثير من التفاصيل عن الأشخاص الذين تشاركهم المنزل.

- والداي يثقان بي.

- ذلك خطؤهما الأول.

أجابها يوليوس، وتظاهرت بأنّها غاضبة.

كانا من الناحية الاجتماعية مثل ملكٍ وملكة. إذْ أراد الجميع صحبَتَهما، في أكثر الحفلات الفكاهية الصاخبة. فهما في ريعان الشباب، وكانا يحتاجان ساعات قليلة جدًّا من النوم ومقدارًا قليلًا جدًّا من المال. النبيذ والموسيقا أهمّ شيء بالنسبة لهما، إضافةً إلى الحوارات الغنيّة والكتب. الكتب كانت سيرتَهما ليلَ نهارَ. وسُمِحَ لهما باستعارة الكتب من المكتبة وإعادتها فور انتهائهما من القراءة، طالما أنّهما لم يلحقا أيَّ ضرر بالكتاب. قرأ كلُّ واحد منهما كتابًا كلّ يوم، وأحيانًا كتابَين. كان ذلك

النعيم بعينه. فقد عكَفتْ على قراءة أعمال ميورييل سبارك(29) وآيريس مِرْدُك(30) وسحَرَتْها روايةُ سميَّتِها ريبِكا(31)، وقرأتْ بِنَهَمٍ كبيرٍ كلَّ ما وقعت عليه يداها من كلّ الأعمال الأخرى التي ألَّفتهاً دافني دو مورييه. وبناءً على نصيحتها، اكتشف يوليوس كلًّا من جون أبدايك وفيلِب رُث ونورمَن ميلَر. كما كتَب لها قائمتَه النهائيةَ التي تضمُّ أكثرَ الكتب رواجًا؛ وجعلته يقرأ رواية ميدِلْمارش بعد أن اعترف أنَّه لم يقرأها. خطر في بال يوليوس أكثر من مرة أن يطلبَ يدَها زوجةً له، ولكنّ أمرًا ما منعه من ذلك. أراد لهما أن يكونا في بحبوحة مالية، وأن يكونا قادرَين على دفع أجرة منزل يسكنان فيه. رغم أنّه تخيَّل عرسًا على نطاق ضيِّق يبتدئ بتسجيل زواجهما في دائرة الشؤون المدنية تليه حفلةٌ مجنونةٌ على ضفاف نهر تشيروِل. الزواج حتمًا للناضجين وهما لم ينضجا بعدُ. بدلًا من ذلك، بدأ يُوْدِع بعضًا من رواتبه في حساب جمعية سكنية، ليوفِّرها كرصيدٍ، فحتّى لو كان التوفيرُ يعني شربَ قنينةٍ واحدةٍ من النبيذ الأحمر مع وجبة السباغيتي في ليلة يوم الجمعة، فإنّها لن تلاحظ الأمر. قال لها:

- أنتِ أميرتي.

- «أميرة» ليست كلمة جيِّدة في الدِّيار التي نشأتُ فيها. فهي تسمية مهينة؛ مهينة بالنسبة لامرأة تريد أن تسيِّر حياتَها على هواها طوال الوقت.

- كما قلتُ لكِ. فأنتِ أميرتي.

ضَحِكَت.

يعرف أن أمَّه، ديبرا، ستتعاملُ برحابة صدرٍ مع هذا الوضع؛ لأنها امرأةٌ منفتحةٌ ولا يتذكَّر أنَّها ردعته عن أمرٍ، قطّ، في حياته.

توجَّهَا بالسيَّارة إلى لندن ودَعتْهما أمُّه إلى الغداء في حانةٍ في كينسنغتُن. كانت الجدران مزدانةً برسومات عرائش العنب، وأكلوا وجبةَ كاتشيتوري الدجاج وكعكة حلوى الشوكولا.

افتتنت ريبِكا بديبرا، بأساور خرزها الكهرمانية، وسجائر سانت موريتس التي لا تبارح شفتَيها ومطمطتها للكلام بصوتٍ أجشَّ. أحاطت بديبرا هالةٌ تشي بأنّها ضاقت ذرعًا بالحياة.

يتملكُك شعورٌ بأنّها رأت وفعلَت كلَّ ما يخطرُ في البال، رغم أنّها تعيش الآن حياةً تفتقر إلى النشاط أو البهجة. لم تتهيَّب، ولو قيد أنملة، من ذكاء ريبِكا الفائق أو قوة شخصيّتها أو أسلوبها الجريء في اللُّبْس. كانتا تشبهان بعضهما بعضًا في أساليبهما الفريدة التي تميِّزُ كلَّ واحدة منهما.

عندما ذهبت ريبِكا إلى الحمَّام بعد انتهاء الغداء، أشعَلتْ ديبرا سيجارةً أخرى، وقالت لابنها:

- كن حذرًا يا عزيزي. ففيضُ المشاعر لن يدومَ إلى الأبد.

حسب يوليوس في مظنّة نفسه أنّ أمّه تقول ذلك من باب حرصِها الشديد عليه ليس إلَّا. وبدا ذلك غريبًا؛ لأنّها لم تُبْدِ كلّ ذلك الحرص عليه عندما كان صغيرًا. وتركَتْه يتأقلم مع ذلك الشعور طوال الوقت. استغرب ما الذي تغيَّر في أسلوبها.

تنهَّد وقال:

- أجدى للمرء أن يقع في غرام شخص يحبُّه وما إلى ذلك.

- كلّ ما في الأمر أنّني لا أريدُ لمشاعرِكَ أن تتأذّى إذا جَرَتِ الأمورُ على غير ما تشتهي.

- ما الذي قد يجري على غيرِ ما أشتهي؟

نفثت ديبرا حلقةً من الدخان وقالت:

- هناك كثيرٌ من الاحتمالات.

أصرَّ يوليوس على ألَّا يضطربَ بسبب تحذير أمّه. وعندما عادت ريبِكا إلى الطاولة وأحاطته بذراعِها ونادته قائلةً: «يا ملاكي الحارس»، ابتسم لأمِّه وكأنّه يقول لها « أرأيتِ كم تعشقني؟».

- أمُّكَ لطيفةٌ جدًّا.

قالت ريبِكا وهما عائدان بالسيَّارة التي كانت تدِبُّ دبًّا على الطريق رقَم (٤٠أ).

برم يوليوس عينيه.

- لم تكلِّف أمّي خاطرها بالقلق على أحدٍ سوى على نفسها.

قال وهو يحاول إزالة الإحساس بنُذُرِ الشرِّ القادم الذي زَرَعَتْه أمُّه فيه. انتابَه الغضبُ، فمجرَّد ضجرها من هموم الحياة لا يعني أنَّ عليها أن تقلبَ حياة الآخرين رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ ثمَّ أضاف:

- أمّي لا تكترث بآراء الآخرين.

- إذًا، فهي على النقيض من أمّي تمامًا. فأمّي تكترث برأي من هبَّ ودبَّ؛ تكترث حتّى بما يدورُ في خلد ساعي البريد.

* * *

ومع ذلك كانت أمُّه محقّةً.

ظنَّ يوليوس بأنّه سيرى نُذُرَ الشرّ وقد أطلَّت برؤوسها. ولكن من حيث النتيجة؛ لماذا ينبغي له أن يظنَّ ذلك الظنَّ؟

المسألة هي أنّ كلَّ الفتيات اللاتي ارتبط بهنّ كنَّ يستخدمن حبوب منع الحمل. إذ إنّه من المسلَّمات أنَّ معظم الفتيات يبدأن استخدام حبوب منع الحمل حالما يلتحقن بالجامعة، هذا إنْ لم يكنَّ قد فعلن ذلك من قبلُ. ما هي إلّا زيارة قصيرة إلى طبيبٍ من أطباء البلدة ويُقْضَى الأمر. لم يخطر في باله أبدًا أنَّ الأمريكيين ربّما يختلفون عن البريطانيين في ذلك. لم يخطر في باله أنّ ريبِكا ربّما تكون قد حطَّت رحالها في ربوع الأراضي البريطانية دون ترتيب موضوع مانع الحمل قبل مغادرتها أمريكا. بالطبع، كلّ أهالي أكسفورد لا يكترثون عظيم اكتراث بشأن الجنس. فثمّة مقدارٌ لا بأسَ به من تعدُّدِ العَلاقات الجنسية. كان يوليوس آثمًا شأنه شأنَ أيِّ شخصٍ آخر، ولكنّ الأمر اختلف عندما التقى ريبِكا. عرف أنّها حبُّ حياته إذ رآه متجسِّدًا فيها. ولكنّه نسيَ مع ذلك سؤالها السؤال الأساس المتعلّق بموضوع حبوب منع الحمل.

ولذا فعندما وقَفَتْ ذات صباح، بَدَتْ عليها أمارات الغثَيان، ومن ثم هرعت مسرعةً إلى الحمام، صُدِمَ وخيَّم عليه الصمتُ عندما أخبرته السبب.

- أظنُّ أنّني حامل.

- أولستِ تأخذين حبوب منع الحمل؟

هزَّت رأسها نافية.

- لماذا لم تخبريني بذلك؟

ارتاع. ارتاع بسبب إهماله وبسبب إهمالها. وأضاف:

- أنا افترضت فقط أنكِ فعلتِ ذلك... تعرفين بالتأكيد أنّ الحمل قد يحدث؟

وضعت وجهَها بين يديها وقالت:

- ظننتُ أنّني كنتُ آمل...

- تأملين ماذا؟

- كنت آمل أنَّ ذلك لن يحصل في أفضل الأحوال.

- الأمل ليس أكثر وسيلة مضمونة من وسائل منع الحمل.

- لا، ليس كذلك.

بدت بائسةً بؤسًا مُطلَقًا. جلستْ في منتصف السرير، واضعة يديها على بطنِها. قال يوليوس:

- حسنًا، أظنُّ أنّه ينبغي لنا الذهاب إلى عيادة تنظيم الأسرة.

- وما هذه؟

- هي المكان الذي تذهبين إليه من أجل الحصول على مانع الحمل. أو، لِـ... إمم...

رفَعَتْ يدها.

- لا تقلها. لا تتلفَّظ بتلك الكلمة.

لم يكن يريد أن يقول تلك الكلمة. بل قال:

- يمكنهم أن يرتِّبوا... الأمور لكِ.

حَمْلَقَتْ إليه وقالت:

- هذه مسألة لا نقاش فيها.

طرفت عينه. لم يخطر في باله بأنّ ذلك سيكون الطريق الذي ترغب في سلوكه. قال لها:

- أوه. صحيح. حسنًا. إمم...

حكَّ رأسَه وأضاف:

- ما الحلُ إذًا؟

- ماذا تعني؟

- تريدين الالتحاق بالجامعة. ونحن نسكن في غرفة واحدة. ولا نملك فعليًّا أيَّ مال.

استلقت على السرير وحملقت إلى السقف.

- ليس أمامنا أيّ خيار. لن أتخلّصَ منه. لن أتخلّصَ من طفلنا.

لم يكن يوليوس متأكّدًا كيف يفكّر أو يشعر. إذ لم يكن مستعدًّا لاحتمال الحَمْل. وهو لا يعرف أيَّ شخص آخر مرَّ بهذا الحالة. عرف بضع فتياتٍ ممّن حمَلْنَ، ولكنّهنَّ لفْلَفْنَ الموضوع بسرعة وهدوء وتعلَّمْنَ الدرس. لم يعرف بالتأكيد أيَّ فتاةٍ عرفت بحَمْلِها واستمرّت في الاحتفاظ بالطفل. ولكنّه لم يكن ليجبرَ ريبِكا على الإقدام على أمرٍ ضدَّ إرادتِها.

- وماذا ستقولين لوالديك؟

تنهَّدْت بعمق. صمتت لحظةً ثم قالت:

- سأخبرهما عندما أعود إلى أمريكا في عيد الشكر. في نهاية الشهر.

وقفت، وقد تفاجأ إذ رآها تبتسم.

- سنُرزَق بطفلٍ، يا يوليوس. عرَفْتُ عندما رأيتُكَ، عرَفْتُ أنك ستكون أبًا لأطفالي.

- حسنًا، ذلك رائع.

قال يوليوس، وهو يفكّر بأنّ ذلك كلّه أمرٌ رائعٌ جدًّا ولكنّه كان يحبِّذ أن ينتظرَ مدةً أطولَ قليلًا حتّى يصبحَ أبًا. ولكنَّه مع ذلك لم يقل لها ذلك. بل قال:

- ينبغي لنا أن نجد مكانًا أفضل لنسكن فيه. كما ينبغي لي أن أحصل على عمل مناسب.

ملعونٌ! قال في قرارة نفسِه. كان خطأَه الغبي. ما حصل مسؤوليتُه مثلما هو مسؤوليتُها. ما كان ينبغي له أن يفترض بأنّها تستخدم الحبوب.

نهضت ريبِكا وقد أصابها الوهن مرة أخرى. نظر يوليوس في أرجاء الغرفة التي كانت بيتهما في الأشهر القليلة الماضية وفكَّر في قرارة نفسه: سأصبح أبًا.

لم تخبر ريبِكا أسرتَها بالأمر عندما سافرت إلى نيو إنغلاند في عيد الشكر. فقد كانت لا تزال نحيفة مثل العود، لأنّه لم يمضِ على حملها حتّى ثلاثة أشهر، وكانت تتقيّأ صباحَ مساءَ وكأنّها مؤقتة مثل ساعة منتظمة، رغم أنّها التهمت الكعك الحلو المليء بالدهن والشحم الذي أحضره لها يوليوس من المخبز.

- كلُّ ما في الأمر أنّه لم تسنح لي الفرصةُ المناسبةُ لإخبارهما. إذ لم أبقَ هناك مدّة كافية، وكان هناك العديد من الزوّار. سأخبرهما في عيد الميلاد.

مع حلول عيد الميلاد، زادَ وزنُها، ولكنّ الجوَّ كان باردًا، لذلك تمكَّنت من لفِّ نفسِها بكمّيات من الملابس الفضفاضة. ومرَّ عيد الميلاد دونَ أن تكشفَ لهما سِرَّها.

- لم أخبرهما. لم أرغب في إفساد العطلة.

- الوقت يمر وقد تأخَّرتِ في إخبارهما.

كان يوليوس قلقًا. أخبَرَ أمَّه، ولم تبدُ عليها أيّ علامات الاستغراب. فلا شيءَ يمكن له أن يفاجئَها أو يصدمها، فقد عاشت حياتها ومرَّ على رأسها كثيرٌ وقليل.

- كلّ ما في الأمر أنَّه لا ينبغي لك أن تتوقّعَ منّي رعاية الطفل.

كان هذا كلّ ما قالته أمّه له، وضحك، ولكنّه لم يقل لها بأنّها آخرُ شخص في العالم يفكِّر في ترك الطفل معه.

بعد انقضاءِ أربعة أشهر على حمل ريبِكا، تبيّن لها بأنّها حصَّلت مقعدًا في جامعة أكسفورد وأخبرت أسرتها بموضوع حملها. أدرك يوليوس أنّها أخبرتهما في ذلك الوقت لأنّها كانت تخشى سابقًا من أن يجبراها على فعل شيء لا ترغب في فعله. فهي تتمتّع بإرادةٍ حديدية، ولكن الحَمْل جعلها هشَّة وخانعة وخشيت أنّها قد تتعرَّض لغسيل دماغٍ لو أخبَرَتْهُما بالأمر وهي في أمريكا.

- أنتِ؟ يغسلون دماغك أنتِ؟

كان غير مصدِّق لما قالته.

- لستُ قويّة مثلما أبدو. وأنت لا تعرف أهلي. عَبَسَت ثم قالت:

- أبي قادمٌ إلى هنا.

- ظننتُ أنّك تسيطرين على أبيك بسهولة مطلقة.

- هناك فرق بين الرغبة في الدراسة في أفضل جامعة في العالم وحَملِ طفلٍ وأنا في التاسعةَ عشرةَ.

- ستجري الأمورُ على خير ما يرام. فأنا معكِ دومًا.

أدرك يوليوس أنّها كانت خائفة، رغم حديثِها الشَّرِس. ظنَّ أنّها ربّما خافت من أن تذعن دون شروط؛ لأنّ ذلك سيكون الخيارَ السهل. فكَّر في قرارة نفسه بمقدار الرعب الذي يتملّك المرء خشيةً من تحكُّم أسرته في شؤونه. ربّما تعيش أمُّه في عالمِها الخاصّ، ولكنّها لم تتدخّل البتّة في شؤونه أو حاولت السيطرة عليه. في تلك اللحظة، أقسمَ بينَه وبينَ نفسه بأنّه لن يحاول أبدًا أن يتحكّم في شؤون ابنه. وبأنّه سيكون مسندَ ظهرِه دون أن يتحكّم في قرارته.

تساءل إن كان تومَس كوين، أبوها، سيأتي ومعه بندقيّة. كان مستعدًّا للقائه، إن حصل ذلك. لم يكن يوليوس يكترث كثيرًا لمشاعر تومَس كوين. كان قلقًا فقط على ريبِكا وطفله الذي لم يولد بعدُ. هناك حدٌّ، في مواقف معينة، لعدد الناس الذين يجب عليك مراعاة مشاعرهم.

* * *

أبدى تومَس كوين توازنًا وهدوءًا على نحوٍ يدعو للدهشة إزاء ما حدث. صحيحٌ أنَّ ريبِكا عادت من لقائها معه مستكينةً بعض الشيء، ولكنّها عادت مرتاحةً؛ لأنَّه لم ينشب بينهما موقفٌ غاضبٌ.

- لو جاءت أمّي معه لاختلف الأمرُ. يقول أبي بأنّها لا تستطيعُ حتّى التحدُّث في الموضوع. أعرف أمّي. ستقلب الأمرَ وتجعلُه يبدو وكأنّ الأزمةَ أزمتُها هي. مسرحيتها هي.

- تبدو فظيعة.

- كلّ ما في الأمر أنّها لا تحبُّ أيَّ شيء لا يتّفقُ مع رؤيتِها لما تنبغي أن تكونَ عليه الأمور.

- لا أظنُّها وحيدةً في هذا الأسلوب.

- لا. ولكن يا أبا الشباب، هل كنت ستعرف كيفَ تتصرّفُ حيالَ الأمرِ لو كان الخطأُ خطأك؟

- حسنًا، من حُسن الحظّ أنّها لم تأتِ.

وافقته ريبِكا قائلةً:

- نعم. ومع ذلك فأبي يريد أن يراكَ.

- لا مانعَ. أظنُّ أنّه ينبغي لنا أن نلتقيَ.

أراد أن يطمئنَ تومَس كوين قدرَ ما يستطيع. نظرت إليه ريبِكا نظرةً مشوبةً بالفرح وقالت:

- أنتَ شجاعٌ جدًّا.

هزَّ يوليوس رأسَه وقال:

- شجاعٌ؛ لأنّي لم أرتكب أيَّ خطأ.

- أنتَ تعرف كلَّ المعرفة بأنّ معظمَ الشباب ترتعدُ فرائصُهم كليًّا لو كانوا في مكانك.

- لا معنى لأن يُصابَ المرءُ بالهستيريا. أو الادِّعاء بأنّ شيئًا لم يحصل. ينبغي لكِ أن تتقبلي الأمر وتتعايشي معه.

ضمّته ريبِكا. ثم قالت:

- أتعرف شيئًا؟ جعَلْتَنِي أحسُّ بالأمان. لم أعرف قطُّ أنَّ هذا الإحساسَ هو ما كنتُ أريدُه...

* * *

التقى يوليوس والدَ ريبِكا، تومَس، في اليوم التالي في غرفة الاستقبال في الجناح الذي نزل فيه في الفندق. وقرَّرْت ريبِكا أن تبقى بعيدةً عن المكان. قالت ليوليوس:

- سيثيرُ مشاعري فقط إذا قال كلامًا لا أريدُ سماعَه. لا تسمح له بمضايقتِك.

- لا تقلقي.

لم يكن يوليوس متوتّرًا، رغم أنَّه كان متوجّسًا ممّا قد يحصل. لم يكن يريدُ أن يحوِّلَ موقفًا معقّدًا أساسًا إلى ما لا يُحمدُ عقباه.

كان تومَس كوين مؤدّبًا على حَرَج، حيث طَلَبَ منه التفضّل بالجلوس وطَلَبَ له قهوة. حسِبَ يوليوس أنّ الأمرَ كان سرياليًّا نوعًا ما؛ سرياليٌّ أن يجلسَ المرءُ قبالةَ شخصٍ آخرَ في كُرْسيّين ذَوَي مسندَين في هذا الجوّ الرسميّ. شعر وكأنّه في لقاء يجمعُ رئيسَي دولتَين وهما على وشك مناقشة شؤون السياسة الخارجية. قال تومَس:

- أريد أن أخفّفَ من آثار هذه القضية بأقلّ قدرٍ ممكن. أنتَ تعرفُ، بالطبع، أن ريبِكَا فتاةٌ ذكيةٌ جدًّا. وأمامها مستقبلٌ زاهرٌ جدًّا.

- نعم. إنّها ذكيةٌ جدًّا. أذكى منّي بكثير.

- ولمّا كنت أباها، فسيكون خطأ منّي إنْ لم أرد لها الاستفادةَ من أقصى قدراتها.

- أنا متأكّدٌ أنّ ذلك هو ما نريدُه جميعًا لأبنائنا.

رمقه يوليوس بنظرةٍ لم تبارحه.

تنحنح تومَس كوين. ثم قال:

- أنا أقدِّرُ لك نبلَ موقفِك وموافقتِك على البقاء إلى جانبها. أَخْبَرَتْنِي ريبِكا أنّكَ جبلٌ لا تهزُّه ريح. يا لكَ من سند قوي! أنا ممتنٌّ جدًّا لك.

لم يكن هذا هو المسارَ الذي توقَّعُه يوليوس لسيرِ المحادثة. توقَّع سماع استنكار. نقد.

- شكرًا لك.

ردَّ يوليوس، متسائلًا ما الذي سيقولُه تومَس بعد ذلك. أردَف تومَس:

- على أيّ حالٍ، أعتقد أنّكما كنتما مثاليَّين. ولا أظنّ أنّ أيًّا منكما عنده بالفعل فكرةٌ عن تأثيرِ وجودِ طفلٍ على مستقبلكما المهنيّ، وأسلوب حياتكما، وظروفكما الاقتصادية. أقصدُ، أنتَ بلا وظيفة فعليًّا، حتّى الآنَ، أليس كذلك؟ فأنتَ تعملُ في مكتبة؟

حملق يوليوس إليه، وكُرْهٌ شديدٌ بدأ في الغليان داخله. فكَّر بأنّه من حُسن أخلاقِ المرءِ أن يكونَ صادقًا. بقي هادئًا ومؤدّبًا.

- نعم. ولكن معي شهادة جامعية محترمة. أنا واثقٌ تمامًا أنّـ...

- ثقتُك بنفسِك أمرٌ مُدهشٌ. ولكنّك لا تزالُ غرًّا. اسأل مجرِّب ولا تسأل حكيم. لدي ثلاثةُ أبناء. النيّات الحَسَنَة مسألةٌ جيدةٌ جدًّا نظريًّا. مسألةٌ تثيرُ الإعجاب. ولكنّك ستجدُ أنّ الواقعَ حكايةٌ مختلفةٌ تمامًا.

- سيِّد كوين، يُرْزَقُ البَشَرُ بأطفالٍ في كلّ يوم ويربّونهم أحسنَ ما تكون التربية...

قاطعه تومَس كوين مرة أخرى. وقال:

- لا أريدُ أن أرى قدراتِ ابنتي وقد ذهبت أدراجَ الرياح. أريدُ لها أن تكونَ أفضلَ شخصٍ تستطيعُه. ولا أظنُّ أنّ ولادتَها لطفلٍ وهي في التاسعةَ عشرةَ ستمكِّنُها من ذلك. بصرفِ النظرِ عن الدعم الذي تتلقّاه منك.

- ستتابعُ دراستَها. سنجدُ وسيلةً لذلك.

أطلق تومَس كوين خنَّةً تنمُّ عن عدم الاكتراث بما قاله يوليوس.

- اسمعني، لن أدَّعيَ بأنّ هذه فكرة جيّدة بأيّ درجة. ريبِكا شجاعةٌ جدًّا ظاهريًّا، ولكنّها في جوهرها هشَّةٌ جدًّا حقًّا. وهي ليست قويةً كما يتراءى لك. صدِّقْني، فأنا أبوها. وأنا أدرى بها. وهذا سبب قلقي الكبير جدًّا عليها. أعرف أنّك تعتقدُ بأنّ هذا

موقفُ أمّها وموقفي، ولكنّه ليس كذلك. أنا قلقٌ جدًّا. وأرى أنّها تعدُّك عالَمها، وستصغي لما تقوله لها.

شعر يوليوس بإحساس متعاظمٍ بالخوف وقال:

- فات الأوانُ على إجراء إجهاض. إذا كان ذلك ما تفكِّر فيه.

خامره السرورُ أنْ رأى تومَس ينكفئ متفاجئًا. لم يكن يوليوس يزمع التخفيف من حدّة كلماتِه ليراعيَ مشاعرَ هذا الرجل.

قال تومَس بِحَذَرٍ:

- أعرف ذلك. ولكنّ الوقتَ لم يتأخّر كثيرًا على إرسالِ الطفل إلى أسرةٍ تتبنّاه.

لم يستطع يوليوس إخفاء صدمته. لم يكن متأكّدًا إنْ كان سمعَه على نحو صحيح.

- ماذا؟

شبّك ذراعيه وحملق إلى الرجل الذي كان سيصيرُ، نظريًا، حماه لو جرتِ الأمورُ على نحو منظّمٍ أكثر وكان نصيبُهما من السعادة أكبرَ ممّا كان.

سار تومَس صوب نافذةِ غرفةِ الفندق المشبَّكة. حملق يوليوس إلى ظهره العريضِ وتساءل بماذا كان يفكّر فعليًّا. أكان حقًّا يبذلُ ما في وسعه من أجل خاطر ابنته، أم كان يضمرُ في نفسه مخطّطًا آخر؟ أكل هذا من أجل إنقاذ سمعتها؟ ومن أجل حماية اسم العائلة؟

استدار تومَس، مشى عبر الغرفة وجلس. ثم قال:

- دعني أعقد معك اتفاقًا. إذا استطعت إقناع ريبِكا بإرسال الطفل إلى أسرة تتبنّاه، فسأوقِّعُ لكَ على شيكٍ بخمسين ألف جنيه إسترليني. وسأساعدك في العثور على أفضل عائلة يمكن لها أن تتبنّى الطفل.

ثم رفع يدَه وقال:

- فكِّر بالأمر دقيقةً على الأقل. وأرجو أن تَعْلَمَ أنّ هذا نابعٌ من رغبتي في فعل أقصى ما يمليه عليَّ واجبي تجاه ابنتي.

مشى يوليوس صوب النافذة ووقف في المكان الذي كان تومَس واقفًا فيه قبلًا. نظر إلى المباني والكليّات: آمال وأحلام عدد كبير جدًّا من الشباب، ومن بينهم هو ذاته، وريبِكا، كانت رهينة تلك الجدران التي أمامه. استدار أخيرًا.

- أظنّ أنّه لا يوجد عندك عددٌ كبيرٌ من المشاكل التي لا تظنّ أنّها تُحَلُّ بالمال.

ابتسر تومَس ابتسامة وقال:

- أنا متأكدٌ بأنّك ستتفهّم ذاتَ يوم حاجتي لحماية ابنتي. خصوصًا وأنّها فتاة.

- لو كنتُ مكانكَ، لتركتُ ابنتي تتّخذُ قراراتها بنفسها. وسأسدي لها النصح والإرشاد.

- إنْ رفَضْتَ هذا العرض، فلن أقدِّمَ لكما أيَّ دعمٍ ماليّ. أتفهم ذلك؟

- لم يخطر في بالي حتّى إنك قد تفعل ذلك. فلم يكن ما تقدِّمه لها من مال مسندًا أتكئ عليه.

وقف يوليوس ومدَّ يده ثم أضاف:

- أرجوك، كن مطمئنًا بأنّني سأعتني بابنتك وحفيدك بأقصى ما أستطيع.

- إذا غيَّرتَ رأيكَ، فالعرض قائم حتّى نهاية الأسبوع. إلى أنْ أعود إلى أمريكا.

- لن أخبر ريبِكا بفحوى الحديث الذي دار بيننا. لا أريدُ لها أن تغضبَ. كلّ ما سأقوله لها إنَّك تتمنّى لنا كلَّ التوفيق.

لم تظهر على محيَّا تومَس كوين أدنى ذرَّات الخجل وهو يصافح يوليوس.

* * *

في نهاية المطاف، أخبرها يوليوس بحديثه مع أبيها؛ لأنَّها نغَّصَتْ عليه يومه وهي تطلبُ منه أن يفشيَ لها ما دار بينهما من نقاش.

- هل عرَضَ عليكَ مالًا؟ أراهن أنّه فعل ذلك.

- أرادني أن أقنعك بالتخلِّي عن الطفل وإرساله للتبنّي.

استشاطت ريبِكا غضبًا وقالت:

- إنّه مراوغٌ كبير.

- أظنّ أنّ سبب ذلك هو أنّه يهتمُّ لأمرك. حاوَلْتُ أن أتخيَّل نفسي في الموقف ذاته الذي كان فيه.

لم يكن يوليوس متأكّدًا لماذا كان يحاول الدفاعَ عن تومَس كوين، ولكنّ ذلك يرجع في معظمِه إلى عدم رغبته لريبِكا أن تحتدَّ. كان شعورُه يتعاظمُ بأنّه هو حاميها، خصوصًا الآنَ والطفلُ قادمٌ لا محالة. ولذلك فقد اقترحَ عليها أن يتزوَّجا. بعد مقدارٍ معيّنٍ من المعاملات الورقية الشاقَّة، غادرا دائرة الشؤون المدنية في ظهيرة ربيعية مشمسة. قالت له ريبِكا وهما عائدان إلى البيت، ويدُها بيدِه:

- أتعرفُ ما ينبغي لنا أن نفعل؟ ينبغي لنا أن نفتحَ مكتبتَنا الخاصّة.

توقّف يوليوس في منتصف الرصيف وقال:

- تلك أفضلُ فكرةٍ أسمعُها منذُ زمنٍ بعيدٍ.

- مكتبةُ نايتِنْغيل. سنسمّيها مكتبة نايتِنْغيل.

شعر يوليوس بفورة من البهجة. تخيَّل المشهدَ أمامَه الآنَ؛ كلاهما يفتتحان مكتبتهما الصغيرة.

في الوقت الحالي، كان يشغلُ منصبًا إداريًّا في المكتبة، ممّا منحه راتبًا أعلى بقليل، وعثرا على منزل يستأجرانه: كانت أصغر شقّة أرضية بغرفتين في حيّ جيريكو. الغرفة الثانية مجرَّد حجرةٍ صغيرةٍ لوضع الأغراض، ولكنّهما باتا على الأقلّ يعيشان في مكانٍ يجمعُهما معًا. قضى كلّ وقتِ فراغِه وهو يدهنُ الشقّة، حتّى أصبحت مثلَ علبةِ هدايا جديدة. ركَّب أرففًا وعلّاقات بحيث تتوفّر لهما مساحةٌ إضافيةٌ لوضع الأغراض. اصطحب ريبِكا إلى محلّ هابيتات(32) لاختيار أريكة. سألَتْه:

- أنقدر على دفع ثمنها؟

- سنستخدمُها كلَّ يوم، على الأقلّ للسنوات العشر القادمة؛ لذا فإنّها تستحقُّ دفعَ المبلغِ الذي سنشتريها به.

لم يخبرها أنَّ أمَّه أعطته خمسمئة جنيهٍ يوسِّعُ بها على نفسِه ويخفّف بها من نَصَبِ الحياة. لم يكن يرغب في الدخول في معمعةِ مقارنة أمِّه بوالديها. ولم ينظر إلى مسألة أخذ المال من أمّه على أنّها عملية استغلال لها أيضًا، فقد أعطته أمّه المالَ عن طيبِ خاطرٍ. كانت أمّه مثيرةً للغيظ بأسلوبها الذي يميِّزُها، ولكنّها تمتازُ بخَصلة وهي خَصلة الكرم، كما أنّها لم تَتْهَلْ عليه بعبارات اللوم والعتاب. فمجرد معرفته بوجود أمّه جعله يشعرُ بالأمان، ولذا تفهَّم بأنّ ريبِكا ستجدُ المسألةَ صعبةً؛ مسألةَ أن يعيشَ شبهَ منفصلٍ عن أمِّه. تساءَل كيف ستكون ردة فعل والديها حالما يولد الطفل. ساورته الشكوكُ بأنّهما كان يلعبان على الوقت لا أكثر ولا أقل، وهما يأملان بأنّها سوف تنهار. كانا يأملان، بلا شكّ، بأنّه ربّما يتخلّى عنها عندما يزداد الحِمْل عليه ويفوق طاقته.

وهذا ما حصل.

مع قرب انتهاء الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحَمْل، تغيَّرت ريبِكا أمام ناظرَيه. فقد انتفخ جسدُها. ولم يشمل الانتفاخ بطنَها فحسب، بل امتدَّ ليشمل كلَّ عضو من أعضاء جسدِها: أصابعِها، وكاحلَيْها، ووجهِهَا. صارت في حالةٍ يُرثى لها.

لازَمَها النَكَدُ، ولم تستطع النوم. لم تستطع أن تنعمَ بالراحة. توقَّفَت عن العمل في المكتبة واستلقت في السرير طوالَ اليوم.

قال لها يوليوس، وقد استبدَّ به القلق:

- عليكِ أن تحافظي على نشاطك.

لم تعد مفتونةً بفكرة الطفل، كما كانت أول عهدِهَا. بل باتت خائفةً، ومذعورة.

- آسفة. لا أشعر بأنّني أنا ذاتي بعد الآن. أظنّ أنّ حالي ستتحسّنُ بعد ولادة الطفل.

قالت له ذاتَ ليلة، ربَّتَ على ظهرها إلى أنْ خَلَدَتْ للنوم.

استيقَظَتْ ذاتَ ليلة، قبل موعدِ ولادةِ الطفل بثلاثة أسابيع، وهي تتلوَّى من الألم. شراشف السرير مبلَّلة. نشجت قائلة:

- لقد خرَج السائل الأمينوسي.

اتصل يوليوس وطلب سيارة إسعاف، وهو يُحَدِّثُ نَفْسَه بأنّ النِّساء يأتيهنّ المخاض مبكّرًا طوال الوقت وأنَّ الأمورَ ستكونُ على خير ما يرام. فالولادة أكثر الأحداث التي تحصلُ في العالم على نحوٍ طبيعي. طمأَنه طاقمُ المستشفى أنَّ الولادة ما هي إلَّا كذلك. ثمَّ أُدْخِلَتْ ريبِكا إلى غرفة الولادة وأُجريت لها الفحوصاتُ اللازمة.

قالت القابلة، مبتسمةً، دون أن تبدوَ عليها أدنى درجةٍ من درجات القلق:

- طِفْلُكَ لحوحٌ. سيولدُ طفلًا خديجًا، ولكن لا تقلق. فلدينا سجِّلٌ ممتازٌ في مجال حالات الولادة قبل موعدها.

- طفل خديج؟

وضعت يدَها على ذراعه وقالت:

- ولادة مبكِّرة. أنتَ في أيدٍ أمينة.

لثماني عشرَةَ ساعةً من الألم، خاضت ريبِكا في أمواج أوجاعها. بينه وبين نفسه، استولى الذعرُ على يوليوس وهو يتخيَّلُ أنَّ كلَّ امرأة حضرَتها الولادةُ تمرُّ عبرَ هذه الظروف، ولكن من المتعارف عليه أنْ لا أحد يقيم وزنًا للأصوات القادمة من أجنحة الولادة المجاورة. ولم يبدُ أيٌّ من أفراد طاقم المستشفى مرتبكًا من ولوَلَات ريبِكا في الوقت الذي بلغت فيه التقلُّصات الرحمية أوجَها. بذل يوليوس أقصى ما يستطيع حتّى يهدِّئ من روعها.

- هل ينبغي لها فعلًا أن تعاني كلّ هذا الألم؟

في لحظةٍ معيّنة، سأل القابلةَ، التي نظرت إليه، وهي تشعرُ بالشفقة عليه بدرجةٍ ما وكأنّه لا يعرفُ شيئًا عن أوجاع الولادة. كان ذلك صحيحًا، فحتّى الآن، لم يسبق له أن كان على مَقربةٍ من أيّ امرأةٍ حاملٍ، فما بالُك أن ينظر إليها وهي تلدُ؟!

ومن ثمَّ، وعلى حين غرّة، وكأنَّ الوضع كان لا ينقصُه أن يسوءَ أكثر ممّا كان عليه، تحوَّل الارتياح الذي أبداه الطاقم الطبّي إلى إعلان حالة الطوارئ. شعر يوليوس بذعرٍ يرسل الشلل في الجسد وهو يرى الممرضات يقارنَّ التقاريرَ الطّبية ومن ثَم يرافقنَ طبيبًا استشاريًّا ويرشدنَه إلى الطريق. بدا الأمرُ تقريبًا وكأنَّه وريبِكا غير موجودَين بينما كان ثلاثتُهم يتشاورون فيما بينهم، ثم اتَّخذوا قرارَهم.

- الطفل في وضع حرجٍ. سنأخذُها إلى غرفة العمليّات.

قالت له القابلة، مرتسمةً على محيَّاها تعابير تنبّئه بألَّا يطرحَ مزيدًا من الأسئلة.

عمَّت الفوضى. خلال دقائق، أُخْرِجَت ريبِكا على نقَّالة متحرِّكة من غرفة الولادة وساروا بها عبر الممرّ. ركض يوليوس حتّى يلحق بالممرضات لحظة اقترابهنّ من الباب المزدوج لغرفة العمليات.

- أيمكنُني الدخولُ؟

- لا وقتَ لإلباسكَ المَرْيول.

أجابت إحداهُنَّ، وفجأة وجد نفسَه هناك، وحيدًا في الممرّ.

- أرجوكم لا تدعوا طفلي يموتُ؛ أرجوكم لا تدعوا طفلي يموت.

كرَّر يوليوس نداءَه، مرّة تلوَ الأخرى، غيرَ قادرٍ على تخيُّل ما الذي يحصلُ في الداخل. تخيَّل مجزَرَةً من دماءٍ وسكاكين. اطمأنَّ إذ لاحظَ أنّ صرخاتِ ريبِكا توقَّفَت على الأقلّ.

ومن ثم دلفت ممرضةٌ خارجةً من غرفة العمليّات، تحملُ شيئًا صغيرًا بين ذراعَيها، وأعطته إيَّاه قائلةً:

- إنّها طفلةٌ صغيرةٌ.

نظر إلى وجه الطفلة، إلى فمِها الصغير. ناسَبَ حجمُها ثنيةَ ذراعِه بالضبط؛ يا لَلكتلة الصغيرة الدافئة!

وكأنّه يعرّفُها. وكأنَّه يعرِفُها منذُ زمن. ضحك مرتاحًا. ظنَّ فعلًا، أوّلَ وهلةٍ، أنّها كانت في حالةٍ خَطِرَةٍ. ما لبثَ أن قالَ لها:

- مرحبًا. مرحبًا بكِ يا طفلتي الصغيرة.

❞ ومن ثَمّ نظرَ ورأى الجرَّاحَ واقفًا في مدخلِ البابِ وقد ارتسمَت على مُحيَّاه تعابيرُ مهيبةٌ وأدرك يوليوس أنّ دعواتِه ذهبَت هَباءً منثورًا.

* * *

وضعوا الطفلة في وَحدة العناية الخاصّة؛ لأنّها وُلِدَت قبل أوانِها، وبسبب ما حَدَثَ أيضًا أثناءَ ولادتِها.

خرجا من المستشفى بعد أسبوعين؛ أصغرَ أسرةٍ في العالم. كانت الطفلةُ ترتدي أفرولًا مخمليًّا أبيضَ، دافئًا وناعمًا ولينًا. أخذ يوليوس بطانيةً صفراءَ باهتةً من نسيجٍ انسلَّت خيوطُه

ولفَّ بها الطفلةَ. نظرَتِ الممرّضَاتُ إليهما وهُنَّ يُهَمْهِمْنَ همهماتٍ قلقة، كما اعتدنَ أن يفعلن دائمًا وهنَّ يُعْلِنَّ إطلاقَ أسرةٍ جديدةٍ صغيرةٍ إلى هذه الدنيا.

ثمّة سوارٌ بلاستيكيٌّ لا يزالُ ملفوفًا على معصمِها. مكتوبٌ عليه الطفلة نايتِنْغيل.

كان يأملُ حقًّا أنّ ما حدث له سيكون آخرَ المصائب في حياته وهو يخرج من أبواب المستشفى ويدلفُ إلى العالم في الخارج.

تنشّقَت الطفلةُ الهواءَ بصوتٍ مسموعٍ واتخذت صدره وسادةً لجسدها. أطعمتَها الممرضات قبل مغادرة حجرة المستشفى، ولكن ربّما تكون قد جاعت مرة أخرى. هل ينبغي له أن يجرِّب إعطاءها قنينة حليب أخرى قبل الصعود في سيّارة الأجرة؟ أم أنّ قنينةً كثيرٌ عليها؟ كلّ هذه الأسئلةِ وغيرها الكثير باتت تشكِّلُ مستقبلَه الآنَ.

وضع طرف إصبعِه على فمِها. زمَّت شفتَيها الصغيرتَين حولَه لتتحسّس ما هو. يبدو أنّه هدَّأ من روعِها.

لا تزالُ دونَ اسم. وهي بحاجة إلى اسم أكثر من حاجتها إلى الحليب. كان في باله اسمان مفضَّلان: إيميلي وأميليا. لم يستطع أن يقرّر أيَّ اسم يختار من بين هذين. ولذا قرَّر أن يجمعَهما معًا في اسم واحد.

إِميليا.

إِميليا ريبِكا.

إِميليا ريبِكا نايتِنْغيل.

- مرحبًا إِميليا.

قال لها، ولدى سماعِها صوته تحرَّك رأسُها الصغيرُ واتّسعَت عيناها من المفاجأة وكأنّها كانت تنظرُ إلى مَنْ كان يتكلّم.

- هذا أنا. بابا. أبوك. أنا هنا، يا صغيرتي. هيا بنا. فلنذهب إلى البيت.

سأله سائقُ سيَّارةِ الأجرة:

- وأينَ زوجتُك إذًا؟ لا تزال في حالة صعبة بعض الشيء. ألم يسمحوا لها بمغادرة المستشفى؟

- في واقعِ الأمر لا يوجد مع الطفلة أحدٌ غيري.

لم يستطع إخبارَ السائق بالقصّةِ كلّها. لم يشأ أن يُدْخِلَ الهمَّ على قلبه. لم يرغب في أنْ يصيرَ مثارًا لشفقته.

- معقول؟ أترَكَتْكَ تحملُ الطفلة؟

حملق السائق إليه متفاجئًا. فضَّل يوليوس أن يركِّز السائق انتباهه على الطريق.

- نعم لقد تَرَكَتْنِي.

لقد فَعَلَتْ ذلك بطريقةٍ أو بأخرى. قال السائق:

- يا ويلي! لم أسمع في حياتي بذلك قطُّ. مرَّ على رأسي عددٌ كبيرٌ من الأمهات الجديدات اللاتي فرَّ منهنَّ أصحابهنّ. ولكنّي لم أصادف قطُّ حالةً تفرُّ فيها الأمُّ.

- أوه. لا بأس، أظنُّ أنّه أمرٌ غيرُ عادي. ولكنّي متأكّدٌ من أنّني سأتدبّرُ أموري.

- لستَ كبيرًا في السنّ، أليس كذلك؟

- أنا في الثالثة والعشرين.

كرَّر السائق قائلًا:

- يا ويلي عليك!

جلس يوليوس في المقعد الخلفي بينما شقَّ السائقُ طريقَه عبرَ ضواحي أكسفورد. استغرب عدم شعورِه بمزيدٍ من الخوف. ولكنّه لم يشعر بأيِّ خوفٍ. المسألة ببساطة هكذا؛ لم يشعر بالخوف.

التقى أباها، تومَسْ كوين، مدّة وجيزة بعد مرور بضعة أيام على وفاتها. جاء والدا ريبِكا ليعودا بجثمانها إلى أمريكا، ولم يجادلهما يوليوس في تحقيق رغبتهما تلك. فهي ابنتهما وشعر بأنه من حقِّها أن تُدْفَنَ في تراب وطنها.

كان لقاؤه مع أبيها لقاءً واجمًا وناشفًا، فالرجلان مصدومان ممّا حصل. تفاجئ يوليوس من أن تومَسْ لم يوجِّه له أصابع اللوم في وفاة ابنته. كان فيه مسحة من الإنسانية جعلته يدرك بأنّ الغضب والامتعاض واللوم لا فائدة ترتجى منها.

عوضًا عن ذلك أعطى يوليوس شيكًا.

- ربّما ترغب في أن ترميَه في وجهي، ولكنّه للطفلة. لقد تعاملتُ مع الأمور بشكلٍ خاطئ. كان ينبغي لي أن أمدَّ لكما يدَ العون معًا. أرجو منك أن تستفيدَ من هذا الشيك لما فيه خير الطفلة.

وضعه يوليوس في جيبه. فالاحتجاج والرفض لا طائلَ منهما شأنهما شأنُ اللوم.

- أينبغي لي أن أوافيَكَ بآخرِ أخبار الطفلة ... ؟ أأرْسِلُ لكما صورة في عيد ميلادها؟

هزَّ تومَسْ كوين رأسه وقال:

- ما من حاجة لذلك. ستجد والدة ريبِكا الأمر مؤلمًا جدًّا. نريد أن نتابعَ حياتَنا بشكلٍ طبيعي فعلاً.

لم يعارضه يوليوس. رغم أنّه تفاجئ كيف يمكن لإنسان أن يديرَ ظهرَه لمَن هو من لحمِه ودمِه، لا بل إنَّ عدم إرسال الصور أسهل بالنسبة له. قال يوليوس:

- إذا غيَّرت رأيكَ، ما عليك سوى الاتصال بي.

ابتسر تومَسْ كوين نصف إيماءة؛ نصف هزَّة من رأسه في إشارةٍ منه إلى عدم رغبتهما بذلك على الأرجح، ولكنّه كان ممتنًّا لهذا العرض.
مضى يوليوس في سبيله وهو يعرف بأنه عَبَرَ البوّابة الأخيرة التي ولج من خلالها من عالم الشباب إلى عالم الرجال.

* * *

رجع إلى المنزل مع منتصف الظهيرة. بدا الجوُّ وكأنّه أهدأ وقتٍ في اليوم. حَضَّرَ لنفسِه فنجانَ شاي، ثم حَضَّرَ قنينة جديدة من حليب الأطفال وتركها حتّى تبرد. وشغَّل أغاني نينا سايمون على الفونوغراف.

استلقى على سريره ورِكبتاه مثنيتان ووضَعَ إِميليا في حضنه مسندًا ظهرها على فخذَيه. أمسك بها وهي في حضنه وابتسم. أمسك بكامرته والتقط لها صورة.

صورة لطفلته، صار عمرُها أسبوعين فقط.

وضع الكامِرا من يده.

بينما صدح الفونوغراف بعزف نينا سايمون على البيانو تظاهر بأنه يراقص إِميليا وهو يغنِّي مع الموسيقا.

انتبه إلى أنّه لم يلتقِ بأطفالٍ من قبلُ. فما بالك بأن يمسك طفلةً ويحملَها. يا لَه من أَمر مضحك! فأول طفلة يتعرَّف عليها في حياته لم تكن سوى طفلته هو.

(18) نمطٌ من المدارس البريطانية التي يدرُسُ فيها الطلابُ كافّة من ذوي القدرات الذهنية المختلفة معًا.

(19) نمطٌ من المدارس البريطانية التي تهتمُّ بتدريس اللّغتين اليونانية واللاتينية؛ وتُعرَف أيضًا باسم «مدارس القواعد» أو «المدارس النحوية».

(20) هذه العبارة من رواية «آنا كارينينا» للروائي الروسي الشهير ليو تولستوي (١٨٢٨ – ١٩١٠).

(21) رواية من تأليف الروائي الأمريكي جون إرفنغ (١٩٤٢ – .....)

(22) رواية للأديبة الإنجليزية ماري آن إيفانز (١٨١٩ – ١٨٨٠) الشهيرة باسم جورج إليوت.

(23) روايةُ الأديب الإنجليزي جورج أورول (١٩٠٣ – ١٩٥٠) الشهيرةُ.

(24) رواية الكاتب الإنجليزي إيفلِن وا (١٩٠٣ – ١٩٦٦).

(25) أحدُ شخصيّات رواية «زيارة أخرى إلى برايدشيد».

(26) غابرييل فوريه (١٨٤٥ – ١٩٢٤): موسيقيٌّ فرنسيٌّ.

(27) طائرٌ ضخمٌ غيرُ قادرٍ على الطيران، كان يقطنُ جزيرة موريشوس، وانقرضَ في أواخرِ القرن السابع عشر.

(28) كتابٌ من أدب الأطفال، من تأليف الكاتبة الأمريكية سوزان كوليج (١٨٣٥ – ١٩٠٥)، واسمُها الحقيقيُّ: سارة تشولسي وولسي.

(29) روائيةٌ، وكاتبةُ قصصٍ قصيرةٍ ومقالاتٍ وشاعرةٌ اسكتلندية (١٩١٨ – ٢٠٠٦).

(30) روائيةٌ وفيلسوفةٌ أيرلندية (١٩١٩ – ١٩٩٩).

(31) رواية من تأليف الروائية والمسرحية الإنجليزية دافني دو موريير (١٩٠٧ – ١٩٨٩). وهي من أكثر الكتب بيعًا حيث بيع منها ٢,٨٢٩,٣١٣ نسخة أثناء طباعتها بين عامي ١٩٣٨ و١٩٦٥.

(32) شركةُ مفروشاتٍ بريطانيةٍ، أسَّسَها السِّيْر تيرينس كونران عام ١٩٦٤.

الفصل الثالث

كانت محاولة المواءمة بين إظهار الاحترام لذكرى أبيها وعدم المبالغة في ذلك تتطلَّبُ توازنًا دقيقًا. فآخر شيء أرادت إِميليا أن تفعله هو أنْ تُظهر عواطِفَها بصورة مبتذلة، ومع ذلك لَم تستطع أن تفكِّر بتصرف يحيي ذكرى أبيها أجملَ من ملء واجهة المكتبة بالكتب التي كان يُفضِّلها. ولكن، ظنَّت إِميليا، إذا استمرَّت على هذا المنوال فإنّ ذلك يعني أنّها ستضع جميع كتب المكتبة في الواجهة.

وضعت أعمال إيمِس (الأب وابنه)، وبيلو، وبولغاكوف، وكريستي، وديكنز، وفِتْزجيرالد، وهاردي وهيمنغواي. تكاد لا تجد مساحةً تضع فيها أيّ كتاب، ولا يزال أمامها الكثير من الوقت لبلوغ مرحلة وضع أعمال وُدْهَاوْس(33) في الواجهة.

قاومت إغواء وضع خلفية سوداء وراء الكتب، وبدلًا من ذلك جنحت لاختيار لون أحمر نبيذي مَهيْب. كما أنَّها لم تعلِّق لأبيها صورةً أو تضع اسمَه أو تقوم بأيّ نوع من الدعاية له. فكلُّ ما أرادت فعلَه هو القيام بشيء لتخليد روحه، لتخليد ذكراه.

كان من شأن ذلك أن ينسيَها اشتياقَها له.

عجَّت المكتبة بالحركة في الأسبوع الماضي، أكثر من المعتاد، حيث تقاطر إليها القوم. وكلّما رنَّ جرس الباب الداخلي، رفعت بصرَها وهي تتوقّع أن يكون الداخلَ أبوها، ماشيًا مع قهوة ابتاعها يحملها مع جريدة اليوم. ولكنّه لم يأتِ قطُّ.

لفتَتْ انتباهَها سيارةٌ كبيرة يركنها صاحبها على الخطوط الصفراء المزدوجة خارج المكتبة. قطَّبَت حاجبيها استغرابًا، فسائق السيَّارة يخاطر بارتكاب مخالفة. ومُرَاقِبُ رَكْنْ السيَّارات في بيزبروك مشهورٌ بصرامته الشديدة. ما من أحد يجرؤ على مخالفة القانون في العادة. عندما نظرت من كثب، على أيّ حال، أدركت أنّ هذا السائق بالتحديد لا يُقيمُ وزنًا للقوانين. كانت سيّارةُ أَسْتُن مارتِن، بلوحة أرقام خاصّة.

لم يكن السائق سوى إيان مينِدِب. انقبضت معدتها قليلًا وهو ينزلُ من سيّارته. كان طويلًا، حليقَ الرأس، مُسْمرًّا من الشمس، يرتدي بنطلونَ جينزٍ وجاكيت جلد. شمَّت رائحة معطِّر الحلاقة وقد سبَقَتْه. وقفً لحظة وهو ينظر إلى المكتبة،

عيناه شبه مغمضتين من أثر ضوء الشمس. تخيَّلته وهو يحسب سعر كل مترٍ مربَّع من أمتار المكتبة.

من السخرية أنَّه لم يركن سيارته في المِرْأَبِ التابع للمكتبة، فذلك المِرْأَبُ غايتُه وبغيتُه. تقع مكتبة نايتِنْغيل على واجهة الشارع السريع بجانب الجسر المطلّ على ساقية الماء. خلفها يوجد مرأب كبير تابع لها، وهو يتسع لعشر سيَّارات على الأقلّ. وبمحاذاة المكتبة، خلف الشارع السريع ووراء ساقية الماء يوجد معمل القُفَّازات القديم، مهجورًا ومهلهلًا، وسرعان ما ضمّه إيان ميندِب إلى قائمة ممتلكاته قبل بضع سنوات. أراد أن يبنيَ مكانه شققًا فاخرةً. لو قُيِّضَ له شراء مرأب المكتبة، لأمكنه زيادة عدد الشقق؛ فمن دون المرأب المخصَّص الإضافي ستبقى يداه مُرَبَّطتَين؛ لأنّ المجلس البلديَّ لن يمنحه الإذنَ للبناء دون وجود مرأب للمبنى الذي يعتزم إنشاءه. فقضية مرائب السيَّارات فيها ما فيها من الشَّجَن في البلدة الصغيرة وما من حاجة إلى زيادة طينِها بلّة.

تَعْرِفُ إِميليا بأنّ إيان عَرَض الأمر على أبيها الذي سدَّ في وجهه كلَّ الأبواب سدًّا هادئًا. ولذا لم تدهشُ لمرآه، رغم أنّه جاء مبكّرًا نوعًا ما، حتّى بالنسبة لشخص لا يملّ ولا يكلّ مثل إيان. تعرفه منذ مدةٍ طويلة، فقد كان يسبقُها ببضع سنواتٍ في مدرسة بيزبروك الثانوية. لم يكترث لها حينئذٍ. طالما كان

لعوبًا، انتهازيًّا؛ وتحيطُ به هالةٌ من السحر الغامض التي لم تحبِّذها إِميليا البتّة؛ لأنّها رأت كيف كان يعامل النساء. لم يكن يعاملهنّ معاملة حسنة. عنده زوجةٌ باهرةُ الجمال، ولكنّ الشائعاتِ كانت تحيط بها دائمًا. أصاب حضورُه إِميليا ببعض الضِّيْق.

وَثَبَتْ من قبالة واجهة المكتبة حتّى تتهيّأ للقائه. رنَّ جرسُ الباب الداخلي وولج المكتبة. ابتسمت أعرض ما تكون الابتسامة وقالت:

- أيّ خدمة؟

- مرحبًا إِميليا.

مدَّ يدَه ولم يكن أمامَها فعلًا أيّ خيارٍ سوى مصافحَتِه. أضاف:

- جئتُ لأعزِّيْكِ. رحمَ اللهُ والدَك وتغمَّدَه بواسع المغفرة.

قالت إِميليا، بحَذَرٍ:

- شكرًا لكَ.

ثم أردف:

- أعرف أنّ ذلك ربّما يبدو سابقًا لأوانه بعضَ الشيء، ولكنّ خيرَ البرِّ عاجلُه. ربَّمَا سمعْتِ أنّني بحثتُ الموضوعَ مع أبيكِ. ورأيتُ أنّه من الأدب أن آتي وأقابلك شخصيًّا لمناقشته معك. فأنا أحبِّذ أن أفتحَ مواضيعَ التجارة بشكلٍ مباشرٍ؛ لأنّي أحبُّ الحديث وجهًا لوجه. لذا آمل ألَّا تكوني قد تضايقتِ.

ابتسرَ ما ظنَّ أنّها ابتسامةٌ ساحرةٌ.

- إمممم.

قالت إِميليا، دونما اهتمام، ودون أن تتنازل بمقدار شعرة.

- كلّ ما أريدكِ أن تعرفيه هو أنّ العرض الذي عرضته على أبيك لا يزالُ قائمًا كما هو. في حال كنتِ محتارةً ماذا تفعلين بالمكتبة.

- لستُ محتارة فعلًا. فأنا سأديرُها اعتبارًا من الآن. وصدِّقني أنَّه لن تثنينيَ عن عزمي كلُّ أموال الدنيا.

- هذا أفضل عرضٍ تحصلين عليه. هذه المكتبة مهمّة بالنسبة لي أكثر من أيّ إنسانٍ آخرَ.

عبست إِميليا وقالت:

- لا أفهم ما لم تفهمه؛ لن أبيعَ.

بادرها إيان بهزّة كتفَين مغرورة، وكأنَّه أرادَ أن يقولَ لها بأنّها ستعدلُ عن رأيها في آخرِ الأمر.

- أريدُكِ فقط أن تعرفي بأنَّ العرضَ لا يزال قائمًا. ربّما تغيِّرين رأيكِ بعد أن تستقرّ الأحوال. أظنّ أنّها فكرة ممتازة إذا كنتِ ترغبين في الاستمرار في فتحِ المكتبة، ولكن إذا تبيَّن لكِ بأنّ إدارتها أصعبُ بقليل ممّا تَخيَّلتِ...

ثم مدَّ يدَيه على جانبي جسمه.

- شكرًا لكَ. ولكنّي أنصحُك ألَّا تبنيَ بيوتًا من وَهْمٍ، كما يقولون.

كانت فخورةً لأنّها لم تتزحزح عن موقفِها. فخورةٌ بأنّ أبيها علَّمها بأنَّ الحياةَ فيها أشياءُ أهمُّ من المال. صار الجوُّ مأفونًا برائحة ثروة إيان مينذِب؛ برائحة معطِّر الحلاقة الباهظ الثمن الذي وضعه والذي كان يعبق في الجوّ ويشي بالقوة والجبروت.

ودون أن تبدوَ عليه أماراتِ الارتباك، أعطاها بطاقتَه وقال:

- تعرفينَ أين تجدينَني. اتّصِلي بي في أيّ وقتٍ تشائين.

نظرت إليه وهو يغادرُ المكتبةَ ويصعدُ سيَّارته. برمت عينيها نزقًا بينما انسابت السيّارة على الشارع السريع. أقبل ديف مسرعًا صوبَها وقال:

- هل جاء ليشتريَ المكتبة؟

- نعم.

- أرجو أن تكوني قد قُلْتِ له أنْ ينقلعَ من هنا.

- هذا ما فعلتُه.

أومَأ ديف بجدِّية قائلًا:

- كان أبوك يعدُّه شخصًا متعجرفًا.

بشعره المصبوغ بالأسود والمربوط إلى الوراء على شكل تسريحة ذيل الفرس، وبَشَرَته الفاتحة وأوشامه التي لا تعدُّ ولا تُحصى، لم يكن ديف ينتمي إلى النَّمَط من القوم الذي تتوقّع أن تجدَه في مكتبة. كلّ ما تعرفُه إِميليا عنه بالفعل هو أنّه لا يزالُ يعيشُ مع أمِّه وعندَه سحليةٌ حرشفية الوجه تدعى بيلبو. ولكنَّ معرفتَه في الأدب معرفةٌ موسوعية، وأكسبَهُ ذلك محبَّة الزبائن. شعرَت إِميليا بموجةٍ من الإعجاب به أيضًا؛ إعجابٌ نابعٌ من وفائه وكياسته.

- كلّ ما أريدُكَ أنْ تعرفَه يا ديف هو أنّني لا أدري، بالضبط، ماذا أفعلُ بالمكتبة حتّى الآنَ. كلُّ شيءٍ مقلوبٌ رأسًا على عقبٍ نوعًا ما. ولكنّي لا أريدُك أن تقلق. أنتَ لكَ قيمةٌ كبيرةٌ هنا. كان أبي معجبًا بكَ أيَّمَا إعجاب...

- أبوكِ أسطورة. لا تقلقي. أنا أتفهّم المسألة. فالأمرُ صعبٌ عليك.

وضعَ يدَه بلطفٍ على كتفها. كانت يدُه مليئةً بالخواتم المحفورة على شكل جماجم.

لكمته إِميليا لكْمَةً ممازحةً وقالت:

- كُفَّ عن ذلك. ستجعلُني أبكي مرة أخرى.

مضَتْ صوبَ الأرفف، لتنتقيَ مجموعة أخرى من الكتب. كانت تأملُ، وقد تملَّكَها اليأس، بأنّ الأمورَ ستبقى على حالها. تمامًا كما كانت. ولكنّ الأمورَ لم تكن سوى فوضى من الأوراق، ونسخة عن الوصية وشريط اللاصق الأحمر. اطَّلَعَت على أوراقِ أبيها وكشوفِه البنكية وأعطتها كلّها لأندريا بقلبٍ وَاجِفْ. تمنَّت لو أنَّها ناقشت تلك المسائل معه باستفاضةٍ أكبر، ولكن عندما يكون المرء على سرير الموت فإنّ آخرَ ما يخطرُ في بالك الحديث فيه هو الميزانيّات العمومية. ومشكلةُ ميزانيّات أبيها العمومية أنّه لم يكن فيها ما يمّت لكلمة ميزانية بِصِلَة.

قالت في سرِّها إنَّ الأمور لا يمكن أن تكون كلّها سيّئة. فالمكتبة مُلْكُها، ولديها موظَّفُون أوفياء، ومئات الكتب وزبائن رائعون. ستهتدي إلى سبيلٍ لتبقي المكتبة في أوضاع مالية تُمَكِّنُها من الاستمرار. ربّما كان ينبغي لها أن تعود من هونغ كونغ منذ مدّة، بدلًا من التسكُّع مسافرةً حول العالم وهي تحاولُ

اكتشافَ مواهبِها وميولِها. ليست بحاجة للمزيد من الاكتشاف. إدارة هذه المكتبة خُلِقَتْ لها؛ مكتبة نايتِنْغيل. ولكنَّ أباها أصرَّ عليها لكي تسافر. وكأنَّه طرَدَها تقريبًا خارج عشها الذي ترعرعت فيه بعد أنْ خاضت غمارَ علاقةٍ فظيعةٍ مع رجلٍ من أكسفورد تبيَّن بأنّ طليقتَه لا تزالُ مرتبطةً به بعد أنْ أدرك في محصِّلة الأمر أنّ الطلاقَ سيكلِّفُه مبلغًا كبيرًا. لم تكن مسؤولةً لا من قريب ولا من بعيد عن انفصاله عن زوجته، وظنَّت أنّها تأتي عملًا جيدًا بجعلِه يتجاوزُ تلك الأزمة، ولكن بدا أنَّها لم تشكِّل له غنيمة مجزية. حسبت إِميليا أنَّ فؤادَها انكسر. ورَفَضَ أبوها أن يتركَها تستسلمُ للحزن والكآبة فابتاع لها في عيد ميلادها تذكرةً للسفر حول العالم.

قالت له مازحة:

- أهي تذكرةُ ذهابٍ دونَ عودة؟

كان محقًّا في رغبته بجعلِها توسِّع من آفاق نظرتها للعالم؛ بالطبع كان محقًّا، إذ سرعان ما أدرَكَتْ أنَّ فؤادَها لم يكن كسيرًا على الإطلاق، ولكن من الجيِّد إبعادها مسافة ما عن عشيقها السابق. رأت في أسفارِها أشياءَ مدهشة، شاهدت الشمسَ تشرقُ وتغربُ في شتَّى معالِم الأرض. لن تنسى، ما دام فيها قلبٌ ينبض، شعورَها بأنها كانت تحلِّق بين الغيوم بكلّ

ما في الكلمة من معنى، في الطابق الثامن عشر حيث تقع شقّتُها في هونغ كونغ، مُطلَّة على الميناء.

ومع ذلك، ورغم كلّ مغامراتِها والأصدقاء الذين تعرَّفت عليهم، أيقَنتْ بأنَّها لا تستطيعُ البقاءَ مثلَ عصفورة تطيرُ من غصنٍ إلى آخرَ. فبيزبروك وطنُها، وستبقى دائمًا وطنَها.

* * *

اعتادَتْ تومَسينا ماثيوز المجيء إلى مكتبة نايتِنْغيل بعد ظهيرة يوم الثلاثاء مرةً واحدةً في الشهر- وهي الظهيرة التي تكونُ فيها في إجازة من عملها كلّ أسبوع- وتنتقي كتابًا جديدًا من كتب الطبخ. كان الكتاب بمثابة هدية تهديها إلى نفْسِها. امتلأتِ الأرففُ في كوخِها بالكتب منذُ زمنٍ، ولكن لا يوجد، في رأيها، حدودٌ لعدد كتب الطبخ التي يمكن للمرء أن يقتنيَها. قراءة كتب الطبخ وسيلَتُها للاسترخاء والالتجاء من هموم العالم، حيث تتكوَّر في السرير ليلًا وتقلِّب أوراق الكتب مستعرضة وصفات الطعام، وتطَّلِع على صنوفه في الثقافات الأخرى أو تقرأ بنَهَم الوصف الذي يُسَيِّل اللعابَ الذي خطَّته أناملُ مشاهير الطهاةً أو عشّاق الأكل.

فحتَّى مدة ليست ببعيدة، كانت تقضي ما بعد الظهيرة وهي تدردش مع يوليوس نايتِنْغيل، الذي أرشدها صوب عددٍ من الكتَّاب الذين ما كانت لتقرأ كُتُبَهُم لولا نصيحته. كان مفتونًا بالطعام هو الآخرُ أيضًا، وما انفكّت تُحْضِرُ له بين الفينةِ والأخرى بعضًا ممّا طَبَخَتْه: شريحة من لحم الطرائد وصلصة الكشمش، أو قطعة من فطيرة المشمش أو فطيرة زهور الفرانجيباني. كان دائمًا يقدِّر هذه اللفتة منها ويعطيها رأيًا موضوعيًّا فيما حضَّرَته من طعام، وقد أحبَّتْ فيه خَصلة عدم خشيته من توجيه النقدِ أو إبداءِ اقتراحِ ما. كانت تحترمُ رأيَه. فلولا يوليوس، ما كان لها أنْ تعرف كاتباتٍ مثل أَلِسْ ووترز أو كلوديا رودِن؛ أو لنقل: لولاه لتأخَّرَت في معرفة كتاباتهما على أيّ حال؛ فما من شكٍّ في أنّها كانت ستهتدي بنفسها إلى اسمَيهما في نهاية المطاف.

قال لها يوليوس بنبرةٍ شبه صارمة:

- الموضوع ليس موضوعَ صُوَرٍ، بل كلمات. فمؤلّفُ كتب الطبخ المُبْدِع يستطيع أن يجعلَكِ تشاهدي الطبق، وتشميه، وتتذوقيه، دون الحاجة إلى الصور.

ولكن يوليوس رَحَلَ عن هذا العالم. قرَأتْ خبرَ وفاتِه في مجلّة بيزبروك أدفِرتايزَرْ الموضوعة في غرفة المدرِّسِين. خبَّأت وجهَهَا خلفَ المجلَّة بينما سالت الدموع على وجنتَيها. لم ترغب أن يراها أحدٌ وهي تبكي. فقد ظنَّ الجميعُ أنّها كانت مخلوعةَ الفؤادِ بما يكفيها ويزيد. فهي امرأةٌ خجولٌ. ولذا لم تشارك في جلسات المزاح التي تجري في غرفة المُدرِّسين أو تخرج في سهرات ليلية مع الآخرين. كانت انطوائيةً انطواءً يبعث على الأسى. تمنَّتْ لو أنّها لم تكن كذلك، ولكن ما من شيءٍ يمكنُها أن تفعلَه إزاءَ ذلك. وقد حاولت أن تتخلَّص من طبعِها ذاك.

يوليوس أحدُ القلائل في العالم الذين لم يجعلوها تشعرُ بالارتباك والخجل. فقد جعلَها تشعرُ بأنّه من حُسنِ سلوكِ المرء أن يتصرَّف على طبيعتِه لا شيءَ سوى ذلك. ولَم تعد المكتبة تمنَحُها ذلك الشعور دونَ وجودِ يوليوس. لم تذهب إلى هناك منذُ أن سمعَت بالنبأ، ولكن الآن، ها هي ذي في المكتبة، تقف متردِّدةً بعتبة بابِها. ها هي ترى إِميليا، ابنة يوليوس، وهي تضفي اللمسات الأخيرة على كتبٍ معروضة في الواجهة. استجمَعَتْ شجاعتَها لتذهبَ وتتحدَّث معها. كلّ ما أرادت أن تقولَه لها هو أنّ يوليوس كان يعني لها الشيءَ الكثير.

كانت تومَسينا أدنى بثلاثة صفوف دراسية من إِميليا في المدرسة، وكانت لا تزالُ تشعرُ بالرهبة التي تعتري طالبةَ

صغيرة من طالبة أكبر منها. فقد كانت إِميليا معروفة في المدرسة، وتمكَّنت من تحقيق مكانة تفوق الوصف، فهي ذكية ومخلصة في عملها ولكنّها أيضًا هادئةُ الطبعِ نوعًا ما. لم تكن تومَسينا هادئةَ الطبعِ. ظنَّت نفسَها أحيانًا غيرَ واثقةٍ من نفسِها على الإطلاق. لم يُعِرْهَا أحدٌ أيِّ اهتمامٍ قطّ. كان عندها عددٌ قليلٌ من الأصدقاء ولم تفهم سِرَّ ذلك على الإطلاق. لم تكن بالتأكيد فتاةً مميَّزَة. ولكن عندما تكونين خجولةً وسمينةً وعاديةَ الذكاء وفظيعةً في الرياضة، فلن يبديَ أحدٌ أيَّ اهتمامٍ خاصٍّ بكِ، حتّى ولو كنتِ ظريفةً ولطيفةً وعطوفةً على الآخرين.

بات الطبخُ ملاذَ تومَسينا. فهو الميدانُ الوحيد الذي برعت فيه في حياتِها. التحقَت بمدرسة لتعليم فنون الطبخ، وهي الآنَ تدرِّسُ مادة تقنيات الطبخ في المدرسة التي درَسَت فيها ذات يوم. وفي العطلات الأسبوعية، كانت تشرفُ على مطعم أَديو الذي ربّما حسبته أصغر مطعم في بريطانيا، ففيه طاولةٌ لشخصَين في كوخِها الصغير حيث كانت تطهو وجباتِ عشاء خاصّةً بالمناسبات لكلّ من يرغبُ في الحجز. تفاجئَتْ وقد غمرتها الفرحة من النجاح الذي حقَّقَه المطعم. فقد أحبَّ القومُ الحميميةَ التي تنطوي عليها فكرةُ قيامِها بالطبخ لشخصَين. كان طبْخُهَا رفيعَ المستوى. وبالكاد حقَّقَت أيّ أرباح؛ بل كان جلُّ ما تفعلُه استعمال أفضل المكوِّنات في الطبخ فحسب، ولكنّها فعلت ذلك لأنّها كانت تحبُّ النظر إلى الناس يخرجون إلى أجواء الليل وهم يغلُون من الشَّرَه، ويثملون من لذّة الأكل.

ومن دون مطعم أَ ديو، كانت ستكونٍ وحيدة في العطلات الأسبوعية. شَغَلَهَا المطعم ومنحها نشاطًا تمارسه، منحها دافعًا، وبعد أن تقومَ بتوضيب الكوخ في صباح يوم الأحد كان لا يزالُ أمامَها اليوم بطوله لنفسِها لتتابع أشغالها وغسيلها وتصحيح أوراق امتحانات طلابها.

اعتادت على البقاء وحدَها، لا بل إنَّها سلَّمَت بذلك الأمر الواقع؛ لأنّها شعرت بأنّ لديها القليلَ من الخصال التي يمكن لها أن تجودَ بها على عاشق محتمل. كان لها وجهٌ مدوَّر بوجنتين محمرَّتين احمرارًا شديدًا ما انفكتا تزدادان احمرارًا بقليلٍ من التشجيع، وكان شعرُها سحابةً من الخُصلات المكزكزة بلون الفئران. ذهبت ذات مرّة إلى مصفِّف شعر نسائي ونظرَ إليه باشمئزازٍ وقال شاهقًا:

- ليس هناك الكثيرُ من الحلولِ التي يمكنني أن أقومَ بها لهذا الشَّعْر. كلّ ما سأفعلُه أنّني سأتخلَّصُ من الأطراف المتقصِّفة.

خرجت من الصالون دونَ أيّ فرقٍ واضحٍ في هيئتها، وقد سرَحَتْ في أحلامِها بالخروج بعُفْرَةٍ شعرٍ مشرقة. منذ ذلك الحين دأبت بنفسها على قصِّ أطراف شعرها المتقصِّفة.

تفاجأت بأنَّ طلابَها أحبُّوها، وكانت حصّتُها من أكثرِ الحصصِ حضورًا، من الصبايا والشباب؛ لأنّها فتحت بصيرتهم على مَبَاهِجِ الطبخ ولم تسمح لأكثر الطلاب المهووسين بالوجبات غير الصحية بمغادرة صفّها إلَّا وهم يحملون طبقًا شهيًّا طهوه بأنفسهم. عندما كانت تتحدَّث عن الطبخ كانت تتحدَّث بثقة وعيناها مشرقتان وحماستها مثيرة للذهول. أمّا خارج المطبخ، سواءً في البيت أو المدرسة، فكانت معقودة اللسان.

وهذا هو السبب الذي دفعَها للانتظار حتّى فرغت المكتبة من زبائنها قبل أن تقتربَ من طاولةِ الحسابِ وتُعَزِّي إِميليا.

- تومَسينا!

قالت إِميليا، وتورَّدتْ خدود تومَسينا جذلى لأنّ إِميليا عرَفَتْها.

- لم تفارق سيرتُك لسانَ أبي. عندما كان في المستشفى قال بأنّه سيأخذني إلى مطعمِك عندما تتحسَّنُ صحّتَه.

اغرورقت عينا تومَسينا بالدموع، وقالت:

- أوه، كنتُ سأتشرَّف بأن أطبخَ له. رغمَ أنّه ليس مطعمًا حقًّا. ليس مطعمًا بالمعنى الدقيق للكلمة. فأنا أطبخُ للزبائن في كوخي.

- كان مُعجبًا جدًّا بكِ... أنا أعرف ذلك. قال إنّكَ كُنْتِ إحدى أفضل زبوناته.

قالت تومَسينا بقلق:

- ستُبْقُون المكتبة مفتوحةً، أليس كذلك؟ فالمجيءُ إلى هنا يُعدُّ أحدَ الأمور التي تشدُّ من أزري.

- نأملُ ذلك.

- لا بأسَ، أردتُ فقط أن أقول لكِ كم أنّني... كم أنّني أفتقده.

- تعالي إلى حفل التأبين الذي سنقيمُه له الخميس القادم في كنيسة سينت نِكْ. وإذا ما رغبتِ في إلقاء بضع كلمات، فالأمرُ مفتوحٌ للجميع. فقط أخبريني ما تودِّين إلقاءَه في المناسبة؛ قراءة نصوص دينية، أو قصيدة شعر، أو غير ذلك.

مَنَعَتْ تومَسينا نفسَها من قول شيء وشيك. أراد أن تقول نعم بملء جوارحِها، إحياءً لذكرى يوليوس. ولكن التفكير بالوقوف أمام جمهرةٍ من الناس الذين لا تعرفهم بثَّ في أوصالها الذعر. ربّما تنسى إِميليا الفكرة؟ تعرف تومَسينا من تجربتها بأنّها إنْ اعترضت على اقتراحٍ ما، فإنّ إصرارَ الناسِ يزدادُ أكثرَ فأكثر، أمّا إذا وافقت بطريقة مبهمة، فإنّ ما طرحوه من أفكارٍ في الأعمّ الأغلب يتلاشى في غياهب النسيان.

- تبدو فكرة رائعة. أيمكنني أن أفكِّر بما سأقوله وسأبلّغُك بذلك؟

- بالطبع.

ابتسمتْ إِميليا. ذهلت تومَسينا من مقدار الشبه الكبير بين إِميليا وأبيها. فقد ورثت عنه دِفْئَه وأسلوبه الذي يجعل مُحَدِّثَه يشعر بأنَّ له مكانة خاصّة في قلبه.

اندفعت عائدةً إلى قسم كتب الطبخ، وقضت نصفَ ساعةٍ بالتمام والكمال وهي تستعرضُ الكتب. قلَّصت الخيارات المتاحة أمامَها إلى كتابَين، وكانت تحملُهما معًا، وهي تتفرَّس فيهما، عندما أَجْفَلَها صوتٌ من ورائِها؛ صوتٌ جعلها تقفز مذعورة.

- عليكِ بالتأكيد بكتاب أنطوني بوردين. فهو كتابٌ لا نظيرَ له.

التفتَتْ، وشعرَت بوجنتيها تتقرْمَزَان خجلًا. ميَّزتْ المتحدِّث، ولكنّها لم تستطع أن تعرفَه على وجه اليقين. أيمكن أن يكونَ زبونًا جاء إلى مطعمها؟ كان النقيض لها في الملامح الجسدية؛ إذ كان طويلًا ونحيفًا في حين كانت هي قصيرة ومربوعة.

انفطر قلبُها لأنّها لم تعرفه، كانت متأكّدة أنَّها رأته في مكانٍ ما.
تابَعَ مُرَاقِبُها المجهول قائلًا:

- فهو أفضلُ كتابٍ قَرَأْتُه في عالم الطبخ.

وما لبِثَتْ أن تذكَّرتْ. كان يعمل في محلٍّ لبيع الأجبان. لم تستطع أن تميِّزَه دونَ طاقيتِه البيضاءِ ومئزره المخطَّط، فقد كان يرتدي بنطالًا من الجِينْز وسترة، وأدركتْ بأنّها لم ترَ شعرَه قطُّ رؤيةً تُسهِّل عليها معرفته: كان شعرًا مجعَّدًا وخفيفًا وبدا وكأنَّه ملاكٌ من الكاروبيم(34) بوجهه الطفولي ذي الخدود البارزة. اعتادت دائمًا شراء الجبن من هناك، فدائمًا ما احتوت دروسها على وجباتٍ كان الجبن أحد محتوياتها، مع بسكويت الشوفان الذي تحضِّره بنفسها في الكوخ وجيلي السفرجل ومخلَّلات الريباس. وقد باعها بضعَ مرَّات، واقتطع لها شرائحَ رفيعة صغيرة من أجبان كوتيه أو تاليغيو أو غوبين لكي تجرِّب مذاقها، اعتمادًا على محتويات الوجبة التي كانت تطبخها في تلك الليلة.

أردف، وهي ترى وجنتَيه تتورَّدَان مثل وجنتيها:

- أنا آسف، لم يكن قصدي أن أقطعَ عليكِ بحثَكِ بين الكتب، ولكنّه أحدُ أفضلِ الكتبِ من وجهة نظري.

- ينبغي لي أن آخذَه إذًا.

ابتسمَتْ، وأرجَعَتْ الكتاب الآخر، ثم أضافت:

- لم أعرفكَ في البداية.

أبعد خُصلات شعرِه عن وجهه وسرَّحَها على شكل قبَّعَة بيدَيه. ضحكت. لسببٍ ما لم تشعر بالإحراج. كما أنَّها لم تستطع أن تفكِّر بأيّ كلماتٍ تقولُها.

- أنتَ تحبُّ الكتبَ إذًا؟

هذا كلُّ ما استطاعت قولَه. يا لَها من جملةٍ عرجاءَ سخيفة!

- نعم، ولكنّي لم أستطع أن ألتهمَ واحدًا كاملًا.

عَبَسَتْ، وهي غيرُ متأكّدة ما الذي قصدَه بجوابه. ثم قال:

- هذه نكتة. نكتة سمجة. والمفروض أن تكون ردًّا على السؤال التالي: هل تحبُّ الأولاد؟

نظرت إليه وكأنّما على رأسِها الطير.

ثم أوضح لها قائلًا:

- أنا أعشق الكتب. ولكن بالكاد لديّ الوقت للقراءة. أنتِ لا تتخيَّلين مدى الإرهاق في العمل في محلِّ الأجبان.

- لا، لا أتخيَّل مدى صعوبته. ولكنّي أظنّه عملًا رائعًا. أكنتَ دائمًا تعمل في بيع الأجبان؟

نظر إليها وقال:

- أتحاولين السخرية منِّي؟

قالت، وقد ذعرت من أن يظنَّ تلك الظنون:

- لا، على الإطلاق.

- جيِّد. فالبَشرُ هم الوحيدون الذين يسخرون من مهنة الجبَّان. يبدو أنّهم يجدون فكرة العمل في بيع الأجبان أمرًا مضحكًا. فحيثما ذهبْتُ، لا أسمع سوى نكاتٍ عن الأجبان.

- نكات عن الأجبان؟ وهل في جَعبتك أيّ منها؟

- إليكِ هذه: أي نوعٍ من الأجبان تستخدمين لمكياج عينيك؟

هزَّت تومَسينا كتفيها وقالت:

- لا أعرف.

- جبنة (الماسْكَرَا) بونـي. أيّ نوعِ من الأجبان ترين في الأحلام؟

- إمم... لا أعرف أيضًا.

- جبنة الحَلُّوم.

لم تستطع تومَسينا سوى أن تضحك، وقالت:

- نِكَاتٌ فظيعة.

- أعرف. ولكن ينبغي لي إلقاء النكات حتّى أقطعَ الطريقَ على أيّ شخصٍ يريدُ أن يسخرَ منّي. لأنّي لا أستطيعُ تحملَ ذلك.

نظرت إليه وقالت:

- لا بدَّ أن في جَعبتك نكتة ما عن جبنة الكاممبير.

أومأ بملامحَ جدّية.

- نعم يوجد. ولكن دعينا لا نصل إلى مستوى تلك النكات.

نظر إلى الأرفف ثم أضاف:

- على أيّ حالٍ، جِئتُ لأشتريَ هديةً لأمّي. فهي تحبُّ كتب الطبخ، ولكن أظنّ أنّني اشتريتُ لها كلَّ كتب الطبخ الموجودة في هذه المكتبة. ولذا فأنا محتارٌ ماذا أشتري لها.

- هل تحبُّ أمُّك الرواياتِ؟

جعَّد أنفه وهو يفكِّر ثم قال:

- أظنُّ ذلك... فهي تقرأُ دائمًا. أعرفُ أنّها لا تكفُّ عن القراءة.

أومأت تومَسينا برأسِها. ثم قالت:

- يمكنكَ أن تهديَها رواية لها عَلاقة بالطعام. مثل رواية حرقة الفؤاد تأليف نورا إفرون(35). رواية مضحكة ولكنّها حزينة وفيها وصفات للأكل. أو ربّما رواية شوكولا(36)؟ كما يمكنك أن تشتريَ لها مع الرواية علبةً كبيرةً من الشوكولا من متجر الشوكولا وتهديها إيَّاها مع الرواية.

غلبت تومَسينا الحماسة. ثم أردفت:

- لو كنتُ مكانكَ لوددت أنْ أفعلَ ذلك.

نظر إليها، وقد أعجبه اقتراحها، وقال:

- سيعجبُها ذلك. أنتِ عبقرية.

نظر في أرجاء المكتبة وقال:

- وأين أجدُ هذه الكتب؟

أَرْشَدَتْه تومَسينا إلى أرففِ الروايات والقصص ووجدت الكتابَين اللذَين تحدَّثَتْ عنهما. قالت له:

- هذان الكتابان من الكتب الأساسية في أيّ مكتبة.

بدا مرتبكًا.

- كما تعلم، فهناك بعض الكتب التيّ تعيرُها أو تضيِّعُها أو تتبرَّعُ بها إلى متجر دعم الأعمال الخيرية، ولكن ينبغي

الاحتفاظ بهذَين الكتابَين مدى الدهر. فقد قرأت كتاب حرقة الفؤاد حوالي سبع عشرة مرّةً.

تورَّدَت وجنتاها؛ لأنّها دائمًا ما كانت تستحي كلّما تحدَّثَت عن نفسِها. ثم أردفت:

- ربّما عليَّ أن أكسرَ رتابةَ حياتي.

تكسر رتابة حياتها؟ إذا ما أخطأنا في الاقتباس من كتاب ألِسْ في بلاد العجائب، كيف لها أن تكسر رتابة حياتها إذا كانت لا تبرحُ البيتَ على الإطلاق؟

ربَّتَت على كتفِها وشَعرَتْ بجسدِها يضطربُ كلُّه من الداخل. اضطربَ جسدُها وارتبك.

- حسنًا، أنتِ لطيفةٌ بالتأكيد. هل ستزورينني في محلّ الأجبان؟

ابتسمت له وأرادت أن تحكيَ أكثر، ولكنّها لم تدرِ ما تقول، ولذا اكتَفَتْ بأنْ أومأتْ برأسها. ثمّ مشى الهُوينَى صوبَ طاولة الحساب وتنبَّهتْ إلى أنَّها لم تعرف حتّى اسمه.

نظرت إليه وهو يدردش مع إِميليا ويدفع لها ثمن ما اشتراه. كان حنونًا وودودًا وصريحًا إلى أبعد الحدود. إضافة إلى أنَّها لاحظت أمرًا آخر. لم يجعلها تشعر بالخجل وبانعقاد اللسان. شعرت تقريبًا كأيّ إنسانٍ طبيعي وهي تتحدَّث معه. كان الأمرُ سهلًا. نعم، صحيح أنَّ وجنتَيها احمرَّتا خجلًا، ولكنّها دائمًا تشعرُ بالخجل. كان ذلك طبعَها الذي لا يفارقُها.

الشخص الوحيد الآخر الذي لم يجعلها تشعر بالخجل كان يوليوس. ربّما يكون ذلك بسبب المكتبة؟ ربّما كان هناك سرٌّ ما في أجوائها جعلها تصير الشخصية التي تتمنّاها؟ أن تصيرَ إنسانةً قادرة فعليًّا على خوض غمار محادثةٍ مع الآخرين؟

مضت لكي تدفعَ ثمنَ كتابيها واستجمعت شجاعتَها حتّى تسأل إِميليا.

- أتعرفين اسمَ ذلك الرجل؟ الرجل الذي كُنْتُ أتحدَّث معه للتو؟ أعرف أنه يعمل في محلِّ الأجبان.

- تقصدين جِمْ؟ اسمه جِمْ غوزلنغ. رجلٌ طيُّوب. اعتاد أن يُحْضِرَ لأبي دائمًا آخر ما عنده من جبنة بْرِي عندما كانت تنفد من عنده.

أطرقت تومَسينا رأسَها وهي تنظر إلى طاولة الحساب. لم تستطعْ، إيْ والله لم تستطع، أن تسألَها إذا ما كانت لديه صاحبة. كان تعلم أن هناك نساءً أكثر جرأة منها ممّن يملكن الشجاعة الكافية. ولكن كلَّ ما في الأمر أنَّ تومَسينا لم تكن تنتمي لصنف النساء ذاك.

نظرت إِميليا إليها. بدت عارفةً بما كانت تفكِّر. ولكن ليس بطريقة فجَّة.

قالت على سجيّتها:

- حسب معلوماتي فهو غيرُ مرتبط. كانت له صاحبةٌ ولكنّها ذهبت إلى أستراليا. اعتاد أن يأتيَ إلى المكتبة ويتحدَّث معِ أبي في الأمر، في الأيّام الأولى لمغادرتها. ولكنِّي أظنُّه تجاوَزَ تلك الأزمةَ على الأرجح.

شعرت تومَسينا بالارتباك. لم تدرِ ما تقول. لم تشأ أن تعترضَ وتقول لها إنَّها ليست بحاجة لمعرفة أيّ من تلك التفاصيل عنه؛ لأنَّ ذلك سيبدو ضربًا من الوقاحة. ولكنْ كَبَحَ جماحَها خشيتُها أنْ تظنّ إِميليا أنّها مولعةٌ بجِمْ. كانت تأملُ بأنّ إِميليا لن تخبرَه بأيّ شيء إذا ما رأته، حتّى ولو كان ذلك على سبيل المزاح. تلك الفكرة بالذات جعلتْهَا تشعر بالوهن. غيَّرت الموضوعَ بأسرع ما يمكن، وهي تأملُ بأنّ إِميليا ستنسى أنّها أتَتْ على ذِكْرِ اسمِه أساسًا. لم يكن منها إلَّا ووجدت نفسها تقول لإِميليا:

- بالمناسبة، عندي رغبةٌ كبيرةٌ في أن أقرأ شيئًا في حفل التأبين.

ابتسمتْ إِميليا وقالت:

- رائع! ولو سمحتِ أن تحيطينني علمًا بما ستقرأين حتّى أتمكَّن من إضافته على جدول فقرات الحفل.

أومأت تومَسينا برأسها، ووجيف الرهبة يطرق في أذنيها. يا إلهي! لماذا قالت ذلك؟ فهي لا تستطيع الوقوف والتحدُّث أمام الجمهور، في كنيسة تعجُّ بالناس. بيدَ أنَّ الآوان فات كثيرًا الآنَ على التراجع. فها هي إِميليا تدوِّن اسمَها في قائمة المشاركين. لم يكن بوسعها التراجع، إذ سيحملُ ذلك في مضامينه عدم الاحترام لذكرى يوليوس.

وهي تشعر بوهن خفيف، دفعت ثمن كتابها بأسرع ما استطاعت وغادَرَتْ المكتبة.

(33) السِّيْر پيلهَم وُدْهاوس (١٨٨١ – ١٩٧٥): روائيٌّ أمريكيٌّ ساخرٌ، وُلد في إنجلترا.

(34) ملاكٌ مصَّورٌ على هيئة طفل مجنَّح.

(35) نورا إفرون (١٩٤١ – ٢٠١٢): صحفيّةٌ، وكاتبةٌ، ومخرجةُ أفلام أمريكية.

(36) روايةٌ للكاتبة الإنجليزية جوان هارِس (١٩٦٤ - .....).

الفصل الرابع

- زهرة ديسبغي الصفراء على وشك التفتُّح. كلّ ما في الأمرِ أنّها ليست متألّقة. وسوف تكسر قلبي. فهي موجودةٌ هنا منذُ زمنٍ بعيدٍ على ما أذكر. ولكنّي لا أظنُّ أنّ هناك أيَّ أملٍ.

هذا ما قالته سارة بازِلْدُن عن زهرتها وكأنّها تتحدَّث عن حيوانٍ أليفٍ أثيرٍ على قلَبِها وهي موشكةٌ على قتلِهِ لتريحَه من آلامِهِ. تحرَّكت أصابعُها بلطفٍ على الموضعِ الذي شغلته الزهرةُ الذابلةُ في مخطّط نباتات الحديقة، وكأنَّها كانت تواسيها عساها تتحسَّن. قال ديلُن:

- سأُخْرِجُها حتّى يزولَ عنك الهمّ. ينبغي ألَّا تعرفي بمصيرها. وحالما نتخلّص منها فعليًّا، ربَّما لن تنتبهي لغيابها.

ابتسمَت سارة ابتسامة تشي بالامتنان وقالت:

- أوه، أعرف. ولكن ذلك لطف منك. أنا فقط ضعيفة الفؤاد كثيرًا.

بالطبعِ، كانت سارة أبعدَ ما تكونُ عن الضعف في الواقع. فهي صاحبةُ شخصيةٍ رهيبة، وينعكسُ ذلك في ملابسِها أيضًا، ابتداءً من جزمتِها الطويلة وانتهاءً بملابسها المحبوكة من قماش الدنيم الكثير العُرَى. كان ديلُن غرين معجبًا بها أشدَّ ما يكون الإعجاب.

وكانت هي تكن له محبّة خاصّة. كانا قريبين أحدهما من الآخر أشدَّ ما يكون القرب، هي الأرستقراطية وهو الصبي الجاسئ اليدين ابن الأسرة الكادحة، وهي تكبرُه بثلاثين عامًا. لم يحبَّا شيئًا أكثر من الجلوس في عتْمة حجرة الزهور، يحتسيان شايًا ثقيلًا مسخَّنًا على الجمر ويغمسان فيه بسكويت كريم الكستَرْد. كانا يأتيان على علبة من البسكويت بسهولة وهما يتجاذبان أطراف الحديث، ذات صباح، عن شؤون الناس وقضايا الحدائق.

انتشرت مخطَّطات زراعة الزهور التي هيَّأتْها سارة للسنة الموالية على طاولة ذات حاملين خشبيين جاثمةً وسط الحجرة، والأسماء اللاتينية متناثرة في كلّ ركنٍ من أركان المخطَّطات وقد كتَبَتْها بخطٍ مائل أسود صغير. كان ديلُن يعرفُ الأسماء

كلَّها مثلما تعرفُ هي الآنَ، فقد بدأ العمل معها في عزبة بيزبروك مانُر مذ أنْ ترك المدرسة.

على غرار المنازل الفخمة، كانت عزبة بيزبروك مانُر تحوي منزلًا صغيرًا يؤنس القلب: منزل متناسق تناسقًا يسرُّ الخاطر مبني على طُرُزِ بيوت عصر النهضة من أيام پالاديو(37)، مبني من الحجارة الذهبية اللون يعلوها سطحٌ مقبَّب، في أرض زراعية تتهادى صعودًا وهبوطًا على مساحة مائتي دونم. عندما التحق ديلُن بالعمل كبستاني مستجد مسؤول عن جزٍّ أعشاب المروج، سرعان ما حظي بدعم سارة. ولم يكن متيقِّنًا من الخصال التي أعجَبَتْها فيه؛ فقد كان شابًّا خجولًا في السابعةَ عشرَ من عمره ولم يكن راغبًا في الالتحاق بالجامعة كما نصحه معلِّمُوه في المدرسة؛ لأنه ما من فرد آخر من أفراد أسرته التحق بالجامعة من قبلُ. وقد عمل كلّ أفراد أسرته أعمالًا ميدانية، وأبْلَتْ ظروفُ الطقس حياتَهم وأعملت مبضعها فيها. شعر ديلُن بالراحة في هاتيك الطبيعة. عندما يستيقظ، كان يبدأ يومه بالنظر إلى السماء، وليس بتصفّح الإنترنت. لم يَطْلُع عليه الصبح وهو نائم في سريره قطُّ. ما كانت الساعةُ تقتربُ من السابعة والنصفً إلَّا وكان على رأس عمله، سواءً أكان الجوُّ ماطرًا أم مشرقًا، سواء أهَطَلَ البَرَد أم تساقَطَ الثلج.

حاول أحدُ معلِّمِي المدرسة أن يقنعَه بالالتحاق بكلية للبستنة، في أضعف الإيمان، ولكنّه لم يجد أيَّ منطقٍ من الجلوس في الصف في الوقت الذي يستطيع أنْ يقضيَه وهو يتعلَّم ذلك بشكل تطبيقي. وكانت سارة أفضلَ معلِّم له من كلّ أساتذة الكليَّات. فقد صعَّبَت عليه الأمور أيَّما صعوبة، واختبرته، وعلَّمَتْه، وعرضت أمامه الأشياء، ومن ثم طَلَبَتْ منه أن يعيدَها وراءَها بنفسه. أثنت عليه عندما كان الثناء مستحقًّا وانتقَدَتْه نقدًا بنَّاءً على الدوام. كانت تموجُ نشاطًا وتعرف دائمًا ماذا تريدُ بالضبط، ولذا عرف ديلُن دائمًا على وجه التحديد المستوى الذي بلَغَه في التعلُّم. العمل في التربة الحمراء الغنيّة عملٌ مثاليٌّ بالنسبة له.

- أنتَ ماهرٌ حقًّا في أعمال البستنة.

قالت له بإعجاب، وزادت من تكرارها للثناء عليه رويدًا رويدًا. فقد كان يتميّزُ بحسٍّ داخليّ في مواءمة الأشياء بعضها مع بعض؛ وخبيرًا في معرفة أصناف النباتات التي يمكنها أن تزهرَ وتتفتّحَ إذا ما وضعت بعضها مع بعض. ولكي يكملَ موهبته الفطرية تلك، غزا مكتَبَتَها ولم تمانع هي في أن يأخذَ الكتب معه إلى البيت - كُتُبِ غيرتْرُد جيكل، وڤيتا ساكڤل-ويست، وكيپابيلتي براون، وبَنِي ولِيامز، وكريستوفر لويد - ولم يكتفِ فقط بالنظر إلى الصور. بل قرأ بتمعّنٍ كلماتِهم التي

تصفُ إبداعاتهم، ورؤاهم، والمشاكل التي اعترضتهم، والحلولَ التي ابتكروها. أدركَتْ سارة ذاتَ يومٍ بأنّ ديلُن بات يفوقُها درايةً وخبرة. إذ ما فتئ، في أكثر من موقف، يلقي بظلال الشكّ على مخطّطاتها الزراعية، مقترحًا بعض التشكيلات الأخرى عند إعادة تصميم مسكبة من الزهور أو ابتكار تصميم لمسكبة جديدة. كان يقترح خطًا منحنيًا بدلًا من خطٍّ مستقيم؛ ضفّةً ذاتُ لون واحدٍ منسجم بدلًا من مَيَلَانٍ ذي ألوان متعدّدة كقوس قزح؛ مسكبة يكْمُن إبداعُها في شذاها لا في شكلِها. كما أنّه استخدم معدّاتٍ وجدَها في العِزْبة لتحسين مواصفات ما يبدعه: مزولة شمسية قديمة، ومعدّات بستنة قديمة، ومقعد يصرف عليه ساعاتٍ وهو يصلحه. كان استصلاحًا للأشياء القديمة في أبهى حلله.

راودتها خشيةٌ عظيمة من أنْ تخسره. فهناك فرصٌ كبيرة بأن تقتنصَه منازل ريفية أخرى نظرًا لأنّ الحدائق في عِزْبَة بيزبروك مانُر ذاع صيتُها في السنوات القليلة الماضية. كان فيها ثلاث حدائق ورود خاصّة بالمناسبات الرسمية، وحديقة للغراس وحديقة لتزيين جدران المطابخ، ومتاهة وبحيرة مصغَّرة فيها جزيرة وهيكل مبني خَربٍ ليجول حوله الزوّار. امتلأتِ المجلاتُ فجأةً بالمقالات، والعديد منها يحوي صورًا لديلُن أثناء عمله، إذ لم يكن هناك أدنى شكّ من أنّه كان جذّابًا. توقَّف قلبها أكثر من مرة لحظة وهي تنعطف عند زاويةٍ وتراه

مرتديًا شورته الجَيْشِي وبوطه الكبير، عضلاته مفتولة وهو يحفر في مسكبة ورود. بدا مثل نجمٍ تلفزيوني.

ستبذل الغالي والرخيص لتُبْقِيْه عندها. إذ لم يعد بإمكانها تخيُّل الحياة في العزبة دون وجوده. ولكن هناك حدودًا لقدرتها على دفع أجرته. فالظروف صعبة. وهناك دائمًا صعوبة في تحقيق التوازن في الحسابات المالية، رغم كل الجهود القصوى التي بذلوها.

ولكن اليوم، صرفَ الضغطُ، على الأقل، انتباهها عن حزنها. حزنِها السرِّي. اضطرت لكبت مشاعر قلبها في غيابة الكتمان وخبَّأت انكسار قلبها ببراعة. لم تكن تظن أنَّ أحدًا قادرٌ على فهمِ المشاعر التي كانت تعتريها أو الكرب الذي كان يعصف بهاَ.

لو حَسَبتَ المدة منذ بدايتها لبَلَغَتْ ستة شهور. مزَّق المرض ضلوعَه، والتهمه بسرعة فائقة ولم يكن بوسعها فعل شيء. واخْتَطَفَا من رحم الزمن ما استطاعا إليه سبيلًا من اللحظات معًا ولكن...

أرْتَجَت البابَ على ذاكرتها. لن تتذكّر ذلك أو تستحضره في ذهنها. حمدت الله في قرارة نفسها على نعمة انشغالها بحدائق الزهور يومًا بعد يوم. ولم يكن أمامها أيٌّ خيار سوى التفكير بالحدائق، فهي بحاجة لعناية مستمرة. لا يمكنك ببساطة أن تذهب في إجازةٍ ليومٍ واحدٍ. كانت ستنهارُ منذ أسابيع لو لم تحافظ على هذا الدافعٍ.

سألها ديلُن:

- وماذا بشأن ذلك النُصُبِ غيرِ المكتمل؟

نظرت سارة إليه بحدَّة وقالت:

- ماذا بشأنه؟

- هناك حاجة للنظر في أمره. إمّا إكمال إنشائه أو هدمه. يمكن له أن يكون من المعالم الرائعة ولكن...

- سنتركُه الآن.

استخدَمَتْ سارة نبرةً تُنْبِئُه بألَّا يعودَ لتلك السيرةِ مرة أخرى. ثم أضافت:

- فذلك مشروعٌ طويلُ الأجل ولا نملكُ الميزانيةَ له.

نظر إليها. لم تشح بنظراتها وهي محملقة إليه، داعيةً ربَّها ألَّا يكْسِرَ ديلُن نظراتها. أيعرف سرَّها؟ أهذا هو السبب الذي حدا به لإثارة المسألة؟ ينبغي لها أن تكون حذرةً؛ لأنّه كان نَبِيهًا. بل أكثر من نبيه. فهو يتمتّع تقريبًا بحاسّة سادسة. وتلك إحدى الخصال التي أحبَّتها فيه. حسبت أنّ صفة «حسَّاس» لا تفيه حقَّه على نحو صحيح. قويُّ الحَدْسِ، ربّما؟ أخبرَها ذاتَ مرَّة بأنّ جدَّته كانت ذاتَ «موهبةٍ في الحدس»، ويمكن لهذا النمطِ من المواهبِ أن يكونَ وراثيًّا. إذا ما كنتَ تؤمنُ بمثلِ هذه الأمور. لا تدري سارةُ أكانت هي نفسَها تؤمنُ بذلك أم لا، ولكن في كلتا الحالتين فهي لن تبوحَ بشيءٍ في هذه اللحظة.

ومع ذلك معه حقٌّ. فالنُصُبُ بحاجةٍ إلى الاهتمام. كان في الطرف الخارجيّ للعزبة، مرتفعًا فوقَ ربوةٍ خلفَ قطعةِ أرضٍ

تكسوها الأشجارُ. وبني بشكلٍ مثمَّنٍ من حجارةٍ متهدّمةٍ بلونٍ زنجبيليّ، وبدا وكأنّه خرج من فوره من حكاية خرافية، تكسوه عرائشُ اللبلاب وشِبَاكُ العناكب. أُهْمِل سنوات. في داخله، تساقطَ الملاطُ عن الحيطان، ولحق العفنُ بألواح الأرضية وانخلعتِ الأبوابُ الزجاجيةُ من مفاصِلِها. لم يكن فيه سوى أريكةٍ قديمةٍ، نالت منها العفونةَ والفطريّات. هي ذي سارةُ تستذكرُ رائحتَها في هذه اللحظةِ؛ تستذكرُ عبقَ عفونتِها المريح ممزوجًا بعبق بشرته. لم تكترث قطُّ بالمحيط الموبوء. بالنسبة لها، كانت تشعرُ وهي هنا، بكلّ بساطة، وكأنَّها في فندق جورج الخامس أو السيڤوي.

لم تكن ترغبُ لأيّ أحدٍ آخرَ بالدخول إلى هناك. قالت لديلُن:

- دعنا فقط نغلقُ الدربَ المؤدّيَ إلى النُصُبِ في الوقتِ الحالي.

تذكّرت كلّ المرَّات التي جاءت فيها إليه، عبر الدربِ المُشَجَّر الذي يصعدُ أعلى الربوة ويؤدّي إلى مكان لقائهما. كان يركنُ سيّارتَه في مدخل البوّابة الواقع على الطريق الخلفيّ، خلفَ حظيرةٍ متهدِّمة. فنادرًا ما كان أحدٌ يسلكُ ذلك الطريق ما خلا هذا المزارع الغريب، ولذا فمن حُسن الحظّ أنّ أحدًا لم ينتبه للأمر. على الرغم من أنَّ السائقين السكارى استخدموا هذا الطريق كطريق فرعي للذهاب من الحانة، ولم يكن الأمرُ

بحاجة سوى لقليل حدسٍ من المرء لكي يعرفَ أنَّ وراءَ الأكمةِ ما وراءَها...

لم تكن لتقلق إزاء ذلك. فالأمرُ غدًا الآنَ تقريبًا في غيرِ أوانِه، وما من شخصٍ يمكنُه، بالتأكيد، أن يثبتَ أيَّ شيء. حاولت أن تُخْرِجَ تلك الفكرة من رأسِها وأن تركِّزَ بدلًا من ذلك على العرس. فحيث إنّها أم العروس، ينبغي لحفل الزفاف أن يشغل سلَّمَ أولويّاتها. ولكن بدا أنّ العرس ينظِّم نفسَه بنفسه. ولم يبدُ هناك أثرٌ لوجود تلك الهستيريا المعتادة التي ترافق معظم الأعراس. ففي رصيدهم خبرة كبيرة. في نهاية المطاف، كانت عزبة بيزبروك مانُر حاصلةً على ترخيص لتنظيم الأعراس منذ بضع سنوات، وذلك النشاط أحد السُّبُل التي ملأت خزائن أموالهم الفارغة، ولذا فعندما يتعلّق الأمرُ بتنظيم عرس لواحدٍ من أفراد الأسرة، فهم في أعلى درجات الاستعداد. إضافة إلى أنَّ أَلِسْ لم تكن عروسًا من تلك اللاتي يرتبكن ارتباكًا عظيمًا أو أنّها فتاة كثيرة الطلبات. كانت أبعدَ ما تكونُ عن هذا الطبع. فبالنسبة لها، طالما أنَّ كلَّ من تحبُّهم سيحضرون العرس، وطالما أنّ هناك ما يكفي من الشمبانيا والكاتو، فإنّ يوم العرس سيكون يومًا مشهودًا.

- لا أريد صخبًا لا داعي له ولا هدايا للضيوف، يا أمّي. تعرفين أنّني أكره كلَّ تلك الأمور. إنّه لأمرٌ رائعٌ أن أتزوَّج في

العزبة، والجميع حاضرون هنا. ما الخطأ الذي قد يحصل؟ يمكننا أن ننظِّم العرس بكلّ سهولة ويُسرٍ.

أَلِسْ قُرَّة عينيها. أَلِسْ التي تنظرُ إلى الحياة مثلما تنظرُ إلى مخيَّم دائم تقيمُه منظّمة پوني كلَب(38)، مع فرق واحدٍ وهو أنَّ الحياة كما رأتها كانت مليئة بحفلات الشرب. أَلِسْ، التي جذبت بألَقِها الجميعَ، والتي لم يبدُ أنَّ ابتسامتها ستُذوَى قطّ. لم يكن من سارة سوى أن تفخر أشدَّ الفخر بابنتها، وغدت حاجتها لحمايتها حاجة أساسية. رغم أنّ أَلِسْ كانت قادرةً تمامًا على الاعتناء بنفسها. فهي تعيشُ حياة بعيدة عن الكَدَر. وقطعت خطواتٍ كبيرة في الحياة، حياة منمَّقة من الصميم كانت، وهي ترتدي بزّتها المكوّنة من قميصٍ رياضيّ ضيق جدًّا، وبنطال جينزٍ وجزمة طويلة من ماركة دوباري؛ شعرها ذو صفرة خفيفةً، مرتخٍ أشعث، وجهها خالٍ من المكياج، وهي دائمًا متورّدة الوجنَتين تورّدًا طفيفًا في اندفاعها لإنهاء أمرٍ ما والشروع في أمرٍ يليه.

مرَّت بضع سنين من القلق (وكأنّ القلق هو ما كان يَنْقُصُها!) عندما التحقت أَلِسْ بكلية الزراعة لتدرُس إدارة العقارات. فقد كانت، في نهاية المطاف، وريثة عزبة بيزبروك مانُر، ولذا بدا أنّ دراستَها لذلك التخصّص أمرٌ منطقيٌّ، ولكنّها رسبت، رسوبًا فظيعًا، سنتينِ متعاقبتينِ. لم يكن لديها أيُّ قدرات أكاديمية قطّ،

وبَدَتِ الموادُّ الدراسية أعلى من مستواها. شهدت بالطبع الكثير من الحفلات التي استمرّت على قدمٍ وساقٍ، ولكن بدا أن الطلاب الآخرين استطاعوا تدبُّرَ أمورِهم.

ولذا عادت أَلِسْ إلى البيت، واستلمت العمل، وفجأة صار واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء بأنّ إدارة عزبة بيزبروك مانُر هي المهمّة التي خُلِقَت من أجلها. إذ كان عندها رؤية وقدرة وإحساس داخلي بالأشياء الناجعة وبما يرغب به الزبائن. وشعر أهالي بيزبروك نوعًا ما بأنّهم جزءٌ من عزبة بيزبروك مانُر، وكأنّها كانت ملكًا لهم. فكانت أَلِسْ العقل المدبِّر وراء تحويل مِرْأَبَ عربات الخيول الواقع في وسط ساحة الإسطبل إلى متجر للهدايا والكماليات، كما أنشأت ركنًا للشاي يبيع كعكًا مستديرًا مسطحًا مذهلًا بطعم الفواكه حجمه بحجم قبضة اليد. إضافة إلى براعتها المدهشة في تنظيم الفعاليات. ففي السنة الماضية نظَّمَت حفلةَ أوبرا في الهواء الطلق، وحفلةً لتجميع بيض عيد الفصح، وسوقًا فاخرًا متنقّلًا للبيع يستخدم فيه البائعون سيّاراتهم لعرض المنتجات عليها. وكانت تفكّر في إقامة مخيَّمات للأطفال في السنة الموالية تحت شعار غلاستنبيري تعانق إنيد بليتُن(39).

وأكثر المناسبات القادمة إثارةً، بالطبع، هي عرس ألِسْ ذاتها، العرس الذي سيقام في نهاية نوفمبر. لم يتسنَّ لها إقامة العرس في الصيف، لانشغالهم الشديد بتنظيم الأعراس لعِرْسَانٍ آخرِين.

قالت ألِسْ بتفاؤلها المعهود:

- على أيّ حال، كنتُ أفضِّل كثيرًا إقامة العرس في الشتاء. فكلُّ شيء حينئذٍ مكسوٌّ بالصقيع ومتلألئ. وهناك الكثير من اللبلاب والكثير من الشموع.

ستتزوج بهْيُو بيتيفِر؛ شابّ وسيم يعمل مديرًا لشركة استثمارية ذات رأس مال مفتوح. ما انفكَّ يذيب قلوب العذارى وهو يمخر الدروب بسيّارته الرياضية البيضاء ذات المحرِّك الجبَّار، منتقلًا على عجل من مباريات البولو صوب سباقات الخيل.

حتّى لو جالت في بال سارة بعض الشكوك إزاء هيو، فلن تعبِّر عنها أبدًا. كانَ كامل الأوصاف من الناحية النظرية. وفاتن الجمال بكل ما في الكلمة من معنى. حَسِبَتْ أن ما جعلها تقلق ليس سوى غريزة الأمومة التي تحفِّزُ كلّ أمّ على حماية أولادها. لم يكن عندها أيُّ دليلٍ على عدم إخلاص هيو. فأخلاقُه لا تشوبُها شائبة، وشاركَهُم العمل في المناسبات العائلية، وكان

حاذقَ الفكر، وإذا ما بالغ في الاحتفال، فإنّ كلَّ شلة ألِسْ ستحذو حذوه. كانا شابّين وجميلين وغنيّين - فلمَ لا يمرحان كلّ المرح؟ كما أن هيو يعمل بكلّ ما أوتي من جهد. جنى الكثير من المال. ولم يكن فلحسًا(40). على أيّ حال، إنْ كان يطمع بالحصول على تذكرة لتناول الطعام مجانًا في الحفلات، فلم يكن يحصل عليها من أسرة بازِلْدُن. صحيحٌ أنَّها أسرةٌ غنيةٌ إذا ما نظرنا إلى ممتلكاتها الكلاسيكية، ولكنها أسرة تفتقرُ إلى السيولة النقدية. بكلّ الأحوال، كانوا بحاجة إليه أكثر من حاجته إليهم.

ولذا كتَمَتْ سارة أيّ شكوك حول هيو بينها وبين نفسها. اضطرت لتتعلّم كيف تترك الأمور تسير في مسارها الطبيعي. فقد حان وقت تسليم ألِسْ ليتعهَّدها شخصٌ آخرُ. ستبقى، مع ذلك، جزءًا مهمًّا جدًّا من الحياة في عزبة بيزبروك مانُر - فالعزبة ستنهار دون وجودها - ولكنّها بَنَتْ نفْسَها بجهودها ومهاراتها. ولم تكن سارة تبحث عن كنوز الذهب نيابة عن ألِسْ. ما أروع أن يكون لها زوجٌ يسندها عندما يحين موعد وضعها للأطفال! لم تكن سارة لتشكّ في قدرات ابنتِها، ولكنّها تعرف شدّة الضغوطات التي تحيط بهم. وما من أحدٍ ينكرُ بأنّ المال لا يسهِّل الأمور، وخصوصًا عندما يتعلَّقُ الأمرُ بمصاريف الأمومة.

- سأركِّب بوابةً للنُصُب، ما رأيكِ؟

أجفلَ صوتُ ديلُن سارة وعاد بها إلى المسألة التي كانا يخوضان فيها.

- نعم. وركِّب له قفلًا في الوقت الحالي. لا أظنّ أنّ النُصُبَ آمن. لا نريدُ لأيّ كان أنْ يصابَ بأذى.

أومأ ديلُن برأسه موافقًا. ولكنّه رمقَها بنظرةٍ يشوبُها الاهتمام. بدأت سارة الشخبطة على طرف إحدى المخططات الزراعية. لم تستطع أن تنظر إليه إلى حدٍّ ما. خالت في قرارة نفسها أنّه يعرف. كم كانت تتمنى لو أنها تحكي لشخصٍ ما عن الموضوع، ولكنّها تعي أهمية حفظ الأسرار. وإنْ لم تستطع أن تحفظ سِرَّك أنت، فكيف يمكن لكَ، با لـ عليك، أن تثق بشخصٍ آخر حتّى يحفظه؟

وقف ديلُن وقال:

- صحيح. الأفضل أن أتابع العمل. فقد بدأ الظلام يحلُّ مبكرًا، وبات النهار أقصر من الليل.

- نعم.

لم تستطع سارة أن تحدّد أيُّهما أثقل ظلًا عليها؛ النهار أم الليل. فقد استطاعت إشغال نفسِها أثناءَ النهار بأشياء تفعلها، ولكنّها مضطرةً للتظاهر أمام كلّ من هبَّ ودبَّ، ابتداءً برالف وألِسْ وانتهاءً بساعي البريد، بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، وأتلف ذلك التظاهرُ أعصابها. في الليل يمكنُها أن تتوقّفَ عن ذلك؛ فهي ليست بحاجة لذلك الكَدَر عساها تستطيع النوم. ولكنّ نومَها كان مضطربًا ولم تستطع السيطرة على أحلامها. كان يتراءى لها في المنام، وكانت تستيقظ، وجهها مبلّلٌ بالدموع، وهي تحاول ألّا تنتحب، مُحَاوِلةً ألا توقظ رالف لأنها لا تعرف ما تقوله له؟ كيف لها أن تشرح أساها؟

تنهَّدَت، وأكلت بسكويتة أخرى من بسكويت كريم الكَسْتَرد. لم تنعم براحة البال في هذه الأيام. فكل شيء يدور في رأسها، ليلَ نهارَ؛ يدور مثل غسَّالة ملابس وقد ملأه القلق، والأفكار، والمخاوف التي لم يبدُ أنّ هناك أيَّ تفسير لها.

اشتاقت إليه. والله إنَّها اشتاقت إليه.

رفعت أكوابهما المستعملة وأرجعتها إلى المطبخ. على طاولة المطبخ نسخة من مجلة بيزبروك أدفرتايزر. لا بُدَّ أنَّ رالف كان يقرؤها، أو أحدٌ من الموظّفين. أبقت سارة مطبخها مفتوحًا أمام الموظّفين الذين كانوا يعملون عندها؛ لأنها شعرت بأنه من المهم بالنسبة لهم أن يشعروا بأنّهم جزءٌ من أسرتها. المطبخ شاسعٌ وفيه باب خلفي يؤدّي إلى الفناء بحيث لن يضطروا إلى التنقّل عبر بقية أرجاء المنزل. لم يكن هناك سوى حوالي عشرة عمّال مداومين دوامًا كاملًا في مكتب العقارات وركن الشاي والمتجر، وكذلك في حدائق العزبة. كانوا يغادرون جميعهم في الساعة الخامسة لذلك لم يكن ذلك عبئًا ثقيلًا عليها، وكانت على قناعةٍ بأنَّ في ذلك كل الفائدة.
نظرت إلى المجلّة. صورَتُه على الصفحة اليسرى. وجهه الأثير على نفسها؛ ابتسامته اللطيفة؛ شعره الذي تختلط فيه الألوان البيضاء والسوداء والشائبة، شعرُه الذي كان بحدّ ذاته مثل علامة دامغة تُمَيِّزه.

حفل تأبين تكريمًا لذكرى يوليوس نايتِنْغيل...

جلست، وأعادت قراءة كلّ التفاصيل. سرح فكرها. عرفت بالجنازة؛ فالبلدة صغيرة، والأخبار تنتشر بسرعة. أقيمت له جنازة صغيرة، ولكن حفل التأبين كان مفتوحًا لكل من يرغب في الحضور. يجب على كل من يرغب في قراءة موعظة أو الثناء على خصال الفقيد الذهاب والتحدُّث مع إِميليا في المكتبة.

مديح؟ لا تعرف أبدًا كيف تبدأ إذا أرادت أن تكيل له المديح، وإذا بدأت فلا تعرف كيف تنتهي. كيف لها أن تصف بكلماتٍ عَظَمَةَ ذلك الشخص؟ شعرت بها قادمة؛ شعرت بموجة رهيبة من الحزن، موجة يستعصي إيقافها، موجة حزن لا ترحم. نظرت إلى السقف، سحبت أنفاسًا عميقة، ستفعل أي شيء لتمنع الحزن من مداهمتها. صارت قوَّتُها وبالًا عليها، فقد استبدَّ بها التعب الشديد لأنها مضطرة لمجابهة الحزن. ولكن لم يكن بمقدورها الصمود في وجه الانكسار. فأيّ شخص قد يكسر عليها خلوتها، في أي لحظة.

استجمعت قواها ونظرت مرة أخرى إلى صفحة المجلة. أينبغي لها أن تذهب؟ أيمكنها أن تذهب؟ لن يكون ذلك بالأمر الغريب. فكلُّ شخص في بيزبروك يعرف يوليوس. والأوساط الاجتماعية في البلدة متداخلة مثل تقاطعات فِنْ الهندسية المعهودة التي تميِّز بلدة ريفية صغيرة. وبصفتها « سيِّدة العزبة» فقد حضرت سارة العديد من الجنازات وحفلات

التأبين لأناسٍ لم تكن تعرفهم تمام المعرفة، كَلَفْتَةِ احترامٍ منها. لن يجد أحدٌ غرابةً في الأمر إذا ما حضرت حفل التأبين.

ولكنهم سيجدون غرابةً في الأمر إذا ما انهارت وبدأت بالعويل، وهو الأمر الذي رغبت في فعله.

تمنَّت لو أنه هنا، حتى تسأله النصيحة. فهو يعرف دائمًا الخيار الصحيح الذي يجب فعله. عصفت ببالها صورتهما، متكوِّرَين على الأريكة في النُصُب المتهدِّم. تخيَّلَت نفسها وهي تلكزه لكزةً مُدَاعِبَة، تتصرف كقطة متغنجة. فقد جعلها تشعر بالغنج: ناعمة وحنونة حنانًا يربكه إرباكًا.

- أينبغي لي أن أذهب لحضور حفل تأبينك؟

وفي أتون تخيُّلاتها، الْتَفَتَ نحوها مبتسرًا ابتسامة من ابتساماته المُكِايدة البريئة وقال:

- يا إلهي! ليس أمامك سوى المجيء. إنْ كان لأحدٍ أن يحضر حفل تأبيني، فهو أنتِ.

(37) نسبة إلى أندريا پالاديو (١٥٠٨ – ١٥٨٠): وهو معماريٌّ إيطاليٌّ أحيا أساليب العمارة الكلاسيكية وخصوصًا العمارة الرومانية القديمة. تركت تصاميمُه الخاصّةُ بالقصور والڤيلات أثرَها العميق في عمارة القرن السابع عشر في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

(38) منظّمةٌ شبابيةٌ عالميةٌ تأسّست في بريطانيا في سنة ١٩٢٩، وتهدُف إلى تدريب الأجيال الشابّة على الخيول والفروسية ويوجد لها فروع في أكثر من ٣٠ بلدًا حول العالم.

(39) إنيد بليتن (١٨٩٧ – ١٩٦٨): مؤلِّفَةٌ بريطانيةٌ أُشتُهرت بكتابة قصصِ الأطفال ومن أشهرها شخصية نُدِي وسلسلة الخمسة المشهورين.

(40) من يتحين الفرص ليأكل عند الناس (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

الفصل الخامس

توجَّس جاكسُن خيفةً من اجتماعه المرتقب بإيان مينذِب. لا بأس، فكلمة اجتماع تجعل لقاءَه به يبدو رسميًا بعض الشيء. فلنقل إنَّـها «دردشةً ودية» في المطبخ في منزل مينذِب؛ محادثةٌ غير رسمية على الإطلاق. فإيان لديه اقتراحٌ يقترحه عليه.

شكَّ جاكسُن بأنّ ذلك يعني إقدامَه على فعل شيء لم يرغب في فعله مرَّة أخرى. ممّا يعني الحنث بكل العهود التي قطعها على نفسه بالإفلات من براثن إيان والعمل بشكل مستقلٍّ عنه. ومع ذلك لم يكن لديه أي بديل. فلا مؤهّلات لديه، ولا مسند ظهر، ولا أبٌ غني يخلِّصه من مشاكله شأنه شأن الكثير من الأولاد الذين كانوا معه في المدرسة.

حسب جاكسُن، وهو يجلس في كرسيّه إلى مائدة إفطار إيان، أنَّ المشكلة تكمن في هذه الناحية: فإمّا أن يعيشَ المرء في غنىً فاحشٍ أو فقرٍ مدقع. وبينما كان ذاتَ يومٍ مُفْعَمًا بالطموح والتفاؤل، هو ذا الآن يستسلم لحياةٍ جُلُّ ما يميِّزها التأقلُم مع ما هو متاح وكلُّه سمعٌ وطاعة لما يقوله إيان مينذِب. وفي موضعٍ ما في خِضمِّ تلك المعمعة كلها فَقَدَ طموحه ودوافعه. زادت من كدر نفسه معرفته بأن الخطأ خطؤه هو. فقد أتيحت أمامه

الفرص ذاتها التي أتيحت أمام ميندِب، ومع ذلك لم يستغل ولا واحدة منها. خطؤه الوحيد أنّه لم يتصرَّف بذكاء.

نَظَرَ في أرجاء المطبخ؛ بخزائنه المصقولة البيضاء الشديدة اللمعان، وبرَّاد النبيذِ ذي الواجهة الزجاجية وقد اصطَّفتْ فيه رفوفٌ من قناني شمبانيا العنب المقطوف، دون أن ننسى الموسيقا التي صدحت وكأنَّها آتية من المجهول. في المطبخ أيضًا شمعةٌ معطَّرةٌ عملاقة بثلاثِ فتائل تنشر رائحة فاخرة، كانت شمعة باهظة الثمن بالفعل. أرَادَتْ مِيَا شمعةً مثلها، ولم يستطع جاكسُن فعليًّا أنْ يستحسنَ فكرة قيام شخصٍ بإنفاق مئات الجنيهات على شراء شمعة.

لم يحظَ إيان بكلّ هذه النعمَاء، وبسيَّارة الأستُن مارتِن المركونة في الخارج بسبب سريرةٍ طيِّبة. بجانب سيّارته جثمت سيَّارة جاكسُن القديمة من طراز سوزوكي جيب؛ الآلية الوحيدة التي تسير على دواليب التي استطاع شراءها في هذه الآونة، في ظلّ أقساط الرهن والمصروف الذي يدفعُه لزوجته ميا، والتي أتت على كل راتبه تقريبًا. قال له أصدقاؤه إنَّه ليِّن الجانب، وإنَّه سهَّل على ميا الطريق حتّى تسيطر عليه. بدا الأمر وكأنّهم لا يشبهون المتزوِّجين من قريب أو بعيد، وقالوا له بأنَّه ليس مُضطرًا لإعطائها بنسًا واحدًا. ولكن الأمر يتعلّق بابنه فِنْ. فعلى جاكسُن مسؤوليات وواجبات تجاه ابنه، ممّا

يعني بأنّه من الواجب عليه الاهتمام بأمٍّ ابنه. ولكي يكون المرء منصفًا، فإنّ ميا لم تطلب فعليًّا أيَّ شيء، ولكن جاكسُن يعرف أنّ ذلك واجبه.

وهذا هو السبب الذي جعله لا يزال يدور في فلك إيان بدلًا من أن يعتمد على نفسه، وهو الهدف الذي كان أساسًا خطته الأصلية. ولكنّ المرء بحاجة إلى سيولة نقدية ليبدأ مشروعه الخاصّ، حتى لو كان عامل بناءٍ موسمي يقتصر عمله على تركيب تمديدات لسطوح الشقق والبيوت البلاستيكية الزراعية. هكذا بدأ إيان ميندِب مسيرَته. والآن عنده شقق ومشاريع سكنية فارهة. صارَ ثريًا. وقد أثْبَتَ بأنه يمكنكَ أن تشقَّ طريقك في الحياة من القاع نحو القمَّة.

جاكسُن هو الذراع الأيمن لإيان ميندِب. فقد تولّى الإشراف على كافّة مشروعاته وموافاته بأخبارِها. ودرس المشروعات التي تحمل في مضامينها ربحًا مؤكدًا: فجاكسُن هو الذي فتَّح أنظار إيان على معمل القُفَّازَات، مما سمح له بالانقضاض عليه وتحصيله بسعرٍ ممتاز قبل أن يُطْرَح للبيع في السوق.

وهذا هو السرُّ الذي جعل جاكسُن يعرف بأنَّه قادرٌ على تحقيق مآرب إيان. كان قادرًا على اقتناص الفرص الواعدة في

أي مبنىً تقع عليه عيناه. إذْ امتلكَ المعرفة، والخبرة، والقدرة؛ كما عرف التُجَّار الذين يمكنهم أن يشاركوا في المشروع. كان ينقصه التصميمُ الجامح على النجاح؛ أو، في الوقت الراهن، المال الذي يحتاجه ليستثمره ويباشر مشروعاته الخاصة. فاته القطار. فقد كان ينبغي له أن يفعل ذلك قبل سنوات خلت، عندما كان شابًا ولم يكن في رقبته أي مسؤوليات. بات الآن مقيَّدًا. لمَّا يبلغ الثلاثين من عمره بعد وقد ورَّط نفسَه وحشرها في زاوية ضيقة قذرة.

انحنى في الكرسيّ المصنوع من الكروم والجلد قُدَّام إيان. إيان الذي كان يدور من جانبٍ لآخَرَ في كرسيه، ديدنه الاعتداد بالنفس والرضا بها، وهو يطرق بقلم رصاص على النضد الغرانيتي الأسود اللمَّاع. أمامهما مخططات المشروعات الخاصة بمعمل القفَّازات القديم: رسومات خطية للمبنى والمنطقة المحيطة به.

قال إيان، بنبرة صوته الخشنة العريضة التي لم يتخلَّى عنها رغم ثروته الطائلة:

- إذًا، أريد تلك المكتبة. فهي مبنى له مكانته المرموقة وأريدها أن تصير مكتبي الرئيس. فهي مبنى فاخر. إذا ما

أوليْتُها العناية الفائقة، فستكون ذات فائدة على سمعتي أكثر من أي إعلان. كان إيان مهووسًا بالطريقة التي ينظر إليه بها الناس، واشتعل توقًا لأن يظن به القوم على أنه ذو كعبٍ عالٍ. كان محقًا؛ فالمكتبة من أجمل المباني في بيزبروك، إذ إنها تقع على الجسر تمامًا. تخيَّل جاكسُن مسبقًا اليافطة وقد عُلِّقَتْ في الخارج وكتب عليها: مشروعات بيزبروك، بشعار شركته الذي كان ورقة شجرة بلوط. أردف إيان:

- وقد اطَّلَعْتُ على رسومات معمل القُفَّازات مرَّة أخرى وأجريتُ بعض التعديلات هنا وهناك. إذا حصلتُ على مِرْأَب المكتبة، يمكنني أن أنشِئ مرأبًا لأربع شقق إضافية. دون فعل ذلك، سيكون عندي فقط ثماني شقق، وهي لا تستحقّ الجهد الذي أبذله. اثنتا عشرة شقة ستدرُّ عليَّ الربح الوفير. ولكنك تعرف طِباع أعضاء المجلس البلدي، فهم يريدون أن يكون هناك مِرأَبٌ مخصّص للبناء حسب قوانينهم. والمرائب من أندر الأشياء في بيزبروك.

طَرَقَ مخطّطات مرأب السيّارات بقلم رصاصه. ثم أضاف:

- لم يكن يوليوس نايتِنْغيل يستفيدُ منها. فهو واحدٌ من هؤلاء الملاعين المزعجين الذين يظنّون أنَّ المال أمرٌ غيرُ مهمّ.

عرضتُ عليه مبلغًا ضخمًا، ولكنّه لم يأبه بذلك. زبدة الحديث أنّه توفّي الآن ولم يبقَ سوى ابنته. وهي تصرُّ على أنّها لا تأبه بالبيع أيضًا. ولكن الآن وقد توفّي أبوها، فإنّها ستلاقي الأمَرَّين لكي تُبْقِي تلك المكتبة واقفةً على قدمَيها. أحسبُ أنَّه يمكنُ إقناعُها بأنَّه من الحكمة لها أنْ تبيعَ. فهي فقط لا ترغبُ في سماعِ ذلك منِّي. ولذلك... هنا يأتي دورُك، أيّها الشابُّ الجميل.

ابتسم إيان ابتسامة عريضة. فجاكسُن، فعلًا، شابٌّ جميل، ضئيل البِنية ولكنَّه مفتولُ العضلات، بعينين بنّيّتين برَّاقتين مثل عيني أبي الحنَّاء. تحيطُ به هالةٌ خفيفةٌ تشي بغجري داعرٍ. تعلو عينيه وفمَه خطوطٌ رسمتها الضحكات، رغم أنّه لم يكن لديه الكثيرُ ليضحك عليه خلال السنوات القليلة الماضية. بشعره الطويل جدًّا نوعًا ما، ونظّارته الشمسية كتلك التي يرتديها الطيَّارون، بدا مثيرًا للمشاكل واستطار منه الشَّرَر، ولكنّه كان يتمتّع بالدفء والسحر وسرعة البديهة. كان شديدَ المراوغة؛ رغم أنّه لا يمتلكُ موضع خبثٍ في جسده. كلّ ما في الأمر أنّه لا يرفضُ مواجهة الصعاب أو مقاومة فتاة جميلة. رغم أنّه لم يعد يحظى بالفتيات الجميلات منذ زمن. إذ لم تعُد مشاعره تتّجه ذلك الاتجاه. لا بل إنّه لم يكن متيقّنًا تمامًا إذا ما كانت لديه مشاعر هذه الأيام.

أصغى جاكسُن لما قاله إيان واكفهر ثم قال:

- ولكن كيف لي أن أتوصَّل إلى معرفتها؟ فأنا لم أقرأ كتابًا في حياتي قط؟

- ولا حتى شفرة دافنشي؟ حسبت أنه لم يبق إنسانٌ إلّا وقرأها.

لم يكن إيان ذاته قارئًا عظيمًا، ولكنّه تدبَّر أمورَه بقراءة ذلك الكتاب الغريب الضخم ذو الغلاف السميك في أيام العطلة.

هزَّ جاكسُن رأسه. فهو يستطيع القراءة، ولكنّه لم يقرأ كتابًا قطّ. لم تشكِّل الكتبُ مصدر اهتمامه. فرائحتها سيّئة وتُذكِّره بالمدرسة. كره المدرسة، والمدرسة كرهته. وشعر بأنّه محبوسٌ في قفص وأنه موضع سخرية ولم يسرُّهم منظرٌ أكثر من رؤية ظهره وهو يغادرها دون رجعة.

هزَّ إيان كتفيه.

- يرجعُ الأمر لكَ لتجد طريقة لتحقيق ذلك. ولكنَّك شابٌ حَسن المنظر. وطريق الوصول إلى قلب فتاة تمرُّ عبر تُبَّانِهَا، ألا توافقني الرأي؟

حتَّى جاكسُن بدا مشمئزًا بدرجةٍ ما من مقولته تلك. انحنى إيان إلى الأمام مبتسرًا ابتسامة.

- حصِّل لي تلك المكتبة وسأعيِّنُك مديرًا لمشروع معمل القُفَّازات.

رفع جاكسُن حاجبَيه. هذه خطوة ترفع من شأنه، خطوة تتيح له إدارة مشروع كامل. ولكن عرضَ إيان سَيْفٌ ذو حدَّين. غمرته الغبطة بنفسه لأنّ إيان ظنَّه قادرًا على إتمام تلك المهمة. وهو قادر بالطبع.

ولكن جاكسُن أراد أن يكون قادرًا على مباشرة مشروعه الخاص به. وهو بحاجة إلى المال إذا ما أراد فعل ذلك. المال ولا شيء سواه. فحتى الآن، لم يوفر جاكسُن مبلغًا يمكن له حتى أن يبني به زريبة خنازير.

إيان ذكي، ويعرف أنه يسيطر على جاكسُن سيطرة مطلقة. فقد كان يستفيد منه. أليس كذلك؟ كان يجزل له العطاء. لم يكن خطأ إيان أنَّ جاكسُن هدم علاقته بميا. أو أن إبقاء علاقته بميا كان يستنزف منه كل ما معه من مال. ولم يكن ليلوم سوى نفسه بسبب ذلك. فلو لم يكن أحمقَ، لمَا...

فتح إيان دُرْجًا وسحب منه رزمة من النقود. عدَّ خمسمئة جنيه.

- هذه لتغطية النفقات.

دسَّ جاكسُن النقود في جيبه، وهو يفكّر بالأشياء الأخرى التي يمكن أن يشتريَها بذلك المال.

كان يحبُّ اصطحاب ابنِه فِنْ في إجازة. تخيَّل فندقًا ساحرًا على شاطئ بحر، فيه أربعة مسابح مختلفة وأشجار نخيل وعصائر كوكتيل مجانية لا نهاية لها. اشتاقَ للحظاتِ راحة دافئة، ولاغتنام الفرصة للضحك مع ابنه. أو ربَّمَا يمكنه توفيرُ المال لكي يشتريَ سيَّارةً مُغْلَقَةً محترمة. فهو بحاجة فقط للعمل

في وظيفةٍ واحدةٍ ليبدأ مشواره. وإذا ما نجح فيها، فسوف يتناقلُ القومُ الخبر. ويمكنه عندئذٍ أن ينتقلَ إلى الوظيفة التالية، ويبدأَ بتوفير المال، ويضعَ عينَه على منزلٍ يحتاجُ الرعاية والإصلاح... يمكنه أن ينجحَ. كان متأكّدًا من ذلك.

في أثناء ذلك، ينبغي له أن يحافظ على الشَّعْرة التي تربطه بإيان. فإيان مصدرُ رزقه الأساسي، والرجل متشبِّثٌ به بأسنانه. ولذا ينبغي له أن يتصرَّفَ بذكاء.

لن يتطلَّبَ الإيقاع بإِميليا نايتِنْغيل كثيرًا من الوقت. فما إنْ يضع جاكسُن فتاةً في باله، إلَّا وتصبح هدفًا سهلًا له. عليه أن يستحضرَ بعضًا من سحرِه القديم. اعتادَتِ النساءُ التقاطرَ عليه زرافاتٍ ووحدانًا. قال لنفسه: «استجمع رباطةَ جأشِك».

مدَّ جاكسُن يدَه وصافح إيان بغمزة واثقة حظيت بإعجاب المراوغ الفنان.

- دع الأمر لي، يا صاحبي. ستكون مكتبةُ نايتِنْغيل في جيبِك مع نهاية الشهر.

* * *

بعد لقائه إيان، ساق جاكسُن سيَّارَتَه واتّجه صوبَ حيّ پاراديايس پاينز، حيثُ يسكنُ مع أمّه، سيلا. اعتزمَ ألَّا يحكي لها عن الصفقة؛ لأنّها لن توافقَ عليها.

كم كان يكره المجمَّع السكني، فهو لم يكن سوى كذبة. أُعْلِنَ عنه على أنّه جنَّةٌ من الجنان يلوذُ بها أولئك الذين تجاوزوا سنَّ الخامسة والخمسين. كُتِبَ على يافطةٍ في المجمَّع «اقتنِ مسكنك الصغير المُقْتَطَع من الجنَّة: حيث تجد السلام والهدوء في ريف كوتسولد».

كان مكان المجمَّع مطمرًا للقمامة.

عليكَ ألا تكترثَ لوجودِ الأغراضِ الصدئة المهملة في مِرْأَبِ السيَّارات، وقد أحاطت بها السيَّارات غير الخاضعة للضرائب وعربات القمامة الصغيرة ذات العجلات، إضافة إلى كلب ستافي(41) قذر مربوط في الزاوية يمثِّل «الأمان» الموعود

في الكتيِّب الإعلاني (راحة البال على مدار أربعٍ وعشرين ساعة في اليوم، بحيث يمكنك النوم في الليل).

انسل متجاوزًا المكتب المتنقِّل الذي يجلس فيه غارقي، مدير الموقع، وهو يرشفُ، مصدرًا صوتًا مزعجًا، شعيرية پُتْ نودلز ويشاهد مقاطع إباحية على حاسوبه المحمول طوال اليوم. يُفْتَرَض بغارقي أن يسهر على الانتباه للزوَّار، ولكن يمكن لتِدْ بَنْدِي(42) أن يمرَّ أمامه متأبِّطًا ذراع سفاح يوركشير(43) دون أن تطرف عين غارقي. كما كان من المفترض به أن يوصل الطلبيّات للقاطنين في المُجَمَّع، وأن ينظرَ في طلبات الصيانة التي يتقدَّمون بها، وأن يكونَ مشرفًا على أحوال المجمَّع طوال النهارٍ بحيثُ يعتمدون عليه جميعًا. بدلًا من ذلك، كان شخصًا خبيثًا يذكِّر كُلَّ ساكن من سكَّان المجمَّع بأنَّه قَدَرُهُم الذي يستحقونه.

كان غارقي بدينًا، ذا أنفاسٍ شاخِرَة، وفاحت منه رائحة مثل رائحة تلميذ المدرسة الذي لا يرغب أحدٌ في الجلوس على مقربة منه. أصاب جاكسُن بالغثيان. قالت سيلا إنَّه رجل طيِّب، ولكن سيْلا تحبُّ كلَّ الناس. ولم تكن تطلقُ أحكامًا على هذا الإنسان أو ذاك.

استغرب جاكسُن طبيعتَه المختلفة جدًّا عن طبيعة أمّه. فهو لا يحبُّ أحدًا. ليس في هذه اللحظة، على أيّ حال.

ما عدا فِنْ، بالطبع، وولْفِي.

تابع مسيره المتلكئ على طول « الدرب الطبيعي» الذي يفضي إلى بيت أمّه. دربٌ مكسوٌ بالأعشاب البرية وفيه طبقة رقيقة جدًّا من لحاء الشجر ترشدُك إلى الطريق. لم يكن هناك أيُّ أثرٍ لحيوانٍ أو نبات، رغم أنّ جاكسُن رأى، غير ذات مرَّة، جرذًا يدبُّ مسرعًا إلى داخل أَجَمَة من الشجيرات القريبة. ينبغي له أنْ يُفلِّتَ ولْفِي هنا يومًا ما، رغم أنه يفترض إبقاء الكلاب مربوطة بالرَّسَن في المُجمَّع. سيتاحُ للكلب أن يحظى بيومٍ ينطلقُ فيه من قيدِه، يتجوَّلُ فيه ويبحثُ عن الهوام. ولكن لا جدوى من ذلك. فسكّان المجمَّعِ اعتادوا ترك قمامتهم حتى تتعفَّن. وستعود الجرذان في أقلَّ من لمح البصر.

أصاب التعفّن السياج المحيط برقعة العشب الصغيرة التي تخصّ كلّ بيت، وكان العشب نفسُه خفيفًا ومتناثرًا هنا وهناك. انتشرت أعمدة إنارة لإنارة الممرَّات، ولكن قلَّما يمكنك العثور على عمود إنارة منها صالح للعمل، ولم تحمل السلال المعلَّقة المتدلية منها شيئًا سوى الأعشاب.

ربّما كان ذلك كُلُّ ما أُعْلِنَ عنه في الكتيِّب الإعلاني في يوم من الأيام. ربّما كان العشبُ غزيرًا ومشذبًا؛ والحدائق في قمة النظافة. ربّما كان المُلَّاك يتباهون ببيوتهم آنذاك.

شعر جاكسُن باليأس المطبق في اليوم الذي أبلغته فيه أمُّه بما جرى معها. لقد تعرَّضت للاحتيال. أخذها شابٌّ، وجههُ مليءٌ بالبثور ويرتدي بذلة رخيصة وجوارب بيضاء، إلى نموذج لمنزلٍ معروض للبيع وسقاها كأس نبيذٍ رخيصٍ فوَّار وخَدَعَها؛ حيث أقنَعَها بأنّه أفضل عقار يمكن لها أن تستثمرَ فيه مدَّخرَاتها. خبَّأت سيلا مبلغًا لا بأسَ به منذ زمن بعيد لأنَّ توفير المال إحدى الصفات التي لازَمَتْها على الدَّوام. صُعِقَ جاكسُن من سذاجتها. ألم ترَ أنَّ بيوتَ المُجمع ❞ ستفقدُ قيمتَها في اللحظة التي ينشفُ فيها الحبرُ الذي كُتِبَ به عقدُ البيع؟ ألم ترَ أنَّ الرسومَ الإدارية كانت مرتفعةً ارتفاعًا يثير الضحك؟ ألم تر أنَّ مُلَّاك المُجَمَّع لم يكن لديهم أيُّ حافزٍ على الإطلاق ليفوا بوعودهم حالما تؤجَّر كلّ البيوت؟ بدَتْ حيْلةً عبقرية. ولكن ذلك أصابه بكَدَرٍ لا يطاق لأنَّ أمه ستُجْبَرُ الآن على قضاء ما بقي من أيام عمرها هنا. فلا أحدَ يرغبُ في شراء بيتٍ في حيٍّ پاراديس پاينز. فقد سرَتْ بين القوم مقولةٌ مفادها أنَّ من يسكن هنا إنّما يقتربُ من الموت. فالحيُّ على مرمى حجرٍ من المقبرة.

وها هو الآن هنا، يعيش معها في مكانٍ يكرهه. كان من المفترض أن تكونَ إقامتُه إقامةً مؤقتةً عند أُمِّه. فعندما طَرَدَتْه ميا أولَ مرَّة قبل سنتين، وكان فِنْ في الثالثة من عمره، ظنَّ بأنّ الأمرَ لن يستغرقَ مدةً طويلةً حتى تسمحَ له بالعودة إلى المنزل. يعرفُ الآنَ أنّه كان عديمَ النفع، ولكنّه لم يكن مستعدًّا ليصيرَ أبًا. كانت صدمةً بالنسبة له؛ صدمة أن يدرك بأنّ هناك طفلًا يرافقُه ليلَ نهارَ. وكان سهلًا جدًّا عليه أن يتملَّصَ من الواجب المترتِّبِ عليه في رعاية الطفل، حيث اعتادَ الوصولَ إلى البيت متأخّرًا بعد عودته من العمل؛ وكان يتوقّف، عن قصدٍ، في الحانة على الطريق، ليشربَ بضعَ كؤوسٍ من البيرة.

ومن باب الإنصاف له، فقد تغيَّرت ميا أيضًا. الأمومة جعلتها تبالغُ في القلق، وزادتها نَزقًا. أَوْلَتْ طفلها اهتمامًا كبيرًا جدًّا، وطلبَ منها جاكسُن مرارًا وتكرارًا أن تتوقَّفَ عن القلق عليه. وسبَّب ذلك الكثير من المناقرة بينهما. قضى المزيد من الوقت خارج المنزل، غيرَ راغبٍ في العودة إلى الجِدَال والعتاب والبكاء (وغالبًا ما كان بكاء الصبي، وأحيانًا ميا). حاوَل أن يبذل أقصى ما يستطيع، ولكن كلَّما حاوَل ذلك زاد استياؤها. ولذا بدا من الأسهل له الابتعاد عن المشهد.

ومن ثمَّ طرَدَتْه من البيت، في الليلة التي جاء فيها سكرانًا في الساعة الواحدة ليلًا، بعد أن قضت أربعَ ساعات وهي ترعى فِنْ الذي كان يتقيأ واضطرت لتغيير الشراشف مرَّتين عندما اصطحبته معها إلى السرير، وهي تتوقُ للحظة من الراحة. احتجّ جاكسُن، فأنَّى له أن يعرفَ بأنّ الطفلَ كان يعاني من وجعٍ في المعدة؟ ولكنّه يعرفُ بأنّه أخطأ وأنّه نال ما يستحقُّ من التقريع.

ظنَّ أنّ ذلك الوضع سيكون مؤقتًا فحسب، وبأنّ ميا تقصد أنْ توجِّه له صدمةً قاسيةً قصيرة المدَّة. ولكنّها لم ترغب في عودته. قالت له:

- الحياة أسهل من دونك. أسهل عليَّ أن أفعلَ ما أريد، مهما يكن، بنفسي، دون خيبةٍ أو خذلان. آسفةٌ يا جاكسُن.

لم يكترث بما حصل وهو يطرق على بابٍ أبيضٍ مهلهل، ومن ثم دفعه وفتحه. ها هي أمُّه، في عتمة البيت المقطور. ولِفِيْ مستلقٍ عند قدمَيها ولكنّه وثبَ صوبَ جاكسُن حال دخولِه. على الأقلّ هناك كائنٌ مسرورٌ لرؤياه. فقد اقتنَى ولِفِيْ حالما اتَّضحَ له بأنّ ميا لن تسمحَ له بالعودة إلى المنزل. ذهبَ

إلى مكتب إنقاذ الكلاب وتمعَّن في كلّ ما عندهم من كلاب معروضة: كلابٍ من فصائل جاك رَسِلْ وكولي وماستِف. في الطرف البعيد رأى كلبَ صيدٍ هجينٍ من فصيلة بِذْلِنْغتُن، ضخامته جَعَلَتْ منه كلبًا لا يهشُّ ولا ينشّ؛ كلبًا قذرًا ورَثًّا على نحو مضحك. ولكنّه ذكَّر جاكسُن بشخصه ذاته. فقد كان هو ذاته كلبًا طيِّبًا، في أعماق نفسه، ولكنّه وقع أحيانًا ضحية لظروفه...فأنَّى له أنْ يقاومَ اقتناء كلبٍ كهذا؟

سُرَّتْ أمُّه سرورًا عظيمًا لرؤياه مثلما سُرَّ وِلْفِي. وانفرجت أساريرها وتهلَّلَت عيناها. لا يزالُ غيرَ قادرٍ على نسيان هيئتها الهزيلة. ولم يرغب في أن يعترفَ لنفسِه بأنَّ أيامَ شباب أمِّه ولَّت بلا رجعة. سيطهو لها عشاءً محترمًا. لم يكن طاهيًا محترفًا، ولكنّه ابتاعَ بعضَ قطع الدجاج وبعض الخضار بالنقود التي أعطاه إيَّاها إيان.

كانت تعتزُّ دائمًا، أيَّمَا اعتزاز، بأنها كانت تطبخ لهم وجبات طيّبة عندما كانوا صغارًا. ولكن في مرحلة ما، بين زواجها الثالث والرابع، فَقَدَتْ شغَفَها بالطبخ.

لم يرغب في النظر إلى أمه التي كانت امرأةً جميلة ذات يوم، وهي جالسة في كرسيها، كطيرٍ جاثمٍ وقد نال منها الهزال. لم

يكن يرغب فيٍ النظر إلى الشَّعْر الذي كان ذات يوم داكنًا ولامعًا، ومنسدلًا علىٍ كتفيها. الآن، زالت الصبغة السَّودَاء التي تستعملها لإعادة عزِّها التليد، وظهر مكانها ثلاثة إنشات من الشَّيْب.

الكآبة هي السبب الجذري لكلّ ذلك. كان الأمرُ واضحًا. وهذا لا يعدُّ مفاجئًا عندما تذوي ملامح المرأة ويغادرها زوجُها في الآن ذاته. تساءل جاكسُن إنْ كان أيسر على المرء ألَّا يكون جميلًا من الأساس؟ فهو يعرف بأنه سيتدبَّر أموره اعتمادًا على جمال شكلِه أكثر من مرَّة. فجمال شكلِه هو السحرُ الذي سهَّل عليه الأمور.

- ما رأيكِ أن نخرج إلى مكانٍ ما؟

سألَها، عارفًا ردَّها سلفًا. أراد لَها أن تفاجِئَه وتوافق، ومع ذلك لم يرغب في أن تفعل ذلك. فهو لا يريد أن يراها في الخارج في العالم الحقيقي، لأن ذلك يجعلها تزداد كآبةً.

أجابت، مثلما توقَّع بالضبط:

- لا يا حبيبي. يكفيني أنَّك عندي هنا.

تنهَّد وحضَّر الطعام الذي جَلَبَه معه بأقصى جهدٍ يستطيعُه وَفقًا للإمكانات المتوفِّرة. سكَبَ الطعام في الطبق، وغَمَرَهُ حتّى حوافّه بطبقةٍ لامعة أفرغَها من عُلبَة مَرَق اللحم.

أكلا معًا وهما جالسان إلى الطاولة الصغيرة. لم تكن لدى جاكسُن شهيةٌ لطعام، ولكنَّه أرادَها أن تحذوَ حَذوَه. شدَّد عليها لتأكلَ مزيدًا من الجَزَر. وأعطاها ما بَقِيَ من مرق لحم البيستو. على الأقلّ يعرفُ الآن أنّها تتغذّى ببعض الفيتامينات، بعض السَّعْرَات الغذائية.

أحضر معه فطيرة تفاح جاهزة وكرتونة من الكَسْتَرْد، ولكنّها قالت إنَّها شبعت.

- سأسخِّنُها لكِ فيما بعد.

- أنتَ ولدٌ طيِّب.

دائمًا ما كانت تقول له تلك الجملة. ما زال يتذكرها، رشيقة وتفيض بالحيوية، وهي ترقص في المطبخ، تحمله بين ذراعيها. «أنتَ ولد طيِّب. أطيب ولد». كان يلمسُ أقراطَها بأصابعِه الصغيرة، وقد اُفتُتِنَ بلمعانها، ويتنسَّم رائحتَها؛ رائحةً مثلَ رائحةِ دُرَّاق ناضج.

أين ذَهَبَتْ؟ أين ذَهَبَتْ أمُّه؟ مَنْ سرَقَها؟

غسَلَ الصحونَ في المجلى. كان مجلى صغيرًا جدًّا لا يتّسع لطبق طعام إذا ما وضع فيه بشكلٍ مستوٍ. حاولَ أن يكبتَ يأسَه للمرة المليون. جَلَى الأكوابَ والكؤوسَ كافّةً المنتشرة هنا وهناك، ومسَحَ الطاولةَ الصغيرة وسطح المجلى.

تخيَّل صوت ميا وهي تقول له: «لم تجلِ وتمسح لي قطُّ».

ولكنّه جلى ومسح لها. كل ذلك مضى وراح. ولكن ما من شيء يرضي ميا أبدًا؛ فهي مهووسةٌ بالسيطرة. لم يستطع حتّى أنْ يتنفّس كما يتنفّس الناس.

- أنا ذاهبٌ لرؤية فِنْ يا أمي.

انحنى ليقبِّلها، ولم ينحنِ انحناءة قريبة جدًّا. ثم أضاف:

- سأرجع بعد مدّة قصيرة.

- باي باي. سآخذ غفوة الآن.

استرْخَتْ في كرسيّها مبتسمةً. وصَفَرَ بولِفْي الذي قفز ملتصقًا بساقَيه. كان مثل شخصيّات الرسوم المتحرّكة، عيناه سوداوان فاحمتان وفضوليَّتان، قوائمه طويلة جدًّا وكَذَا ذيلُه؛ فروه الرمادي الكثّ مثل دمية تِدِي بيْر سُرِّح شعرها بعكس اتجاهه الطبيعي. خبَّ بجانب جاكسُن، بلطفٍ وحماسة.

حمل جاكسُن كيس القمامة عبر الممرّ ورشقه بجانب الحاوية الضخمة. بقيت العتمة الحالكة للبيت المقطور ملتصقةً بجسده.

- انتَبِه!

صاح غارقي من مخبئه، ولكن جاكسُن يعرف أنَّه في مأمنٍ من رمية الكيس. لم يكترث غارقي بمطاردته، أو برفع الكيس ووضعه في الحاوية.

غادرِ المجمَّع وبدأ يجري، غابًّا نفحَاتٍ من الهواء المنعش، محاولًا أن يطردَ أسَنْ الساعتين الأخيرتين الخانق. خبَّ وِلْفِيْ إلى جانبه، فَرِحًا، أذناه تتأرجَحَان وراءَه.

جال في خاطره أنَّهُمَا قد يلقيا ما يفرح قلبيهما إذا عادا إلى بيزبروك.

* * *

قفل راجعًا إلى بيزبروك مع وِلْفي، ثم سار على الطريق الرئيس المؤدِّي إلى أكسفورد. وصل أخيرًا إلى رَدْبٍ تحيط به المنازل حيث تسكن ميا وفِنْ. وحيث كان هو يسكن هنا ذات مرة. هذا المشروع أحدُ أكثر المشاريع التي نفَّذَها إيان ربحًا.

فيه خليطٌ من شققٍ تضمُّ أربعَ غرفِ نومٍ فاخرةٍ ومساكنَ منخفضة الكلفة أُجْبِرَ على بنائها كجزءٍ من الصفقة، وتلك بيوتٌ سُمِحَ فقط لسكّان البلدة بشرائها. كان ذلك أحد الأسباب التي أبْقَتْ جاكسُن مخلصًا لإيان؛ لأنّه أتاح له فرصة الحصول على بيتٍ منها بسعرٍ رخيص. هَبَّتْ من إيان نفحاتٌ من الكرمِ أحيانًا، رغم أنّها نفحاتٌ غالبًا ما صبَّتْ في مصلحته. كان هذا فعلٌ من أفعال الإيثار المحضة، وَفقَ ما فهم جاكسُن، رغم أنّه بقي دائمًا ينتظرُ إيان ليطالبَه بتسديد ثمن ذلك المعروف. واقتنع جاكسُن بأنّه سيضطرُّ يومًا ما للتخلُّص من جثّة إيان في مكانٍ ما.

بالطبع، قامت خطّة جاكسُن على أن يضعَ يدَه على بيتٍ بحاجة إلى الإصلاح. مشروعٌ له ولزوجته ميا. يمكنهما أن يصرفا عليه بعض المال، ثم يبيعانه ويشتريان بيتًا أكبر. وسيتابعان على هذا المنوال حتّى يشتريا قصرًا كاملًا. ولكن حصل حينئذٍ أن حَمَلَتْ ميا واحتاجا إلى مكانٍ يسكنا فيه وحدهما على جناح السرعة، مكانٌ مناسبٌ لطفل. إذ لا يمكنك أن تربّي طفلًا في موقع بناء.

ولذا فقد توصَّل إلى ذلك الحلّ الوسط. ومع ذلك، كان جاكسُن فخورًا بالصعودِ درجةً درجةً على سلَّم قطاع العقارات. تذكّر مُحيَّا ميا وهو يُدْخِلُها عبر عتبةِ البيت. كانت بيوتًا جميلةً

صغيرةً سالفة الصنع تحيط بحوش، وبُنِيَتْ على شكل أكواخ النسَّاجين التقليدية المنتشرة في البلدة. واختار كلّ شيء بحسب المخطّطات الأولية الموضوعة للبناء: المطبخ الأزرق الفاتح من ماركة شيكر؛ ورق الجدران الفضي في البهو، المجلى الزجاجي الأخضر الفاتح في الحمام الواقع في الطابق السفلي.
اجتَاح الذهول ميا. هَمَسَتْ له:

- أهو لنا؟ أهو حقًّا لنا؟

أمّا الآن، فلم يعد هناك مكان لتلك «النَا».

قَرَعَ على الباب الأمامي الكْرِيْمِي الفاتح. تذكَّر اللحظة التي انتقى فيها هذا اللون واعتزازه بذلك الانتقاء. فَتَحَتْ ميا الباب. شعرها المجعَّدُ الداكن مربوط للخلف؛ وكانت ترتدي كنزة واسعة الأكمام ذات لون زهري طفولي وبنطالًا رياضيًّا رماديًا مشدودًا وتأكل لبنًا قليل الدَّسَم.

- أيمكن لفِنْ أن يخرج بعض الوقت؟

تنهَّدَت وقالت:

- ألا تستمع لما أقوله أبدًا؟ قلتُ لكَ إنَّه يتدرَّب على التايكواندو أيَّام الثلاثاء في المركز الترفيهي.

أومأ جاكسُن برأسه، وقال:

- سأتمشَّى إلى هناك وأصطحبه معي.

- لا عليك. فالتدريب يشمل النقل. سيرجع بالحافلة.

- سأطلب منه ألَّا يقلق بشأنـ...

- لا. فهو سيُحْضِرُ لي معه بعض البروتينات التي أحتاجها في تدريباتي.

- تدريباتك؟

- أتدرَّبُ من أجل المشاركة في مسابقة الترياثلون. كان من المفترض أن أذهب إلى درس السِّبَاحة، ولكن...

زاد هوسُ ميا بالرشاقة منذ أن غادر البيت وباتَتْ هاجسها. حَسِبَ جاكسُن أنَّها ستفقدُ أثناء ذلك مقدارًا كبيرًا من وزنها. فقد زالت انثناءات جسدها؛ وبدت نحيفة جدًّا وفَقَدَ وجهُهَا نعومَتَه.

نظر إليها. من خلال التمعُّن فيها من كثب، بدت شاحبةً شحوبًا لا مراء فيه.

- أأنتِ بخير؟

بدت مضطربة. لم يعبِّرا قطّ عن قلق أحدهما على الآخر وهما في خضم علاقتهما الراهنة. إذْ تجنَّبَا الخوض في المسائل الشخصية.

- طبعًا أنا بخير. الأمر فقط، كما تعلم، ناجم عن توقيت الدورة الشهرية الخاطئ.

كانت تعاني دائمًا. واعتاد أن يحضِّر لها الشاي وقناني الماء الساخن ويفرك لها ظهرَها. كان ذلك قبل أن يصير مُقْرِفًا بكلّ ما في الكلمة من معنى. فتح فاه ليشدَّ من أزرها أو يواسيَها ولكنّه لم يكن متأكّدًا ممّا سيقول. بدا أيّ كلام يتفوَّه به الآن شخصيًا جدًّا بالنسبة لهذه المرأة التي أصبحت غريبةً عنه.

غَرَفَتْ بملعقتها المزيد من اللبن، وهي لا تزال واقفة بعتبة الباب، لا نيَّة لها في أن تطلب منه الدخول. قالت له:

- لم تأتِ إلى اجتماع أولياء الأمور المسائي.

في صوتِها النبرة الحادة المرعبة المعتادة. كان سعيدًا أنَّه لم يُظْهِرْ التعاطف معها.

قطَّب حاجبيه وقال:

- ماذا؟ ومتى كان ذلك؟ أنتِ لم تخبريني.

- الخميس الفائت. لستُ مضطرةً لإخبارك بموعده.

- وكيف لي أن أعرف؟

- بإبداء الاهتمام.

حدجته بغضبٍ وأضافت:

- ليس عندكَ أي معلومات قط عما يفعله فِنْ.

- بل أعرف.

- حقًا؟ ما هو الموضوع الذي يكتب عنه في هذا الفصل، إذًا؟

لم يستطع جاكسُن أن يجيبَ.

- عن الڤايكنغ يا جاكسُن. عن الڤايكنغ.

تنهَّد وقال:

- أنا رجل مهزومٌ يا ميا. نحن نعرف ذلك. ما من داعٍ لأن تُقِيمِي الدليلَ على هزيمتي.

- يا حسرتي على فِنْ، فهو كلُّ ما يهمّني.

- أنا وفِنْ نضحك كثيرًا، ونقضي وقتًا رائعًا عندما يكون معي.

- الأمر لا يتعلّق بالضحك فقط.

نظر إليها. متى أصبحت قاسية جدًا هكذا؟ ولماذا؟ سألها بغْتَةً:

- أأنتِ سعيدة؟

بدت مضطربة، وكأنه ضبَطَها وهي تفعل شيئًا لا ينبغي لها فعله.

- بالطبع.

- حقًا؟ الطامّة الكبرى أنّ السُّعدَاءَ لا يحاولون إسعادَ غيرِهم، بل يسبِّبُون لهم شعورًا بالتعاسة.

أشاحت ببصرها عنه لحظة. ما كان لجاكسُن أن يعرف ما الذي يجول في خاطرها. لم يكن بإمكانه أن يعرف البتّة. فمنذ أن ولد فِنْ، شعر بأنّ ميا الحقيقية رحلت إلى مكان آخر.

عندما تكلَّمت، بالكاد استطاع أن يسمعها.

- أنا مُتْعَبَةٌ فقط، هذا كلُّ ما في الأمر.

ذلك ما اعتادت قوله عندما يكون معها: مُتْعَبَةٌ طوال الوقت.

- لا بدَّ أنّ التدريبَ سبْبُ ذلك. لا عجبَ إذًا. امنحي نفسَكِ استراحةً يا ميا.

خطا نحوها. أراد أن يضُمَّها. أن يقول لها بأنّ الأمور ستكونُ على ما يرام. ولكنّها تفادته.

بادلته شبه ابتسامة وقالت:

- أنا بخير. فالتدريبُ هو الذي يمنحني قوة الاستمرار.

- لا أفهم يا ميا. عندك هذا المنزل. ولديك ابننا الجميل. وها قد تخلَّصتِ مني وطردتيني من البيت. ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟

بَرَمَتْ عينيها نَزَقًا.

- يُمْكنكَ أنِ تراه غدًا بعد المدرسة. لا تتأخر.
التقمت ملعقةً أخرى من اللبن في فمها وأغلقت الباب برجلها. وقف جاكسُن بعتبة الباب لحظة، غير قادر على أن يصدِّق بأنّ لها الجَلَد على جعله يشعرُ بتعاسة أكبر في كلّ مرة يراها فيها. واضحٌ أنّها لا تقيمُ له وزنًا. واضحٌ أنّها لا تحسبُه سوى أبٍ تافهٍ. لا بأسَ، فهو لم يكن أبًا تافهًا. فالضحكةُ لا تفارقُ محيَّاه ومحيَّا فِنْ عندما يلتقيان. اصطحبه معه لصيد السمك. واصطحبه معه إلى متنزّه التزلّج وعلَّمه لعب الورق. ابتاع له طعامًا محترمًا؛ ليس مثل ذلك الطعام القذر الذي اعتادت إطعامه إياه: العدس والكينوا. وأحبَّ فِنْ الكلبَ وِلْفِيْ حبًا عظيمًا.

ما الذي يجب عليه أن يفعله حتى يكبر في عينها؟

استدار ومشى راجعًا عبر درب السيَّارات ومنه صوب الطريق الرئيس، ووِلْفِيْ يخُبُّ بجانبه، ناظرًا إليه بين الفينة والأخرى. بدأ الظلام يرخي جدائله، واستحضر أحداث اليوم.

رويدًا رويدًا، وهو يمشي، لاحت له فكرة. يمكنه أن يفعل ما يمليه عليه إيان ويثبت أنه أبٌ كما يليقُ بالآباء أن يكونوا. وإذا ما سارت الأمور وَفقَ الخُطّة، فربّما يمكنُه أن يُخْرِجَ نفسَه من أتون هذه الفوضى.

(41) اختصار لستافوردشاير بُلْ تيرير، وهي سلالة من الكلاب.

(42) ثيودور روبرت «تِدْ» بَنْدي (١٩٤٦ – ١٩٨٩): مجرمٌ أمريكيٌّ قتلَ العديدَ من النساء والفتيات في السبعينيّات من القرن العشرين.

(43) بيتر ولِيَم ستكلِف: سفَّاحٌ بريطانيٌّ وُلد عام ١٩٤٦ وأُدين عام ١٩٨١ بقتل ثلاث عشرة امرأةً ومحاولة قتل سبع نساءٍ أخريات. حكم عليه بالسجن مدى الحياة.

الفصل السادس

قالت لها أندريا:

- إنها مشكلة عويصة يا إِمِيْ. والأفضل لكِ أن تأتي إلى مكتبي. ولكن لا تقلقي، يمكننا حلَّها. فتلك مسؤوليتي.

شعرت إِمِيليا بخيبة الأمل. كما شعرت بالامتنان لوجود أندريا معها. ما كان لها أنْ تحلمَ بصديقةٍ أفضلَ منها، رغم أنّهما كانتا مختلفتين جدًّا إحداهما عن الأخرى. وما انفكّت أندريا تتّصل بها كلّ يوم لتطمئن عن أحوالها. كما أحضرت لها هدايا لطيفة، ففي الأسبوع الفائت أهدَتْها شمعةً مغربية برائحة الورد، غالية ونفّاذة الرائحة. علَّمَتْهَا أندريا كيف تستخدمُها:

- ما عليكِ سوى الاضطجاع في السرير وتنشُّق رائحتها. ستجعلُك تشعرين بالتحسُّن فورًا.

ما أثار الدهشة أنّ ذلك حصل. وكان عبيرُها مريحًا جدًّا؛ وغمرتها رائحتُها وأشعرَتْها بالراحة.

مشتْ إِميليا من المكتبة إلى مكتب أندريا الواقع في بناءٍ حديث مصقول مبني من الزجاج والطوب المُجَمَّع، ورافقتها إلى حجرة فيها أثاث اسكندناڤي صقيل، وكمبيوتر ماك وآلة قهوة حديثة الطراز. لم يكن هناك حتّى ولو ورقة واحدة في المكتب.

أطلَّت أندريا، بفستانها الكُحْلي الذي جسَّم معالمَ جسدِها ونظّارتها ذات الماركة الفاخرة التي توحي بأنّها ملمّة بكلّ شاردة وواردة في أمور الحسابات. شعرت إِميليا من فورها وكأنَّه كان ينبغي لها أن ترتدي ملابس رسمية أكثر. فقد ارتدتْ بنطالَ جنزٍ وحذاءً رياضيًّا مع كنزتها الرياضية المفضَّلة الرمادية القديمة الممتدة حتّى الرقبة. لم تبد قطُّ بمنظر يوحي بأنّها قادمةٌ إلى اجتماع يبحث أمور العمل.

عانقتها أندريا، وشعرت إِميليا بقوتها. ورغم ذلك، فقد فتحتا موضوع العمل مباشرة؛ فأندريا تضيق ذرعًا بهذر الكلام، ولم تكن لتداهن أو تجامل. جلست إلى طاولة مكتبها وعرضت دفاتر حسابات مكتبة نايتِنْغيل على شاشة كمبيوتر بحجم طاولة مطبخ.

- احْتَجْتُ إلى وقتٍ لا بأس به حتّى أطَّلع عليها كلّها لأستوعبَ ما فيها. ولن أدَّعيَ أنّ الأمور بخير. إذ يبدو وكأنَّ المكتبة كانت تعاني من مشاكل مالية مدة طويلة. أنا آسفة جدًّا لإخباركِ بذلك. أعرف بأنّه لا ينقصك مثل هذه الأخبار في هذه اللحظة، ولكنّي شعرتُ حقًّا بأنّه ينبغي لكِ أن تحيطي بصورة الوضع في أسرع وقت ممكن. بحيث يمكنكِ أن تقرِّري ما تفعلين.

ناولَتْ إِميليا رزمةَ أوراق مُجَلَّدَة بأناقة.

- هذه الموازنة العمومية للسنتين الأخيرتين. ليس فيها عمليًا ما يمتُّ إلى كلمة موازنة بصلة. فالمصاريف كبيرة جدًّا، وتَبِعَها مداخيلُ أقلّ.

ابتسرت ابتسامة متحسِّرة وأضافت:

- إلَّا إذا كان أبوك يتعامل بالبيع نقدًا ولا علم لنا بما باعه واشتراه.

- ربّما لا يكون أبي متقنًا للمسائل المالية ولكنّه كان أمينًا في تعاملاته.

- أعرف. كنت أمزح. ولكنّي انظري- فهو لم يسحب حتّى راتبًا كبيرًا لنفسه في السنوات القليلة الماضية- كان جُلُّ همِّهِ دفع رواتب موظفيه. ولو أسبغ على نفسِه الراتب الذي يستحقه لكانت الخسارة أكبر بكثير.

لم تكن إِميليا بحاجة إلى خبرة كبيرة في الحسابات لكي تدرك أنّ كلَّ هذه الأخبار لم يكن فيها ما يبعث على الفرح.

- لو لم يكن يملك المكتبة ملكية كاملة لكانت الأزمة أكبر بكثير. فحينها لن يكون قادرًا أبدًا على توفير أجرة المكتبة أو تسديد أقساط الرهن العقاري.

- ولماذا لم يخبر أحدًا بذلك؟

تنهَّدت أندريا وقالت:

- ربّما لم يكن يكترث بذلك. فالربح ليس كل شيء بالنسبة لبعضهم. أظنّ أنّ المكتبة كانت أسلوب حياة بالنسبة له، وطالما أنَّ أمورها سارت برويَّة فذلك مصدر سعادته. يا خسارة! لأنه لو قدِّر له أن يستشير شخصًا خبيرًا لكان باستطاعته أن يجعل المكتبة أكثر كفاءة دون الحاجة إلى اللجوء لإحداث تغيير كبير جدًا في طريقة إدارته لها.

تصفَّحَت بضع صفحات إضافية تحمل في طياتها أرقامًا تبعث على الاكتئاب. ثمَّ أضافت:

- لقد ارتكب العديد من الأخطاء التي عفا عليها الزمن، وفاتته الاستفادة من العديد من الحلول الذكية.

تنهَّدت إِميليا وقالت:

- تعرفين طباع أبي. دائمًا ما كان يفعل ما يريد بطريقته الخاصّة.

أطرقت رأسَها وأردفت:

- كان يرسل إلي المالَ دائمًا. لم أدرك بأنّه لم يستطع توفيره. كنتُ حينها ما أخذت منه...

منعت نفسها من البكاء في مكتب أندريا. ولكنّ الدموعَ سالت.

- آسفة.

رفعت رأسها وفاجأها إذْ رأت أندريا تبكي أيضًا. لا بأس، لم يكن بكاءً بقدر ما كان اغروراقًا لعينيها بالدموع. قالت أندريا:

- أوه، أنا آسفة أيضًا. هذا تصرُّفٌ غيرُ مهنيّ منّي. ولكنّي كنْتُ فعلًا معجبةً بأبيكِ. اعتدت أنْ أدَّعِيْ أنّه أبي عندما كُنَّا صغيرات، إيْ نعم. لم يكن سوى رجلٍ في غاية الـ... حينذاك. على النقيض من أبي.

كان والد أندريا شخصًا غريبَ الأطوار لا يزورُهم إلَّا فيما ندرَ، وعادةً ما يكونُ ذلك عندما ينفدُ ما معه من مال ويأتي ليستجديَ المالَ من أمّها.
سحبتْ دُرْجًا وأخرجت منه علبة مناديل.

- هذه المناديل ستلزمُك في إجراءات إشهار إفلاس المكتبة. فحتّى البالغون يبكون عند حصول ذلك.

- إذًا، هل ترين بأنّ هناك حاجةً لإغلاق المكتبة؟

قالت إِميليا بعد أن مسحت دموعها وشعرت بقوة خفيفة.

في هذه اللحظات كانت أندريا قد أراحت أعصابها وأجابت:

- لا. على الإطلاق. الأمر فعلًا راجع لكِ، وعلى ما ترغبين فعله. ولكن ذلك سيحتاجُ إلى مقدارٍ كبير من العمل الشاقّ لقلب مجرى الأمور وتحويل المكتبة إلى مشروعٍ مربح.

أومأت إِميليا برأسها.

- أنتِ تملكين عقارًا ثمينًا. فقد اشترى أبوك المكتبة وسجَّلها باسمِك، وهذا أمرٌ جيِّدٌ، ولذلك لن يكونَ هناك تكاليفُ إضافية. كما عيَّنك مديرة للمؤسّسة المالكة للمكتبة عندما بلغتِ الثامنةَ عشرةَ، وذلك أيضًا يسهِّل الأمور. حالما نثبِت قانونية الوصية في المحكمة، فأنت حرَّة في فعل ما تشائين.

توقّفت أندريا، ثم أردفت:

- بإمكانك بيع المكتبة مباشرة والعيش في بحبوحة مالية كبيرة. وستوفِّرين على نفسك الكثير من العناء.

- تلقَّيْت سلفًا عرضًا لشراء المكتبة. من إيان مينذِب.

لم تخبر إِميليا أندريا بأنّه زارَها؛ لأنه تملَّكها شعورٌ مواربٌ بأنّ أندريا ربّما تستحسن فكرة البيع.

بدت أندريا مرتبكة. تنحنحت وقالت:

- آه، عليَّ الاعتراف بوجود قدرٍ طفيفٍ من تضارب المصالح هنا. فأنا أقومُ بتدقيق الحسابات ً لصالح إيان. ينبغي لي أن أعلمكِ بذلك قبل أن نتابع عملنا معًا.

نسيت إِميليا أنّ كلَّ الأمور في بيزبروك مرتبطة بعضها ببعض في نهاية المطاف. شعرت فجأةً بالوهن وبصدمة خفيفة.

- وهل أخبَركِ بأنّه تقدَّم إلي بعرضٍ لشراء المكتبة؟

- لا. ولكني لستُ متفاجئة على الإطلاق. أعرف أنّه اشترى معمل القفَّازات وكنتُ أنوي أن أقترحَ عليكِ أن تسأليه عن المبلغ الذي سيعرضه عليكِ لشراء المكتبة. ولكنه سبَقَنِي إلى ذلك.

تنهَّدَتْ أندريا ثم أضافت:

- ظننتُ بأنّه سيتريَّثُ قليلًا. فالأمرُ فيه بعضُ الانتهازية حتّى من إيان.

هزَّت إِميليا كتفيها وقالت:

- أظنّه أرادني أنّي أعرف بأنّ العرض لا يزال قائمًا. لأنّ كلَّ ما يعرفه هو أنّني ربّما أرغب بالبيع لحاجتي للمال. وقد فاتَحَ أبي في الموضوع عدَّة مرات ولكنّ أبي لم يعره أيَّ اهتمام.

- تلك إحدى أروع الصفات في أبيك؛ أنَّه لم يكن يعر المال أيّ اهتمام. بعكس إيان المهووس به.

ضحكت أندريا، ثم بدا على ملامح وجهها بعض الخَجَل، وقالت:

- أنا آسفة. لا ينبغي لي أن أتحدَّث عن زبائني الآخرين بهذه الطريقة. هذا تصرفٌ طائشٌ. ولا تقلقي. لن أؤثر عليكِ لا في البيع ولا في عدمه. جلّ ما أريده هو أن أساعدَك حتى تنظري

في الأمر بموضوعية وتدرسي الخيارات المتاحة. دون أن تتمكَّن منكِ العواطف أو الأهواء.

قلَّبَتْ إِميليا صفحات الموازنة العمومية التي أعطتها إياها أندريا. شعرت بخيبة أمل. لم تكن مهيَّأة لتتخذ قرارًا يستند على بيِّنة. يكفيها أنها استوعبت أنَّ أرقام الحسابات لا تبشِّرُ بالخير، ولكنها لم تستوعب كيف يمكن لها إيجاد حل لذلك. قالت:

- إذًا، أتظنين أنّه بإمكاني تحسين أحوال المكتبة؟

- حسنًا. يجب أن تصبح مكتبةً مختلفة جدًّا. عليكِ أن تستثمري مبالغ ضخمة نوعًا ما. والمشكلة هي أنّه لا يوجد الكثير من السيُولة الجاهزة في الخزنة. بالطبع، يمكنكِ أن تسحبي قرضًا. فالعقار يتمتع بقيمة مالية كبيرة.

عضَّت إِميليا على طرف ظفر إبهامها وهي تُقَلِّبُ الأمر على كافة وجوهه.

- لا أفهم لماذا آل وضع المكتبة المالي إلى هذه الحالة المزرية. أقصد، كان لديه أفواج من الزبائن. فالمكتبة كانت دائمًا مليئةً بالناس.

- نعم. لأنها مكان رائع يأتون إليه للدردشة واستعراض الكتب والتجول فيه. ولكن هؤلاء الزبائن لا يشترون دائمًا. وإن فعلوا فهم لا يشترون كثيرًا من الكتب. وأعرف تمام المعرفة بأنه كان دائمًا يمنح الزبائن حسمياتٍ في الأسعار، لأنه اعتاد على فعل ذلك معي. وقد أخبَرْتُه أكثر من مرَّة ألَّا يفعل ذلك.

استرخت أندريا في كرسيها وتنهَّدَتْ. ثم أضافت:

- مكتبة نايتِنْغيل كانت مكانًا رائعًا ودافئًا. جعلت الناس يشعرون بأنهم في بيوتهم وأرادوا أن يمكثوا فيها لساعات. ولكنها كانت نموذجًا تجاريًا مريعًا. كان يحضِّر لهم أكوابًا من القهوة ويتحَّدث معهم لساعات وهم يتجولون في أرجاء المكتبة دون أن يدفعوا شيئًا. ثم كانوا يذهبون خارج المكتبة إلى الطريق ويصرفِون عشرين جنيهًا على شرائح لحم الخرفان أو الأجبان. كان من السهولة البالغة استغلاله.

- أعرف.

تنهَّدَت إِميليا. أبوها الرائع، الذي حاز من اللطافة والمسايرة أكثر ما يمكن لإنسان أن يحوز.

طرقت أندريا بأظافرها، المُمَنْكَرَةِ بأسلوب فرنسي، على زجاج سطح الطاولة.

- ولكن لا شيء عليَّ أبغضُ من رؤية شركة تحمل في طياتها بوادر النجاح وهي تنهار. يسرُّني كثيرًا أنْ أقدِّم لكِ نصائحي. ولكن الأمر لا يقتصر على الاستماع إليها فحسب. يجب عليكِ أن تكوني استباقية في أفعالك.

- لا بأس، يسرُّني جدًّا العمل بنصائحك. وأريدُكِ أن تكوني صادقة معي. أتظنين أنه يمكن إنقاذ المكتبة من عثراتها المالية؟

استرخت أندريا في كرسيها وقالت:

- حسنًا، هناك أمرٌ مهمٌّ. أنا أدرى بشعاب بيزبروك وكيف تجري الأمور فيها. أظنّ أنَّ أهالي البلدة والزبائن القدامى هم

فقط من يأتون إلى المكتبة في هذه الأيام. الزبائن الذين تربطهم أواصر متينة مع يوليوس. وهم لا يزالون مهمّين جدًّا بالنسبة للمكتبة. هؤلاء بالطبع مُهِمُّون. ما يجب عليكِ فعله هو أن توسِّعي شبكة علاقاتك. اجعلي المكتبة مقصدًا جاذبًا للسيّاح، وزوَّار البلدة الذين يقصدونها في العطلة الأسبوعية والأشخاص الذين يعيشون خارجها. نوِّعي. ابحثي عن مصادر دخل مختلفة. ركِّزي على تحقيق الأرباح المالية!

شعرت إِميليا بقلقٍ متزايد. أجبرت نفسها على متابعة الاستماع إليها، فقد كانت أندريا ذكية.

- يجب عليكِ، بادئ ذي بدء، أن تفتحي أبواب المكتبة يوم الأحد. هناك الكثير من الأشخاص الذي يأتون من لندن إلى بيزبروك في العطلة الأسبوعية. أو ممن يأتون إلى هنا لتناول الغداء يوم الأحد. لا يوجد أمامهم الكثير من النشاطات ليفعلوها سوى إنفاق المال. لذا يجب عليكِ أن تجدي طريقة لجذبهم إلى المكتبة. والمكتبة بعيدة قليلًا عن طريقهم، لأنها تقع في آخر الشارع السريع، فإذا كان الشخص من خارج البلدة ولم يسمع بالمكتبة فربما لن ينتبه لوجودها. أنتِ بحاجة لأن تجعلي المكتبة تبدو جاذبةً للناس أكثر قليلًا. كما يجب عليكِ القيام ببعض التسويق والإعلان. صمِّمي موقع إنترنت أنيق وأسِّسْي

قاعدة بيانات، وأرسلي لزبائنك نشرة إخبارية. نظِّمي فعاليات وحفلات تدشين و...

وضعت إِميليا يديها على أذنيها. لم تستطع استيعاب كل ذلك. وقالت منتحبة:

- ولكن كل ذلك يكلف مالًا. وليس معي مال!

- عندي فكرة. الفكرة الماثلة أمامي لتفعليها هي أن تؤجِّرِي الشقة. سيدرُّ ذلك عليكِ دخلًا منتظمًا؛ على الأقل ألف جنيه في الشهر إذا كنتِ ذكية في التفاوض. هناك طلبٌ هائلٌ على أماكن إقامة أثناء أيام العطلة في بيزبروك. يوجد وكالة سياحية أدقق لها دفاتر حساباتها المالية. ويمكنني أن أعرِّفك بهم، وأطلب منهم أن يعطوك قيمة تقديرية لمبلغ الأجرة. ومع ذلك يجب عليكِ أن تصرفي بعض المال على تحسين الشقة. فالناس يتوقعون الفخامة.

- ويجب عليَّ أن أجد مكانًا أسكن فيه.

- نعم، صحيح.

كان رأس إِميليا يدور بكل الاحتمالات.

- لا أستطيع التفكير بشكل مركَّز.

- سأساعدك قدر استطاعتي. لا شيء أحبُّ على قلبي من رؤية مكتبة نايتِنْغيل وقد جنت أرباحًا مجزية. ولكن يجب علينا أن نكون واقعيين. يجب عليكِ أن تضعي خطة تجارية لا يُعْلَىْ عليها.

- لا أعرف من أين أبدأ! لم أشتغل في حياتي على جداول حساباتٍ كومبيوترية.

ابتسمت أندريا ابتسامة عريضة وقالت:

- لا بأس. هذا سبب وجودي هنا. فأنا أعشق جداول الحسابات. ولكن الأمر لن يكون سهلًا. المسألة تتعلق بأن يكون

لديك الاستعداد للعيش مع الدفاتر المحاسبية وتنفس رائحتها والنوم على صفحاتها والأكل قربها في المستقبل المنظور.

- لم أتربى في هذا الجو من العمل.

- نعم، ولكنك لن تقدري على الصمود تجاريًا بسَحْب روايات من رف المكتبة والتكوُّرِ في الزاوية وقراءتها.

ضحكت أندريا، ثم أضافت:

- في كل مرة جِئْتُ فيها إلى المكتبة وجدتُ أباكِ منهمكًا بقراءة كتاب، سارحًا بعيدًا عن الواقع. هذا لن يجدِ نفعًا. فأنت تديرين مكتبةً تجارية. وهذا يعني أن تكوني على معرفةٍ بخفايا البيع والشراء.

أومأت إِميليا برأسِها وقالت:

- فهمت. ولكني أريد أن أقيم حفل التأبين وأرتاح منه أولًا. أشعر وكأنني لا أقوى على التحرُّك إلَّا بعد إقامة حفل التأبين.

- بالطبع. لا داعي للعجلة. ستعاود المكتبة حركتها الوئيدة خلال بضعة أشهر. وفي أثناء ذلك، إذا كان لديكِ أي أسئلة، ما عليك سوى رفع السمَّاعة والاتصال بي. أريد أن أساعدكِ في اتخاذ القرار المناسب. ولكن القرار المناسب الذي يصب في مصلحتكِ، وليس القرار النابع من العاطفة أو الشعور بأداء الواجب.

تعانقتا. ثم غادرت إِميليا مكتب أندريا، وهذه ليست المرة الأولى التي تكون فيها مسحورة بروعة الناس اللطفاء، فهي مطمئنة إلى نفاذ بصيرة أندريا ومعاونتها لها. شعرت بأنها ستكون في أيدٍ أمينة مهما كان قرارها.

* * *

فيما بعد، جلست إِميليا جلستها المعهودة في المطبخ. على رفٍّ من الرفوف يوجد صف من القوارير الزجاجية، عليها لاصقات تعريفية، وقد حُدِّدَت محتوياتها بروِّيَةٍ بخطٍ منمَّقٍ

أبدعته أنامل أبيها: أرز بسمتي، عدس أحمر، سكر بني، باستا حلَقيَّة. تحتها قوارير أصغر تحتوي على توابله المفضلة: توابل صفراء برَّاقة، وحمراء قرميدية وبرتقالية يشوبها البني. كان أبوها شغوفًا بالطبخ، حيث اعتاد أنْ يُحَضِّرُ سلَفًا مقدارًا كبيرًا من الكاري أو الحساء أو المرق ومن ثم يجمِّده في أجزاء صغيرة بحيث يمكن له أن يختار ما يشاء منه في المساء ويسخِّنه. إلى جانب الطعام تقبع مجموعته من كتب الطبخ: كتب إليزابث ديڤيد، وروز إليوت، ومادور جيفري، كتبٌ أبلتها ولطَّخَتْها جميعها بقعٌ من الطعام. هناك أيضًا ألواح تقطيع اللحم الخشبية والمقالي الكبيرة والسكاكين والمغارِف.

تخيَّلَتْه وقد ارتدى مئزَرَه الأزرق والأبيض، واقفًا إلى موقد الطبخ، ممسكًا بيدٍ بكأس نبيذ أحمر، وهو يلقي" بمحتويات الطبخة في الإناء ويدردش.

لم يكن ليترك لحظة واحدةً تمرُّ دون حديث.

أمامها رزمة من الورق الأبيض من قياس (أ ٤) على الطاولة. أمسكت بقلمٍ وبدأت تكتب قائمةً من الملحوظات:

- جدول المناوبة

- فتْح المكتبة يوم الأحد (هل نحن بحاجة لموظفين إضافيين؟)

- موقع إلكتروني للمكتبة - ديف (فهي على يقينٍ تام أنَّ ديف قادرٌ على المساعدة في ذلك).

- إعادة ترتيب ديكور المكتبة

- إعادة إطلاق المكتبة. حفلة افتتاح؟ الترويج للمكتبة؟

بدت القائمةُ مُبْهَمَةً وملتبسةً نوعًا ما. إذ تكمن المشكلة في أنَّ مكتبة نايتِنْغيل اتَّخذت هذه الهيئة التي هي عليها منذ مدة طويلة جدًا حتى أنها لم تتخيَّلها بأي هيئة أخرى. تفهمت تفهمًا كاملًا مخاوف أندريا، وأَنَّ المكتبة لا يمكنها أن تستمر وفق الأسلوب ذاته المُتَّبَع أيام أبيها. ولكن ألديها الوسائل لتقلبها رأسًا على عقب؟

لم يكن لديها أي فكرة تنفِّذُها لتحقيق أفضل النتائج. حاولت أن تُخْلِيْ بالها وتركِّز، بحيث يتسنى لها تحديد ما تريد، ولكن ذلك بدا مستحيلًا، لأن ما أرادته يتمثَّل في أن يبقى كل شيء على حاله؛ أن يكون أبوها في المكتبة، وأن يكون باستطاعتها

زيارتها متى شاءت؛ تحتسي القهوة معه، وتتناول وجبة طعام معه، وتتجاذب أطراف الحديث معه لا أكثر ولا أقل.

تنهَّدت. لا تزال الساعة الثانية والنصف. شعرت وكأنها ستخلد للنوم الآن ولن تستيقظ حتى الغد.

ومع ذلك لم تستطع النوم. سيأتي صديق أبيها، مارلو، ليعطيها درسًا في العزف على التشيلُّو الذي تركه لها أبوها بعد وفاته. كانت تحدوها رغبة عظيمة في أنْ تعزف مقطوعة «البجعة» لسان صانز(44) في حفل التأبين، ولكنها لم تداعب أوتار التشيلُّو منذ مدة طويلة جدًا، وقد باعت التشيلُّو الخاص بها قبل أن تسافر إلى الخارج.

كان أبوها، يوليوس، عضوًا مؤسسًا في فرقة رباعي بيزبروك مع فيلِسيتي مانَرْز الرهيبة، التي تقاعدت من فرقة الرباعي قبل بضع سنواتٍ عندما ساءت حالة التهاب مفاصلها بشكلٍ منعها من عزف المقطوعات الموسيقية المعقَّدة. وحلَّ محلها مارلو، الذي كان يشغل موقع عازف الكمان الثاني في الرباعي، وأصبح العازف الأول وهو الآن يقوم بمجهودٍ مذهل في انتقاء المقطوعات وترتيبها بحيث تسرُّ العامَّة والذوَّاقة المُتَموْسِقِيْن النفَّاجِين (الذين كان في بيزبروك العديد منهم).

ارتبط الرباعي بعزبة بيزبروك مانُر وقدَّم مجموعةً متنوعةً من الحفلات الموسيقية في الحدائق في الصيف، وفي بضعة أعراس منتقاة بعناية، إضافة إلى حفلة أناشيد عيد الميلاد الذائعة الصيت في الكنيسة الصغيرة. ووفق هذا الأسلوب لم يسلبهم العمل في الفرقة جدول شؤون حياتهم اليومية، وأتاح لهم فسحةً ليستأنفوا العمل في أمور أخرى. نالوا احترام الناس وأمتعوهم بعزفهم، ورغم أنهم لم يكونوا ليجنوا ثروة من وراء هذا العزف البتة، فقد كانوا جميعهم مفعمين بالحماسة إزاء الموسيقا التي يبدعونها.

أوقد مارلو جذوة تلك الحماسة. فقد كان بحق رجلًا مُطَّلِعًا على كثيرٍ من ضروب الفن والمعرفة. وجنى بهدوءٍ ثروة صغيرة، من نَظْمِ الموسيقا الخاصة بالإعلانات، وكان عازف كمان من طرازٍ رفيع. كان أحد أولئك الناس المغموطين الذين يجعلونك تؤمن بأن كل شيء ممكن. لم يكن ساكنًا دون نشاط ولو لحظة قط، ومع ذلك كان لديه الوقت ليمد يد العون للجميع.

على أنَّ سنَّ مارلو كان قريبًا من سنِ إِميليا- وقد حسبته في منتصف الثلاثينات- فقد كان وأبوها خِلَّان وفيَّان، يجلسان إلى طاولة المطبخ لساعاتٍ وهما يشربان نبيذ نيو وورلد كابِرْنيه

ويقرِّران برامج الفرقة. شاهدا معًا كل حلقات مسلسل أن تصبح مُجْرِمًا، وقد أثملتهما التيكيلا وسندويشات التاكو، وجمَّعَا أسئلة لمسابقة حفلة رأس السنة التي تقام في فندق بيزبروك أرمز؛ وهي مسابقة ذات أسئلة صعبة يشيب لهولها الولدان.

كانت إِميليا دائمًا مشدودة إليه، وتساءلت أحيانًا إذا ما أمكن أن تتطوَّر العلاقة بينهما لأكثر من ذلك، ولكن نوعًا ما، وعلى مرِّ السنين التي عرفته فيها، دائمًا ما كانت هي أو مارلو مرتبطين بشخص آخر. كان لديه ثُلَّةٌ من الصاحبات الفاتنات، وغالبًا ما كُنَّ موسيقيات، وتعامل معهن بشروده الذهني النابع من طيبته، وهو مشغول البال على الدوام بآخر أعماله.

عندما اتَّصَلَتْ إِميليا بمارلو وطلبت منه المساعدة في تدريبها على المقطوعة التي أرادت عزفها في حفل تأبين أبيها، لم يتردَّد في تلبية طلبها.

قال لها عبر سمَّاعة الهاتف:

- هذا أمر رائع حقًا. سيُدْخِلُ ذلك السُّرورَ على قلب أبيك. لا أستطيع أن أعبِّر عن الخسارة الفادحة التي أصيبت بها الفرقة

إثر وفاته. وقد طَلَبْنا من فيلِسيتي أن تعود إلى الفرقة مؤقتًا، رغم أن وجودها سيحدُّ من المقطوعات التي سنعزفها. ولا تزال بِتْرَا تعزف القيولا، بالطبع. ستحل دِيلْفين محل يوليوس، رغم أن التشيلُّو ليسَ آلتها الموسيقية الأولى ولذا فلن تكون بمثل براعته في العزف. ولكن لا تخبريها أنني قلتُ ذلك وإلَّا فإنَّها ستهشِّم التشيلُّو على رأسي.

كانت دِيلْفين معلِّمةً للغة الفرنسية في مدرسة ابتدائية قريبة، وكانت إِميليا متأكدة بدرجة ما أنَّ مارلو ودِيلْفين كانا على علاقة غرامية. أشار يوليوس إلى ذلك، وهو يعبِّر عن امتعاضه الشديد من تلك العلاقة، مما فاجئ إِميليا. إذْ نادرًا ما أطلق أبوها الأحكام على الآخرين، ولكنه رأى أن دِيلْفين كانت فظيعة.

- أجدها ملتصقة به كثيرًا. ولا أعرف مطلقًا ما يدور في بالها.

- إنها جذَّابة جدًا.

قالت إِميليا. التقت بدِيلْفين لمدة قصيرة في عدَّة مناسبات، ولكنها عَرَفَتْ بفطرتها بأنهما لن ينسجما أبدًا. فقد كانت دِيلْفين

سيِّدة ترتدي آخر صيحات الموضة، كاملة المكياج، غامضة، مع مسحةٍ من السادية تعرف إِميليا أنها لن تستطيع التخلي عنها أبدَ الدهر.

هزَّ يوليوس رأسه وقال:

- إنها مخيفة. كما أنها لا تأكل. لستُ متأكدًا ما الذي يُعْجِبُ مارلو فيها.

عرفت إِميليا بالضبط سِرَّ تعلق مارلو بها. فدِيلْفين هي النمط الذي يداعب المخيَّلة الذكورية للرجال. أضاف يوليوس:

- كما أنها كثير الطلبات. ربما سيضيق مارلو ذرعًا بتلك العلاقة في النهاية.

ضحكت إِميليا ونصحته قائلة:

- إِيَّاك أن تنتقدها أمامه. لن يزيده ذلك إلَّا انجذابًا إليها.

وصل مارلو من فوره. عانق إِميليا عناقًا حارًّا. أشعرَها بالدفء والطمأنينة التي تبثّ الراحة في النفس وهو يرتدي معطفًا كشميريًا كبيرًا، خصلات شعره محشورة تحت طاقية صوفية.

- كيف أحوالكِ؟

اكتفت إِميليا بهزِّ كتفيها وقالت:

- أنتَ أعلم بالأحوال. أتأرْجَحُ ما بين الحزن واليأس.

- الأمر فظيع بالنسبة لكِ.

- صحيح.

- أشتاقه شوقًا عظيمًا. لا أزال أتخيَّل بأني سأذهب وأشرب كأسًا مع يوليوس العجوز. ومن ثم أتذكر أنَّه قد... ولذلك لا أتخيَّل مدى شعوركِ أنتِ.

نزع مارلو معطفه ورماه على الأريكة. كان يرتدي تحته بنطالَ جنزٍ أسودَ ضيقًا وكنزة رمادية محبوكة بشكل جدائل وحذاءً أحمرَ غامقًا من ماركة تشلسي. عندما نزع طاقيته انسدلت خصلات شعره الأسود، سارحة وغير مشذَّبة.

نظر إلى تشيلُّو يوليوس المنتصب في زاوية الغرفة. سألها، مدركًا القيمة التي يحملها التشيلُّو:

- أيمكنني أن أعزف عليه؟

- لا مشكلة، تفضل أرجوك.

فَشَخَ عبر الغرفة ورفع التشيلُّو من مسنده. دندن بأصابعه الطويلة النحيفة على أوتاره، مصغيًا بأذن خبيرة ليتبيَّن إن كان مُدَوْزَنًا، ثم شدَّ أوتاد أوتاره إلى أن صارت النغمات تمامًا مثلما

أراد لها أن تكون. شعرت إِميليا بغُصَّة، وتساءلت متى كانت آخر مرة عزف فيها أبوها على التشيلُّو؛ وما المقطوعة التي عزفها؟ كان يعزف كل يوم. فالعزف وسيلته لنسيان مشاغل الحياة. لم ينظر إلى العزف على أنه عبء ثقيل البتة.

نظرَتْ إلى مارلو وهو يدوزن التشيلُّو، كانت منبهرة، دائمًا ما كانت مأسورة بالطريقة التي يتعامل فيها عازف حقيقي مع آلته: بثقة وحرفية مطلقتين. لم تستطع أن تطوِّر من مستوى عزفها وترتقي به لأنها كانت دومًا تتوجّس خيفةً بعضَ الشيء من أن التشيلُّو سيسيطر عليها وليست هي من تسيطر عليه.

أمسَكَ بقوس العزف التي كانت لأبيها ومرَّرها فوق كتلة صغيرة من الراتنج حتى صارت شعيرات الأوتار الدقيقة ناعمة مثل الحرير. ثم جلس وجعل القوس تتراقص فوق الأوتار وشذى صوت الألحان يصدح عاليًا ومهيبًا في سكون غرفة الجلوس. شرع يعزف نغمًا، بألحانٍ قصيرة حادَّة متقطعة، وابتسمت إِميليا مبتهجةً إذ عرفت اللَّحن. كانت ألحان أغنية «المجرم النَاعم»(45). أنغامٌ لا يتوقّعها المرءُ أن تصدرَ عن تشيلُّو.

ثم انتقلَ بسلاسةٍ إلى مقطوعةٍ أحلَى، مقطوعةٍ لم تستطع أن تتبيَّنَ ما هي. اختتمَ عزفَه بقفلةٍ موسيقية أنيقة، ثم وقف وأشار لها بالجلوس على الكرسيّ.

- دعينا نستمع لعزفكِ.

- لم أعزف منذُ سنوات. كنت أنوي أن أتمرَّنَ قبل أن تأتيَ إلى هنا...

- آه، الجملة التي لا مهربَ منها. كنتُ أنوي أن أتمرَّنَ. لا أريدُ أن أسمعَك تقولينها مرّة أخرى.

احمرَّت وجنتاها خجلًا. بدا عذرُها أقبح من ذنب بعد أن قال مقولته تلك. فالموسيقيّون البارعون ليسوا بارعين لأنّهم موهوبون فقط، بل لأنّهم يتمرَّنون على العزف.

استهلَّت عزفَها بإحماءٍ بعزفِ بضعة أوزان موسيقية. كان مفاجئًا أنّها تذكّرتها جيدًا. حصل الأمر تقريبًا بالفطرة وهي تنقل أصابعها إلى الأعلى والأسفل على الأوتار، وهي تمدّها

وتثنيها لكي تقبضَ على زمام اللحن الصحيح لا أكثر من ذلك، ثم انتقلت إلى إعادة النغمات ذاتها حتى تنشِّط ذاكرتها الحركية.

- ها أنتِ تعزفين اللحن الصحيح، أترين؟

بدا الفرح على مُحيَّا مارلو، ثم أضاف:

- لا تهرب القدرة على تذكر الألحان من الذاكرة. الأمر يشبه ركوب درَّاجة. ما تحتاجين فعله الآن هو أن تضبطي مواقيت الألحان.
أخْرَجَتْ النوتة الموسيقية الخاصة بمقطوعة « البجعة» من كومة الأوراق الموضوعة على البيانو. وبدأت تعزف. عزفت منذ سنوات في أحد صفوفها المدرسية. لم تعد تتذكر في أي صف كان ذلك؛ حسبت أنّه الصفّ السادس. كانت بارعة في العزف من النوتة حينئذٍ، ونالت علامةَ امتياز. ولكن بعد مرور كلّ هذا الوقت، أصبح عزفها فظيعًا. شقَّت طريقَها بجهد ومشقّة وهي تعزفها، تملؤها الإرادة على ألَّا تتوقف حتى تصل إلى نهاية المقطوعة.

- عزفي فظيع. لا أستطيع عزفها. سأقوم بشيء آخر غير العزف. سأقرأ قصيدة في حفل التأبين.

- لا. العزف أمر رائع بالنسبة لأبيك. ثم إنَّ كلامَك صحيح، فعزفُك كان فظيعًا جدًّا. ولكنّك تستطيعين ذلك. أعرف أنّك تستطيعين. سأساعدك. إذا تمرَّنْتِ على العزف ساعتين في اليوم منذ هذه اللحظة وحتى موعد حفل التأبين، فإن ذلك سيكون أعظم ما تقدميه لأبيك في ذكراه.

بدأ بتقسيم المقطوعة الموسيقية إلى أجزاء، محدِّدًا الأجزاء الصعبة ومدربًا إيَّاها على إتقان عزفها قبل إعادتها مرة أخرى، معلِّمًا مواضعها على دفتر النوتة بقلمه. بعد ساعة ونصف من التحليل المثابِر للمقطوعة، طلب إليها أن تعزفها مرة أخرى.

هذه المرة بدا عزفها أقرب ما يكون إلى اللحن نفسه. لم يكن عزفًا متكاملًا، أو شبه متكامل، ولكنه عزفٌ يمكن للأذن تمييزه على الأقل. ضحكت جذلى، وشاركها الضحك. قال لها:

- براڤو.

- أنا مرهقة.

- لقد تمرَّنْتِ كثيرًا. حبَّذا لو تتوقفين الآن. لن تستطيعي استيعاب تمرينات أكثر مما تعلمتيه اليوم.

- أترغب في كأسٍ من النبيذ قبل أن تذهب؟

قالت له وهي تأمل أن يوافق. ثم أضافت:

- سأحتاج إلى سنوات لأفرغ من شرب قناني النبيذ التي تركها أبي إذا لم يساعدني أحدٌ في شربها.

تردَّدَ لحظة، ثم قال:

- لا بأس إذًا. كأسٌ واحدة فقط. يجب ألَّا أتأخَّر.

لم يسعها سوى أن تتساءل فيما إذا كانت دِيلْفين هي سبب إلحاحه على عدم التأخّر، ولكنّها لم تستطع فعليًّا أن تسأله هكذا سؤال.

شغَّلت مكبِّرات الموسيقا في المطبخ. اجتاح الغرفة بعضٌ من أنغام حفلات الجاز الباريسية: موسيقا ساكسفون وبيانو رائقة وناعمة ذات إيقاعٍ يلهب حماسة السامعين. حبست الأنغام لها أنفاسَها فجأة. لا بدَّ أن هذه المقطوعة هي آخر ما استمع إليه أبوها.

بحث مارلو في المطبخ، وسحب قنينة نبيذٍ أحمر من الرفّ، وفتح الدُّرْج ليجد فتَّاحة قناني يوليوس الثمينة، الفتَّاحة التي كان يفضلها سُقَاة النبيذ الفرنسي. فتح القنينة دون جهد وصبَّ لنفسه ولإميليا كأسي نبيذ.

نظر إليها، ولم تستطع أن تخفي دموعها.

ضحكت وقالت:

- آسفة. لا يعرف المرء متى يداهمه البكاء. فدائمًا ما تسبِّب الموسيقا انهمار الدموع.

قال مارلو وهو يناولها كأسَهَا:

- أنا أدرى الناس بأسباب البكاء. ولكن لا ضير في البكاء، كما تعلمين.

استطاعت إِميليا استجماع رباطة جأشها. أرادت أن ترتاح، لا أن تحزن. بينما شربت نبيذها، استطاعت أن تشعر بالراحة الحقيقية أول مرة منذ عودتها إلى البيت. دبَّتْ في المطبخ الحياةُ مرَّة أخرى؛ حياة أنعشَتْها الموسيقا وصحبة مارلو، ووجدت نفسها تنفجر ضاحكة عندما حكى لها مارلو عن العزف الذي ارتجله وأبيها في حفلة مسابقة البوكر الشتاء قبل الماضي. قال لها:

- عزفنا عزفًا نشازًا. ولحسن الحظ فقد كان الحدُّ الأقصى لسعر تذكرة حضور الحفلة خمسة جنيهات فقط، وإلَّا كُنَّا على الأرجح لقينا من غضب الجمهور ما لا يحمد عقباه.

لم تقل له إِميليا إنَّـها كانت قلقة بعض الشيء من أنّـها قد تتخلّى عن فكرة العزف في حفل التأبين على أيّ حال.

عندما غادر، بعد أن احتسى كأسَي نبيذ بدلًا من كأسٍ واحدة، بدَتِ الشقّة مكانًا معتمًا نوعًا ما. مسح بيده على شعرها وهي تمشي معه، في إيماءة عطوف، وابتسمت وهي تلتفت وأغلقت الباب. البشر لطفاء؛ البشر مفعمون بالحبّ. فعلى الأقلّ، البشر الذين سُحِرُوا بأبيها كانوا لطفاء ومفعمين بالحب.

عندما مضت إِميليا إلى النوم في تلك الليلة، كان رأسُها يدورُ بالأحداث العرضية والجداول المحاسبية والنقرات الموسيقية على التشيلُّو وقروض البنوك وساعات العمل وتصاعد نغمات الموسيقا. وكذلك بالطلبات المستمرّة للمشاركة في حفل تأبين أبيها؛ فقد بدا أنّ كلّ من في بلدة بيزبروك أراد أن يقدّم فقرة في الحفل. ولكن رغم كل ما كان يعصف داخل رأسها، حسبت أنّـها محظوظة جدًّا لكي تحظى بدعم هؤلاء الناس الرائعين، جون ومِلْ وديف، وكذلك أندريا ومارلو. أيًّا كان القرار الذي ستتخذه، فإنّـها ستكون على ما يرام.

(44) شارل كامي سان صانز (١٨٣٥ – ١٩٢١): مؤلّفٌ موسيقيٌّ وعازفٌ فرنسي.

(45) أغنيةٌ للمطرب الأمريكي مايكل جاكسُن (١٩٥٨ – ٢٠٠٩). وهي أيضًا من كلماته وألحانه. صدرت ضمن ألبوم (Bad) عام ١٩٨٧. تحكي قصة امراة تدعى آني هاجمها في شقتها مجرم لطيف.

الفصل السابع

في صباح اليوم المزمع لإقامة حفل تأبين يوليوس، تجمَّع موظفو المكتبة في وسطها قبل لحظات من موعد الانطلاق صوب الكنيسة. شعرت إِميليا بفيضٍ من الفخر. وارتدت جون، التي ما زالت تُصرُّ على المجيء كل يوم للمساعدة في ترتيبات الحفل، فستانًا صوفيًا زهريًا غامقًا ودِثارًا من ذات اللون. وارتدى ديف، بصفته مهووسًا بالموضة القوطية، ثيابًا سوداء على أيٍ حال، ولكنه ارتدى معطفًا طويلًا مخمليًا فخمًا وشريطةً سوداء ربط بها شعره الممشط بأسلوب تسريحة ذيل الفرس. وغيَّرت مِلْ ثيابَها ثلاثَ مرَّات ولكنّ رأيها استقرَّ على لبسِ تنورة أرجوانية من الساتان كتلك التي ترتديها ستيڤي نِكْسْ(46) وكنزة مفتوحة عند الصدر كشفت عن مفرق صدرها البهي. وتجلَّلت إِميليا بالأسود الكلاسيكي؛ إذْ ارتدت فستانًا ذا قبَّة عالية وأكمامٍ ذات زخرفةٍ مخرَّمة وتنورة طويلة وصلت تقريبًا إلى كاحليها ولكنّها تنّورة تسمح لها بسهولة الحركة أثناء العزف. وربَطَتْ شعرَها الأحمر الغامق على شكل شِنْيون(47). قالت جون مبتسمة:

- نبدو كأنّنا خارجين من روايات ديكِنْز(48). سيفخرُ بنا جدًّا لو رآنا.

قرَّروا أن يغلقوا المكتبة، كدليل على الاحترام، ولكنّ ديف ومِل سيعودان من فورهما من حفل التأبين لفتحها. ولن تقدِّم إِميليا أيّ ضيافةٍ بعد ذلك. شعرَت كأنّها سقَتْ سلفًا كل من هبَّ ودبَّ في بيزبروك الكثير من الشاي في الأسابيع القليلة الماضية، ولم يبقَ في جعبتها ولو نزر يسير من الطاقة العاطفية لكي تستضيف أي نوع من مراسم التأبين. فحفل التأبين سيكون رفيع الشأن وذلك يكفي ويزيد حسب ظنِّها. ويمكنها أن تلتفت إلى التفكير في المستقبل واتخاذ قراراتٍ حاسمة.

- كل ما أريد قوله لكم فقط، قبل أن نذهب، هو أنني في غاية الامتنان لكم. فأنتم جميعكم كالدُّرَر. ما كنت لأصلَ إلى ما وصلت إليه لولا دعمكم. لولاكم لأصابني الانهيار.

أحاطتها جون بذراعها وقالت لها:

- ما هذا الهراء! أنت مجبولةٌ من معدنٍ صلب. وتعلمين مدى الاحترام الكبير الذي نُكِنُّه لأبيكِ.

قالت إِميليا:

- هيا بنا، إذن. فلنذهب ونودِّعُه. وليكن وداعًا يليق به.

كانت تحاول أن تظهر بمظهر الشُّجَاعة، ولكنها شعرت في أعماقها بالضعف، وكل ما أرادته حقًا هو أن يكون والدها هنا ليقول لها إنَّ الأمور ستكون بخير، ولكنه ما كان ليفعل ذلك مرة أخرى أبدًا. الأمرُ بيدها الآن لتجعل كل شيء على ما يرام. بدأت تدرك أن قيامها بذلك لن يكون مِن أجلها فحسب، بل من أجل الجميع. فقد ترك أبوها وراءه إرثًا عظيمًا، ترك عددًا كبيرًا جدًا من الأصدقاء، ومقدارًا كبيرًا جدًا من الوفاء.

أغلَقَتْ باب المكتبة بحركة احتفالية وحثَّتْ خطاها عبر الشارع السريع ترافقها حاشيتها الصغيرة. أخذ مارلو التشيلُّو إلى الكنيسة ليضبط دوزانه بحيث يكون جاهزًا لتعزف عليه. وفرقة الرباعي ستعزف أيضًا، مقطوعة مِن موسيقى إلغَر، الموسيقي الذي يعشقه أبوها عشقًا عظيمًا. رتَّبَ مارلو عزف مقطوعة «نشيد الليل» خصيصًا لهم أربعتهم.

تقع كنيسة سينت نِكْ في الطرف الآخر من الشارع السريع، أمامها مقبرة عتيقة. كان يومًا خريفيًا مشرقًا، السماء زرقاء باهية، وشدَّة الهواء تخترق عبير الأوراق المتساقطة. وصلت إِميليا باب الكنيسة وولجت إلى الداخل. شهَقَتْ مندهشة. لن تبدأ المراسم إلَّا بعد نصف ساعة ولكن المقاعد امتلأت سلفًا حتى غصَّت بالحاضرين.

قالت إِميليا، وهي تضع يدَها على فَمِها من الذهول:

- أوه، انظري! ما أكثرَ الحاضرين!

لمست جون كتفها برفق.

- بالطبع، يا ابنتي العزيزة. بالطبع.

* * *

أحبَّت سارة الجلوس في مطبخها صباحًا. يوجد في العزبة مكتبٌ عقاري، ولكنها كانت تحب عقد اجتماعاتها الموجزة وهي جالسة إلى الطاولة هنا؛ حيث تتطرَّق إلى أي مشاكل حصلت مع الزوَّار، وتتحدَّثُ عن الفعاليات القادمة، وتناقش أي فكرة ذكية تعتمل في أذهان الموظَّفِين. غلَّاية الشاي لا تبارح نارَ التسخين، وهناك دائمًا صينية من الكاتو أو الكعك أو شرائح التمر تأتي من حجرة تحضير الشاي. هذا الوقت من العام أهدأ وقت يمرون به. كانوا دائمًا يأخذون بعض الوقت في الخريف ليلتقطوا أنفاسهم بعد انقضاء صَخَب الصيف وقبل حلول عَنَاءِ أعياد الميلاد الرهيب.

قضت سارة طوال الأسبوع وهي تُجْرِيْ مقابلات لاختيار شخص يقوم بدور بابا نويل من أجل مغارة الميلاد. كان الأمر أصعب بكثير مما توقَّعَتْ. فبابا نويل القديم قرَّر أخيرًا أن يتقاعد من أداء هذا الدَّوْر، ولكن إيجاد شخص دمثٍ ومزوحٍ وملتحٍ يعدُّ تحديًا (إذْ أنها كانت تضيق ذرعًا باللحى الاصطناعية؛ فعزبة بيزبروك مانُر تضع الأصالةَ في سُلَّم أولوياتها). ومع ذلك، كان لذلك الأمر أن يلهيَها عن التفكير في حفل التأبين الوشيك. ولكن الآن جاء اليوم الموعود. فموعد حفل التأبين في الساعة الثانية عشرة. لم يتساءل أحدٌ على الإطلاق ما الذي كانت تفعله سارة أو أين كانت- وهي تعرف ذلك من خلال سنواتٍ من التواري المشوب بالحَذَر- ولكنها شعرت اليوم بأنها مرتبكة، ومكشوفة أمام الآخرين وهشَّة

بعض الشيء، وكأنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي سَتُضْبَطُ فيه متلبسة أخيرًا بسبب تجاوزاتها، تجاوزاتها التي كانت عواطفها سببًا فيها.

بالطبع، أكثر التصرفات أمانًا هو ألَّا تذهب. أن تنأى بنفسها في مكانٍ ما وتقيم حفل تأبينها الخاص بها. ولكنها أرادت أن تكون هناك كرمى لعينيه. سيرغب في أن تكون حاضرة هناك، هي متأكدة من ذلك. تمنَّتْ لو عندها صديق، أو رفيق يمكنه أن يأتي معها، ولكنها لم تكن لتثق بأحد. كانت تلك الطريقة الوحيدة للذهاب دون أدنى شك.

إذا مرَّ عليها هذا اليوم بخير، فستجري الأمور معها على خير ما يرام.

شعرت بدوخةٍ خفيفة من أثر المخاطرة بالذهاب. ربما من الأفضل لها أن تركِّز على ذلك بدلًا من التركيز على حزنها، حزنها المخبأ في حقائبه السوداء الصغيرة التي كانت تفتحها فقط عند معرفتها أن لا أحد قريب منها.

وهي تعرف أيضًا بأنه من الأسهل على المرء عدم إثارة الشبهات إذا كان صريحًا. لم تتظاهر أبدًا بعدم معرفة يوليوس. إذا ما صدف وكانت صحبة رالف والتقت يوليوس في بيزبروك في مناسبة اجتماعية، أو في السوبرماركت أو ببساطة في الشارع، كانت دائمًا تتعمَّد الحديث معه. ولذا فلم يكن مستغربًا أدنى الاستغراب بأنها سوف تذهب لحضور حفل التأبين.

كان رالف يقرأ الجريدة، والموظفتان اللتان تعملان في المكتب تعاينان الرسائل النصيَّة.

- حسنًا؛ أنا ذاهبة إلى بيزبروك. ذاهبةٌ لحضور حفل تأبين يوليوس نايتِنْغيل.

قالت سارة بقدر ما استطاعت من أريحية. لم تقل في حياتها قط كلمات أرسلت في قلبها هذا القدر من البرودة.

لم يحرِّك رالف ساكنًا ولم يُشِحْ ببصره عن الجريدة. أجابها:

- لا ضير في ذلك. مع السلامة.

أحيانًا، تساءلت إذا كان يعرف، أو يشك بالأمر، ولكن من خلال الحُكمِ على ردود أفعاله، لم يكن عنده أي دليل. والآن لن يعرف بالأَمر البتة.

لم يخطر في بال سارة أبدًا أن تكون خائنة. ولكن مثلها مثل كل الخائنات، وَجَدَتْ طريقة لتسوغ خيانَتَها. الشيء الوحيد الذي كانت مسرورة به على الأقل هو أن يوليوس لم يكن متزوِّجًا، ولذا فإنها كانت تُلْحِقُ ضررًا محتملًا بزواجها هي، وليس بزواج عشيقها. الشخص الوحيد الذي سبَّب لها الحزن بسبب خيانتها كانت هي نفسها، لأنه ما من أحدٍ آخر عرف بالأمر. وعندما حاسبت نفسها وحشرتها في زاوية ضيقة بسبب ذلك، قالت سارة الآثمة لسارة الورعة بأنَّ رالف محظوظٌ لأنها لم تتركه. ينبغي له أن يكون ممتنًا لأن الأثر الوحيد غير المباشر لسلوكه الشائن هو علاقتها بيوليوس.

مضى على ذلك الآن خمسة عشر عامًا، ولكنها تستطيع تذكُّر الصدمة وكأنها حدثت البارحة.

* * *

وهي تتأمل ما جرى معها، ظنَّت سارة بأنَّ من دلائل متانة زواجها أنَّ رالف كان قادرًا على الاعتراف بمقدار الدَّين الذي في رقبته لها. ربما كان لرجلٍ أقل شأنًا أن يودي بهم إلى شفا الانهيار. ولكن كل ما فعله رالف هو أنه لم يصل بهم إلى تلك المرحلة. ولم تكن سارة ممتنة لذلك، بل كانت له من الشاكرين. لأنها ما كانت لتسامحه لو كان ذلك يعني بيع عزبة بيزبروك مانُر. أبدًا.

فمن غير المعتاد لمنزل مثل عزبة بيزبروك مانُر أن تؤول ملكيته إلى الورَثة من البنات، ولكن والدي سارة سلَّمَاهَا إيَّاه عندما بلغت الثلاثين وغادرا ليعيشا في جزر سيلي(49)، وتولَّت المسؤولية بحماسةٍ شديدة. كان رالف يعمل في لندن بوظيفة محلِّلٍ مالي وجنى الكثير من المال الذي كفاهما لصيانة المنزل وعيش حياة رغيدة. ولكن عندما أضحى ضغطُ ذلك كبيرًا جدًا، تقاعدَ قبل الآوان. زعم أنَّه أجرى الحسابات اللازمة، وطمأنها إلى أن هناك ما يكفي من المال في الخزائن بما يحافظ عليهما في وضع ثابتٍ ويستبدل سقف المنزل عند الضرورة. وتقاضى أجرة شقته التي كان يقيم فيها أيام العزوبة في كينسنْغتُن وبقي يضارب في سوق المال.

- لن نصير قط من كبار الأثرياء.

قال لها، ولكنَّه يعرف بأن الثَّراء الفاحش لم يكن بغية سارة. وأنَّ بقاءه معها في العزبة بدلًا من أن يكون في لندن أثناء الأسبوع يعني لها حياة مريحة أكثر بكثير، ناهيك عن أنه سيكون بجانب أَلِسْ- أَلِسْ التي يجلانها أعظم إجلال- ونوعًا ما سارت الأمور على ما ينبغي لها أن تسير. تصرَّف كل واحد منهما على هواه، واتَّفَقَا بأن هذا هو التصرُّف الصحيح الواجب عمله عندما كانا يلتقِيَان في المطبخ لشرب القهوة أو عندما سمحت لهما الظروف بالذهاب معًا لحضور مسرحية ميلاد المسيح التي تشارك فيها أَلِسْ أو عندما يذهبان إلى مطعم وايت هورس لتناول الغداء. لم يذهبا للغداء معًا إلَّا بسبب توفر الوقت لفعل ذلك. فعندما كان رالف يعمل، نادرًا ما رأى أحدهما الآخر، وذلك لا يمكن أن يسمّى زواجًا.

سلبت مراهنات سباقات الخيول عقل رالف. ولم يطق صبرًا سوى الشغف بها. كان متعودًا على المجازفة بالمال، والتعطش للإثارة. وتعرف سارة بأنه كان يدخل في مراهنة بين الفينة والأخرى، ولكنها لم تمانع. من المهم بالنسبة للرجال أن يكون عندهم اهتمام بهواية ما، وحتى لو كان ذلك يعني بأنَّ رالف سينهمك انهماكًا شديدًا فيها وهو يقرأ جريدة ريسنغ

پوست(50)أثناء تناول الفطور ومن ثمَّ يخبُّ نحو سباقات الخَيْل مع أصحابه؛ فلا مانع لديها من ذلك. فهي ذاتها تحب الذهاب في الرحلة التي يقوم بها رالف من حينٍ لآخر إلى تشيلتِنْهَام أو نيوبِرِي إذا كان هناك مهرجانٌ رفيعٍ لسباقات الخيل أو حصان يعرفان أنه مشارك في السباق.

إلى أن جاء يومٌ دخلت فيه المطبخ ورأت رالف جالسًا إلى الطاولة. أمامه قنينة لافرويغ(51) وحَلْقة(52)مفاتيح. باندفاعة مفاجئة، تبيَّنَ لسارة أنها مفاتيح خزانة البنادق.

قال رالف، بصوتٍ أثقلته الويسكي:

- أبعدي عني هذه المفاتيح.

- ما الأمر؟

كان قلبها يدُقُّ وهي ترفع المفاتيح.

- أنتَ سكران.

لم يكن رالف ينتمي لصنف مَنْ يسكرون في الساعة الحادية عشرة صباحًا. أما في الساعة الحادية عشرة في الليل، فهو سلطان الشُّرْب لا يدانيه فيه أحد.

فرك وجهه بيديه ونظر صوبها بعينين محمرَّتَين.

- أنا آسف.

- يجب عليكَ أن تشرح لي ما الذي يحدث معك. ما الأمر؟

كانت سارة واضحة.

- كان عليَّ أن أقْلِعَ عن المراهنات وأنا في أحسن أحوالي؛ وأنا في إحدى لحظات العزِّ. ولكني لم أستطع المقاومة، وهل يمكنني ذلك؟ علمًا أنني أعرف، أكثر من أي إنسانٍ آخر، بأن الرابح الوحيد هو وكيل المراهنات.

جلست سارة إلى الطاولة قُبَالتَه.

- خَسِرْتَ مالًا؟

أومأ برأسه ردًا بالإيجاب.

- لا بأس، على الأقل ها أنتَ ذا تخبرني بالأمر. يمكننا التعامل مع الأمر. أليس كذلك؟

- لا أظن أنك تفهمين ما الذي حصل.

وضع رالف يده على عُنُقِ القنينة ليصب كأسًا أخرى، إلَّا أنَّ سارة منعته.

- الشرب لن يفيدك. هيا. أخبرني ماذا حصل.

- لقد خسرت الكثير من المال.

سألته سارة وقد تملَّكَهَا الخوف:

- كم خَسِرْت؟

- خسرت كل مالي. خسرت كل ما أملك.

ازْدَرَدَتْ سارة ريقَها. كل ماله؟ لم يكن عندها فكرة كم يملك من المال. لا لأن رالف أخفى ذلك عنها، بل لأنَّ أصوله المالية تذبذبت صعودًا ونزولًا كل يوم. كان لسارة حسابها البنكي الخاص، وقد أودَعَتْ فيه أموال عائلتها، واشتركت ورالف في حسابٍ بنكي مشترك مخصص لدفع الفواتير والمصاريف المنزلية، ولكن لم يتدخل أحدهما فعليًا في الشؤون المالية للآخر.

- لم أفهم.

- كل المعلومات موجودة على حسابي على اللابتوب إذا أردتِ أن تطَّلعي عليها.

اجتاحت برودةٌ موحشةٌ عينيه؛ برودةٌ وجَدَتْهَا سارة مثيرة للقلق. ثم أضاف:

- خالفتُ كل القواعد التي أسير عليها، أليس كذلك؟ أفسحت المجال لطغيان عواطفي.

- كم خسرت؟

أدار شاشة اللابتوب صوبها. شعرت بأنها ستصاب بالغثيان مما رأت. سألته:

- وما العمل الآن؟

لم يسعه سوى أن يهز رأسه نافيًا اهتداءه إلى سبيل.

حاولت أن تفكر. لم يستطع عقلها أن يستوعب لا هذه ولا تلك؛ لا المبلغ المرعب، ولا كيف فاتها أن ترى ما الذي كان يفعله. كانت غارقة حتى شحمة أذنيها في شؤون ألِسْ وعزبة بيزبروك مانُر مما شغلها عنه. قال لها:

- كانت الأمور ستجري على ما يرام.

استولت جُشَّةٌ على نبرة صوته. ثم أضاف:

- كان يمكن لي أن أتوقف عن المراهنات.

- رالف، أنتَ تعرف أكثر من أي شخص آخر...

- هذا هو السبب الذي جعلني أظن نفسي ذكيًا.

تسابقت الأفكار في ذهن سارة. ثم استقر فكرها على أكثر الاستنتاجات منطقية.

- يجب عليكَ أن تبيع الشقة.

فالشقة طوقُ نجاتِهما.

دحجها بعينيه اللتين باحتا بكل ما يعتمل في نفسه وقال:

- يا إلهي!

* * *

وقفت إلى جانبه في محنته، فذلك ما ستفعله بالطبع. فهي لا تزال تحبه، ولم تشأ تدمير أسرتهما الصغيرة، أو ما يجمعهما من ذكريات. كان دعمها له لا حدود له: دعمًا عمليًا ولا هوادة فيه. جعلته يواجه حقيقة أنَّه مصابٌ بالإدمان على المراهنات. قطَّعَتْ بطاقاته الائتمانية، وسحَبَتْ منه حاسوبه المحمول،

وجعلته يتيح لها الدخول إلى حساباته البنكية الإلكترونية، كل ذلك بإذن منه؛ لم تكن تحاول إضعافه. فهما بحاجة إلى وسيلة تكبح جماح تعرضه لإغواء المراهنات، بين الفينة والأخرى، ولو تطلَّب الأمر منها أن تضطر للسيطرة عليه بالقوة، فليكن ذلك إذن.

حدث بعدئذٍ أنها قرَّرْت أن تجعل عزبة بيزبروك مانُر مصدر رزقهما وفَتْحِهَا أمام الجمهور. فتلك أفضل فرصة متاحة لهما للحصول على دخلٍ ثابت. سيتطلب الأمر بذل الكثير من الجهود الدؤوبة، ولكنَّ سارة لم تخش ذلك بالتأكيد. ففي نهاية المطاف، كانت عزبة بيزبروك مانُر كل حياتها منذ زمن، ولذا ربما تصبح وسيلة لكسب قوتها أيضًا.

ولكن ثقتها برالف ذهبت أدراج الرياح، ولم تعرف إذا كانت ستكون قادرةً ذات يوم على استعادتها. فقد عرَّض كل ما يملكه للخطر لأنه كان أحمقَ، وشعرت بيقينٍ أن عزبة بيزبروك مانُر نجت من استهتاره لأن الإقدام على إهدار العزبة في المراهنات كان فكرة بعيدة المنال. جَعَل ذلك فرائصها ترتعد وهي تفكر بما يمكن أن يحصل لو خسروا العزبة. ذهب احترامها له أيضًا أدراج الرياح. كان ضعيفًا. ومهما حاول أن يسوِّغ ما فَعَل، أو يوضحه، فجلُّ ما في المسألة أنه خيَّب آمالها فيه. ولم تُلْقِ باللائمة على نفسها أبدًا فيما حصل. فهي زوجة صالحة،

وكانت في مأمنٍ يكفيها لتبدأ البحث عن نقائصَ أو أساليب غير محسوبة العواقبِ. حسبت الأمور أحسن ما يكون الحساب، ولكن رالف حاد عن جادة الصواب.

لم تفشِ سرَّما حدث مع رالف لكثير من الناس. فهي تكره القيل والقال وظنون السوء. لم تكن تريد لرالف أن يغدو موضعًا لسخرية القوم؛ كرمى لعيني أَلِسْ أكثر من أي شيءٍ آخر. فسارة امرأة كتومٌ جدًا. كان عبئًا ثقيلًا لتحمله كله على كاهلها وحدَها. تاقت بين الفينة والأخرى لصديقٍ تبوح له بالحقيقة، ولكنها لم تثق بأحدٍ. ما إنْ يحتسي المرء بضع كؤوسِ نبيذ إلّا وتصبح أسراره الخاصة على لسان القاصي والداني. وقد سمعت ما يكفي من الأسرار الحميمة تُفْشَى بكرمٍ حاتمي في حفلات العشاء لكي تعرف أن ذلك ما يحصل علىً الدوام. ولذا فقد التزمت الصمت.

كان أول عيد ميلادٍ نظَّمَاه فظيعًا. فقد اضطرا للتقشف الشديد. لم يرسلا دعوات للضيوف لحضور حفلتهما المعتادة مساء ليلة الميلاد وانتهى الأمر بسارة وهي تختلق العذر لذلك بأنها أجرت عملًا جراحيًا دقيقًا وصعبًا لاستئصال الدوالي لمنع القوم من التفكير بأنهما غفلا عن إدراج أسمائهم على لائحة الضيوف نظرًا لأن حفلة عيد الميلاد في العزبة كانت حدثًا تقليديًا على المستوى المحلي. وجدت العذر الملفَّق موهنًا للعزم مرهقًا،

وأفسَد عليها كل فرحة عيد الميلاد. أفسدَها الدَّيْن الغبي، والمقرف، والسخيف. ما تزال غير فاهمة لماذا شعر رالف بالحاجة لفعل ما فعله، لأنه كانت هناك دائمًا كفاية من المال، أو هكذا ظنَّت، ولكن عندما حاول أن يوضح لها بأن تلك المقامرة لم يكن وراءها أي دافع منطقي، تعكَّر صفوها، وحاولت ألَّا تغضب.

ولكنها شعرت بالامتعاض عندما لم يكن هناك ما يكفي من مال لشراء هدايا عيد الميلاد، نظرًا لأن كل بنسٍ بقي معهما كان يذهب لصندوق تطوير عزبة بيزبروك مانُر. جال في بالها أنهما يملكان كل تلك الدونمات اللعينة من الأرض، ولا يوجد سيولة مالية في جيوبهما. كانت مصممة على أنْ تحصل أَلِسْ على ما تريد، وألَّا تشعر بأدنى أثرٍ للأزمة التي كانوا بين براثنها، ولذا فقد اشترت لها كل شيءٍ مكتوب على لائحة هدايا بابا نويل- أكثر مما اعتادت أن تفعل عادةً- كما سيحصل الجميع في العزبة على هداياهم من الكتب.

فالكتب، في نهاية المطاف، ملاذُها الذي تلتجئ إليه هاربة من الرعب الذي تعيشه. ففي الليل يمكن لها أن تتكوَّر وتقرأ كتابًا لرُوثْ رِنْدِلْ(53) أو نانسي مِتْفُوْرْد(54) وسرعان ما يتلاشى الضغط. يمكن لها، بالقراءة، أن تسافر إلى مكانٍ آخر لبضع ساعات. فقد منحتها القراءةُ راحةَ البال.

ذهبت إلى مكتبة نايتِنْغيل. فحتى الآن، ما فتئت تسلِّي نفسها بالكتب الموجودة في مكتبة العزبة، ولكنها أرادت أن تنتقي كتبًا محدَّدَة لكل أفراد الأسرة.

كان يوليوس نايتِنْغيل وراء طاولة الحساب عندما دلفت إلى الداخل، مرتديًا نظَّارة مميزة هلالية الشكل ومنكبًا على قراءة كاتالوج. بادَرَتْه بابتسامة.

- أيمكنني مساعدتكِ؟

- جئتُ لأشتري هدايا عيد الميلاد. سأقوم فحسب بجولة في المكتبة.

- نادِ عليَّ إذا احتجتِنْي.

رأتْ رزمةً من روايات دِكْ فرانْسِسْ(55) على إحدى الطاولات وتذكَّرت أنَّها اشترت في السنوات السالفة إحداها لرالف. ومع ذلك فلن تشتري له منها هذه السنة.

وهي تستعرض الكتب، وجدت أن أهوال الماضي القريب قد تلاشت. تاهت نفسُها في مكانٍ ما بين الأرفف وهي تنتقي كتبًا لأصدقائها وأسرتها: كتاب سيرة ذاتية تاريخية سميكة ثقيلة هدية لأبيها، وكتابُ طِبخٍ مصوَّر بطريقة فخمة لأمها، وسجلّات نارنيا(56) لأَلِسٍّ، وآخر روايات الأدب الخيالي الهارب من الواقع لأخواتها الصغيرات، وكتب النكات لتوضع في الحمام الواقع في الطابق السفلي لإخوة زوجها. فانتقاء الكتب يُسْعِد روحَها. اشترت كمية كبيرة من الكتب. وهي تعطيه بطاقتها البنكية لتدفع ثمنها، حداها الأمل بأن يكون في حسابها ما يكفي لتسديد ما اشترته من كتب. فكرت أنها ربما بالغت في شراء كتب كثيرة لأَلِسْ. كانت بالتأكيد تبالغ في التعويض عن أزماتها. شغلت نفسها بالنظر إلى صف من كتب كلاسيكيات پِنْغْوِنْ بينما كان يستكمل عملية الدفع، وقلبها يدق. قال يوليوس:

ـ أنا آسف جدًا. رُفِضَتْ البطاقة.

أضاف بلطف:

- يحدث ذلك كثيرًا في عيد الميلاد.

شعرت سارة بخدودِها تحمرُّ خَجَلًا. ارتبكت. أدركَتْ والذُّعر دَيْدَنُهَا أنَّها على وشك البكاء. حمدًا لـ أنها الزَّبونة الوحيدة في المكتبة في تلك اللحظة. ومن ثمَّ صُعِقَتْ إذْ تذكَّرتْ أنها لم تبكِ ولو مرةٍ واحدةٍ رغم كل الاضطراب والصدمة والفوضى والخوف والذعر الذي مرَّت به. أما رالف فقد بكى، ونشج نشيجًا شاهقًا باكيًا عظيمًا شفقةً على نفسه، وجعلها ذلك راغبةً في الصراخ، لأنَّه كان يمكن تجنُّب الوضع برمته لو لم يكن أحمقَ وحسب. فقد أدخلهم في كل ذلك الهم بسبب غبائه. ولكن سارة لم تكن ممن يلجؤون إلى البكاء بصوتٍ عالٍ؛ فهي من ذلك الصنف من الناس الذين تتيبَّس شفتهم العلوية، ويمضون في ما عقدوا عليه العزم، وتتفتَّق أذهانهم عن حلولٍ بدلًا من اللجوء إلى العويل.

الآن فقط، شعرت بغتةً وكأنَّها طفلة في السادسة من عمرها، وقد تحطَّم العالَم حواليها لأنَّها حطَّمت حصَّالتها على أرضية المطبخ. حبست دموعَها. وقالت متلعثمة:

- أنا آسفة جدًّا.

- خذي الكتب على أي حال. يمكنكِ أن تدفعي لي فيما بعد.

قال يوليوس، ثم ابتسم ابتسامة عريضةً وأردف:

- فأنا أعرف أين تسكنين، كما يقول أفراد المافيا.

- لا، لا يمكنني أخذها.

قالت سارة، ولم تستطع هذه المرَّة حبس دموعها.

كان يوليوس رجلًا أديبًا أريبًا. حضَّر لها كوب شاي ثقيل يعدِّل المزاج وأجلسها على الكرسي. وأبدى تفهمًا كبيرًا ولم يتسرَّع في الحكم عليها كثيرًا لمجرَّد أنها وَجَدَتْ نفسَها تبوح على عَجَلٍ بكل ما حَدَث معها. قال مبديًا تعاطفه معها:

- يا لها من أوقات عصيبة تلك التي مَرَرْتِ بها!

وضعت سارة وجهها بين يديها.

- أرجوك. لا تخبر أحدًا بذلك. ما كان ينبغي لي أن أقول لكَ ما قلته.

- لن أتنفَّس بحرف.

وَعَدَهَا بجدية ثم أضاف:

- صدقًا أنني أشعر أحيانًا وكأنني قسِّيسٌ هنا. فالناس يعترفون لي بشتَّى صنوف الأشياء الغريبة. يمكنني أن أؤلِّف كتابًا عنها. ولكنَّ انشغالي الشديد في بيع الكتب لا يتيح لي الوقت للتأليف.

بعد كل ما عصف بها، جعلها تكاد تموت من الضحك حتى أنَّ العالَم بدا لها مكانًا يسوده الفرح. قال لها:

- اسمعيني، خذي الكتب. وادفعي لي عندما تستطيعين. فصدقًا، هذه المسألة ليست ذات بالٍ بالنسبة لي.

أصرَّ عليها إصرارًا كبيرًا بأنه من الأهون عليه أن تأخذ الكتب بدلًا من رفض ذلك. وقد منحها ذلك مسوِّغًا، بعد بضعة أيام، عندما تدبرت أمرها وأمَّنَتْ بصعوبة بعض المال، لكي تعود وتسدد له ثمن الكتب. وبقيت حوالي ساعة وهي تدردش معه. إذْ أنَّ أروع ما في المكتبات أنك تستطيع البقاء فيها وأنت تتحدث عن الكتب لأطول مدة تريدها ولن يستغرب أحدٌ الأمر.

* * *

الكتب التي انتقتها جعلت عيد الميلاد أبهى. وحتَّى الكتاب الذي انتقته هديةً لديلُن، الشاب الذي وظَّفته لمساعدتهم في أعمال الحديقة، لقي اهتمامًا فاق تَوقُّعَاتِهَا. أهدته نسخة من كتاب الحديقة السرِّية(57). وهي رواية ما فتأت تعيد قراءتها بين الفينة والأخرى، ولم تفشل قط في أن تجد القصة قصة تبعث على الأمل كلَّما قرأتها.

غلَّفَتْه بورقٍ أبيض مربوطٍ بشريطة خضراء غامقة وأعطته إيَّاه. قالت له:

- على الأرجح أنَّكَ تظن أن هذا الكتاب بالفعل هدية غريبة ولا تليق بمقامك. ولكنه كتاب أثير جدًا على قلبي. وأريدك أن تعرف التقدير العالي الذي أكنُّه لما تقوم به هنا في العزبة. فأنتَ تُشْعِرُنِي وكأنني أستطيع إنجاز ما أريد إنجازه.

كان في قمة الأدب وهو يفتح الكتاب. شكرها بمشاعر فيَّاضَة، وطمأنها بأنه لا يظن أبدًا أنه هدية مملة. فهي الهدية الوحيدة التي تلقَّاها وهي ملفوفة فعليًا. فقد أهداه والدَاه نظّاراتٍ واقية وقنينة ييغِرمايستَر(58).

- لكي أكون صادقًا معكِ، لم أكن أتوقّع أيّ هدية منكِ على الإطلاق.

قال لها. ظنَّت بأنه على الأرجح سيأخذ الكتاب إلى البيت ويرميه في مكان ما، ولن يراه أحدٌ البتة مرَّةً أخرى. ولكنها

تفاجأت بمجيئه إليها بعد بضعة أيام من بداية السنة الجديدة ليقول لها بأنه استمتع بقراءته استمتاعًا كبيرًا.

ربما قال لها ذلك من باب الأدب لا شيء غيره، ولكن في المرة الموالية التي ذهبت فيها إلى مكتبة نايتِنْغيل، دخلت وأخبرت يوليوس بذلك فما كان منه إلا أنْ فرح بذلك. قالت له سارة:

- لا بدَّ أن ذلك يحصل معك طوال الوقت. إذ يقول لكَ الناس كم يعني لهم كتاب بعينه.

- نعم. وهذا هو السبب الذي يجعلني أبيع الكتب. فهناك كتاب لكل إنسان، حتى وإن ظنَّ بعدم وجوده. كتابٌ يقترب منكِ ويمسك بتلابيب روحكِ.

ونظر إليها، وشعرت بتأججِ مشاعر عميقة في داخلها، وفكرت بينها وبين نفسها: وأنتَ روحي.

أشاحت بنظرها بعيدًا، مرتبكة، ومن ثمَّ نظرت ثانية، كان لا يزال ينظر إليها.

يمكنها أن تتذكر كل تفصيل من تفاصيل تلك اللحظة وهي تأخذ معطفها الأزرق الغامق عن المشجب في حجرة الملابس ومن ثم تضع وشاحًا حريريًا حول عنقها. آخرُ وشاح أهداها إيَّاه. تبادلا إهداء أحدهما الآخر أوشِحَةً في عيد الميلاد. ففي نهاية المطاف، ما من أحدٍ سيستغرب وشاحًا جديدًا بذات الطريقة التي قد يستغرب فيها قطعة مجوهرات، ومع ذلك كانت علاقتُهما حميمةً على نحو يسرُّ الخاطر. أحبَّت سارة الإحساس بنعومة الحرير على بشرتها، فهو ناعم وحنون كما كانت أصابع عشيقها ذات يوم.

عَقَدَت أزرار معطفها وسارت بخفّة صوب سيارتها.

* * *

كانت تومَسينا ممتنة، مرة واحدة على الأقل، للتشتت الذي يعيشه طلاب صفّها الفوضويون. فمحاولة السيطرة عليهم شغلت تفكيرَها عن الشعور بالتوتر. اليوم بالذات كانوا على وجه الخصوص قليلي الانتباه: واضحٌ أن دقّة إنجاز تحضير صلصة البشاميل لم تكن كافية للفت انتباههم، فقد أحبّوا تحضير

وجبات يمكن لهم أن يأخذوها إلى البيت ويروها لأهاليهم، مثل البيتزا أو كعكات الزبدة أو النقانق. إضافة إلى أنّ صلصة البشاميل تتطلّب مهارة خاصّة، فمن الصعب ألَّا تحترق في الفرن، وأدهى من ذلك التخلّص من الزوائد. لذا تطلَّب تحضيرها ممارسةً وجَلَدًا، ولم يكن أيّ من هاتَين الخصلتَين متوفّرًا بشكل فطريّ لدى شعبة طلاب الصف الحادي عشر التي كانت تُدَرِّسها في المدرسة.

تقدَّمَت طالبتُها النجيبة، لورين، لتريها الصلصة الناعمة البرَّاقة التي طهتها في طنجرة صغيرة، وابتسمت تومَسينا وقالت:

- رائع.

سرَّتَها النتيجةُ على وجه الخصوص لأنّ لورين كانت إحدى التلميذات المسبّبات للمشاكل في المدرسة. فقد هُدِّدَت بالطرد في أكثر من مناسبة بسبب سلوكها المخلِّ بالنظام.

المُشَاغَبَةُ التي تتسبّب فيها لورين لا تجاريها مَشَاغَبَةٌ أخرى. إذ لم تكن قادرة على المحافظة على الهدوء أو التركيز لأيّ مدة

من الزمن طالت أم قصرت. وحضرت تومَسينا اجتماعاتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى عقدَها المدرِّسون لمناقشة سلوك لورين، واستمعت لكلِّ المدرِّسين وهم يعبِّرون عن حنقهم من سلوكها.

تنهَّدَت المديرة وقالت:

- سينتهي بها الأمر إمّا في السجن أو على قائمة الأثرياء(59) التي تصدرها جريدة الصَّنْدي تايمز.

لسببٍ ما، انتهجَتْ لورين سلوكًا مثاليًّا في حصّة تومَسينا. فهي المدرِّسة الوحيدة التي بدا أنَّ لها تأثيرًا عليها. وكان ذلك غريبًا، لأنَّ تومَسينا عادةً ما تجد الناس لا يقيمون لها وزنًا ولو مثقالَ ذرّة.

غامرت مغامرة خطرة قبل شهرين عندما سألت لورين، بعد إذن المديرة، إذا كانت ترغب في العمل معها يوم السبت في مطعم أَ ديو.

راقت الفكرة للمديرة:

- فكرةٌ حسنةٌ. وإلَّا، فإنّها ستخرج يوم السبت فقط للنشل من المتاجر أو شرب نبيذ التفاح.

لم تكن المديرة تصف لورين بما ليس فيها، فقد تلقَّت تنبيهَين بسبب النشل وشرب النبيذ في الماضي. تفاجأت تومَسينا وهي ترى علامات السرور ترتسم على محيَّا المديرة إذْ وافقت لورين على العمل معها.

- ماذا تريدينني أن أفعل؟

- تساعدينني في تحضير الطعام، وتجهيز الطاولة، والتأكّد من نظافة الكؤوس والأطباق وأدوات المائدة، وتسارعين إلى المحلَّات إذا لزمني شيء منها. وتلبّين لوازم الزبائن بينما أقوم بالطهي. ابتسمت لورين وقالت:

- تقصدين أن أكون مثل كلبتكِ.

- إذا أحببتِ ذلك.

تعرف تومَسينا أنّها أقدَمت على مجازفة كبيرة، ولكنّها رأت في لورين موهبةً لم ينتبه لها باقي المدرِّسِيْن. فقد رأتها تركِّز أثناء الطهي، وتنهمك انهماكًا كلّيًا في ما كانت تعمل. لم تُلقِ لورين بالًا للنظريات المكتوبة، ولكنَّها انهمكت في الجانب العملي بما يشبه الشغف، وأرادت أن تُدْخِلَ السرور على قلب تومَسينا، أيضًا، وهو شيءٌ لم يحصل مع أيّ من المدرِّسين الآخرين قطُّ. أرادت تومَسينا القبض بيدها على ذلك الشغف والاستفادة منه في جانبٍ ما، ومَنْحَ لورين عملًا خارج المدرسة، بحيث لا ترى بقية التلاميذ لكي تتباهى أمامهم، كانت خطوةً في الاتجاه الصحيح.

كانت تومَسينا في منتصف الطريق خارجة من باب الصفِّ عندما أوقَفَتْهَا لورين.

- أتحتاجينني في هذه العطلة الأسبوعية يا أستاذة؟

- نعم، لو سمحتِ. فالمطعمُ محجوزٌ لعشاءٍ بمناسبة احتفال زوجين بذكرى زواجهما.

نظرت إلى لورين ثم أضافت:

- ولكنِّك تعرفين النظام. الأظافر مقصوصة. والعطر ممنوع. ويجب أن يكون الشَّعر مربوطًا خلف الرأس.

جاءت لورين إلى المدرسة بأظافر اصطناعية برَّاقة، شعرها الأشقر ممشَّط إلى الخلف على شكل عقصة منتفخة، تفوح منها رائحة عطرٍ كريهة. برمت لورين عينيها تضجرًا وقالت: «نعم، نعم!؟». نظرت إلى أظافرها، المطلية بطلاءٍ فضي مع خطوط سوداء لامعة وقالت:

- أتعرفين كم استغرق طلاء هذه الأظافر؟

- النظام مسألة غير قابلة للتفاوض.

وهي ترتدي معطفها، شعرت تومَسينا بالاضطراب. لماذا وافقت على طلب إِميليا؟ بدأت ترجو وقوع كارثة طبيعية، إعصار ربما؟ فالوقت مبكر جدًا على قدوم عاصفة ثلجية. أو

ربما أنَّ سيَّارتها لن تشتغل؟ لن يكون الخطأ خطؤها، حينئذٍ، إذا لم تحضر حفل التأبين.

- معك حق، يا أستاذة.

قالت لورين وهي تنظر إليها.

- أنا متوترة بسبب موضوع.

- وما ذاك؟

- وعدتُ بتقديم قراءةٍ في حفل تأبين والد إحدى صديقاتي.

لم تستطع تومَسينا حتّى أن تبدأ بالتفكير في ذلك. لو فكَّرت بوعدها، لما كانت وَفَتْ به. الكتاب معها في حقيبتها، ذكرى الأشياء السابقة(60) من تأليف پروست. بدا جليًّا بالنسبة لها أنها ستقرأ أشهرَ نصٍّ أدبيّ عن الطعام. تَدَرَّبَتْ على قراءته

مرارًا وتكرارًا في البيت. ولكن التدرُّب في البيت لا يُغني ولا يُسمن من جوعٍ، لأنه ما من أحد فيه سواها.

كانت لورين تحدِّق إليها، مرتبكة.

- مم أنتِ خائفة؟ ستقرئين بكلّ براعة، يا أستاذة. أبهريهم بقراءتكِ.

تغيَّرت سيماء وجهها عندما أدركت ما قالته. وأضافت:

- لا بأس عليك، فأنتِ تفهمين قصدي.

لم تجد تومَسينا بُدًّا من الضحك. وشعرَت بقليلٍ من الفرح بسبب ثقة تلميذتِها بها.

- شكرًا لورين.

- هوِّني عليكِ. فأنتِ تقولين لي بأنّي أستطيعُ فعلَ أشياءِ لا أظنّني أستطيعُ فعلَها طوالَ الوقت. لا أحدَ يمانعُ إذا ما أخطأتِ، ذلك ما قلتيه. ولكن ينبغي لكِ أن تحاولي.

انبهرت تومَسينا بمنطق لورين. لم تكن قد لاحظت قبلًا بأنّ كلماتِها المشجِّعة داعبَت أعماقَها ومنَحَتْها الشجاعة التي تحتاجها.

* * *

وصلت سارة باب الكنيسة قبيل لحظاتٍ من بداية حفل التأبين. انسلّت إلى الداخل ودهشت من هول المفاجأة عندما رأت العدد الكبير من الحاضرين. نظرت متمعّنة صوبَ المقاعد عساها تجدُ مكانًا، وهي تأملُ ألا يلتفت أحدٌ ويلحظُ وجودَها. ذكَّرَت نفسَها بأنّه ما من سببٍ يمنعُها من المجيء إلى الحفل، ولكن، ومع ذلك، لم ترد أن تكون في دائرة الضوء. هناك مكانٌ فارغٌ بجانب عمود من أعمدة الكنيسة. لن تستمتعَ بإطلالة ممتازة، ولكن منحها العمود، بطريقة ما، نوعًا من الحماية من أنظار الناس. جلست بينما تقدَّم القسُّ إلى الأمام ليلقيَ كلمة الترحيب.

أوَّاه يا يوليوس!

قالت في قرارة نفسِها، وشبّكت يديها في حضنها بإحكام.

* * *

أُدْرِجَتْ قراءة تومَسينا في مطلع فقرات الحفل. قرأتْ، مذعورةً، اسمَها في جدول ترتيب المشاركين في الحفل وأدركت بأنّه فات الأوان على التراجع الآن. وجود اسمِها في مقدّمة المؤبِّنين، على صعيدٍ آخر، سينهي محنتَها بسرعة أكبر. كانت في الصفّ الأمامي، جالسةً مع الآخرين الذين سيقرؤون نصوصًا أو ينشدون ترانيمَ. تسارعت نبضاتُ قلبها، وشعرت بتعرّقٍ في راحتَيها. أرادت أن تَجْرِي إلى الخارج، ولكنّها لا تستطيعِ أن تجعلَ من نفسِها أضحوكةً. عليها أن تكملَ ما عزمت عليه.

ومن ثم انتهت، فجأةً، الترنيمةُ السابقةُ لفقرة قراءة تومَسينا- ترنيمة «قاتلوا قتالًا شريفًا في سبيل إيمانكم»- وحان دورُها. شقّت طريقَها ناهضةً من مقعدها، وسارت نحو المِقْرَأ وكأنَّها سائرة صوب مشنقة الإعدام. صعدتْ الدَّرَجات الملتوية.

شعرت وكأنّها في مكان عالٍ، بين الغيوم. وضعت الكتابَ على المسند، مفتوحًا على الصفحة التي ستقرؤها. كانت قد علَّمت بخطّ أحمرَ تحت الكلمات التي بدأت تتمايل أمام ناظرَيها. لم تستطع النظر إلى الجمهور. فالتفكيرُ في أنَّ كلَّ مَن في الكنيسة ينظرُ إليها، منتظرًا إيّاها لتبدأ، جعلها تغلي من الخوف. كانت ترتجف. ابدئي فقط، قالت لنفسها، ومن ثم سينتهي الأمر. قبل أن يرتدَّ إليكِ طرفُكِ.

بدأت القراءة، ولكنّ صوتَها بالكاد خرج من حنجرتها. توقّفت، تنحنحت، تجاهلت الشيطان الصغير الذي بداخلها، الشيطانَ الذي كان يوسوسُ لها بأن تنزلَ على الدَّرَجات ومن ثم تعبر ممرَّ الكنيسة لتخرجَ بعدها من الباب، لكنّها ما لبثت أن تابعت القراءة. وَجَدَ صوتُها ذاته. بات واضحًا طبيعيًا وهي تتابع القراءة: «أرْسَلَتْ في طلب كعكة من تلك الكعكات الرَّبلَة الصغيرة المكتنزة المسمّاة «بيتي مادلين»، التي تبدو وكأنها شُكِّلَت في قالبٍ على شكل صمام مثلَّم من صَدَفة إسقلوب. وفي الحال، وبشكل آلي، وأنا منقبضة الروح بعد يوم مرعب مليء بتطلّعات غدٍ كئيب، رَفَعْتُ صوبَ شفتي ملعقةً مملوءة بالشاي الذي نَقَعْتُ فيه لقمةً من الكعكة. ما إنْ لَمَسَ السائلُ الدافئ الممزوج بفتات الكعكة سَقْفَ حلقي إلّا واجتاحتني رعشة ثمَّ توقَّفْتُ، تملؤني الحماسة بسبب الشعور المميَّز الذي انتابني. فقد اجتاحت حواسّي متعةٌ مذهلة، متعة فريدة، منفلتة من عقالها، دون أدنى معلومة عن منشأها. وفي الحال صارت صروف

الحياة لا أهمّية لها بالنسبة لي، مصائبها لا أذية فيها، وقِصَرُها الزمني محض أوهام. هذا الإحساس الجديد ترك فيَّ الأثر الذي يتركه الحبُّ عندما يملؤني بجوهرٍ نفيس؛ أو بالأحرى هذا الجوهر لم يكن في داخلي بل كان أنا ذاتي. توقفتُ الآن عن الشعور بالدُّونيَّة، بأنَّ الأشياء قد تحدث وقد لا تحدث؛ توقفتُ عن الشعور بأنني فانية. من أين يمكن أن تكون قد جاءتني هذه البهجة العارمة؟ أحسستُ بأنها مرتبطة بمذاق الشاي والكعك، ولكنّها تجاوزَتْ إلى آخر الحدود تلك المباهج، ولا يمكن، بالفعل، أن تكونَ من الطبيعة ذاتها.

من أين جاءت؟ ماذا تعني؟ كيف يمكنني أنْ أقتنصَها وأستوعبَها؟»

عندما وصلت إلى الجمل الثلاثة الأخيرة، كانت قد وصلت إلى مستواها الطبيعي من الكفاءة في القراءة. رفعت بصرَها ونظرَت وهي تقرأ الكلمات. الحاضرون يصغون منتشين، وشعرت بموجة من الفرح لأنّها استطاعت أن تقِّدم ليوليوس ما بدا مستحيلاً. ابتسمت لحظة انتهائها من القراءة، وأغلقت الكتاب، هادئة، رزينة، وواثقة. فقد شعرت بالثقة.

* * *

من حسن طالع سارة أن كلَّ مَنْ في الكنيسة انـهمرت دموعه عندما عزفت إِميليا مقطوعتـها الموسيقية على تشيلُّو أبيها.

وقَفَتْ أمام جمهور المؤبِّنِين وقالت قبل أن تبدأ العزف:

- لقد زرع فيَّ أبي حبَّ الكتبِ وجعله في سلّم أولوياتي، ولكنّه زرع فيَّ أيضًا شغفًا كبيرًا بالموسيقا. كنتُ في الخامسة من عمري عندما سمح لي أول مرة بالعزف على التشيلُّو الذي كان يعزفُ عليه. علّمَني كيفَ أعزفُ مقطوعةَ «المع، المع أيّها النجم الصغير» ذاتَ ظهيرة أحد، ومن يومِها تعلّقَ قلبي بالعزف. وتحسَّن مستوى عزفي رويدًا رويدًا، رغم أنّني لم أصل إلى مستوى براعته. غالبًا ما عزفنا معًا، وهذه المقطوعة كانت من المقطوعات الأثيرة على نفسه. مقطوعة «البجعة» لسان صانز.

أومأت إيماءةً خفيفة، ثم جلست على كرسيّها، وأمسكت قوس التشيلُّو وبدأت العزف. عزَفْتَ ألحانًا حزينةً تقطِّع القلب، ألحانًا تردَّد صدى كآبتِها في أرجاء الكنيسة، ألحانًا عذبةً وهادئة. شعرت سارة بالألحان تتسلّل إلى قلبِها وتفطره. جثَت على

ركبتَيها على كرسِيّ الصلاة الواقع أمامها ودفنت رأسها بين ذراعيها، مُحَاوِلَةً ألَّا تنتحب. تنفَّسَت بأعمق ما استطاعت لكي تهدِّئ من روعها إلى أنْ خفتت آخرُ الألحان. ساد صمتٌ، يتخلَّله فقط عَبرات الحاضرين وهم ينشقون ويتنحنحون ويمسحون دموعهم، ومن ثم شرع أحدُهم في التصفيق، حتّى انضمَّ كلُّ من في الكنيسة إلى التصفيق. استجمعَت سارة رباطة جأشها وانضمَّت إلى موجة التصفيق. فهي تعرف مقدار فخر يوليوس الشديد بابنته، ومقدار حبِّه العظيم لها، وتمنَّتْ لو أنّها تستطيع إخبارَها كيف كانت عيناه تشعّان عندما يأتي على سيرتها.

شعرت إِميليا بالفرح عندما فرغت من العزف. فقد قضت الأسبوعين الأخيرين وهي تتدرَّب كلَّ ليلة إلى أن أتقنَت العزف من النوتة، ولكنَّها بقيَت خائفةً من أنّها ربّما تتسمَّر بلا حراكٍ أثناء العزف، أو أنَّ أناملَها ستخونُها. ولكنّها لم تخنها. جلست بعدئذٍ واستمعتْ إلى فرقةِ الرباعي يعزفون مقطوعة إلغَر «نشيد الليل». لم يعزفوا، بدرجةٍ ما، تحتَ إشراف مارلو موسيقا حزينة وإنَّمَا موسيقا تبثُّ في النفس البِشْر والراحة. لم تتوقّع إِميليا لقلبها الصغير الكسير أن يستطيعَ التحمُّل، ولكن، ومع خبو آخر ألحان المقطوعة، هي ذي لا تزال تتنفَّس؛ هي ذي لا تزال حيَّةً تُرْزَق.

* * *

كانت تومَسينا تسيرُ خارجةً من ساحة الكنيسة، عبر صُوَّات القبور المقلوبة. ينبغي لها العودة إلى المدرسة لتدرِّس الحصّة الأخيرة المقرَّرة في ذلك اليوم. شعرت بيدٍ تربِّتُ على ذراعها. ما إنْ التفتتْ حتّى رأت جِمْ يبتسم لها قائلًا:

- قراءَتُكِ رائعة بالفعل. ليتَ عندي الشجاعةَ لفعلِ ذلك! ولكن ما من نصوصٍ كثيرة تتحدَّث عن الأجبان، فالأجبان هي كل ما يجمع بيننا.

ارتسمت على وجهه ملامح حزينة، ولكن من الواضحِ أنه يمزح.

ضحكت تومَسينا.

- شكرًا لكَ. كنتُ متوترةً فعلًا.

- لم يبدُ عليكِ ذلك.

- حقًّا؟

تفاجأت تومَسينا، إذ حَسِبَتْ أنَّ خوفَها كان باديًا للحضور.

- على الإطلاق. الشيء بالشيء يُذْكر؛ أحبَّت أمّي الكتب. شكرًا لكِ...

- أنا مسرورة حقًّا لذلك.

وقفا لحظة، أوراق الخريف تتطايرُ بسرعة حول أقدامِهما. قالت تومَسينا:

- عليَّ أن أذهب فعندي حصَّة في المدرسة.

- نعم، وأنا ينبغي لي أن أعودَ إلى محلّ الأجبان.

رفع يده وأضاف:

- إلى اللقاء.

فَشَخَ عبر الدرب صوب البلدة وتومَسينا تنظر إليه وهو يمضي، شعرت وكأنّه كان ينبغي لها أن تقول المزيد. ولكن ماذا عساها تقول زيادةً على ما قالته؟

* * *

إثر انتهاء الحفل، وضعت إِميليا التشيلُّو في حجرة الأثواب الكهنوتية في الكنيسة. كانت سعيدة أنْ وجدت شيئًا يُشْغِلُها. جرى كلُّ شيء على أكمل وجه، وكلّ ما جال في خاطرها هو أنَّ كلَّ ما قدَّمه المؤبِّنُون في الحفل سيدخلُ السرور على قلب أبيها. ينبغي ألّا تنسى أن ترسل إليهم جميعًا رسالة شكر.

- عزفتِ عزفًا جميلًا.

وثبت مرتاعة، والتفتت.

كان ذلك مارلو، مبتسمًا.

- أرأيتِ؟ قلت لكِ ذلك. لكلِّ مُجتهد نصيبٌ.

- لا أدري إنْ كنت مجتهدة.

- على الأقل تستحقّين علامة جيِّد جدًّا.

امتعضت وقالت:

- حصلتُ على امتياز عندما عزفتها في الصفّ السادس، على ما أظنّ.

- جيِّد. لأنَّ هناك طلبًا أودُّ أن أطلبَه منكِ.

بدا مرتبكًا نوعًا ما. شعرت إِميليا بوجنتَيها وقد تورَّدَتَا تورُّدًا خفيفًا. أسيطلبُ منها الخروج معه إلى مقهى من المقاهي؟ بالتأكيد لا، أيُعقَلُ أن يطلبَ منها ذلك بعد مجرَّد لحظاتٍ من انتهاء حفل تأبين أبيها؟ ولكن كان يحدوها بصيص أملٍ أنّه ربّما يطلبُ ذلك. يمكن لها أن تحتسيَ مشروبًا، فهي تُكِنُّ لمارلو الاحترام، وكان أبوها يحبُّه حبًّا عظيمًا. إذْ إنّه إنسانٌ مبهجٌ ومسلٍّ و...

- يعتريني تساؤلٌ إذا كان بإمكانكِ أن تحلّي مكان أبيك في فرقة الرباعي.

- ماذا؟

لم يكن هذا الطلب ما توقَّعَتْه إِميليا.

- قدرات فيلِسيتي العجوز المسكينة محدودة جدًّا فيما يخصّ ما تستطيع عزفه من مقطوعات الآن ولا أريدُ أن أضعَها تحت

الضغط. إذا انضممتِ إلى الفرقة، يمكن لديلْفِين أن تعود عازفة الكمان الثانية كما كانت، وهذا ما سيسعدها.

ابتسم ابتسامةً حزينة، ثم أضاف:

- وهذا ما يُسهِّل حياتي، أؤكّد لكِ ذلك.

حضرت ديلْفِين بالطبع الحفل اليوم، محتشمةً في فستانٍ أسودَ مسكوبٍ على جسدِها سكبًا. كيف لها أن تفكّرَ با لـ عليها بأنَّ مارلو ربّما يكون مغرمًا بها؟

هزَّت إِميليا رأسَها وقالت:

- مستحيلٌ أن أكون عازفة جيِّدة بما يكفي لأنضمَّ إليكم. انظر كم احتجتُ من الوقت لكي أعزفَ مجرَّد مقطوعة واحدة عزفًا صحيحًا.

- مستحيلٌ أن أطلبَ منكِ ذلك لو لم أفكّر في أنكِ أهلٌ له. فالأمرُ يتعلّقُ بسمعتي التي ستصبح على المحكّ. ولا قِبَلَ لي بالمجازفة بها.

- لا أدري مسار الأحداث القادمة، ولا أدري ما مدة بقائي هنا، ولا أدري ماذا سأفعل بالمكتبة.

هي ذي تختلق الأعذار.

- انضمّي إلى الفرقة فقط حتّى نهاية العام. عندها تقل أنشطتنا، باستثناء بضع حفلات خاصّة بترانيم عيد الميلاد. وعُرس أَلِسْ بازِلْدُن.

كان ينظر إليها، عيناه البنيّتان تتوسّلان خلفَ نظّارته. ثم أردف:

- يمكنني أن أعطيكِ بعض الدروس. وأطلعكِ على كلّ ما تحتاجينه لتعزفي عزفًا بارعًا.

شعرت إميليا بنفسها وقد لان موقفُها. بالطبع أرادت الانضمامَ إلى فرقة الرباعي. ولكنّه عملٌ يتطلَّب همَّةً عاليةً.

- لا أريد أنْ أخذلَك.

- سنعزف فقط في حفلات عيد الميلاد، وقائمة الأعراس الاعتيادية. لا معزوفات لبروكوفييف(61) أو أيّ مقطوعات صعبة.

نظرَتْ إليه. كيف لها أن تقاومَ تلك الابتسامةَ الفاتنة؟ الانضمام إلى الفرقة سيكون الحلَّ المثالي الذي سيلهيها عن الضغط الناجم عن المكتبة وكلّ القرارات التي يجب عليها اتخاذها. وحتّى وإنْ قرَّرَت إغلاق مكتبة نايتِنْغيل غدًا، فإنّه يبقى لزامًا عليها أن تحلَّ بعضَ المسائل العالقة الناجمة عن ذلك بضعة أشهر. وأهمُّ من هذا وذاك، سيكون أبوها في غاية الفخر وقمّة السرور إذا عرف أنّها حلَّت محلّه في الفرقة. تذكَّرَتْ صبره وأنَاته وهو يعلِّمُها كيف تقرأُ نوتَتَها الموسيقيّة الأولى؛ وكيف تمسك بقوس التشيلُّو على النحو الصحيح. عزفا معًا ثنائيات موسيقية، وتذكّرت إِميليا كيف سحَرَتْها الموسيقا،

ومتعة التناغم مع شخص آخر. اشتاقتْ ذلك الشعور. والعزف في الفرقة سيردُّ لها ذلك ❞ الشعور.

- عدني أن تقولَ لي إذا لم أكن أهلًا للعزف.

- أعدكِ. ولكنّكِ ستبلين بلاءً حسنًا. هل أفهم أنَّكِ موافقة؟

فكَّرت إِميليا لحظة، ومن ثم أومأت برأسها وقالت:

- نعم، موافِقَة.

ارتسمت أمارات الفرح على محيَّا مارلو.

- سيفخر بكِ أبوك فخرًا عظيمًا. وأنتِ تعرفين ذلك، أليس كذلك؟

عانق إِميليا، وشعرَت بتوهُّجٍ دافئ.

قالت في قرارة نفسها إنّه من دواعي سرورها أن تفعل شيئًا تعرف أنَّ أباها يريده.

* * *

ساقت سارة سيَّارتها راجعةً إلى عزبة بيزبروك مانُر وهي تشعر بعينين ناشفتين ومشاعر جوفاء، وقد حلَّ بها خدَرٌ من جرَّاء الجهد الذي بذلته لكبح جماح مشاعرها. كبَتَتْ عواطفها كبتًا شديدًا لدرجةٍ ظنَّت فيها بأنها ربما لن تشعر بأي شعورٍ بعد الآن مطلقًا مرة أخرى. اجتاحَتْها موجةٌ من الغمِّ وهي تنعطف نحو الطريق المؤدِّي إلى العزبة مباشرة. يا الله! هي ذي تعود إلى سيرة فطيرة سمك ليلة الجمعة والابتسامات الكاذبة. فهذا ما يخبئه المساء لها. أيمكنها أن تعيش حقًا باقي أيام حياتها على هذه الحال؟

(46) ستيفي نِكْسْ (١٩٤٨ – .....): مغنّيةٌ وكاتبةٌ أغانٍ أمريكية.

(47) تسريحةُ شعرٍ فرنسية يُربَطُ فيها الشَّعر وراء الرأس على شكل عقدة كبيرة.

(48) تشارلز ديكنز (١٨١٢ – ١٨٧٠): كاتبٌ إنجليزيٌّ صوَّر في رواياتِه انعدامَ العدالة الاجتماعية وانتقدها.

(49) مجموعة تضمّ حوالي مئةً وأربعين جزيرة صغيرة قبالة مقاطعة كورنوُل في إنجلترا.

(50) جريدةٌ يوميةٌ بريطانيةٌ تُعنَي بشؤون الخيلِ وكلابِ الصَّيد وسباقاتها ومراهناتها تأسّست عام ١٩٨٦.

(51) ضربٌ من ضروب الوِيسكي الاسكتلندية المستخرجة من الشعير.

(52) سلكٌ معدنيٌّ مستديرٌ تعلَّق به المفاتيح. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

(53) رُوث باربرا ريندل (١٩٣٠ – ٢٠١٥): روائيةٌ إنجليزيةٌ، كتبت روايات التشويق والجريمة من منظور علم النفس.

(54) نانسي مِتْفُوْرْد (١٩٠٤ – ١٩٧٣): روائيةٌ وصحفيةٌ إنجليزية.

(55) دِكْ فرانْسِسْ (١٩٢٠ – ٢٠١٠): كاتبُ روايات جرائم بريطاني.

(56) سلسلة روايات خيالية في أدب الأطفال من تأليف الكاتب البريطاني سي. إس. لويس (١٨٩٨ – ١٩٦٣).

(57) رواية من تأليف الروائية الأمريكية البريطانية المولد فرانسِس بورنِت (١٨٤٩ – ١٩٢٤).

(58) مشروبٌ كحوليٌّ ألماني.

(59) وهي قائمة تضمُّ أغنى ١٠٠٠ شخص أو عائلة في بريطانيا وتصدرها سنويًّا في شهر أبريل جريدة الصندي تايمز.

(60) عنوانُ الجزءِ السابعِ من رواية البحث عن الزمن المفقود للروائيّ الفرنسيّ مارسيل پروست (١٨٧١ – ١٩٢٢).

(61) سيرجي بروكوفييف (١٨٩١ – ١٩٥٣): موسيقي سوفييتي.

الفصل الثامن

في ذلك المساء، توقف ديلُن لبرهةٍ في مطعم وايت هورس. اعتاد أن يعرِّج على هذا المكان دائمًا كل يوم جمعة ليلتقي بضعًا من أصحابه على كأس من نبيذِ هَنِيْكوت ألي، وعلبة من الجبن وشرائح البصل المقرمشة وينهمك معهم في دردشةٍ عن أسبوعهم الذي مضى، قبل أن يفترقوا جميعًا راجعين إلى بيوتهم، وقد أثقل النعاس جفونهم، ليستحمُّوا ويتناولوا عشاءَهم. لبعضهم زوجات وصاحبات ينتظرنهم في البيت؛ وكان بعضهم يعود لاحقًا، لشرب مزيدٍ من قناني البيرة وربما للاستمتاع بلعبة رمي السهام على اللوحة الدائرية أو البلياردو.

مطعم وايت هورس هو المطعم الريفي المثالي. جاثمًا على ضفة النهر خارج بيزبروك بقليل، على الطريق إلى ميبوري؛ مطعم بسيط الحال ولكن له سحر من نوع خاص. فيه جناحٌ صغير بطاولات ومقاعد خشبية متهزهزة، يقدِّم وجبات ريفية بسيطة مُشْبِعَة: وجبات خبز محشو بلحم الطرائد مع بصل مُخَلَّلٍ صغير ووجبات بيض اسكتلندي مطهوة في المطعم وخبز سميك مَضِغٌ وأوانٍ فيها زبدة فاتحة يلتمع عليها ملح بحري. لحانةِ المطعم أرضية حجرية، وفيها موقدٌ ضخم في الزاوية،

ومجموعة من اللوحات الساطعة الألوان رسمتها أنامل فنانٍ محلي شاب يصوِّر فيها الأيائل والأرانب البرية والتَدَارِج. اعتاد أهالي البلدة، والزوَّار القادمون في العطلة الأسبوعية على حد سواء، التوافدَ إلى المطعم حيث يمكن للمرء المجيء مرتديًا الجِينْز أو متزينًا بالحلي والجواهر؛ فليس للمسألة كبير أهمية.

اعتاد ديلُن المجيء إلى هنا منذ زمنٍ طويل لا يكاد يتذكره. واعتاد أبوه أن يحضره وإخوته أيام الأحد بينما كانت أمه تطهو طعام الغداء، وبات المطعم جزءًا من حياته الآن. ودائمًا ما كان يلتقي في الحانة أشخاصًا يعرفهم. وإذا لم تعرف أي شخص، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تتعرَّف على أحدهم، فجوُّ الحانة أنيسٌ واشترك روَّادُها في الشُّرب، وكان من السهل أن تفتح حديثًا مع أي كان.

في ذلك المساء كانت ألِسْ هناك مع هيو وشلة من أصدقائهما. شعرَ ديلُن على الفور بالتوتر.

كان ديلُن يبغض هيو بيتيفر بغضًا يشوبه حب الانتقام. فقد لاحَظَ كم شق على هيو أن يعامله بأدب. فهو يعرف أنه إذا ما خلت الساحة لنزوات لهيو، فلن يُسْمَحَ له قط بالتحدُّث مع أي

فردٍ من أفراد أسرة بازِلْدُن وسوف يقضي طوال يومه وهو يبالغ في تقديم فروض الطاعة والولاء والتبجيل. ولكن ذلك لم يكن الأسلوب الذي يميِّز أسرة بازِلْدُن، فكلما رأت أَلِسْ ديلُنْ أحاطته بذراعيها وتجاذبت معه أطراف الحديث، وهي تمازحه بأسلوبٍ قد يعدُّه البعض غزليًا ولكن ديلُن عرف أن ما من أحدٍ له أن يفعل ذلك معه سوى أَلِسْ.

ما فتئ هيو ينظر إليه باشمئزاز، واقتصر تعامله معه على رمقه بإيماءة وابتسامة لا تزيد ولا تنقص، وكان يسحب أَلِسْ بعيدًا في أول فرصة. وكلّ ما استطاع ديلُنْ فعلَه هو ألَّا يعبِّرَ عن امتعاضه بطريقة فظة وهو يتابع، بنظراته، هيو منسحبًا.

ذات مرة، سألَتْه سارة عن رأيه بهيو. أراد أن يقولَ ما يعتمل في خاطره، ولكنّه لن يقولَ أبدًا كلامًا بذيئًا عنه لسارة.

بالطبع أراد هيو الزواجَ بأَلِسْ. فهي ذات مكانة اجتماعية لم يكن يتمتّع هو بها، وسترث أجمل عزبةٍ دون شكّ في المقاطعة كلِّها. ستكون زوجةً رائعة، وأمًّا رائعة. تخيَّل ديلُن مجموعةً من الأطفال الصغار الشُّقْر الشعر الأقوياء يدبُّون حول عزبة

بيزبروك مانُر بجزمهم المطاطية، يحيطُ بهم الكثير من الجِرَاء والمِهَار(62).

لم يستطع ديلُن سوى التساؤل عمَّا ستجنيه ألِسْ من هذا الزواج. أهي الجِيْنَات الجميلة؟ فقد كان هيو حَسنَ المنظر جميلًا، إذا ما أحبّ المرء تشبيهه بالنمط من الملامح التي تميِّز لاعب بولو لم يبلغ سنّ الرشد بعد من الأسرة الملكية: شعرٌ كثيفٌ وبشَرَةٌ مسمرةٌ على مدار العام. أستتزوجه بسبب المال؟ فهو ثريٌّ، بالتأكيد، ولكن ديلُن لا يظنّ أنَّ ألِسْ سطحيةٌ إلى تلك الدرجة. ربّما كان هيو فحلًا في السرير؟ ربّما يكون السبب هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة؟

سبَّب هيو الغيظَ لديلُن. وقال ديلُن لنفسه بأنَّه يغارُ منه. ما كان ديلُن ليمتلكَ ذلك التأثير الخاصّ قط. ليس سوى تافهٍ دنيء المقام، يتقاضى راتبًا ضئيلًا نوعًا ما، ولا قوة له ولا نفوذ.

أصبح وألِسْ صديقين حميمين عندما يكونان وحدهما في عزبة بيزبروك مانُر، ولكنّه يشعر بالارتباك عندما تكون خارج العزبة صحبة شلّتها. شلّة من المدلّلين والصاخبين السكارى الذين يسوقون سيَّاراتهم بسرعة كبيرة.

- إنّهم جميعًا رائعون حقًّا. كانت ألِسْ تقول معترضة.

ويردُّ ديلُن:

- أنا متأكّد أنّهم كذلك. ولكن عندما يجتمعون في حشدٍ كبيرٍ فإنّ الحماقة تضرب أطنابها بينهم.

بدت ألِسْ مكسورة الخاطر. يعرف ديلُن أنّه يجب أن يكونَ حَذِرًا في كلامه. فهناك حدٌّ لمدى كرهِك لأصدقاء شخص ما دون أن يشكِّل ذلك انعكاسًا لرأيك فيهم. ولذا حاول أن ينسلَّ خلسةً إلى الحانة واحتساء كأس نبيذ دون أن تراه، ولكنها رأَتْه. وَثَبَتْ من كرسيِّها وجاءت لتعانقه عناقًا حارًّا.

- مرحبًا يا ديلُن! لقد ثملنا جميعنا قليلًا. فقد كنّا في سباقات الخيل.

ابتسَمَتْ ابتسامةً عريضةً وأشارت إلى مجموعةٍ من أصدقائها المتجمهرين إلى طاولة كبيرة قُرب النافذة الكبيرة.

- تعالَ وانضمّ إلينا.

اعتذر ديلُن عن ذلك بأسلوبٍ مؤدَّب قدرَ استطاعته.

- عندي موعدٌ مع صديقٍ حتّى أعطيَه نمسًا.

لم تكن تلك كذبة. فقد كان عنده نِمْسَان في البيت، وقد أنجبت الأنثى مؤخّرًا مجموعةً من الجراء الصغيرة. وأراد أن يتخلّص منها قبل فوات الأوان. وكان أحدُ أصدقائه مهتمًّا بالأمر.

لم يَلِنْ عزم ألِسْ.

- تعال. تعال وتعرَّف على أصدقائي جميعًا. أراهن أنّهم سيحبون جميعًا اقتناء نمس. كم نمسًا عندك؟

تنهَّد ديلُن. كلُّ ما في الأمر أنّ ألِسْ- بارك الله بها- لم تفهم مرادَه.

المسألة أنّ أصحابَها لم يكترثوا به وهو لم يكترث بهم. ما من شيءٍ مشتركٍ يجمعُهم إطلاقًا سوى ألِسْ. وهم بالتأكيد لا يرغبون باقتناء نِمْس.

كانت ألِسْ مثلَ شعاعٍ صغيرٍ من النور؛ تحبُّ كلَّ الناس، ولم تتوسّم السوء في أحد وعاملتْ الجميع المعاملة نفسها. بالنسبة لها، الحياة مثل حفلة طويلة واحدة. كانت تنضح مرحًا ووداعة وهذا هو السبب الكامن وراء إتقانها الشديد لعملها. فقد فهمت ما يريدُه زبائنُها وبذلت أقصى طاقتها لتلبِّيَ لهم مرادهم. ولكنّها كانت تخفي شراسةً تحت رداءِ المرح والوداعة. عرفت كيف تحصل على أفضل الأسعار مقابل أيّ خدمة تقدِّمُها لهم، وعرفت كيف تصل إلى النتيجة التي يريدُها زبائنها دون أن يدفعوا مبالغَ تفوق توقعاتهم.

وتلكم هي الطريقة التي تعرَّف بها ديلُن عليها فعليًّا. إذ حدث أن أضنَاها دفع مبالغ هائلة لتنسيق الزهور. فبعد كلّ عرسٍ كانت تنظرُ إلى العمل اليدويّ الذي قام به منسِّق الزهور وتتنهّد. جاءت إلى ديلُن، وطلبت منه أن يزرع لها حديقة لفسائل الزهور. قالت له:

- سأقوم بتنسيق الزهور بنفسي اعتبارًا من اليوم. يجب زراعة كلّ الزهور في العزبة. ذلك عامل الجذب الذي تتمتع به مؤسّستنا. ومن لا يعجبُه ذلك فليذهب إلى مكانٍ آخرَ.

وهكذا قضتْ وديلُن ساعاتٍ مُنْكَبَّيْن على المواقع الإلكترونية لمنسّقي الزهور وباحِثَيْن في كاتالوجات بذورها. نصحها بالأصناف التي يمكن لهم زراعتها، مثل التوليب، والنرجس، والفاوانيا، والأَضاليا، والورود بالطبع، وقرنفل الشاعر، والجلبان، والكماليَّة(63)... وأرسلت بضع موظّفات ممّن كنَّ يعملن عندها ليَحْضُرْنَ دورةً في تنسيق الزهور وبيعها، وما إن جاء موسم الأعراس الموالي إلَّا وبدأنْ تنسيق باقات الزهور، وأكمام الورد، وتنسيق زهور الطاولات، وكلّ شيء. قالت ألِسْ:

- أريد للزهور أن تبدوَ وكأنَّها قطفت من فورها من الحديقة. ولا أريد تلك الزهور الرسمية الناشفة. أريدها أن تبدوَ بكامل أوراقها وخفتها وطراوتها؛ كتلك التي يصفها تومَس هاردي(64) في أشعاره.

في آخر الأمر، اقترح ديلُن إنشاءَ بيتٍ زجاجي، للحصول على أكبر تشكيلة موسمية من الزهور، ووصفته أَلِسْ بأنه داهيةٌ عبقريٌّ بسبب ذلك.

وهكذا آلت بهما الأمور لأنْ يكونا قريبَين نوعًا ما، وأحيانًا انتهى بهما الأمر في مطعم وايت هورس وهما يحتسيان كأس مشروب، وأَلِسْ تتهادى في الحانة مثل الفراشة، وهي تدردش مع الجميع. ومن ثم التَقَتْ هيو، في حفلة إحدى صديقاتها في لندن، ونأى ديلُن بنفسه مبتعدًا. عرف بأنّه آن الأوان لأن يقطعَ أواصر صحبته معها؛ لأنه من رابع المستحيلات أن يروقَ لرجلٍ من أمثال هيو رؤية مَنْ هم على شاكلة ديلُن وهم يتودَّدُون إلى صاحبته. وحاول أن يفعلَ ذلك بحيث لا تدرك أَلِسْ بأنّه يتجنّبها متعمّدًا؛ لأنَّه يعرف بأنه في اللحظة التي ستفهم قصده فإنّها ستصرُّ على أن يكون معهم، فهو، ببساطة، لا يستطيع مواجهة الإهانة أو صراع الإرادات.

هذه هي المرة الأولى التي يُحْشَرُ فيها في موقف مُحْرِجٍ أمام الملأ، ولم يكن في جَعبته أي عُذرٍ مُقْنِعٍ. شعر بالذعر يلسعه وهو موشك على أن يُوْضَعَ في موقفٍ مربكٍ اجتماعيًا.

- ينبغي لكَ أن تتعرَّف على كلّ أصحابي وصاحباتي. سيحضرون كلّهم العرس. تعال.

حثَّتْه ألِسْ وهي تشدُّه من ذراعه. رأى ديلُن حينئذٍ، وهو ينظر في أرجاء المطعم، بريان ميلكشام يدلف إلى الحانة لشرب كأسَ نبيذه المعتاد يوم الجمعة. غَمَرَته الراحةُ عندما جاء هيو ووضع ذراعه حول ألِسْ بصورةٍ توحي بأنّها ملكه. ما من أحدٍ يمكن له أن يخطئ فهمَ الرسالة الكامنة وراء حركته تلك. قال ديلُن:

- لا يمكنني المجيءُ. ها هو بريان، جاء ليأخذَ جراء النمس منّي.

امتقع وجه ألِسْ بالخيبة.

ابتسم هيو ابتسامةً متكلِّفة وأطلق ضحكةً بغيضة.

- يبدو وكأنَّ أشبَاه أفراد أسرة أرْشَر(65)، قبحَّهم الله، جاؤوا إلى هنا.
تأبَّطَ ديلُن ذراع بريان وسار به صوب الحانة. وقال له:

- لا تكترث بالأمر. تظاهر فقط بأنَّنا مُنْهَمِكَيْن في حديث مُهمّ.

- ماذا هناك؟

- تريدني ألِسْ أن أذهبَ وأجلسَ مع كلّ أصحابها.

- أهي هنا مع ذلك البغيض؟

- بلى.

لم يكن أحدٌ من رُوَّاد مطعم وايت هورس يقيم وزنًا كبيرًا لهيو. وحسبوا جميعهم أنَّ أَلِسْ تستحقُّ شخصًا أفضل منه. قال بريان:

- رأيتُ سيّارته البيضاء التي يتصيَّد بها العاهرات في مَرْأبِ السيَّارات. لا شيء يخرج من فيه ذلك الوقح سوى الهراء.

أخرج من جيبه خمسة جنيهات ليبتاع بها نبيذَه. ذلك ما أحبَّه ديلُن في روّاد مطعم وايت هورس. لم يكونوا ليتساهلوا مع الأغبياء.

بعد أن أرخى الليل جدائلَه، أعلن صاحبُ المطعم اقترابَ موعد الإغلاق. وبقي ديلُن ليلعبَ البلياردو في الصالة الخلفية ولكنّه قرَّرَ أن يغادرَ الآنَ، قبل إغلاق باب الحانة وبقاء بعض الزبائن داخلها وهم يشربون النبيذَ في ليلة الجمعة كما جَرَت العادة. يجب أن يكون المرء في مزاجٍ جيِّدٍ كما أنَّه أرادَ أن يكونَ فكرُه صافيًا في العطلة الأسبوعية.

سار راجعًا عبرَ المطعم إلى الحانة الرئيسة ورأى ألِسْ وأصحابها يتأهَّبُون للمغادرة. معظمهم يترنَّحون سُكرًا، يسند بعضُهم بعضًا، وهم ينهقون ويتمايلون. نظر إلى هيو الذي كان ممسكًا بمفاتيح سيّارته. وجهه شديد الاحمرار، عيناه باهتتان بشكل خفيف. من الممكن أنه لن يستطيع سياقة السيّارة وهو على هذا الحال. نظر ديلُن إلى قناني الشمبانيا الفارغة المتناثرة على الطاولة. شربوا أيضًا كؤوسًا صغيرة من الوِيسْكي. صفَّ أحدهم صفًّا طويلًا من قناني جيغر على شكل ما يعرف بقطار جيغر: وهو كؤوس صغيرة من مشروب جيغر ميستر موضوعة بشكل متوازن فوق كؤوسٍ مشروب الرِّدْ بُلْ. حدث الكثير من الصخب بينما دفعت كلّ كأسٍ الكأس المجاورة لها وأسقطتها بتأثيرٍ يشبه تأثير قطع الدومينو.

ولكنَّ ديلُن يعرف طباع هيو. لن يسمحَ لشيء مثل الإسرافِ في الشرب أن يوقفَه. لم يشرب ديلُن سوى كأسين طوال الأمسية. ولم يكن ليخاطرَ بسحب شهادة سياقته منه. زِدْ على ذلك أنّ هناك سببًا وجيهًا وهو أنَّ السياقة تحت تأثير المشروب غير قانونية.

مشى صوب ألِسْ، التي خرجت من فورها من دورة المياه. رأى أنّها أسرفت في الشرب أيّما إسراف ولم يعد في جَعبتها أي قدرة على إتيان المنطق السليم.

- ينبغي ألّا تصعدي في السيّارة مع هيو. لا ينبغي لكِ أن تسمحي له بالسياقة.

لوَّحت ألِسْ بيدِها:

- سأكون بخير. كلُّ ما نحتاجُه الانتباه لمسارب الطريق.

- أرجوكِ. سأوصلكِ بسيَّارتي.

برز هيو من وراء ألِسْ، ملوّحًا بمفاتيحه.

- ماذا هناك، يا أبو نِمْس؟

لم يتلعثم ديلُن، بل قال:

- لا ينبغي لكَ أن تسوق السيَّارة.

دحجه هيو بنظرة باهتة وقاسية.

- لا تتدخل فيما لا يعنيك فتسمع ما لا يرضيك.

قال ديلُن، وقد انتابه القلق:

- با لـ عليك، يا رجل. يمكنني أنا أوصلكم بسيّارتي يا جماعة.

نَخَسَه هيو في صدره.

- انقلع من هنا. أنا بخير وأستطيع السياقة.

لَكَمَ ديلُن قبضتيه بعضهما ببعض وتقدَّم إلى الأمام. لمحت إحدى صاحبات أَلِسْ ما كان يحصل وبدأت الصياح: مشاجرة! مشاجرة!

بَدَتْ أَلِسْ قلقةً.

- صدقًا يا ديلز(66)؛ يستطيع هيو السياقة.

عبس ديلُن. فالسماح لأَلِسْ بصعود السيّارة مع هيو تصرُّفٌ يخالف فطرتَه وسلوكه.

- انقلع من هنا، أيها الفضولي. هيا بنا يا أَلِسْ.

رآها ديلُن تتلعثمُ لحظة. بينما شيَّعَها هيو التفتت، ثم هزَّت كتفَيها، وكأنّها أرادت القول: «ماذا يسعني أن أفعل؟».

حملق ديلُن إليهم بعد أن غادروا. بدا مصرًّا على رأيه. تسارعت دقّات قلبه. ينبغي له أن يمسك هيو ويمنعه من السياقة، ويأخذ منه مفاتيح السيارة. ولكنّه استطاع أن يرى تلك النظرة في عيني هيو؛ نظرةَ شخصٍ سيحاول جهدَه ويلكمُه لكمةً قوية. وإذا ما احتكّ جسديًّا مع ديلُنً، فإنّ ديلُن سيردُّ له الصاع صاعين وما من شكٍّ في أنه سيكون الخاسر. إذْ كان ديلُن يعمل في الخارج طوال اليوم؛ بينما كان هيو يجلس إلى مكتبه ويخرج لتناول وجبات غداءٍ مصحوبةٍ بكثيرٍ من السُّكْر. كما لا يمكنه أن يضربَ خطيب ألِسْ، إذ إنها ستصابُ بالذعر.

سحب ديلُن مفاتيحَ سيّارته من جيبه. سيتبعُهما إلى البيت. ويطمئن إلى أن ألِسْ لم تصب بأيّ أذية. فذلك واجبه❞ إذا حصل لها أيُّ مكروه، فكيف له أن يواجه سارة مرَّة أخرى؟ توجَّه صوبَ مَرْأَبِ السيَّارات. هواء الليل منعشٌ وبارد؛ وبدأ الصقيع يستقرُّ على الغصون.

كانت سيّارة هيو تنتظرُ في مخرجِ المِرْأَب، وقد ضبطها على السرعة البطيئة.

ركب ديلُن في سيّارته الفيستا القديمة. ساقها وسار وراء سيَّارة الأودي، منتظرًا بصبر. لم يكن ينوي أن يضغط على زمُّور سيّارته. كان يعرف بأنّ ذلك هو ما يريد له هيو أن يفعل، فقد كان يستحثّه لفعل ذلك. بدت الثواني كأنّها دقائق. طرق ديلُن بأصابعه على المِقْوَد، محاولًا ألَّا يتوتَّر. تساءل ما الذي كان يجولُ في خَلَد أَلِسْ، وإذا ما كانت تعرف أيّ لعبة يلعبُها هيو. على الأرجح أنّها لا تعرف أيَّ شيء عمّا ينوي هيو فعلَه. كان ديلُن متأكّدًا كلَّ التأكُّد بأنّها لا تملكُ أدنى فكرة عن الوجه الحقيقي لخطيبها.

أخيرًا انطلقت الأودي من المِرْأَب وسارت على الطريق، سرعتها تزداد بصورةٍ رهيبة. تخيَّل ديلُن هيو وراء المِقْوَد، ضاحكًا بصخبٍ عالٍ. مستحيلٌ أن تَلَحَقَ سيَّارة ديلُن الصغيرة سيَّارته الجبَّارة. زمَّ ديلُن شفتَيه وهو يَلِجُ الطريق ويسوق في أعقاب سيّارة هيو.

* * *

الطريق إلى عزبة بيزبروك مانُر حالك الظلمة في هذا الوقت من الليل والأشجار تَلُوحُ مقتربة على جانبيه. أنزل ديلُن ناقل الحركة وزاد السرعة، متجاوزًا المنعطفات بحذر. ومن ثم لفَّ المنعطف المخفيّ الذي يقع على مسافة نصف ميلٍ قبل مدخل العزبة ورأى أسوأ منظرٍ، كان يخشى وقوعه، ماثلًا أمام عينيه. رأى شجرة البَلُّوط العملاقة التي تطلُّ عند الزاوية وقد اخْتَرَقَتْها سيارة هيو.

باب السائق مفتوح. رأى ديلُن هيو في الطريق، يداه على رأسه. تلقى الجانب المجاور للسائق الضربة بكاملها.

خيَّم صمتٌ رهيب.

أخرج ديلُن جوَّالَه. الحمد لـ أنّه توجد تغطية هنا. أوقف سيَّارَته في مدخل بوّابة، وشغَّل أضواءها التنبيهيَّة، واتصل بالشرطة وفتح باب سيَّارته بحركة واحدة رشيقة، ومن ثمَّ وثب منها صوب الطريق.

أقبل هيو راكضًا نحوه. والذعر يرسم ملامح وجهه. قال له:

ـ هل معكَ جوَّالُك؟ لا أستطيع العثور على جوَّالي.

دفعه ديلُن ونحَّاه عن الطريق وتكلَّم عبر الجوَّال:

ـ أعطني الإسعاف، لو سمحت. والشرطة.

فَشَخَ مارًا بهيو الذي شدَّه من ذراعه قائلًا:

ـ لا تتّصل بالشرطة...

دفعه ديلُن جانبًا. وتابع حديثه عبر الجوَّال:

- وقعِ حادثٌ عند منعطف ويذِأُوك. هناك سيّارة اصطدمت بشجرة اصطدامًا مباشرًا. لا أعرف عدد الضحايا حتّى الآن ولكن يوجد ضحيّة واحدة بالتأكيد!

أغلق ديلُن الجوَّال وركض صوبَ السيَّارة، وقفز إلى المقعد المجاور لمقعد السائق.

كانت ألِسْ منسدحة فوق الوسادة الهوائية، فاقدة وعيها. تهشَّمَت السيَّارة من الجهة التي كانت جالسة فيها. هناك زجاجٌ مكسور، ودمٌ على وجهها ويديها وشعرها. ها هو يرى ساقيها عالقتين. لم يكن بامكان ديلُن أن يبدأ المحاولة ويخرجها. إذ أنَّه ربما يزيد الطين بلَّة. انتبه إلى أنه بدأ يبكي. كان ينبغي له منعها من الذهاب. مدَّ هيو رأسه عبر الباب وقال:

- يا لها من مصيبة! أهي بخير؟

- لا ليست بخير أبدًا! فالدمُ في كلّ مكان.

- أوه يا يسوع. يا يسوع! يا يسوع! يا يسوع!

- ألِسْ! هل تسمعينني؟ وضع ديلُن يدَه متحسّسًا كتفَها، ثم أضاف:

- ستكونين بخير. سيَّارة الإسعاف قادمة. أتسمعينني يا ألِسْ؟

شعر ديلُن بالغثيان إذْ لم ترد عليه. أمسك بمعصمها وتحسَّسَ نبضها. لا يزال هناك نبض، وقد أدرك الآن أنّها لا تزال حية وها هو يسمع أنفاسها.

ماذا ينبغي لنا أن نفعل الآن؟ كان ديلُن يعصرُ دماغَه ليتذكّرَ قواعدَ الإسعاف الأوليّ، ولكنّه لم يستطع التركيز في أيّ شيء. فساقاها عالقتان. ولا يمكنه أن يسحبَها. لم يرد أن يحرِّكَها خشيةَ أن يسبّبَ لها ضررًا أكبر. كلّ ما يستطيعُ فعلَه هو أنْ يطمئنَها. كان يرتجف؛ تملؤه الصدمةُ والخوفُ والغضب.

قال هيو:

- الخطأ خطؤك اللّعين. فقد كُنْتَ تتبَعُنا. رأيْتُكَ توقف سيّارتك خلفي تمامًا. كنتَ تتحرَّش بنا.

- كفاكَ هراءً.

- سأجعلهم يعتقلونك بتهمة السياقة الخطرة.

- ربّما سيظنون أنّك تمزح. فسيَّارتي لا يمكن لها أن تتخطَّى السِّتِّيْن.

قال ديلُن مشيرًا بأصابعه صوب سيارته القديمة الجاثمة في مدخل البوابة القريبة. ثم أردف:

ـ كما أنـهم سيرون آثار الإطارات.

نظر هيو إلى الطريق في ضوء القمر. ديلُن محق. فهناك خطان أسودان انطبعا على الطريق في الموضع الذي فقد فيه السيطرة عند الزاوية. ستكون الشرطة قادرة على استنتاج السرعة التي كان يسوق بها.

ـ اللعنة على هذه الحال! سأخسر رخصة سياقتي. وسأخسر وظيفتي. ولن أكون قادرًا على دعم ألِسْ.

أمسك بكتف ديلُن ثم قال:
ـ أنتَ تعرف أن أسرة بازِلْدُن طامعة في؟ فهم يريدونني طمعًا بمالي؟ إذ يظنون بأن مالي سينقذ عزبة بيزبروك مانُر. ولذا فهم بحاجةٍ لي.

نظر إليه ديلُن. يا له من موقفٍ مزرٍ! ولكنه عندما فكر بالأمر الآن، فإنَّ هذا يفسر كثيرًا من الأمور. بات هيو مشحونًا بالضغط. وسيزول الضغط إذا تزوَّجَته ألِسْ. فهو مصدر من مصادر السيولة المالية الجاهزة.

تلك هي الطريقة التي تتعامل فيها هذه العائلات، أليس كذلك؟ لم يكن الأمر بعيدًا عن زواجٍ مُدَبَّر. انتابه الكَدَرُ وهو يفكر بذلك. وهل أَلِسْ مضطرة للتظاهر بحب هيو، لكي تنقذ العزبة؟ قال دِيلُن مخاطبًا هيو:

- إذا ماتت، سأقتلك.

- لن تموت.

قال هيو، ولكنه بدا شاحبًا مثل ضوء القمر بينما بانت الأضواء عند المنعطف مترافقة مع عويل أصوات صفَّارات سيَّارات الإسعاف والشرطة.

بجانبه، تمَلمَلت أَلِسْ وأنَّتْ. مدَّت يدَها. أمسك بها دِيلُن وقال:

- لا بأس عليكِ. ضَغَطَ على يدها بأقصى ما يستطيع وأضاف:

- لا بأس عليكِ يا ألِسْ. وصَلَتْ سيارة الإسعاف. ستكونين على خير ما يرام.

* * *

تقاطَرَ الناس بسرعةٍ من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، وهم يصيحون مصدرين التعليمات، وبدأ يتبلور الإعدادُ المعقّد لعملية طارئة.

نُحِّيَ ديلُن وهيو جانبًا، وأُبْعِدَا عن مسرح الحادث. قال هيو لأحد أفراد الشرطة:

- فَقَدْتُ السيطرةَ عند المنعطف. لستُ معتادًا على هذه السيَّارة، وكان هناك بعض الجليدِ المخفيّ. كُنْتُ مصطحبًا ألِسْ إلى البيت في عزبة بيزبروك مانُر. سنتزوَّج بعد ثلاثة أشهر...

حاول أقصى جهده ليبدوَ وكأنَّه يُظْهِرُ قدرًا معقولًا من الاحترام. قال الشرطي لهيو:

- تعال واجلس في السيَّارة معي للحظة، يا سيِّد.

- ما من مشكلة. قال هيو، ولكنّه نظر شزرًا إلى ديلُن.

لم يخطر في بال ديلُن أيُّ خاطرٍ وهو يرى هيو يتبعُ الشرطي. لم يرغب في التسبُّبِ في مشاكلَ لألِسْ، ولكن هيو ليس سوى أحمق. لاقى المصير الذي كان ينتظره. تمنَّى ديلُن لو يحبسونه ويضيِّعون مفتاح السِّجْن.

بدا أنّ رجال الإسعاف احتاجوا زمنًا طويلًا لِيُخْرِجُوا ألِسْ من السيَّارة. مرَّت الدقائق مثل ساعات. أخيرًا رفعوها بهدوء ووضعوها على نقَّالة. بدت ضئيلة جدًّا، ساكنة جدًّا، وهم يحملونها صوب سيَّارة الإسعاف. سألَ أحدُ المسعِفِين:

- من سيأتي معها؟ أيوجد أحدٌ قادمٌ معها؟

- نعم. أنا سآتي معكم.

لم يُرِدْ لألِسْ أن تدخل المستشفى وحدَها. صعد في السيارة من الخلف.

- هل أنتَ زوجها؟ صاحبها؟

- لا هذا ولا ذاك، فأنا أعمل عند عائلتها. هل ستكون بخير؟

لم يجبه أحدٌ. كان أحدهم يقيس ضغط دمها. فيما مسح مسعفٌ آخر الدِّماء.

ومن ثمَّ وفجأة بدأ هيو يدقُّ على باب السيَّارة. فتَحَه أحدُهم ليسمح له بالدخول.

- أهي بخير؟ أنا قادمٌ معها.

نظر هيو إلى ديلُن وقال:

- اخرج من السيَّارة.

صُعِقَ ديلُن. بدا وكأنَّ هيو نجا بفعلته. عجبًا كيف لم يُوْجَّه له اللوم؟ فقد رآه ديلُن مع أصحابه. كانوا يهذرون وهم سكارى. ماذا فعل حتى ينجو بفعلته؟ هل رَشَا الشرطي؟ أم أنه لم يكن فعلًا متجاوزًا الحد المسموح به من الشرب؟ لم يستطع ديلُن أن يفهم الأمر.

سألهما أحدُ المُسعِفِين:

- أيمكنكما يا رجال أن تحلّا هذه المشكلة؟ يجب أن ننطلق من هنا.

التقت عينا هيو بعينيه. كان هناك رسالة فيهما تنبئه بعدم رغبته بوجودِه في سيَّارة الإسعاف. لم يكترث ديلُن بذلك. فلا يمكن لهيو أن يمسَّه بأذى. إضافة إلى أنَّه لا يقيم أي وزنٍ لشيء سوى سلامة ألِسْ.

دون أن ينبس بكلمة أخرى، وثب ديلُن من سيّارة الإسعاف. مرَّ قربه شرطيٌّ آخر.

سمعه ديلُن يقول على جهاز اللاسلكي:

- فليذهب أحدٌ لإبلاغ أصحاب عزبة بيزبروك مانر. الأفضل لهم أن يقابلونا في المستشفى.

شعر ديلُن بالكَدَر إذ خطرت في باله سارة وقد تَلَقَّتْ النبأ. ستثور أعصابُها. لم يستطع أن يتخيَّل خبرًا أسوأ من أن يخبرك أحدٌ بأن ابنك أصيب في حادث سيَّارة. تمنّى لو أنّه يكون معها، حتى يطمئنها ويهدِّئ من روعها، ولكنّ ذلك لم يكن مناسبًا. لم يكن ذلك مكانه. فرغم أن ديلُن قضى ساعات معها كل يوم، فرالف هو الذي ينبغي له أن يكون معها. لم يشعر حتّى بأحقيّته في الذهاب إلى المستشفى. فهذه مسألة عائلية. وهو موظّف لديهم. واجبُه أن ينأى بنفسه، وينتظرهم حتّى يرسلوا في طلبه.

أُغْلِقَتْ أبوابُ سيّارة الإسعاف وأطْلَقَ السائقُ صافرة التنبيه. تساءل ديلُن إذا ما كان هيو سيمسك يد أَلِسْ ويطمئنها بأنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام. ظنَّ أنّه لن يفعلَ ذلك على الأرجح. فكلُّ ما يهم هيو إنقاذ نفسه. كيف سيشرح لأسرة بازِلْدُن كيفية وقوع الحادث؟ رفع نظرَه صوبَ السماء المعتمة. لم يكن ليصدِّق بأنَّ النجوم كانت هناك، تتلألأ بسعادة. أيُعْقل ذلك؟ أيُعْقل أن تكون أَلِسْ مستلقية هناك هامدة بلا حراك وقد وهن جسدها؟ انطلقت سيَّارة الإسعاف وتُرِكَ ديلُن في موقع الحادث، ناظرًا إلى سيّارة هيو وهي تُرْفَعُ إلى شاحنة قَطْرِ السيَّارات. انتشرت أصوات الرافعات الهيدروليكية وقعقعة السلاسل، والميكانيكيون يصيحون أحدهم على الآخر لتنفيذ التعليمات. أزال شرطيٌّ بقيَ في الموقع الشاخصةَ التي وضعت لتنبيه مستخدمي الطريق على وقوع الحادث.

وفجأة، ذهب الجميع وخيَّم صمتٌ رهيب. بدا وكأنَّ الحادث لم يقع قطُّ، ما خلا الخدوش على شجرة البلوط العتيقة. حملق ديلُن إليها وتساءل كم كانت سرعة هيو. شعر بالغثيان وهو يطيل النظر في الأمر. شعر بأنه مغلوبٌ على أمره كليَّة. ماذا عساه يفعل؟ حسب أن الصلاة لشفائها قد تكون الحلّ، ولكنّه لم يكن قطّ من المواظبين على الصلاة. فبالنسبة له، الطبيعة تأخذ مجراها، ويتدخَّل فيها الإنسان من وقتٍ لآخر، وما حَدَثَ حَدَث. ما من قوة عظمى لها أي تأثير في ذلك.

قفل راجعًا إلى سيَّارته، التي لا تزال مركونةً في مدخل البوَّابَة. ساق ببطء صوب البيت، مشاهدًا الأشباح في الظلال بينما تحوَّل الضوء من الداكن إلى الضبابي. إذا اتصل بالمستشفى، فلن يعطوه أي معلومات، فهو ليس من أفراد أسرتها. أتكون أَلِسْ جثّةً هامدةً، تحتَ غطاءٍ أبيضَ، وعيناها مغلقتان؟ أتكون على سرير العمليات، تنتظر الجرَّاح ليمارسَ سحرَه؟ أتكون جالسةً في السرير، شاحبةً ومرتجفة ولكنّها ضاحكة، وتشرب الشاي وتدردش مع الممرضات؟ كيف له أن يعرف ما آل إليه حالها؟

* * *

في عزبة بيزبروك مانُر، عندما سمعت سارة بازِلْدُن صوت جرس الإنذار ينطلق في أرجاء المنزل، جلَسَت في السرير وفكَّرت، أوه يا الله، لا. أرجوك. ليس بعد يوليوس مباشرة. لا أريد أن أفقد عزيزًا آخر. لا أستطيع تحمل الأمر.

(62) جمع مُهْر: أولُ ما يُنْتَج من الخيل والحُمُر الأهليّة وغيرها. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

(63) وتُعْرَف أيضًا باسم «الخميلة» وهي نباتٌ عشبي من الفصيلة الوردية، واسمها العلمي (Alchemilla).

(64) تومَس هاردي (١٨٤٠ – ١٩٢٨): روائيٌّ وشاعرٌ إنجليزيٌّ، تأثّر في رواياته وقصائده بالمذهب الرومانسيّ في

الأدب، وخصوصًا بالشاعر وليَم وردسورث (١٧٧٠ – ١٨٥٠).

(65) يحاول هيو النَيلَ منهما من خلال الإشارة إلى أسرة أرشَر، وهي أسرةٌ من المزارعين في مسلسل إذاعيّ بريطانيّ يحملُ الاسم ذاته، بدأ بثّ حلقاتِه عام ١٩٥١، وبُثَّ منه ما يزيد عن ١٨,٨٠٠ حلقة.

(66) تقصد ديلُن بالطبع.

الفصل التاسع

جلست سارة شادَّةً ظهرَها، يداها محشورتان بين ركبتيها، محملقةً إلى لوحةٍ قبيحةٍ تصوِّر غابةً في فصل الخريف معلَّقة على الحائط الأخضر الفاتح في قاعة الانتظار في المستشفى. توارَدْت الأفكار في بالها وهي تنتظر. تنتظر الأنباء. أنباءَ التشخيص. أنباءَ توقُّع الأطباء لسير حالة ابنتها. بدا فجأة أنْ لا شيءَ آخر في الحياة له معنى أو ضرورة. فالأكل، والنوم، والشرب - كلُّها غيرُ مهمّة. لا يزالون في المستشفى منذ الثانية ليلًا. كانت ألِسْ تخضع لتصوير دماغي، أو تصوير بالأشعة السينيّة، أو لإجراءٍ في غرفة العمليات، أو لفحصٍ طبّي آخرَ؛ لم تستطع أن تتذكَّر سارة أيَّ واحدة من تلك الإجراءات تخضع له الآن، ولم تستطع أن تتذكَّر الترتيب الذي تُجْرَى به. فالمعلومات الواردة مُلتَبِكة وباتت ألِسْ في سُلَّمِ أولويات الطاقم الطبي الذي امتنع أفراده عن إعطائهم أي معلومات عن حالتها. فهم لا يستطيعون إعطاء أي معلومات حتى تتوفَّر في جَعبتهم الأجوبة. ما فتئت سارة تقول لنفسها بأنّ الجميع يبذلون قصارى جهودِهم، ولكنَّها عانت عذابًا مريرًا.

جاء رالف يَحْمِل كوبي شاي في يديه كلتيهما. كان قد ذهب ليجد الممرضة الاسكتلندية الودودة ذات الشعر المصبوغ

بالأشقر الفاتح والعينين الباسمتين، ليستطلع إذا كانت لديها فكرة عمّا كان يجري.

مع كل اليأس المُتَحَامِق الصاخب الذي ما انفكّ يخفيه عادة، أثبت رالف أنّه على قدر المسؤولية. وارتمت عنه عباءة اللاجدوى التي كانت توشِّحُه، وظهر تحتها رَجُلٌ يتحلَّى بالإخلاص ويتمتَّع بالجَلَد. لا شكّ أنّ سبب ذلك يرجع إلى تدريبه العسكري. صحيحٌ أنه لم يقضِ سوى بضع سنوات في فرقة الخيَّالة الملكيَّة، ولكن الإخلاص والجَلَدَ لابدَّ متأصِّلَين فيه. ربّما كان ينقصُه في حياته خلال السنوات الماضية مواجهةُ أزمة حقيقية حتّى يظهر على حقيقته؟

حملقت سارة إلى كوبها. ثم قال لها:

- هيا. اشربي، يا عزيزتي. يجب أن نكون في منتهى القوة. بحَثَ في جيبه ثم أخرج قطعتين من البسكويت الغني بالألياف. وأضاف:

- لا يُعَدُّ البسكويت فطورًا دسمًا، ولكنّهما ستقيمان وأدِك. فالطعامُ سرُّ انتصار الجيوش في المعارك.

أخذت سارة الكوب وإحدى البسكويتتَين. رشفة أولى أنبأتها بالسخونة الشديدة لكوب الشاي، ولذا غمست البسكويتة فيه.

- ينبغي للطبيب الاستشاري أن يكون هنا في بضع دقائق.

أضاف رالف، والتقت عيناهما. تلك هي اللحظة التي كانا يترقّبانها ويخشيان وقوعها، لحظةُ سماع رأي الطبيب الاستشاري. وضع رالف يدَه على كتفِها.

- سنجتاز هذه المحنة يا عزيزتي. ألِسْ قوية. كما أنَّ معنوياتها...

ذوت نبرة صوته واختنقت الكلمات في صدره. رفعت سارة يدها وربَّتَتْ على ذراعه. يحتاجُ الطمأنينةَ هو أيضًا. نظر إليها،

متفاجئًا وممتنًا، وأدركت بنوبة من الندم أنهما نادرًا ما تواصلا جسديًّا منذ حينٍ من الدهر. لم يكن ابتعادهما الجسدي قرارًا واعيًا، بل انسحاب تدريجي. استغرَبتْ سارة لحظة إذا كان قد لاحظ ذلك، أو، إذا كان قد انتبه لذلك بالفعل. شعرت بموجة أسفٍ تجتاحها، أسفٍ مشوبٍ بوخزات الندم.

فُتِحِ الباب ووقَفا متأهبَين، وسارة تضع ذراعها على ذراع رالف. بعد أن لمسته، شعرت بالحاجة لتكون قريبة منه. وقفا كلاهما هناك، ممسكَين بكوبي الشاي، محملقَين إلى الطبيب الشابّ الذي كان يرتدي قميصًا أحمر داكنًا.

ابتسم الطبيب وقال:

- السيِّد والسيِّدة بازِلْدُن؟

أشارا برأسيهما، صامتين خائفين. لم يستطيعا تفسير ابتسامته. أكانت مجرَّد تحية، أم مقياس يعبِّر عن حالة ابنتهما؟ إذا كان يحملُ أخبارًا سيّئة، فلمَ يكلِّفُ نفسه التبسُّم؟

قطَّبَ قائلًا:

- حسنًا، أخشى أنَّها في وضعٍ صعب. ولكنّ الخبرَ السارَّ أنّنا أجرينا لها تخطيطًا دماغيًا ولا يبدو أنّ هناك أيَّ إصابة خطرة. واضح أنّه ينبغي لنا إبقاؤها تحت المراقبة. لا يوجد أي ضمان البتّة. فالنزيف يمكن أن يحدث على نحوٍ غيرِ متوقّعٍ بعد الصدمة. ولكن حتّى الآن، الأمور جيِّدةٌ جدًّا.

- أوه، الحمد لـ. قالت سارة واستندت على رالف، وقد ارتاحت أعصابها.

- ليست كل الأخبار التي معي أخبارٌ سارَّة. فساقها اليسرى في وضعٍ سيّئٍ جدًّا. هناك كسورٌ متعدِّدة، وينبغي أن نُجْرِيَ لها عملية جراحية ونعيدَ لأْمَها كلّها بعضها مع بعض. المسألة ليست سهلة. وسيتطلّب الأمرُ وقتًا قبل أن تتمكّن من المشي. سيكون هناك الكثيرُ من إعادة التأهيل. والكثير من العلاج الفيزيائي.

قالت سارة:

- نريدُ أن يشرفَ عليها أفضلُ الأطباء. وسندفعُ لهم إن لزم الأمر.

الله وحدَه يعلمُ كيف سيدفعان، ولكنّهما سيجدان المال. ربّما يبيعان لوحة. فهي مستعدّة لبيع رُوحِها إنْ لزم الأمر.

- ما من داعٍ للقلق بخصوص تلك المسألة بعد الآنَ. فهي تحت إشراف أفضلِ الأطباء حاليًا. رغم أنَّ هناك المزيدَ من الأخبار غير السارَّة.
تَنَحْنَحَ الطبيب وسارة تنظر إليه. كان يعرف نوعًا ما أنَّ هذا الخبر أسوأ ما في جَعبته من أخبار سيئة.

- أُصِيبَ وجهُها بجروحٍ بالغة. هناك جرحٌ بشعٌ جدًّا على خدِّها الأيسر. ربّما تضطرُّ كذلكَ إلى إجراء جراحة تجميلية.

- أوه يا الله! ولكنّ موعدَ عرسِها في نوفمبر.

- سنبذلُ قُصارى جهودِنا من أجلِها.

توقَّفَ الطبيب ثم أردف:

- اسمعاني، هناك الكثير من الأمور التي يجب النظر فيها، ونحن لا نعرف بعد ما هو الترتيب الذي ستسير عليه الأمور. ولكنّها محظوظة جدًّا بطريقة ما...

- محظوظة؟

بدتْ سارة مرتاعة. ألِسْ الجميلة، أكثر إنسانةٍ متواضعة رأتَها في حياتها.

- ينبغي لنا أن نخبر هيو. قال رالف. كان هيو قد خرج لتنسّم هواء عليل. قال بأنّه لا يشعرُ بالراحة بعد الحادث. ولكنّه على الأرجح خرج ليدخِّن سيجارة.

تجَمَّدَتْ ملامح سارة غضبًا على نحو خفيفٍ عند ذكر اسم هيو.

- وقع الحادث برمّته بسبب خطئه اللّعين.

- لقد كان حادثًا يا عزيزتي. فالجليدُ المخفيّ...

- أيُّ جليدٍ يا رجل...!

قالت سارة بنبرة تشي بعدم اقتناعها.

- لا شكّ أنّ الأمر فظيع. تخيَّلي شعورَه.

- إنه يسوق بسرعة كبيرة. وأنا أعرف ذلك.

اضطرت سارة أكثر من مرة للضغط على فرامل سيَّارتها البولو، وهي تلتقي هيو قادمًا بسيَّارته على الاتجاه الآخر من الطريق الضيِّق المؤدّي إلى عزبة بيزبروك مانُر.

- الولد وَلَد ولو عمَّر بلد.

- كيف لكِ أن تقولي ذلك عنه؟

- دعكَ من ذلك. ينبغي لنا الاحتفال لأنّ الحادثَ لم يسبِّب لها إصابةً في الدماغ...

- حالما تخرج من غرفة الأشعة السينية، فإنّه يمكنكما رؤيتها. قال الطبيب الاستشاري.

قال رالف:

- ستكون يانعة مثل حبَّات المطر. أعرف ذلك. فابنتي معجونة من طينة صُلبة.

ابتسر ابتسامةً ثم أضاف: مثل أمِّها.

* * *

رفعت سارة بصرها وهي جالسة على المقعد في غرفة الانتظار عندما عاد هيو، تفوحُ منه رائحة سيجارة دخَّنَها من فوره، ممزوجةً برائحة علكة ريغلي(67). بادَرَها بابتسامة متردِّدَة. كان، بشكل لا مراء فيه، يحتاطُ حذرًا من سارة. قال هيو:

- قالت لي الممرضة للتو بأنّها ستكون بخير...

قاطعته سارة وقالت بصورة حاسمة:

- كنتَ تسوق بسرعة كبيرة جدًّا.

وقف رالف وقال:

- سارة!

أطرق هيو رأسَه صوب الأرض، ثم تنهَّد وقال بهدوء:

- أعرف ذلك. ولن أسامح نفسي على ذلك أبدًا. ولكن وقعت حادثة صغيرة في المطعم. وكنتُ أحاول أن أوصل ألِسْ إلى البيت بأسرع ما يمكن.

- ماذا تعني؟ أي حادثة؟

تقع مشاجرات في مطعم وايت هورس أحيانًا. وتلك لا تقع بصفة غالبة، ولكنها تقع حتمًا بعد تناول عدة كؤوسٍ من البيرة أحيانًا.

- كان ذلك بسبب الفتى الذي يعمل عندكِ في الحدائق. فقد كان نوعًا ما... عُدْوانيًّا.

- ديلُن؟ قالت سارة غير مصدِّقَة.

- نعم. كان حري بي أن أطردَه خارج المطعم، ولكن لم أشأ الوقوع في المشاكل. قال هيو.

- ماذا تعني بقولكَ عدوانيًّا؟ لا يبدو أن هذا الوصفَ ينطبقُ عليه.

- يصيرُ كلُّ إنسانٍ شخصًا آخرَ بعد احتساء بضع كؤوس من المشروب.

ارتسمت على هيو ملامح الاستياء. ثم أضاف:

- أظنُّه يضمرُ شيئًا في نفسه لألِسْ. فالأمر كان مربكًا جدًّا. لأنّه تَبِعَنَا في سيَّارته. وزدتُ سرعتي حتّى أبتعد عنه. تصرَّفتُ على سجيَّتي فحسب.

هزَّت سارة رأسَها.

- لا أصدِّقُكَ، فديلُن لن يضع ألِسْ في موقفٍ خطر.

- لا بأس، أؤكِّد لكِ أن ذلك حصل.

- تَبِعَكُم ومن ثم ماذا، بالضبط؟ ما الذي كان سيفعله بعدئذٍ؟

حملقت سارة إلى هيو، عيناها ترمقانه بنظرة حادّة. هزَّ كتفَيه نافيًا:

- لا أعرف. ربّما كان سيصدمني بسيّارته؟ أحسبه شرب الكثير من البيرة. ربّما كان ينبغي لي أن أبلغ عنه الشرطة، أو أمنعه من السياقة. خطر في بالي لاحقًا أنَّ ذلك هو التصرُّف المسؤول الذي ينبغي عمله...

- لا أظنُّ أنّ شيئًا ممّا قُلْتَه صحيح.

تقدَّم رالف إلى الأمام:

- يا عزيزتي، لا أظنّ أنّ هذا هو الوقت المناسب لهذا الكلام.

بدا هيو قَلِقًا:

- أنا آسف. كنتُ أحاول حماية أَلِسْ. أجل، لقد ضغطتُ على البنزين وزدتُ السرعة...

- إذًا الخطأ خطؤك.

- سارة، هذا ليس تحقيقًا.

- أريد أن أستجليَ ما حَدَث. ولستُ مقتنعةً بأنَّ ديلُن له عَلاقة بالحادث. يبدو ذلك غريبًا كلّيةً عن طباعِه.

امتقع محيَّا رالف وهيو بنظرةٍ مُمَالِئَة. قال رالف:

- أوه يا سارة، أنتِ دائمًا تتوسّمين الخير في كلّ الناس.

- ليس في كلّ الناس. نظرَتْ إلى هيو وأردفت:

- لا أتوسّمُ الخير دائمًا في كلّ الناس.

ابتسر هيو ابتسامةً متودِّدَة. وقال:

- اسمعيني، كلّنا منزعجون. الأمر ليس بيدنا. ولكنّ الأمر الرائع هو أن أَلِسْ ستكون بخير. ينبغي ألّا تعمى بصيرتُنا عن ذلك.

قالت سارة:
إضافة إلى أنَّ الذهاب إلى المستشفى نقر على ذاكرتها وأثار فيها ما أثار. ذكَّرَهَا بذلك اليوم الذي ودَّعَتْ فيه يوليوس في مستشفى البلدة. كان ذلك قبل أسبوعين من وفاته. مضت إلى هناك لتراه؛ وأحضرت له كتاب إيان رانكِن(68) الجديد، الذي

كانت تنوي أن تقرأه له لأنّ الغشاوة واصلت هجومها على عينيه وما عاد بإمكانه التركيز.

- ستكون بخير؟ ستبقى الندوب في وجهها طوال حياتها.

- سارة.

قال رالف بنبرة حادّة. ثم أضاف: لا جدوى من هذا الكلام.

فُتِحَ البابُ ونظروا ثلاثتهم صوب الممرضة. كانت تبتسم.

- إذا أردتم أن تأتوا وتروا ألِسْ، تعالوا خمسَ دقائق فقط...

قالت سارة:

- سأذهب وحدي. أريد أن أراها. ثلاثة أشخاص كثير جدًّا عليها.

لم يجرؤ رالف أو هيو على الاعتراض.

* * *

هي ذي أَلِسْ؛ جسدٌ ضئيلٌ متكوِّمٌ في سرير وسط غرفة العناية المشدّدة، كتلةٌ من الضمادات والأسلاك والرضوض المنتشرة في جسدها. بالكاد استطاعت سارة تمييز عضو من أعضائها. وحتّى صوتها كان مجرَّد حشرجة.

لم ترد سارة أن تحكي كثيرًا. لم ترد أيّ مشاعر جيَّاشة ودرامية. فهي حقًّا لا تحبُّ الدراما. المشادَّة في قاعة الانتظار مع هيو كانت حادّة، وهي لم ترفع صوتها على ذلك النحو منذ سنوات. فهي مثالٌ عن الهدوء، وتربَّت تربية عمادُها السكينةُ والطيبة.

أمسكت بكفّ ألِسْ الصغير، الكفّ الذي لم تغرس فيه الممرضة أنبوب الإرواء، وداعبته بلطف. همست لها:

- حبيبتي المسكينة.

سألتها ألِسْ:

- أهي إصابة خطرة؟ لا أستطيع تحريك أي عضو من جسدي ورأسي يوجعني. لا أستطيع التفكير.

- لقد أصيبت ساقك المسكينة قليلًا. سيضطرون إلى تجبيرها.

ازْدَرَدَتْ مضطربة. لم تستطع النظر إلى وجه ألِسْ. ما كان بوسعها قول أيّ شيء بخصوص وجهها. ليس الآن.

- سنضطرُّ لإلغاء العرس، أليس كذلك؟ قالت ألِسْ بصوتٍ متهدِّج.

أطرقت سارة رأسها. ناداها صوتٌ داخلها مؤيدًا الفكرة. ذلك سيكون الردُّ على كلّ شيء. إلغاء العرس. تملكها شعور سيّئٌ بخصوص العرس. بخصوص هيو. ولكنّها لم تشأ أن تزعجَ ألِسْ بالموافقة على فكرة الإلغاء؛ لأنّ ذلك يعني بأنَّ الأمور خطرةٌ جدًّا. وربّما تكون الأمور فعلًا كذلك، لكن ألِسْ يكفيها ما فيها. وهي بحاجة لما يهدِّئ من روعها.

- لا ينبغي لنا أن نقلق بشأن ذلك الآن. فموعدُ العرس ما زال بعيدًا.

شعرت فجأة بالتعب الشديد، وبعاطفة عَصِبيّة على الوصف. لم تكن تريد البكاء أمام ألِسْ، ثم قالت:

- ماذا حدث يا عزيزتي؟

- لا أعرف. لا أستطيعُ أن أتذكَّرَ. كان هناك العديدُ من الأصحاب. في المطعم...

- أكان ديلُن هناك؟

- ديلُن؟ كانت أَلِسْ تحاولُ استذكارَ الأحداثِ. قالت:

- رُبَّما.

- هل تخاصم ديلُن وهيو؟

- لا أظنُّ ذلك.

- يبدو أنّ هيو وحدَه من يظنُّ أنَّـهما تخاصما.

هزَّت ألِسْ رأسَها وقالت:

- أستطيعُ أن أتذكّر صفوفَ كؤوس الجيغر...

لم تكن سارةُ ترغبُ في الضغط عليها لتتكلّم. لم ترد أن تزعج ألِسْ.

- أتريدين رؤية بابا؟

- نعم، أرجوكِ. أنا آسفة، يا ماما.

- آسفة؟ وعلى ماذا تتأسفين با لـ عليكِ؟

رأت ألِسْ تتنازعها فكرةٌ أو تتذكّر ذكرى.

- لا أعرف.

أجابت أَلِسْ، وفاضت عيناها بالدموع.

* * *

أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة قبل أن تعودَ سارة ورالف إلى عزبة بيزبروك مانُر من المستشفى. أصرَّت الممرضة على أن يذهبا في آخر الأمر؛ وطمأنتهما مرارًا وتكرارًا بأنَّه يُفضَّل لأَلِسْ أن ترتاح، وأنّهما لن يكونا في نهاية المطاف سوى مصدر إزعاجٍ إذا ما بقيا مدّة أطول.

ذهب هيو للإقامة عند أحد أصدقائه. أحسَّ، وهو محقّ في ذلك نوعًا ما، بأنّه من الأفضل له أن يبتعدَ عن مرمى نيران سارة في الوقت الراهن.

ارتخت سارة في كرسيّها وهي تجلس إلى طاولة المطبخ. بدا صباح البارحة ضاربًا في عمق الزمن، عندما كانت جالسة هنا تهيّئ نفسَها لحضور حفل تأبين يوليوس. لا يعرف أحدُنا قطُّ ماذا تُخَبِّئ له الأيام.

- هل أحضِّر العُجَّة؟ سأل رالف. هزَّت رأسها بالسَّلب. لم تطق سماع سيرة الأكل. قال لها:

- ينبغي أن تأكلي.

- ليس الآن. بصراحة، ما عندي رغبة في الأكل.

- ما رأيكِ بشرب الشاي؟

أمْسَكَ الغلايَّة ووضعها على موقد الغاز. ثم أضاف:

- الشاي في ذلك المستشفى مُحَضَّرٌ بالتأكيد من نشارة أرضية معمل تعبئة الشاي.

كيف يمكن له أن يكون على هذه الدرجة من خفّة الروح؟

حملقت إلى التسريحة المستندة إلى الجدار المقابل. رأت كوب ألِسْ الذي كان على شكل شخصية نُدِيْ. هذا كوبُهَا مذ كانت صغيرة: كوب نُدِيْ ذو قبعة لُبَّادِيَّة زرقاء صغيرة يعلوها جرس، حتّى يحافظ على دفء البيضة. خطرت في بالها كلّ البيوض المسلوقة التي سلقتها لابنتها.

شعرَت به مقبلًا؛ الحزن. كان يستجمع سرعته، وسيرتطم بها في أيّ لحظة. وهذه المرة، لن تضطرَّ لشدِّ شكيمتها كي تتحمَّله. هذه المرة، يمكنها أن تجعل الحزن يحيط بها من كلّ جانب. فقد مرَّت بكلّ أشكال العاطفة اليوم. الصدمة. الخوف. الغضب. الهيجان. القلق. الراحة. ومن ثمَّ مزيد من القلق، والشكّ، والخوف، والتوتر... هناك جبالٌ من تلك المشاعر لا تطيق احتمالها.

لم تكن مستعدّةً لتسمعَه وهو يقول لها بأنّه لا يريدُها أن تأتيَ لرؤيته مرة أخرى. قال لها:

- أشعر أنّني بخيرٍ اليوم. ولكنّي أعرف أنّ ذلك فترة راحة مؤقتة. فغدًا ربّما تغادرني تلك الراحة. أو نرحل معًا أنا وهي. أريدُ لنا أن نفترق ونحن في تمام وعينا وصحتنا. لا أريدُكِ أن تكوني هنا عندما لا أستطيع تمييزَك بعد تدهور حالتي. لا أريدكِ أن تريني وأنا أموت. أريد أنْ أودِّعَك وأنا لا أزال في صحّتي. أريد وداعكِ وأنا لا أزال أحتفظ بنسخة منّي، وإن كانت قليلة الجودة.

ابتسر ابتسامةً استصغر فيها نفسه. نحل جسده؛ وبات لبشرته لونٌ شاحب مخيف؛ وشعره واه.

- لا أريدكِ أن تري سوى يوليوس الذي عرفتيه.

- لا يمكنكَ أن تطلب منّي أن أفعل ذلك.

هَمَسَتْ، مرتاعة.

مسَّدَت خدَّه. فهي تعشق كل عظمة في جسده الذاوي الهزيل.

- أرجوكِ. لا أريدُ أن أحاججك في هذا الأمر. فذلك لصالحنا معًا.

تشابكت أصابعُهما وهما يتحدَّثان. وهي تعرفُه معرفةَ اليقين لتعلم بأنَّه فكَّر مليًّا في ما قاله، وبأنّ ما قاله كان عين الصواب. وإِميليا في طريق عودتِها إلى إنجلترا لتكونَ بجانبه. لا يمكنُ أن تُرَى سارة معه بعد الآن.

أمسكت يدَيه بيديها وقبَّلَتْهما. قبَّلَتْ جبينَه. أسندت خدَّها إلى خدِّه وأبقته ملتصقًا به أطول مدّة ممكنة. تفرَّسَتْ في عينيه عميقًا، تلك العينان التي نظرت إليهما مرَّات كثيرة ورأت انعكاس صورتها فيهما.

لن تستطيعِ أن ترى انعكاس صورَتِها فيهما بعد الآن. لقد سدَّ في طريقِها السبل كافّة. وحان الوقتُ لها كي تذهب، وكان يجهِّز نفسَه للرحيل. قالت له:

- أنتَ حُبُّ حياتي.

- سأحجز لكِ مكانًا أينما ذهبت. سأكون في انتظاركِ. أجابها.

ابتسم، ثم أغمض عينيه. تلك إشارته لها لكي تذهب. أدركت أنّه لا يستطيعِ تحمُّل المزيد من الكلام. إذا كانت تحبّه، فيجب عليها أن تتركَه.

ساقت سيّارتها صوب البيت، محملقةً في الطريق أمامها. هجَرَتها كلّ مشاعرها. انطفأت انطفاءً كاملًا. فتلك هي الطريقة الوحيدة لتتأقلم مع الوضع. ما من شيءٍ فيها كان قادرًا على التعامل مع هول ذلك الوداع الأخير. أرادت الصعود إلى سريره واحتضانه إلى الأبد. أن تموتَ معه، إذا كان ذلك ممكنًا. أرادت أن تغطّ شيئًا فشيئًا في ذلك السبات اللانهائي الأخير وهي تحضنه بين ذراعيها.

ذَهَبَتْ إلى النُصُبِ عندما رجعت. تكوَّرت على الأريكة ووسادةٌ بين ذراعَيها، ثنت جسدَها إلى أصغر شكلٍ ممكن. هناك نسخةٌ من رواية آنا كارينينا كانت قد بدأت قراءتها سابقًا. ذلك آخرُ كتابٍ أعطاها إيَّاه يوليوس. حاولت قراءته بيدَ أنّ الكلماتِ كانت صغيرة جدًّا. أغمضت عينيها ودَعَتْ ربَّها أن يرسلَ في جفونها النوم. لم تطق أن تبقى مستيقظة. كان ديلُن هو من وجَدَها، بعد ذلك بساعات، وأيقظها. نظرت إليه، ذاهلة العينين، مرتبكة لحظة.

- هل أنتِ بخير؟ سألها، وأومأت برأسها، ببطء. ينبغي لها أن تكون بخير. ما من خيار لديها.

ولكن الآن، هنا، في المطبخ، ها هي تعانق الحزن عندما حطَّ رحاله أخيرًا. أنزلت رأسها ونشجت. نشيجٌ عظيمٌ هائلٌ حادٌ هدَّد بخنقها وقطع أنفاسها. أمكنها سماع أنفاسها، يتردَّد صداها في أرجاء المطبخ؛ نحيبٌ من الصميم، نحيب مكدِّرٌ وشديد. ذابَتْ في بحر نشيجها حتى كادت تغرق في دموعها. في خِضَّم ذلك كلِّه ناداها صوتٌ خفيض وقال لها بأنّها صارت هستيرية؛ وبأنّها بحاجةٍ لتستجمعَ قوّتَها.

ولكنّها كانت قد انتظرت مدّة طويلة هذه الفرصةَ. فرصةَ أن تحرِّر نفسَها من حزنها. الفرصة لأن تبكي فقدان حبيبها؛ وصديقها الحميم. تساءلت إذا ما كانت شريرة بحيث تتخفَّى وراء حادث ألِسْ لاقتناص الفرصة لكل هذا السَّيل من الدموع. تساءلت إذا ما كان حادث ألِسْ عقوبة لها على ما اقترفته يداها. ما من خاطرٍ من تلك الخواطر ساعدها في استعادة سيطرتها على ذاتها. بلَ على النقيض من ذلك، شعرت بالتعقُّل يهرُب منها بعيدًا بعيدًا. كان ضربًا من ضروب البكاء الذي لا يتوقّف أبدًا.

إلى أن شعرت برالف ممسكًا بذارعيها. أمسك ذراعيها وهزَّها.

- سارة. كان صوته حازمًا ولكنّه اكتسى نبرةً من اللطف.

- سارة. يجب أن تكفي عن هذا. البكاء لا يفيدكِ في شيء على الإطلاق. لن يفيدكِ ولن يفيد ألِسْ.

ارتعدت وتوقفت عن البكاء. نظر إليها، والقلق في عينيه:

- اسمعيني. لم أقل لكِ قطّ كم أنتِ رائعة؟ كم أنا ممتنٌّ لكِ بسبب الطريقة التي وقفتِ فيها معي. ما كنتُ لألومك لو هجرتني بعد كلّ ما فعلته. ولكنّك اجتزت بنا تلك المرحلة الصعبة القاسية ببأس المحاربة التي عهدناها فيكِ. وسوف تجتازين بنا هذه المحنة أيضًا. لأنَّكِ امرأة شجاعة ورائعة يا سارة.

خَفَتَتْ نبرة صوته، وبدا مرتبكًا بعض الشيء. لم يكن رالف مبتدعَ خطاباتٍ جيَّاشة العاطفة. لم يكن متأكدًا من أين أسعفته تلك الكلمات. ولكنه يعني كل كلمة قالها، ما من شكٍّ في ذلك.
أغمضت سارة عينيها وسحبت أنفاسًا عميقة. أنفاسًا حادة كانت ولكن عَبَرَاتها همدت أخيرًا.

- أنا آسفة.

قالت، ولكنه بالطبع لم يكن يعرف عن ماذا اعتذرت.

- تعالي إلى هنا.

قال لها، وأحاطها بذراعيه. ورغم أنه لم يكن الشخص الذي رغبت في أن يكون قربها، فقد شعرت بالأمان، وعرفت بأنه سيقف بجانب أَلِسْ، وبأنهم سيتجاوزون تلك المحنة، وبأنها ستكون قادرة على الحياة دون يوليوس...

وبأنها لن تبكيَ مرة ثانية.

(67) ماركة علكة تصنعها شركة ريغلي الأمريكية التي أسَّسَها ويليَم ريغلي عام ١٨٩١.

(68) إيان رانكِن (١٩٦٠ – .....): روائيٌّ اسكتلنديٌّ مؤلّفُ سلسلة روايات تتحدَّث عن الجريمة، وتشتهر فيها شخصية المحقّق ريبَسْ.

وقعت بِيْ بروكمان في غرام بيزبروك أيَّام السبت. فقد كانت تضج بالحركة؛ إذْ إنَّ إيقاع الحياة فيها أسرع، وتغدو أكثر نشاطًا وحيوية مما هي عليه في أيام الأسبوع العادية. السوق مليئة بالأكشاك البديعة، يبيع فيها الباعة الأنْبِذَة البرَّاقة المعصورة من الفواكه المحلية، وتعلو الطاولات أكوامٌ من الخبز المخبوز بطرقٍ تقليدية، وشموع العسل المصنوعة يدويًا زاهيةً بألوانها الورديةً اللامعة والخضراء الداكنة والزرقاء الغامقة. وهي، كما عَهْدُهَا دائمًا، في رحلة البحث عن تحفةٍ جديدة تالية. فتلك كانت، ولم تزل، مهنتها منذ مدة طويلة، ولم تفقد شغفها بتلك العادة قط.

ارتدت في أيام السبت ملابس أكثر أناقة ممّا ترتديه في باقي أيام الأسبوع، رغم أنّه لا معنى من الظهور بملابس لندنية الطراز من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. ارتدت من الإثنين حتّى الجمعة ملابسها الأنيقة الاسكندناقية الطراز؛ ملابس الأمهات المريح المماشي لصرعات الموضة، المكوَّن من كنزة متناسقة، وبنطال جنز أسود وحذاء رياضي أسود. أمّا اليوم فهي ترتدي فستانًا جميلًا، وجزمة جلدية حمراء مُزَأبَرة ووشاحًا من ماركة ألكساندر مكوِين(69). شعرها مربوطٌ على شكل عقدة

كيفما اتفق، ووضعت على شفتيها، متجشمة عناء ذلك، أحمرَ شفاهٍ بلونٍ وردي غامقٍ ريَّان. تعرف أن الناس ينظرون إليها، إذْ إنَّ فيها مقدارًا ضئيلًا من غرور، كما اشتاقت إلى الاهتمام الذي كانت تحظى به عندما كانت فتاة عزباء. ومع ذلك غمرَتَها السعادة لأنها صارت أمًا، أمًا مهووسة بطفلتها مُوْدْ، التي كانت تتباهى بفخرٍ بحذائها الجلدي الطري الجديد المطرَّز بالخرَز أمام كل من وجد في نفسه الرغبة في النظر وهي جالسة داخل عربتها المتأنقة التي يمكنها السَّيْر على كافة أنواع الأرضيات.

تبضَّعَت بِيْ من السوق، ثم جَلَستْ في مقهاها المفضَّل، ذي آيسنغ أُنْ ذا كيك، لتناول فطيرة العنبيَّة، كما ابتاعت من اللحَّام ضلع لحم خروف مقطَّع على الطريقة الفرنسية. ثم قرَّرَت أن تتوجه صوب مكتبة نايتِنْغيل لشراء كتابٍ تقرؤه. كانت تحتفظ بقوائم تضمُّ كل عناوين الكتب التي ينبغي لها قراءتها كي تبقى مطَّلعةً على جديد المعرفة، ولكن لا يوجد أفضل من جولة متأنّية يقوم بها المرء في مكتبة لكي يوسّع آفاق معرفته. دفعت عربة الطفلة على الرصيف، متمتعة بأشعة الشمس الخريفية التي أضفت على المباني في بيزبروك لونًا ذهبيًا كلون الدِّبْس. كانت تتطلع بتوقٍ إلى أول شتاءٍ لهما في الرِّيف. إذ إنَّ لندن تصير شاحبة الملامح وقارسة البرد حالما تُحْكِمُ الرياح الشديدة البرد قبضَتها عليها، رياحٌ تنثر بقايا النفايات المتطايرة في الشوارع والأزقَّة. أما هنا في الرِّيف، فالهواء غني برائحة دخَّان الغابة،

وهناك دائمًا حانة يلوذ المرء بحماها؛ ولحم طرائد من اللحَّام لطهي وجبة خضار باللحم. وقضت سلفًا أسعد أيامها ذلك الأسبوع وهي تحضِّر مربَّى البرقوق ومُحلَّى التفاح من الثمار المتساقطة في الحديقة، ووضعت عليها بطاقات تعريفية صغيرة صمَّمَتها بنفسها.

كانت بِيْ نموذجَ المرأة التي تحب الرِّيف حتى الثمالة.

زيارة مكتبة نايتِنْغيل تشبه رحلة في الزمن الماضي. فقد أحبَّت نوافذها الناتئة، ورنَّة جرس الباب الصادرة عند دخولها، والرائحة - رائحة رجولية أكثر ما تكون، مزيج من رائحة الأخشاب ورقوق(70) الكتب وتبغ الغليون وخشب الصندل والطلاء؛ خَلْطَةٌ من الروائحِ ترَاكَمت على مرِّ السنين.

لم تأتِ إلى هنا منذ مدة؛ لأنه لم يكن هناك وقت كثير للقراءة في الصيف. الخريف والشتاء فصلا القراءة. تذكَّرت أنها قرأت في الجريدة المحليَّة نبأ وفاة صاحب المكتبة. ومع ذلك، كانت المكتبة تعجُّ بالحركة. لا بدَّ أنَّ أحدًا ما استلمها بعد وفاة صاحبها. وقد أحدَث فيها صاحبها الجديد بضعة تغييرات: فالكتب المعروضة وُضِعَتْ في أماكنِها بطريقةٍ أقلَّ عشوائية،

وبالتأكيد بدت أقلَّ تَغبُّرًا، رغم أن الغبار جزءٌ من السِّحر الكامن ها هنا.

انجذب نظرُها في الحال صوب كتابٍ معروض في واجهة المكتبة. كتابٌ مصوّرٌ ضخمٌ، مليءٌ بصورٍ التقطها المصوِّر الشهير رايلي. كان كتابًا بالغَ الفخامة، وجميلًا، وثمنه مئةٌ وثلاثون جنيهًا إسترلينيًّا؛ ثمنٌ باهظٌ يصعق كل من يريد شراءه. أمسكت النسخة المعروضة من الكتاب- فكل النسخ الأخرى مغلَّفةٌ تغليفًا محكمًا في غلافٍ نايلوني لحمايتها- وقلَّبَت صفحاته متأملة ما فيه من صُوَر.

مرَّت بها إحدى موظّفات المكتبة وابتسمت قائلة:

- كتابٌ مذهلٌ، أليس كذلك؟

تنهَّدت بِيْ وقالت:

- إنّه رائع. أنا أحبُّ أعماله.

- ومن لا يحبُّها؟ فهو عبقريٌّ. تفضَّلي واقتنيه إذا شئتِ.

ما لبثت الموظّفةُ أن احمرَّت وجنتاها خجلًا وأردفت:

- آسفة، أنا لا أحاول التأثير عليكِ لشرائه. لا بأس، أظنّني أفعلُ ذلك. فهذه الطبعةُ من الكتاب طبعةٌ محدودةُ النسخ.

هزَّت بِيْ رأسَها وقالت:
- ثمنُه يفوقُ قدرتي على الدفع. ابتسمت وأضافت:

- فالمبلغُ يكفي لشراء عددٍ كبيرٍ من علب الطعام العضوي اللازم لطفلتي.

وضعت يدَها على مقبض عربة الأطفال بجانبها. كانت مُوْدْ تحملقُ إليهما وكأنَّها مفتونةٌ بحديثهما.

- طفلةٌ رائعةٌ. قالت الموظّفة.

- إنّها تستنفدُ منِّي كلَّ مالي.

- يا إلهي! ما أجمل حذاءَها! فأنا أحبُّ الأحذيةَ الجلدية النَعُّوْمَة الصغيرة جدًّا.

لم تكن بِيْ تنوي إخبار الموظّفة بسعر الحذاء. كان أمرًا مربكًا.

- سنختارُ أنا ومُوْدْ كتابًا معًا. لا يمكنكِ أن تجبري الأطفال على البَدء بالقراءة في سنّ صغيرةٍ جدًّا.

- بالتأكيد. ولكن اغرسي فيهم عادةَ حبّ القراءة. لدينا الكثيرُ من الكتب الجديدة الرائعة. أنا أحاول أن أضيف المزيد من الكتب إلى قسم كتب الأطفال.

كانت بِيْ فضولية.

- أهذه المكتبة مكتبتكِ، إذًا؟

- كانت لأبي.

- سمعت أنّه توفّي. رحمة الله عليه.

- الله يرحمُ أمواتِك.

- إنّه لأمرٌ رائعٌ أنّكِ استلمت المكتبةَ من بعده. فأنا أعشقُ هذا المكان.

- هذا لطفٌ منكِ. هلَّا تفضّلتِ وأخبرتني إذا ما كنتِ راغبةً في أيّ كتابٍ. اسمي إِميليا.

- وأنا بِيْ.

تبادلتا الابتسامات، ثم مضت إِميليا تتابع عملها.

نظرت بِيْ صوب رزمة كتب رايلي.

بسرعة فائقة، أخذت الكتاب الذي في أعلى الرزمة. ثم دفعت عربة مُوْدْ نحو قسم كتب الأطفال، وقضيتا الدقائق العشر التالية وهما تستعرضان عددًا كبيرًا من الكتب السميكة المصوَّرة حتّى وقع اختيارهما على كتابٍ يناسبُهما أيَّما مناسبة.

- أحبُّك من هنا إلى القمر ومن القمر إلى هنا(71). صحيح، يا عزيزتي مُوْدْ. أنا أحبُّك بذاك المقدار.

دفعت عربة مُوْدْ صوب طاولة الحساب.

حملقت مُوْدْ إلى إِميليا، متشبّثة بيدَيها بالكتاب السميك المصوَّر الذي انتقته أمُّها.

- آه... هذا الكتابُ رائعٌ. ستحبُّه كثيرًا.

- هذا إذا لم تضعه في فمِها أولًا. ابتسمت بِيْ ثم أضافت:

- فكلُّ ما تُمسِكُ به تضعه في فمِها مباشرة في الوقت الحالي.

- أهذا الكتاب كلّ ما تودِّين شراءه؟

- كتاب واحد هذا اليوم. نعم. شكرًا لكِ.

* * *

تابعت إِميليا فيما بعد بنظراتها بِيْ وهي تغادر المكتبة. هذا بالضبط النمط الذي تحتاجه من الزبائن. زبائن شباب مفعمون بالحيوية، وذوو دخل يسمح لهم بشراء الكتب. ماذا يمكنها أن تفعل أيضًا لتجذب اهتمام زبائن من أمثال بِيْ؟ ربّما عن طريق بطاقات وأوراق تغليف للكتب؟ فنساء مثل بِيْ دائمًا ما يشترين بطاقات الإهداء وأوراق التغليف؛ لأنّ لديهنَّ صديقات لا حصر لهنّ. دوَّنَتْ ملاحظة على دفتر، والتفتتْ لتنظر في أمر زبونها التالي.

* * *

مشت بِيْ بخفَّة عبْر الشارع السريع، وقلبها يدقُّ. لم تتوقّف إلى أنْ وصلت الكنيسة، ودلفت بسرعة إلى ساحتها. تابعت سيرها متثاقلة الخطى حتّى وصَلت إلى مقعدٍ وجلست عليه. وضعت

رأسها بين يديها لحظة، ثم رفعت بصرها. مدَّت يدها وسحبت غطاء عربة الطفلة الأمامي.

ها هو هناك، جاثمٌ بين طيَّات قماش العربة، كتاب رايلي، لا يزال في غلافه النايلوني المُحْكَم. أمسكتْ به وجلست وهو في حضنها، محملقةً إليه.

ما الذي يحدث معها بحقّ الجحيم؟ ما هذا الحال الذي آلَتْ إليه يا لـ عليكم؟ ما الذي تفعله؟

بدا ما فعلته التصرُّفَ المنطقي الواجب عمله في هذا الوقت. فقد أرادت الكتاب ولم تكن تملك ثمنه. تطلَّب الأمر منها ثانيتَين لتسحب كتابًا من الرزمة وتدسَّه تحتَ الغطاء الأمامي لعربة الطفلة.

سالَتْ دمعةٌ على خدِّها. أرادت الكتاب، نعم أرادته. أرادت أن تجلس في البيت وتُقَلِّب الصور، وهي تتأمّلُها، وتحلِّلها، وتتعجَّب من المهارة والموهبة والفنّ. كان بإمكانها أن تؤمِّن ثمنَه لو

أرادت حقًّا. فلن يمانعَ بِلْ لو أنّها اشترته مستخدمةً بطاقتهما الائتمانية.

ولكن ما أرادته أكثر من الكتاب كان حدثًا يهزُّها. أرادت أن تشعر بأنّها حيّة. كانت تعشقُ تأجّج الأدرينالين الذي يرسله فيها الخوف. فقد كان ذلك أكثر الأمور المدهشة التي حدثت معها منذُ شهور.

استرخَتْ بِيْ على المقعد ورفعت بصرَها نحو السماء. بضعة طيور من السنُونُو تحلّق بشكل دائريّ فوق رأسِها، وحفيف آخر ما بقي من أوراق في الأشجار التي تظلّل الدربَ يخرق الأجواءَ إذ داعبها النسيم. ذكّرتها رؤية الكنيسة بحفل زفافها الذي أُقيمَ قبل ثلاث سنوات فقط. عادت بها الذاكرة إلى فستان ديور القديم الطراز، العالي الجودة الذي طلَبَتْه من الولايات المتحدة، فستانٍ ذي نسيجٍ حريري أزرق فاتح، بجزئه العلوي المشدود وأزرارِه المغلَّفة بالقماش وتنُّورَته الواسعة الطويلة. كانت أبهى عروسٍ في أبهى عرسٍ.
ظنَّت بِيْ وعريسها بِلْ أنَّهما على قدر عالٍ من الذكاء. فقد باعا شقَّتَهما الأرضية الحديثة الطراز ليبدآ حياتهما في الرِّيف. واتفقا بأنهما لا يريدان تنشئة أبنائهما في لندن. وبيزبروك هي المكان الموعود، بخدمة قطاراتها الرائعة، ومحلاتها الأنيقة ومنازلها

البديعة. شعرا بسعادة غامرة عندما اشتريا كوخًا ذا طرازٍ معماريّ ڤيكتوريّ في أحد الشوارع البعيدة عن الطريق العام، بحديقته المسوَّرة الصغيرة. كان مكانًا شاعريًّا؛ المكان المثالي ليبدأ فيه المرء تكوين أسرة. استمرّ بِلْ ذاهبًا إلى وظيفته وآيبًا منها؛ وظيفةِ متخصّصٍ في عالم الرقميات براتب جيد ولكنه مثير للسخرية بينما قامت بِيْ بأعمال المنزل والحديقة، دون أن تنسى بين هذا وذاك رعاية مُوْدْ. استغربَ كلُّ أصدقائهما في دَهشةٍ وحَسَدٍ دهاءَهما وشجاعتهما، وتقاطروا زرافاتٍ ووحدانًا ليمكثوا في غرفة نومهم الاحتياطية بألواح أرضيتها البيضاء وحيطانها الخشنة الملمس الباهتة اللون وستائرها الحريرية وسريرها المرتفع الذي تعلوه أكوام وأكوام من مفروشات السرير الخفيفة خفّة الرِّيش.

ولكن بِيْ تظنّ نفسَها الآن على مشارف الجنون. فهي تشتاق للعمل. كان الإرهاق قد نال منها عندما تركت العمل في وظيفة مخرجة فنّية في مجلّة نسائية، عاشت حينئذٍ على القهوة السَّادة وهي تسابق الوقت قبل اقتراب مواعيد تسليم تصميماتها للمجلّة، وهي منهمكة في الشغل حتّى آخر لحظة ممكنة على كلّ قضية، متعاملةً مع محرِّرة مجنونة كانت تغيِّر رأيها بين لحظة وأخرى ظنًّا منها أنَّ بِيْ تتمتَّع بقوى خارقة. عندما غادَرَت الوظيفة، لم ترغب قطُّ في أن تعمل في أيّ عملٍ صغر أو كبر.

الآن، أصابها خللٌ عقليٌّ بسبب الملل. فهي تحبُّ مُوْدْ عظيم الحبّ، بالطبع تحبّها، ولكن هي ذي مرة أخرى تهرس بعض الجزر العضوي وصدور الدجاج البلدي وتجمِّدها بشكل كتل صغيرة مستديرة بأحجام مناسبة للأكل، وتغسل على يديها سترات مُوْدْ الصغيرة المحبوكة من الصوف الكشميري باستخدام مسحوق غسيلٍ يفوح منه شذى الخزامى، ثم تصطحبها في جولة فوق المرج الملآن بالزهور بجانب ضفة النهر في ضواحي بيزبروك - ماذا بقي بعد من نشاطات؟ لا شيء سوى طهي وجبة السمك المنغولي بالكاري عندما يعود بِلْ على درَّاجته الهوائية من محطّة القطار في السابعة مساءً.

بِيْ تعيش الحياة التي صوَّرَتها عدَّة مرَّات في المجلّة. نقرت ذاكرتها كلّ تلك الصفحات المتقابلة في المجلّة التي صمَّمَتها وهي تشير فيها إلى هناءة الرِّيف: فتيات يرتدين فساتين جلسات شرب الشاي والجِزَم التي أثقلها الاستعمال. سلال الخوص وحصائر النزهات والخضراوات المعفَّرة بالتراب والمربَّى الفظيع المحضَّر في البيوت. كان لديها أوانٍ منه. أوانٍ وأوانٍ وأوانٍ.

من حيث الظاهر، كانت تعيش الحُلم. أمّا في الباطن، فهي تشعر بالملل والخواء واللاجدوى. كيف خطر في بالها، با ل عليها، بأنّ التفرُّغ الكامل للأمومة سيكون كافيًا بالنسبة لها؟ ربَّتَتْ على يد مود الصغيرة المكتنزة وشعرت أنّ قلبَها يرتجفُ بسبب التعاسة التي تشعر بها. ليست سوى بقرةٍ ناكرةٍ للجميل. كيف لها ألَّا تهنأ ولديها هذه الطفلة الصغيرة؟

خرَّت مود نائمة، ويدها تكمش بطّانيّتها النسيجية الناعمة التي يوجد في إحدى زواياها صورة أرنب. ما الذي سيدور في خَلَد ابنتها، عندما تعرف بأن لها أمًا مهووسة بالسرقة؟ تعلم بِيْ بأنها دائمًا ما تكون مندفعة، بيد أنها لم تستخدم اندفاعها قط لتحقيق مآرب سيئة حتى الآن.

ما الذي سيخطر في بال بِلْ عندما يعرف ماذا فَعَلَتْ؟ بِلْ يكفيه ما يتعرّض له من الضغط الناجم عن السفر اليومي والوظيفة. فبالكاد يستطيعُ أن يتكلّم في المساء عندما يعودُ إلى البيت. كلُّ ما كان يفعلُه هو الأكل والخلود إلى النوم والاستيقاظ في السادسة صباحًا للانطلاق إلى عمله مجدّدًا. لم يكن يحبُّ أن يرفِّه عن نفسِه في العطلة الأسبوعية أيضًا. ففي الشهرين المنصرمين رفض استقبال أيّ ضيوف في البيت. لم يكن يقومُ بنشاطات كبيرة. ينام. يشاهدُ التلفزيون قليلًا. يفتحُ أول قنينة بيرة في

منتصف النهار ثم يشربُ على سوية واحدة حتّى يخرّ نائمًا مرة أخرى في حوالي التاسعة. وعندما تتذمّر، كان ينفجر في وجهها بحدَّة:

- أنتِ تعيشين الحُلم، أتذكرين ذلك؟

لا بأس، إذ إنّها هي المسؤولة عن إحداث هذا التغيير الهائل. فقدت عثرت على المنزل، وباعت شقّتَهما، وأشرفت على انتقالهم إلى الرِّيف. استقالت من عملها طواعية بحيث يكون في جَعبتها مبلغًا استلمته دفعة واحدة حتى ❞ يتسنّى لها أن تعيش به. وهي من نظَّم شؤونهما المالية بحيث يستطيعان تلافي النقص الحاصل في الراتب. ووجدت وسائل لتوفير المال حيث انخفض عدد المرَّات التي يخرجان فيها خارج البيت أسبوعيًّا بمقدار النصف ولكن دون حصول انخفاض في معايير حياتهما. كما وفَّرَت مئتي جنيه إسترليني أسبوعيًا من خلال إيقاف الخروج للأكل في المطاعم أو إحضار وجبات جاهزة إلى البيت واقتناء سيّارة اقتصادية وعدم الاستعانة بعاملة نظافة. أصبح توفير المال هوايتها، ومصدر فخرها.

يجول في بالها الآن أنّها مستعدّة لفعل أيّ شيء لكي تعود وتقف في أتون زحمة القطارات، بيدها كوب لاتيه ابتاعته من المقهى وهاتفها الآيفون باليد الأخرى، وهي تبتدعُ أفكارًا لطرحها في فطور عمل صباحي. ها هي تتوق لتقديم إيجازٍ لتصميمٍ معقّد أو موعد تسليم حَرِجٍ جدًّا أو أزمة تحلُّها. في هذه الأيام، صارت الأزمة بالنسبة لها نفاد الحليب أو الحفّاظات. ولم تقم بفعل أيّ من هذه الأشياء من قبل؛ لأنه كان عندها وقت كبير جدًّا وهكذا كانت أكثر ربّات المنازل كفاءة على وجه المعمورة.

ولكن هل بلغ بها الملل حقًّا مبلغًا يجعلها تلجأ إلى السرقة؟

قفلت راجعة عبر الشوارع المتعرِّجة وعندما وصلت البيت كانت مود قد نامت. دفعت العربة نحو غرفة الجلوس، ومن ثم جلست على الأريكة المخملية الرمادية الفاتحة التي تطابق تمامًا الأريكة المقابلة لها. بينهما طاولة قهوة عتيقة ذات سطح عاكس لم يكن فوقها أيّ شيء سوى بصمات الأصابع المنتشرة هنا وهناك. قضت أوقاتًا طويلة وهي تمسح بصمات الأصابع عنها، ولم تكن ترغب في التفكير في اليوم الذي بدأت فيه مُوْدْ التجوُّل بين الأثاث.

وضعت كتاب رايلي في وسط الطاولة. كان أبهى كتاب يمكن عرضه. أعجبها الرسم الغرافيكي الأبيض والأسود على الغلاف الأمامي. حكَّت لكي تنزع الغلاف وتنظر داخل صفحات الكتاب، لتلتهم الصور وتتخيّل نفسها واحدة من تلك العارضات اللاتي صوَّرَهن في الكتاب.

قبل أن تتاح لها الفرصة لإزالة التغليف، سمعت صوت بِلْ وهو يدخل من الباب الأمامي. كان قد ذهب إلى المَشْتَل، لإحضار بعض السواري والأسلاك الخاصة ببعض أشجار الفاكهة التي كان يخطّط لأنْ ينشئ لها عريشة في الحديقة. كان عملًا شاقًّا، إنشاء العرائش. لم تكن متأكّدة تمام التأكّد ماذا يعني ذلك...

وثبت وأمسكت الكتاب ودسّته أسفل وسائد الأريكة لحظة دخول بِلْ.

ـ أهلًا وسهلًا!

قالت له مبتسمة، محاوِلةً أقصى ما تستطيع ألا تبدو عليها ملامح المهووسة بالسرقة. أضافت:

- كيف حالكَ؟ قضيتُ ومُوْدْ صباحًا رائعًا.

- جيِّد.

- اشرينا كتابًا. أليس كذلك، يا عزيزتـي؟

ولكن مُوْدْ لا تزال تغطّ في نومٍ عميق.

- عظيم.

- وماذا عنكَ؟

- اشتريتُ منشارًا كهربائيًّا.

- وكم سعره؟

- أذلك أمرٌ مهمٌّ؟

- لا. طبعًا لا.

- جيِّد. لأننا نحتاج منشارًا. سوف أقطع شجرة الإجاص القديمة الواقعة بجانب البوّابة الخلفية. فهي تحجب الضوء عن الدخول إلى المطبخ.

- عظيم. يمكن أن نحصل على كومة معتبرة من الحطب. تأكَّد من أن تقطِّعها بشكل مستوٍ، حتّى يتسنّى لنا ترتيبها بعضها فوق بعض قرب الموقد.

باعدت ما بين يديها مسافة ثمانية إنشات وأضافت:

- ممتاز أن تكون بهذا الطول.

حتى وهي تقول ذلك، عرفت بأنّ نبرة صوتِها كانت تعكس نبرة امرأة مهووسة بحبّ السيطرة.

نظر بِلْ إليها.

- أيجب أن يكون كلّ ما نفعله له علاقة بمصطلحات التصميم اللعينة؟

فتحت فاها لتردّ، ولكنّها لم تستطع التفكير بردٍّ مناسب. ومع ذلك أصابها الارتباك. إذ إنَّ حدة الطبع الشديدة لم تكن من عادة بِلْ. ما الذي يؤرِّقه ويشغل باله با لـ عليكم؟

يجب عليها أن تعيد الكتاب المسروق. لم تطق العيش في جلباب ذاتها إن لم تفعل ذلك. ستعترف للفتاة التي في المكتبة؛ ستعترف لها أنّ السرقة هي الطريقة الوحيدة التي تصدمها لكي تعود إلى طبيعتها.

(69) ألكساندر مكوِين (١٩٦٩ – ٢٠١٠): مصمّمُ أزياء بريطاني.

(70) جمع رَقّ: جلدٌ رقيقٌ يُكتَبُ فيه. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

(71) كتابُ أطفالٍ مصوَّرٌ تأليف آميليا هيپورْث ورسومات تيم وارنز.

الفصل الحادي عشر

بعد أسبوعِ شَغَلَ فيه العمل كلّ وقتها، تاقت إِميليا لخوض تجربة أداء العزف الأولى في يوم الأحد الموعود مع فرقة رباعي بيزبروك، على أنّها كانت مرتبكة أيضًا. فقد تطلّب الأمر منها ساعاتٍ من التدريب لكي تفلح في جعل مقطوعة واحدة فقط مُنَاسِبَةً لتلقى آذانًا مصغية لدى القوم. فهي تعرف بأنّه ينبغي لها أن تطّلِع اطلاعًا شاملًا على عشرات المقطوعات الجديدة، إضافة إلى أنّها كانت فظيعةً في العزف عن طريق قراءة النوتة الموسيقية، وما فتئ ذلك يشكِّل نقطة ضعفها الدائمة. ما من شكّ في أنّها تعرف بعضًا من المقطوعات الموسيقية، ولكنَّ هناك الكثيرَ من المقطوعات الجديدة عليها، وكانت خائفةً من أن تخيِّب آمال مستمعيها بعزفٍ سيِّئ.

زارها مارلو مع مطلع هذا الأسبوع؛ ليعطيَها على عُجَالةٍ بعض النوتات الموسيقية المطبوعة. أصابها هول المفاجأة من فرط سعادتها لرؤياه، ففي حضوره سرٌّ يبعثُ على الطمأنينة. ومع ذلك لم يُطِلِ الزيارة. كان في عجلة من أمره ليذهب إلى مكانٍ آخر.

- ابذلي جهدكِ في عزف هذه النوتات. تدرَّبي قدر ما تستطيعين. يمكننا أن نذلِّل الصعاب أثناء تجارب الأداء، لذلك لا داعي لأن تصابي بالذعر. فأمامنا الكثير من الوقت.

حاولت إِميليا أن تلوذ بالطمأنينة، ومضت تعزف أكبر قدر استطاعت عزفه من الموسيقا آناء الليل. سرَّها أنَّ أحدًا لم يكن يسمع عزفها الثقيل الظلّ. وعندما حلَّ يوم الأحد لم تكن متأكّدة من أنَّها أتْقَنَت العزفَ كما يجب، واستقرّ رأيها على ذلك. لم تكن لتقترب في ثقتها بقدرتها على العزف من الثقة التي تبدو على مارلو.

كانوا يقومون بتجارب الأداء في قاعة الكنيسة القديمة الواقعة خلف كنيسة سينت نِكْ. مشت حاملةً تشيلُّو أبيها على ظهرها، وهي غير متأكّدة فيما إذا كانت مرتاحة لتمارس نشاطًا لا علاقة له بتاتًا بالمكتبة لكي تركز طاقتها عليه، أو أنّه ينبغي لها أن تلمّ بكلّ الأنشطة التي لم تُتَحْ لها فرصة ممارستها أثناء انهماكها في أمور المكتبة. وافقَ ديف بكل سرور على الظفر بفرصة إدارة المكتبة في أيَّام الأحد بشكل مؤقّت. وهكذا ترَكَتْهُ يدير المكتبة وحده، وزوَّدَته بتعليماتٍ ليتصلَّ بها إذا ما فاق العمل طاقته.

كانوا مشغولين في المكتبة حتّى شحمة آذانهم. بدا أنّ الخريف جلب معه شعورًا بحبِّ الانزواء ممّا دفع الناس مجدَّدًا نحو القراءة، وامتلأت البلدة بالقادمين طلبًا لقضاء استراحة العطلة الأسبوعية في الرِّيف. واكتست، في الأشهرِ الباردة، رداءً بهيًّا يزيِّنُه سحر بيوتها الكوتسولدية(72) وفنادقها الجذّابة وبشاشة أصحاب متاجرِها، وأصبحت بالضبط مثل خلية نحل، وعملت إِميليا وفريقها بجدٍ ومثابرة لزيادة شهرة المكتبة. فقد أنشأ ديڤ للمكتبة صفحةً على فيسبُك وحسابًا على تويتَر؛ وتباحثَتْ إِميليا مع العديد من مندوبي المبيعات لشراء كتبٍ وموادَّ إضافيةٍ؛ ودشَّنَتْ جون نادي كتاب شهري يرعى فعاليّاته تُجَّارُ النبيذ المحلّيون، فمقابل عشرة جنيهات إسترلينية يمكنك الحصول على نسخة من أيّ كتابٍ ستجري مناقشته في النادي إضافةً إلى كأسين من نبيذٍ اختير خصيصًا بمناسبة المناقشة.

بالطبع، فالقضية الأساسية هي السيولة النقدية. وأندريا لا تزال تكشف النقاب عن حجم ديون المكتبة، وكانوا ينتظرون الإجراءات القانونية لوصية الفقيد، وفي أثناء ذلك، هناك فواتير لا تزال بحاجة إلى الدفع دون أن ننسى رواتب الموظّفين. لم يكن هناك شحٌّ في الأفكار لجعل مكتبة نايتِنْغيل أفضلَ مكتبةٍ في العالم، ولكن لبلوغ ذلك الشأن كانت إِميليا بحاجة إلى المال. إضافة إلى وجود الكثير من المسائل المُضجِرة الواجب عملها قبل الأمور المفرحة، فهناك حاجة ماسة لتحديث نظام

الحاسوب؛ ولم تكن المكتبة في مأمنٍ كافٍ، كما أن سطحها متداعٍ ولا تسنده سوى الاتكاليّة والسبحانية. فها هي رياح الخريف تستعدُّ للانقضاض بكلّ جبروتها، وتوقَّعَتْ إِميليا على نحوٍ لا تشوبه شائبةٌ أنّها ستستيقظ ذاتَ صباح ولن تجدَ السقف في مكانه، وستكون محتويات العليَّة من الكتب مكشوفة أمام الغادي والرائح.

في قاعة الكنيسة، وُضِعَتْ أربعُ كراسٍ بشكل نصف دائري أمام أربعة مساند عليها نوتات موسيقية. جرى الكثير من النقاش بخصوص أفضل ترتيب للكراسي، ولكن في نهاية الأمر أمْلَىْ عليهم مارلو إملاءً بأنّه من الأفضل له ولإِميليا أن يجلسا في الطرفين، بحيث يتسنَّى لها أن تراه ويراها.

تضاعف انزعاج إِميليا لحظة رؤيتها ديلْفِين. فإِميليا تعرف عازفة الڤيولا، بِتْرَا، منذ مدّة طويلة، ولكنّ الفرصة لم تُتَحْ لها للتعرُّف بديلْفِين حقَّ التعرُّف؛ عرفتها فقط من خلال ما سمعته عنها من أبيها. ارتدت ديلْفِين بنطالًا بسيقانٍ ضيّقة مصنوعًا من قماشٍ مشمَّع، وحذاءً عالي الكعبين وكنزة بيضاء مُكَشْكَشَة. موضة باريس تحيط بها كالهالة، متمثلةً بقصّة شعرها المتناسقة وشفتَيها الحمراوين. شعرت إِميليا بدُونيّة أناقتها المتمثِّلة في ارتدائها بنطالَ جنزٍ وسترة ذات طاقية وشعرٍ مجدول.

- أتعرف إحداكما الأخرى؟ سأل مارلو بنبرة صوته المعتادة التي لا توحي بأيّ معنى من المعاني.

- مرحبًا.

قالت إِميليا، وهي تشعر بإحساس مقرف يهتاجُ في وسط معدتها. ثم أردفت:

- أشكركِ جزيل الشكر على عزفِك في حفل التأبين. إن ذلك يعني الكثير بالنسبة لي.

قالت ديلْفِين:

- إننا نفتقد أبيك فقدًا كبيرًا جدًّا. فقد كان عازفًا بارعًا.

شعرت إِميليا من فورها بأنّها تحت الضغط حتّى تثبت براعتها في العزف مثل أبيها، وهي تعلم بأنَّ عزفها لن يرقى إلى عزف أبيها.

لا، بل إنّها ازدادت جزعًا عندما استمعت إلى ديلْفِين وهي تعزف. إذا أمسكت ديلْفِين كمانَهَا وعزفت مقطعًا من معزوفة «الخريف» لڤيڤالدي، تحيةً لأوراق الشجر المتحوِّلة إلى البرتقالي خارج النافذة وللشمس التي أرسلتْ القليل من الدفء عبر النافذة في ذلك اليوم.

عزْف ديلْفِين هو المعادل الموسيقي لمقطعٍ مسرحي. فبالكاد لامست القوسُ الأوتار، بل تراقصت فوقها فحسب، وهي تنتقي النوتات الموسيقية القليلة التي أرادت لها أن تعطي انطباعًا قريبًا من المقطوعة. عزفت نغماتٍ صافيةٍ ومتكاملة ومدهشة في بساطتها. كانت ديلْفِين عازفةً حازت أعلى درجات المهارة.

أكانت تتباهى؟ أمْ أنها فقط شعرت بالحاجة لإرسال طلقة تحذيرية إلى إِميليا؟ رسالة لها مفادها أنّك لن تبلغي قطّ مرتبة براعتي في العزف، على مرِّ الزمن، ومهما تدرَّبْتِ.

أنهت المعزوفة بقفلةٍ موسيقية بهيَّة. صفَّقَتْ بِتْرا فَرَحًا. تعرف إميليا بأنَّها ستبدو وقحةً إذا لم تشاركها التصفيق. آلمَها وجهها ألَمًا خفيفًا وهي تبتسم. هزَّت ديلْفِين رأسها هزَّة خفيفة تشي بعدم رضاها الكامل عن عزفها وهزَّتْ كتفيها وكأنَّ لسان حالها يقول: «لم أُظْهِر بعدُ كلّ براعتي». ولكن إميليا تعلم أنَّ ديلْفِين تعرف نفسها جيّدًا؛ تعرف أنّها عازفة بارعة.

ومن ثمَّ مشت الهوينى صوب مارلو وأَرْخَتْ يدَها حول رقبته، مربِّتَةً عليها من الخلف بإبهامها. كان مارلو منهمكًا بشدٍّ قوس التشيلُّو ولم يبدِ أيةَ ردَّة فعل، ولكنّها كانت إشارةً تحملُ في طيَّاتها معانيَ مألوفة. لم يبقَ مجال من شكٍّ يساور إميليا: فبالطبع تلك علامة على أنّهما سيخرجان في موعد غرامي. تخيَّلَتْهُما يمارسان الجنس. جنسًا على الطريقة الفرنسية. جنسًا فرنسيًّا تعتلي فيه ديلْفِين جسدَه ورأسها سابح للخلف وعيناها شبه مغمضتين، لكن أحمر شفتَيها لا يزال في كامل بهائه. جمعت ديلْفِين في شخصيتها شخصيات ثلاث نساءٍ هنَّ جولييت بينوشيه(73) وبياتريس داليه(74) وأودري تاوتو(75)، زِدْ على ذلك أنّها عازفة عبقريةٌ أيضًا.

هذا، إذًا، الجواب على ما دار في خَلَدِ إِميليا من تساؤلات بشأن علاقة مارلو بديلْفِين. كانا ثنائيًّا رومانسيًّا متناغمًا. فما الداعي للشعور بخيبة الأمل؟

أقفلت أزرار صندوق التشيلو ووقفت. فوجئت بمقدار الارتباك الكبير الذي اعتراها.

اقترب منها مارلو وهي تأخذ التشيلو وتسحب سِيْخ التثبيت(76).

- آمل بأنَّك لستِ منزعجة جدًّا.

- لا! أقصد، نعم.

- ستكونين بخير. فجلُّ تركيزنا سيكون على موسيقا العرس في النصف الأول من تجارب الأداء، ثم سنبدأ النظر في التدرُّب على عزف بعض الترانيم.

- لا بدَّ أني أعرف عزف معظمها. شعرتْ إِميليا فجأةً بأنها أقلُّ خوفًا. فقد قضت سنواتِها في المدرسة في الأوركسترا، في نهاية الأمر.

جلَست على كرسيّها وبدأت تُدَوْزِن التشيلُّو، مدندنةً بالقوس على وتر نغمة (لا). بدا عزفُها غيرَ متناغم وبشع، ونشازًا على نحوٍ فظيع. بدا عزفها مرآةً لشعورها. عدَّلَتْ بسرعةٍ أوتاد دَوْزَنَة التشيلُّو حتى صدرت عنه النغمة الصحيحة.

ومن ثمَّ باشروا العزف. بدؤوا بعزف مقطوعة «وصول ملكة سبأ»، المعزوفة التي انتقَتْهَا أَلِسْ بازِلْدُن لتُعْزَفَ لحظة دخولها إلى قاعة العرس. كانت مقطوعة موسيقية مبهجة وذات إيقاع متفائل وتحبُّها إِميليا، بيد أنها سريعة أشدَّ ما تكون السرعة وصعبة أشدَّ ما تكون الصعوبة.

عَزَفَتْ عزفًا شنيعًا. وشعرت أصابعها بالتيبُّس وافتقاد الليونة. لم يستطع ذهنها التركيز. وافتقدت إلى حيوية العزف. تخلَّفت عن ركب العازفين، ونسيت دليل المقامات الموسيقية وعزفت

عدَّة نغماتٍ خاطئة. ونظرًا لوجود أربعة منهم يعزفون فقط، لم تستطع إخفاء فشلها في غيابة عزف الآخرين. جعل ذلك المقطوعة تبدو مرعبة.

أخيرًا توقّف مارلو عن العزف وقال:

- هلَّا عدنا لعزف المقطعِ الرابع والعشرين؟

لم ينظر إليها أو ينبس ببنت شفة أخرى، وهذا ما زاد الطين بِلَّة.
محمرَّة من الذلِّ الذي لحق بها، سحبت إِميليا نفَسًا عميقًا وتمعَّنت في النُّوتَة الموسيقية مرَّة أخرى. شجّعتها بِتْرا بابتسامة وشعرت وكأنّها تملك في صفّها حليفًا واحدًا على الأقلّ. رفع مارلو حاجبَيه وأعطى إشارة البَدء مرة أخرى. ركَّزَت بكلّ ما أوتيت من قدرة، ولكنّه كان جهدًا هائلًا. لم يخرج أيّ ممّا عزَفَتْه بشكلٍ طبيعي. كانت تعزف مثل رجلٍ آلي مبرمجٍ لكي يتبع العلاماتِ السوداءَ على الصفحة، دون أن تشعر بها بقلبها أو في روحها.

لم يفتها طوال الوقت أن تتابع باهتمام ديلْفِين وهي تنتبه لكلّ خطأٍ ارتكبته صغيرًا كان أم كبيرًا. أرادت أن ترمي التشيلُّو من يديها وأن تطلبَ منها أن تذهبَ إلى جهنَّم. لم تشعر قطّ بمثل هذا الخطر الداهم المُحْدِقِ بها، شعورًا رهيبًا كان.

أخيرًا، وحمدًا ل، وصلوا إلى نهاية المقطوعة.

- أحسنتنَّ جميعًا.

هذا كل ما قاله مارلو. أطرقت إِميليا رأسها. شعرت بأنّها خيَّبَت أملَهُم جميعًا. شعرت بحرقةٍ في عينيها من جرَّاء انحباس دموعها، ولكنّها لم تكن لتسمحَ لدموعها بالخروج. ليس أمام مرأى ديلْفِين الشامتة الجاثمة في الزاوية. لم يكن هناك أيّ جدوى من الاعتذار أو لفت الأنظار إلى سوءِ عزفها. فهم يعرفون جميعًا. كلّ ما عليها فعله فحسب أنْ تعزف بشكلٍ أفضلَ في المرة القادمة. قال مارلو:

- دعونا نجرِّب عزف مقطوعة باكِلْبِل(77). بحثوا في أوراق نوتاتهم الموسيقية إلى أن وجدوا المقطوعة المطلوبة ووضعتها

كلّ واحدة منهنَّ على المسند أمامها. شعرت إِميليا بالارتياح. فهي تعرف هذه المقطوعة تمام المعرفة، ويمكنها أن تعزفها وهي معصوبة العينين؛ يمكنُها أن تَجْبُرَ انكسارَها الذي حصل سابقًا وتُثْبِتُ ذاتها أمام ديلْفِين.

* * *

فيما بعد، أومأ لها مارلو ومَنَحَهَا ابتسامةً أنبأَتْها بأنها استرَدَّت ذاتها. لا شيء أكثر من إيماءة وابتسامة. ثم سألَها:

- هل ستأتين معنا إلى مطعم كاردامُمْ پُدْ؟ فهو المكان الذي نذهب إليه دائمًا بعد انتهاء تمارين الأداء يوم الأحد.

لم تكن إِميليا متأكّدةً إذا كان بإمكانها مواجهة الأمر؛ مواجهة اضطرارها لأن تكون مؤَّدبةً مع ديلْفِين، وإظهار الاستحياء من عزفِها الفاتر.

- عندي بعض الأوراق الواجب إكمالها.

كَذَبَتْ. ما لبثت أن أضافت:

- أكوام هائلة من الأوراق. وستقتلني المحاسبة إذا لم أحْضِر لها الأوراق غدًا.

بدرت منهم فورة احتجاج ولكن إِميليا لم يفتها ملاحظة بريق النصر في عيني ديلْفِين. وتساءلَتْ فجأة لماذا ينبغي لها أن تشعر بهذا الشعور السيّئ بعد أن بذلت قصارى جهدِها، وأنْ تُوْضَع في هذا الموقف دون أن تكون مستعدّةً له. قالت:

- وما الذي يمنعني من الخروج معكم؟ ففي نهاية المطاف، يجب عليّ أن آكل.

رفعت التشيلُّو وحملته على ظهرها بابتسامة مشرقة.

- ممتاز. قال مارلو.

* * *

يقع مطعم كاردامُم پُدْ(78) في أحد المباني العتيقة في بيزبروك، أرضيّتُه غيرُ مستوية وسقفُه واطئ، ولكنّه يشعرك بالمعاصرة والحداثة، جدرانه مدهونة بلونٍ وردي فاتح فاقع ودعاماته مدهونة بطلاء جيري. فاحت منه رائحة غريبة: رائحة التوابل الحارَّة، وداخت إِميليا جوعًا بينما بدأ لعابها يسيل اشتهاءً للطعام، إذْ أدرَكَت بأنَّها لم تكن تأكل سوى السندويشات وفطائر الزبدة من مطعم ذي آيسنغ أُنْ ذا كيك. فهي متعبة جدًّا لكي يتسنَّى لها أن تطبخ لنفسها كما يجب. طلبوا قناني بيرة هندية وغمَّسُوا خبز الپوپادُم(79) في صلصة المانغو البلدي بينما كانوا يختارون ما سيأكلون.

قال مارلو:

- اعتاد أبوكِ أن يطلبَ لنا الطعام دائمًا. جعَلَنَا شغوفين بالمجازفة. ودائمًا ما كان يطلبُ أحرَّ الوجبات المتبَّلَة التي يستطيع تحمُّل حرقتها.

- كان يحبُّ الطعام الهندي. قالت إِميليا، وهي تحدِّق في قائمة مأكولات المطعم.

- أظنّنا ينبغي لنا أن نشرب نخبَ حدثٍ ما. رفع مارلو كأسه وأضاف:

- نخبُ ترحيبنا بكِ في فرقة رباعي بيزبروك. أعرف مدى الفخر الذي سيشعر به أبوك.

فكَّرت إِميليا في قرارة نفسها أنّه رغم عزفها السيِّئ، فهي لم تأتِ على تذكيرهم به؛ لأنّه من الفظاظة الحديث في الموضوع.

- آمل أن أكون عند حُسن ظنِّه. قالت إِميليا رافعة كأسَها أيضًا. ثم أضافت:

- لا أظنّني بدأتُ بداية موفقة جدًّا في العزف.

- لا تنسي أن تتدرَّبي مدّة ساعتين في اليوم. قال مارلو ثم رمقها بنظرة صارمة مازحة قائلًا:
- سأنِقُّ فوق رأسكِ ليلَ نهار.

- مارلو صارم على نحو فظيع. تمتمت ديلْفِين، مضفية أكبر قدرٍ ممكن من الغمز واللمز إلى عبارتها.

بينها وبين نفسها، برمَت إِميليا عينيها تضجرًا- فقد وصلتها الرسالة- ولكنها ابتسمت ابتسامة مشرقة قدر ما استطاعت وهي ترفع كأسها وتطرقه بكؤوس الآخرين.

(72) نسبة إلى منطقة كوتسولد في جنوب غرب إنجلترا، وتشتهر بالهضاب والأودية والأغنام وإنتاج الصوف.

(73) جولييت بينوشيه (١٩٦٤ - .....): ممثلة فرنسية.

(74) بياتريس داليه (١٩٦٤ - .....): ممثلة فرنسية أيضًا.

(75) أودريه تاوتو (١٩٧٦ - .....): ممثلة وعارضة أزياء فرنسية.

(76) سيخ معدني في قاعدة التشيلو يسحبه العازف قبل العزف لكي يسند التشيلو على الأرض منعًا لاهتزازه.

(77) يوهان باكِلْبِل (١٦٥٣ – ١٧٠٦): موسيقيٌّ ألمانيّ.

(78) معناها: حبَّة الهال.

(79) خبزٌ هنديٌّ رقيقٌ مقليٌّ أو محمَّصٌ ويقدَّم مع الكاري.

الفصل الثاني عشر

في صباح الإثنين، بعد أنْ ذهب بِلْ في أمان الله إلى العمل وقبل أن تُمْعِنَ بِيْ التفكير كثيرًا في الأمر، لفَّتْ طفلتَها مُوْدْ في عربتها وسارت صوب بيزبروك. مشَت في الشارع السريع حتّى وصَلَت الجسرَ المحاذي لمكتبة نايتِنْغيل. كانت اليافطة في الخارج تتأرجَح بلطفٍ بفعلِ نسيم الخريف. عبر النافذة الناتئة، رأَت إِميليا وهي تتحدَّث إلى أحد الزبائن.

كُتِبَ على لافتة موضوعة على الباب، بخطّ منمَّقٍ جميل، العبارة التالية: تَفْتَحُ المكتبةُ أبوابَها من الإثنين حتى السبت من حوالي الساعة العاشرة حتّى مغادرة آخر زبون. ابتسمت بِيْ، ودفعت الباب بردفها لتفتحه، وهي تسحب عربة الطفلة إلى الداخل، وانتظرت إلى أنْ فرغت المكتبة من زبائنها. أروع ما في المكتبات أنَّك لن تجد أحدًا يستغرب تجوُّلِكَ بين أرففها حتى لو دام ذلك ساعات وساعات. فتلك، في نهاية الأمر، الوظيفة التي يفترض بالمكتبة أن تقوم بها. ولذا فقد جالت وصالت بين قسم كتب الطبخ وقسم كتب الفنون، وأثناء ذلك كلّه لم يَغِبْ بصرُها عن الزبائن الآخرين، وها هو آخرُ الزبائن يغادر ليتيح لها الفرصة للحديث.

تقدَّمَتْ صوب آلة دفع النقود قبل أن تعدِلَ عن رأيها، ووضعَتِ الكتاب على طاولة الحساب.

- عليَّ إرجاع هذا لكِ.

نظرت إِميليا إليها وعَرَفتها. قطَّبَت جبينَها قائلة:

- أوه! اشتريتِ كتاب أحبك من هنا إلى القمر ومن القمر إلى هنا. لم أنتبه أنَّك اشتريتِ كتابًا من كتب رايلي.

أطرقت بِيْ رأسها:

- لم أشترِ كتاب رايلي. توقَّفَتْ ثم أضافت: بل سَرَقْتُه.

نقَّلَت إِميليا نظراتِها بين الكتاب وبِيْ جيئةً وذهابًا.

- سرقتيه؟

أومأت بِيْ بالإيجاب، ثم سَحَبَتْ نفسًا عميقًا.

- لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك. كنت أمرُّ فعلًا بلحظةٍ غريبة. لا أدري ما الشعور الذي انتابني. الأمر لا يتعلّق حتَّى بمسألة عدم قدرتي على دفع ثمنه. ليس ذلك فعلًا. ليس كذلك إذا ما أردتُ فعلًا شراء الكتاب. نظرت إلى إِميليا، مرتبكة، وأضافت:

- أنا متأسّفة جدًّا جدًّا. ينبغي لي أن أخبرَكِ بما فعلت حتى أردع نفسي نهائيًّا عن تكرار مثل تلك الفعلة مرّة أخرى.

- لا أدري ماذا أقول. بدرَت عن إِميليا ضحكة موارِبَة. ثم أضافَت:

- لن أقول سوى أنّني على الأرجح ما كنتُ سألاحظُ الأمر. كان يمكن للكِ أن تنجي بفعلتكِ.

- ولكنّي لا أريدُ أن أنجوَ بفعلتي. ينبغي لي أن أعيدَه لكِ. حتى أخيف نفسي. فأنا أعْجَبُ من نفسي إذا ما كان قد أصابها مسٌّ من جنون. يا لَه من تصرُّفٍ أحمقَ ذلك الذي أقدَمْتُ على فعله!

ابتسرت ابتسامةً في وجه إِميليا، ابتسامةً نصفُها حزنٌ ونصفُها الآخرُ خوف.

- إذا أردتِ أن تعتقلني الشرطة، فليكن ذلك إذًا. أنا أستحقُّ ذلك.

- بالطبع لن أفعل ذلك بكِ. فقد أَرْجَعْتِ الكتاب. وهذا ليس سلوك سارقٍ اعتاد السرقة.

- بل هو سلوكُ شخصٍ بحاجةٍ للمساعدة. ألا تظنّين ذلك؟

- لا أعرف.

- شكرًا لكِ على تفهُّمكِ للموضوع. حَسبِتْ بِيْ نفسها وقد أوشكت على البكاء. ثم أردفت:

- كلّ ما في الأمر أنّني لم أعد أشعر أنّني ذاتي بعد الآن. اللعنة. أنا آسفة. أنا على وشك البكاء. لا، لن أبكي.

أصدرت شخْرَةً ونَغْبَة؛ نصف ضحكة، ونصف نشيج، ومن ثَمَّ استجمعت رباطة جأشها. قالت إِميليا:

- هل أنتِ بخير؟ أصاب الفضول إِميليا، ولكنه فضولٌ نابعٌ من القلق على حال بِيْ.

أمْسَكَتْ بِيْ مقبضي عربة الطفلة. عانت الأمرَّين حتى تبوح بما في صدرها:

- كنت أظنّ أنّني بخير. ولكنّني ربّما لستُ كذلك. حياتي باتت صعبة. هذه الأمومة... من أولها إلى آخرها. هذا الجلوس دون عمل... من أوله إلى آخره. هذا الانتقال، برمته، إلى الرِّيف لأعيش حلمي. اضطرمت نيران غضبها رويدًا رويدًا، ثم أضافت:

- هذا الوضع برمّته...سئمتُ من عدم وجود ما أفعله طوال اليوم ما عدا، كما تعرفين، هرس الجزر وتبديل الحفَّاظات. نَظَرَتْ إلى مُوْدْ في عربتها. ابتسمت الطفلة في وجهها ابتسامة بهيَّة.

- ذلك لا يعني أنّني لا أحبُّ مُوْدْ حبًّا هائلًا. بالطبع أحبُّها.

قالت إِميليا:

- لا أستطيع تخيُّل حياة الأم. أظنّني سأكتشف ذلك يومًا ما.

- إنّها حياة رائعة. ولكنَّها...

سحبت بِيْ نُغْبَةً من هواء. وأرْدَفَتْ:

- لا يجوز لي قول تلك الكلمة.

- مُملَّة؟ بادرتها إِميليا.

- نعم! ولكن بالطبع، الأمومة أهمّ وظيفةٍ في العالم إلخ إلخ إلخ، وينبغي لي أن أكون لذلك من الشاكرين؛ لأنَّ عندي صديقات- وهنَّ أكثر من واحدة- ما فتئن يحاولن منذ زمن طويل الإنجاب ولم يحالفهنّ الحظّ. ولكن...

حملقت إلى إِميليا. هزَّت رأسها ريبةً، وأضافت:

- يا إلهي. لم آتِ إلى هنا لأشكوَ لكِ همومي. آسفة. لا أعرف ما الذي يحصل معي. فأنا لا أعرف فعليًّا أي شخص في هذه البلدة. وأنتِ تبدين... لطيفة. أحسبك ربّما تفهمين وضعي.

لم تدرِ إِميليا ما تقول. ثم ما لبثت أن قالت:

- شكرًا لكِ. أظنّ أنّني... وَضَعَتْ يديها على الكتاب وأضافت:

- سأعيد هذا الكتاب إلى حيث كان ولن نخوض في شأنه أكثر من ذلك.

- من يَسْرُقُ كتبًا من مكتبة؟ ما ذلك سوى خطأ فادح.

نبَّهتْهَا إميليا قائلة:

- لن نعود لهذه السيرة مجدّدًا. أنسيتِ ما قلته لكِ قبل قليل؟

وقفت بِيْ رافعة قامتَها وأومأت بنبرة تشي بالموافقة وقالت:

- شكرًا لكِ. شكرًا لتفهّمك الأمر. كيف الأحوال عمومًا، على أيِّ حال؟

- لكي أكون صادقة معك، أنا متوجِّفةٌ قليلًا.

- لماذا؟ كنتُ أحسب وظيفة المكتباتي أقلّ عملٍ مُسبِّبٍ للتوتّر في العالم. نظرَتْ بِيْ في أرجاء المكتبة ثم أضافت:

- كم أحبُّ أن أقضيَ كلَّ أيامي هنا.

- نعم، ولكن الوضعَ المالي للمكتبة يسوء بسرعة كبيرة.

- في ظلّ وجود مَنْ يسرِق الكتب وما إلى ذلك، فالمكتبة لن تكون في أحسن الأحوال.

ضَحِكَتَا ثم سألتها إِميليا:

- إذًا ماذا كنت تعملين؟ قبل أن تُرزَقِي بالطفلة الصغيرة؟

- كنتُ مخرجة فنّية في مجلة هِيْرْث، أسمعتِ بها؟

- أوه رائع! أنا أحبّ مجلة هيْرْث. فهي تصوِّرُ أسلوبَ الحياة الذي أرغب في أن أعيشَه.

- ذلك بالضبط السبب الذي يجعل القائمين عليها يبيعون نسخًا كثيرة جدًا منها.

مُتَفَرِّسَةً وجه بِيْ، حسبت إِميليا بأنها تبدو تمامًا مثل فتاة الغلاف لمجلة هِيْرْث. جميلةٌ ومواكبةٌ لآخر صيحات الموضة وفي جعبتها أحدث قصص نجاحاتها ومعها طفلة رائعة. ولا بدَّ أنها ذكية. فمجلة هِيْرْث إحدى أكثر المجلات بيعًا ضمن فئة المجلات المتخصِّصة بأسلوب حياة المرأة العصرية، وهي تملي ما ينبغي لأي امرأة معاصرة، حتى ولو لم تكن ذات خبرة كبيرة في أمور الديكور والموضة، أن تضع على جدران بيتها أو في أطباق مائدتها أو مزهريات زهورها، وهي مجلة رائدة تقود روح العصر في مجالات التصميم الداخلي والطعام وتنسيق الحدائق. ومع ذلك بدا على نحوٍ واضح أن في الموضوع إنَّ.

هزَّت بي كتفيها، وقالت:

- على أي حال، لقد أرجعتُ الكتاب وأعِدُك بألَّا أعكِّر صفو يومكِ بزيارتي لكِ مرَّة أخرى.

- لا تكوني سخيفة.

شعرت إِميليا بانجذابٍ إلى بِيْ وأَسَرَها صِدْقُها الذي قد يودي بصاحبه إلى التهلكة.

- في الواقع، ربما يكون بمقدوركِ مساعدتي.

- مساعدتكِ؟

ابتسمت إِميليا ابتسامة عريضة. وقالت:

- نعم. قد يكون في ذلك عقابًا لكِ. يمكنكِ أن تسدي لي بعض النصائح.

- نصائح حول ماذا؟

- أريد أن أقلب هذه المكتبة رأسًا على عقب. وأن أجعلها أكثر جذبًا لقاعدة عريضة من الزبائن. ولكني لا أعرف من أين أبدأ.

آهٍ يا عزيزتي، فالطامَّة الكبرى تتمثَّل في... أنني لا أملك فعليًا أي مال للقيام بذلك. وربما يمكنكِ أن تقترحي عليَّ بعض الأفكار؟

وضعت بِيْ يدًا على شفتها. ما لبثت أساريرها أن انفرجت وقالت:

- ومقابل ذلك لن تعاقبينني؟

- شيء من هذا القبيل.

نظرت بِيْ حواليها نظرةً فاحصةً وقالت:

- أنا أحبُّ هذا المكان. فالمكتبة جوها رائع. وهو بحق جو دافئ وترحيبي. ولكنه نوعًا ما...

ارتسمت أمارات التجهُّم على محيَّاها.

ـ دقَّة قديمة؟ أكلَ الدَّهر عليها وشرب؟ بادرت إِميليا قائلة.

ـ لم يأكل الدهر عليها ويشرب. فأنا أحبُّها لأنّها قديمةُ الطراز. ولكن يمكنك تعديلُ الكثير فيها. حافظي على روحها، ولكن امنحيها بعض الانفتاح. حسِّنْي إضاءَتها. أنشئي فيها بعضَ مجموعات الكتب الصغيرة، ربّما، سلامةُ فهمِكِ، ألبسيها ثوبًا جديدًا؟ وبالنسبة لذلك المَشْرَف؟

أشارت صوب الأعلى وأضافت:

ـ فأنت تخسرين ذلك المكان كليًّا من خلال تخصيصه لكتب التاريخ القديمة المملّة والخرائط. هل يصعدُ أحدٌ حقًا إلى هناك؟

رفعت إِميليا ناظرَيها نحو الأعلى.

- أحيانًا. اعتاد أبي الصعود هناك. فهو يحتفظ بالطبعات الخاصّة من الكتب ويقفل عليها في صندوق زجاجي. ولكنّك محقّة. إنّها مساحة مهدورة بالفعل.

- تذهب مُوْدْ إلى الحضانة صباحًا على مدى يومين. ما رأيكِ أن أعود إلى هنا وأدرس المسألة دراسة وافية. وألتقط بعض الصور. ومن ثمَّ أقترح عليكِ بعض الأفكار. عَبَسَتْ بِيْ وأضافت:

- كم ميزانيتك بالضبط؟

تغيَّرتْ ملامح وجه إِميليا.

- إممم، في الحقيقة لا أملك أي ميزانية. ولكن أظن أنني سأستثمر في الأمر. يمكنني أن أستخدم بطاقتي الائتمانية.

سدَّت بي أذنيها بيديها.

- لا أريد سماع كلمة «البطاقة الائتمانية». لا تقلقي، فأنا معتادة على اجتراح السِّحْر من سقط المتاع. الأمر العظيم هو أنه يوجد لديك في المكتبة خصائص معمارية رائعة. فهي مثل امرأة ذاتِ بنية جسدية قوية. لذا لا يمكنكِ أن تضلِّي الطريق كثيرًا.

ابتسمت وأضافت:

- أنا أعرف كلّ الحِيْل. وأعرف الكثير من الأشخاص المفيدين. يمكنني أن أحصِّل لكِ ما تشائين من المستلزمات بأسعار الجملة. كما أنّنا بحاجة لتغيير الإضاءة.

نظرت إلى السقف. كانت أغطية المصابيح المخملية الحمراء مكسوة بالغبار ورأت شبكات العناكب فيها واضحة وضوح الشمس.

- وتغيير الدهان.

نظرت إلى الأرضية، إلى السجّادة الحمراء العتيقة، البالية تقريبًا في بعض المواضع.

- وتبديل السجَّاد.

شُدِهَتْ إِميليا. بَدَتْ بِيْ وكأنَّها وردةٌ تتفتح وتتألّق أمام ناظرَيها.

توقفت بِيْ في منتصف حديثها.

- آسفة. لا أهدفُ ممّا قلتُه لأن أكونَ وقحةً.

- لستِ كذلك! من الجيِّد أن يستمعَ المرءُ لوجهة نظر موضوعية. فقد عايشتُ هذه المكتبة مدةً طويلةً حتّى صرتُ لا ألاحظ أنّها باتت قديمةً وأصابها التعبُ بعضَ الشيء.

- لن نتخلَّى عن روحِ المكان. ذلك أمرٌ أساسيٌّ. فجوُّ المكتبة هو ما يجعلها مميزةً. ولكن انظري إلى الموقد القديم، مثلًا. ينبغي لكِ أن تستفيدي منه كميزةٍ معمارية. سيكون رائعًا لو فتحناه، ووضعنا بجانبه كرسيًّا وثيرًا بذراعَين بحيث يتسنَّى للناس الجلوسُ والقراءة.

حمْلَقَتْ إميليا إلى الموقد، وقد سُدَّ بابُه بالطوب. قالت بِيْ:

- إذا ساورَك الارتباك أو الخوف، وبدأتِ تتردَّدين وتُسائِلين نفسَك لماذا طلبتِ من تلك الفتاة المجنونة مساعدتك، فقولي ذلك وحسب. لن أشعرَ بالامتعاض ولن أتفاجَأ.

- لا، والغريب أنّني أشعر وكأنَّ ما تقوليه يمكن أن يؤتي أُكُلَهُ بالفعل.

- كما ينبغي تغيير الكتب المعروضة في الواجهة.

قالت بي متنهِّدَة، وهي تنظر إلى الواجهتين الموجودتين على جانبي الباب. ثم أضافت:

- هاتان الواجهتان تنتظران فقط قصصًا لترويها! أتتخيَّلين ذلك؟ يمكن ملؤهما بقصص الحبّ في عيد الحبّ؟ أو قصص الأشباح في الهالوين؟ أمّا بالنسبة لعيد الميلاد...

صفَّقَتْ بِيْ بيدَيها فرحًا.

حسبت إِميليا أنَّه ربّما مسَّ بِيْ قليلٌ من الجنون. ولكنّها لم تكترث بذلك. فحماسة بِيْ أزاحت عن كاهلها كَدَرَ الأسابيع القليلة الماضية وبعثَتْ فيها الحياة. فمنذ لقائها أندريا وهي تشعر بعبء ثقيل، وهي غيرُ متأكّدة أي قضية تعالج أولًا. من الممتع الاستماع إلى شخص يفيضُ حماسةً. وها هي تشعرُ أول مرة منذُ وفاة أبيها، ببصيص أمل.

* * *

حكت إِميليا لجون قصة لقائها بِيْ فيما بعد ظهيرة ذلك اليوم.

- أشعر بأنّ الأمور في مكانها المناسب. فلدي رؤية عن الصورة التي ينبغي أن تكون عليها المكتبة. أعرف بأنه لا ينبغي لي أن أكون مفتونةً لأنني لا أملك عصًا سحرية وأوجِّهُ الرياح كما تشتهي سفني، ولكنّي على الأقلّ لا أشعر بأنّني مهزومة شرَّ هزيمة.

وافَقَتْهَا جون:

- أعتقد بأنك حالما تبدئين في إحداث التغييرات، فإنّ الأمور ستكون في مكانها الصحيح. في الوقت الراهن، ما رأيك بهذا؟

نظرت إِميليا إلى النشرة الدعائية لتي أعطتها إيَّاها جون.

تراكمتْ منذ شهور أعدادٌ كبيرة من الرسائل تحت طاولة الحساب. رسائلُ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى من مروِّجِي كتبٍ يريدون لكتبهم أن تنالَ مكانَ الصدارة في المكتبة. لم يقرأ يوليوس تلك الرسائل قطُّ، لأنَّه أراد أن يقرِّر بنفسه أي كتب تحظى بالأولوية. فقد تمتَّع بحدسٍ مذهل إزاء الكتب التي ستحقّق مبيعات ممتازة، وكان يكره الحِيَل وكيل المديح لهذا الكتاب أو ذاك بهدف جذب الأنظار إليه.

تعرف إِميليا، على أيّ حال، بأنّها إذا ما أرادت زيادة أرباح مكتبة نايتِنْغيل بهامش ربحٍ كبيرٍ فإنَّه ينبغي لها بذل قصارى جهودها لرفع مستوى أدائها. فهي بحاجة إلى الترويج للمكتبة وزيادة التعريف بها لتبلغ شأوَ هؤلاء المؤلّفين والناشرين الذين كانت تبيع كتبهم. فلماذا لا تستفيد منهم إذن؟

حَمْلَقَتْ إليها عينان زرقاوان من منتصف النبذة المكتوبة على غلاف أحد الكتب. هو ذا مِكْ غيلِسبي. فحتى صورته وهو في سنِّ السبعين لا تزال تحمل في ثناياها عديد المعاني. فملامح وجهه تجعلكَ تشعر وكأنَّه ينظر إليكَ على أنَّك مركز الكون بالنسبة له. تساءَلت إِميليا عن ماهية شعور المرء إذا ما نظر إليها مِكْ تلك النظرة وجهًا لوجه.

كان يقوم بجولة قبل حلول عيد الميلاد للترويج للكتاب الذي أَلَّفه ويحوي بين دفَّتيه سيرته الذاتيَّة التي لم يترك فيها محظورًا إلَّا وتحدَّث عنه، فكانت كتابًا يشي بعددٍ كبير من الأسرار والفضائح والحماقات المرتكبة وراء الكواليس. سيلقي محاضرة في جولته على القرَّاء، ويجيب عن الأسئلة، ويوقِّع الكتب.

فكَّرَت إِميليا بأنه لن يوافق على القدوم إلى المكتبة بدافعٍ من عدم وجود نشاط يشغل فيه وقته، بل لأنَّه ربّما يريد فقط أن يلتقط أنفاسه في زحمة نشاطاته.

مِكْ غيلِسبي هو الشخصُ المثالي لإطلاق حملتِها الترويجية الجديدة. فما من أحدٍ في مأمنٍ من سحره. الرجالِ والنساء شيبًا وشيَّابًا سيفتنون به. تخيَّلَتْ المكتبة وقد اكتظَّت بالجموع، وطابور الحضور ممتدًا خارج الباب. فهو أسطورة. أيقونة. ذو شخصية ظريفة وكأنَّه جمَعَ في شخصه خصال ستيف مكوين(80) وجيمس دين(81) وريتشارد بورتُن(82). ففيه وسامة ستيف ولامبالاة جيمس وكارزمية بورتُن.

- هذه فكرة عبقرية يا جون.

- كنتُ أعرفه في يومٍ من الأيام. اعتَرَفَتْ جون، وعيناها تأتلقان.

- مستحيل!

- بلى. اشتغلتُ كومبارس في أحد أفلامه؛ وكأنها كانت عقوبة على ما ارتكبته من آثام في حياتي.

- كومبارس؟ لم أعرف أنَّكِ اشتغلتِ كومبارس.

- لم يدم ذلك مدة طويلة، فلم أتقن ذلك العمل.

- ولكنكِ التقيتِ مِكْ غيلِسبي؟ لا بدَّ أنَّك التقيته في أيام عزِّه.

أومأت جون موافقة:

- نعم...

- وكيف كان حينئذٍ؟

- مذهلًا أيَّما إذهال. لا تنساه الذاكرة. بل وساحرًا.

- أتظنين أنّه يمكنُك استغلال معرفتك به؟

ضحكت جون.

- لا. ذلك من رابع المستحيلات. مستحيل أنه سيتذكرني. إذْ أني أدَّيت دور ساقية في حانةٍ في الفِلْم. لو كُنْتُ ساقية حقيقية لربما اهتم بي أكثر من اهتمامه بشخصيتي في الفِلْم.

حُبُّ مِكْ غيلِسبي للمشروب حبٌّ يفوق الوصف.

قالت إِميليا:

- لا بأس. من يتهيَّب صعود الجبال يعش أبدَ الدهر بين الحُفَر. من شأن مجيئه إلى هنا أن يأتي بالجميع إلى المكتبة. وستتحدَّث عنَّا الصحف والقاصي والداني.

رفعت السمَّاعة لتتصل بوكيله الإعلامي. على الأرجح أنَّه مرتبط ارتباطًا كاملًا سلفًا. فما من مكتبة في البلد ستفوِّت هذه الفرصة.

حالفها الحظُّ. فالمجيء إلى بيزبروك متناسب على نحو دقيق مع جدول التزامات مِكْ الحالية.

قال الوكيل:

- ستكون فرصة بالنسبة له حتّى يحظى باستراحة قصيرة. فقد أعطيناه اليوم التالي يوم عطلة، وأنَّى له أن يجدَ مكانًا أفضلَ من ربوع كوتسولد ليقضيَ فيه استراحته؟

ابتسمت إِميليا بينها وبين نفسِها ابتسامةً عريضةً وهي تقفلُ السمَّاعة. قالت:

- أُدْرِجَ اسم مكتبة نايِتنْغيل في جدول الجولة. مِكْ غيلِسبي آتٍ إلى هنا، إلى بيزبروك.

- يا إلهي! بَدَتْ جون مدهوشةً من هول المفاجأة.

- أظنّ أنّه ينبغي لنا أن نسندَ مهمّةَ تحضير الطعام إلى تومَسينا؛ طعام على الطريقة الأيرلندية. فقد أعطَتْني بطاقتَها عندما التقيتها في ذلك اليوم في حال كنتُ أحتاج أي خدمات إطعام. ما رأيكِ؟

كانت جون تسرح بعيدًا عن الواقع.

- كُفِّي عن أحلام اليقظة، أرجوك؟ قالت إِميليا مداعبة. ثم أضافت:

- ما المشروبات التي ينبغي لنا تقديمها؟

قالت جون بتجهُّم:

- لو كنتُ مكانكِ لما سمحت له بتناول المشروب.

نظرت إِميليا إلى صورته وقالت:

- ولكن يجب عليه أن يشرب قليلًا منه. ولن يسمحوا له بالخروج في الجولة إذا كان مدعاة لإثارة المشاكل.

قالت جون مداعبة:

- حذارِ من وصفه بكبير السنّ. فهو ليس أكبر منّي بكثير.

- حسنًا، نعلم جميعًا بأنّك تبدين أصغر من سنّك الحقيقية.

ضمَّتْ إِميليا جون. كانت في غاية الامتنان لنصائح هذه المرأة الكبرى سنًّا منها وللمساعدة التي قدَّمَتْها. شعرت وكأنّ وجودَها في حياتها يكاد يشبه وجود والدتها، وهو شعورٌ لم تشعر به إِميليا قطُّ، أو أنّها لم تشعر بالحاجة إليه في حقيقة الأمر. ولكن بعد وفاة أبيها، بات وجود جون باعثًا على الرَّاحة، وظنَّت بأنّها ربّما لم تقدِّرْها حقَّ قدرها.

كل ما كان يموج في فكرها هو المكانة المهمة التي حظي بها، في قلبها، الناسُ في هذه البلدة في هذه المدة الزمنية القصيرة. فدون دعمهم، كانت سترفع الراية البيضاء منذ أسابيع.

- مِكْ غيلِسبي. تنهَّدَت، وهي تنظر إلى النشرة الدعائية مرة أخرى.

* * *

في الرابعة والنصف عصرًا، لم يكن في المكتبة سوى زبونٍ واحد. بدأ الظلام يحلّ في الخارج والرَّجُل يلازم مكانًا واحدًا لا يبرحه؛ بدا في حيرة من أمره. لم يكن هذا المشهد غيرَ مألوف. فقد تبيَّنَ لإميليا أنَّ الناسَ كانوا إمَّا يشعرون بقمَّة الراحة في المكتبة، أو بأنّهم غرباء عن المكان قليلًا. مع الرَّجُل كلبٌ؛ كلبُ صيد هجين عَكِش بدا أخرقًا وغريبًا عن المكان مثله مثل صاحبه.

ملاطفة الكلاب وسيلة جيدة لكسر الجمود عند لقائنا بأشخاص لا نعرفهم.

- مرحبًا بكَ.

مشَتْ بأسلوبٍ ودود ولكنّه أسلوبٌ لا يشي بالتطفُّل، حاملةً كتابًا بيدها بحيث تبدو وكأنَّها في طريقها لتضعَه في مكانٍ ما دون أن تبدوَ عليها الرغبة في مبادأته بالكلام.

- ما هذا الكلب الرائع! أنتَ كلبٌ رائع، أليس كذلك؟

- شكرًا لكِ. قال الرجل مازحًا، وضحكت إِميليا، وقد انحنت لتربِّتَ على أذنيه.

- ما اسمه؟

- وِلْفِي.

- مرحبًا يا وِلْفِي. نظرت إلى الرجل وقالت:

ـ أكنتَ تبحث عن كتابٍ بعينه، أم أنَّك تستعرض العناوين فقط؟

ابتسمَ لها ابتسامةً عريضة وهزَّ كتفَيه هزَّة خفيفة.

تَعْرِفُ بأنه داخلٌ إلى مكانٍ غير مألوف بالنسبة له. إذ يتميَّز أولئك الذين لم يعتادوا على الدخول إلى المكتبات بارتباكٍ يتلبَّسُهم. ارتباكٌ يوحي بأنّهم يعتذرون لكَ. قال:

ـ الأمر فيه قليلٌ من الـ...

وَهَنَ صوتُه بينما حاولت هي أن تسعفَه بالكلمة المطلوبة. أضاف:

ـ الـ...الإرباك.

حاولت أن يبدوَ عليها الاطمئنان:

- أوه. أنا متأكّدة أنّ الأمر ليس فيه أيّ إرباك. سأساعدك قدر استطاعتي.

تابعته بنظراتِها وهو ينقلُ ثقلَ جسدِه من قدمٍ إلى الأخرى. حسبته رجلًا لطيفًا. وهو يرتدي بنطالَ جنزٍ بهت لونُه وتي شيرت أبيض وقميصًا أحمرَ ناعمًا نُقشَت عليه مربّعاتٌ ومفتوحٌ من الأعلى. شعرُه داكنٌ عَكِشُ، وذقنٌ نبتَت رغم حلاقتِها صباحَ اليوم، ولكنّ كلا هاتين الخصلتين أملتهما الموضة وليس الإهمال: شمَّت رائحة شامبو الأطفال ورائحةً أخرى رجالية. ابتَسمَتْ ابتسامةً عريضةً وقالت:

- أعرف أيّ كتابٍ تريد دون أن تخبرني؛ أرسلَتْكَ صاحبتُكَ لتبتاع لها رواية خمسون ظلًا للرمادي(83).

قالت ذلك دون أدنى تفكير، لأنَّ فكرَها ذهب فجأة في ذلك الاتجاه.

بدا مرتبكًا وقال:

- يا إلهي، لا.

- آسفة. فلن تصدِّق كم عدد النساء اللاتي يرسلن أصحابهنّ إلى هنا ليبتاعوا لهنَّ هذه الرواية. كما أنَّك لن تصدِّق كم عدد الرجال الذين يعتقدون بأنّهم ربّما يضيفون بعض الإثارة إلى حياتهم من وراء اقتنائها.

- لا. فالموضوع حتى مُحْرِجٌ أكثر من ذلك.

حكَّ رأسَه ورفع حاجبيه، بدا كالأبله.

- الموضوع هو أنَّ ابني الصغير سألني منذُ بعض الأيام عن كتابي المفضَّل. كان السؤال مفروضًا عليه في واجبه المدرسي. وقد أدرَكْتُ أنّني لم أقرأ قطُّ. لم أقرأ كتابًا قطُّ.

أطرق برأسه. بدا وكأنّه ينتظر عقوبةً على اعترافه.

- ولا كتاب؟

هزَّ رأسه نافيًا:

- ولا حتى كتاب واحد. الموضوع باختصار أنّني لستُ على وفاقٍ مع الكتب. وفي المرَّات القليلة التي فتحتُ فيها كتابًا أصابني الضجر من فوري.

رَسَمَ ملامح وجهٍ تشي بالضجر وضحكت إِميليا. ثم توقَّفَتْ:

- آسفة. أنا لا أضحك عليك.

- لا، أعرف ذلك. لا بأس في ذلك. اتَّخَذْتُ قراري على أيّ حال. أنا بالفعل قدوة سيّئة له. أريد لابني أن يواظبَ على القراءة ويبلي فيها بلاءً حسنًا بحقّ. ولا أريد أن أموت، ولم أقرأ كتابًا في حياتي قطّ. ولذا أريد أن أبدأ القراءة معه لكي أستطيع تشجيعَه. ولكنّي لا أعرف من أين أبدأ. يوجد الملايين من الكتب. كيف تبدئين اختيار كتاب تقرئينه؟

نظر حواليه إلى الأرفف كافّة، مشدوهًا. قالت إِميليا:

- حسنًا. يمكنني أن أنتقيَ لكَ كتابًا مناسبًا لابنك. أنا متأكّدة. كم عمره، بادئ ذي بَدء؟ وأيّ نوعٍ من الكتب تظنُّ أنه قد يحب؟

- عمره خمس سنوات، موشكٌ على بلوغ السادسة. ولا أعرف بالفعل ماذا يحبّ من كُتبٍ. ويُفَضَّل أن يكون كتابًا قصيرًا.

ضحك، على استحياءٍ من نفسه وأردف:

- وسَهْلًا. أقصد، أنا أستطيع القراءة، قراءةً واضحةً. لستُ على ذلك القدرِ من الغباء.

- عدم القراءة لا يجعلك غبيًّا.

- لا. ولكن أمَّهُ تَنِقُّ عليَّ لأنّي لا أشاركه في مراجعة واجباته الدراسية.

بدا أبلهَ. ثم أضاف:

- فهي تحبُّ استغلال أيّ فرصة حتى تباشر النق. وأنا لم أعد أعيش معها بعد الآن.

- أوه، آسفة لذلك.

- لا داعي للأسف. فذلك أمر جيِّد، في أغلب الأحيان. جعَّد شعره، وبدا مرتبكًا. ثم أضاف:

- ولكنّي أريد فقط أن أثبت لها بأنّني لَسْتُ نَكِرَةً كما تظنُّ على ما يبدو.

- حسنًا، دعني أرى ما يمكنني أن أقترحه عليك. أعطني بضع دقائق.

مشَتْ إميليا ببطء باحثة في الأرفف العلوية والسفلية في قسم كتب الأطفال، وهي تقلِّب الخيارات في فكرها. بين الفينة والأخرى كانت تتوقّف، تسحب كتابًا، تتأمّله، ثم تُعيدُه إلى مكانه. لم تكن متأكِّدَةً من أنّها التقت حتّى الآن بشخصٍ لم يقرأ كتابًا قطّ. وهذا ما زاد صعوبة فرصة إيجاد كتابٍ مناسبٍ. كانت مصمِّمة على ألَّا تؤجل انهماكَ الأب وابنه في القراءة لبقية حياتهما. لا بدَّ أن تجعلهما يتعلَّقان بالقراءة. ولم ترد أن تعامله بمنَّة. ربّما لا يكون قارئًا لا يشقُّ له غبار، ولكنّه يتمتّع على نحو واضح بذهن متَّقِد. ينبغي لها ألَّا تحكم عليه لأنّه لم يقرأ كتابًا من قبل.

ـ ما اسمه؟ ما اسم ابنك؟

ـ فِنْ. قال الرجل مبتسمًا بفخر.

ـ آه. ذلك يُسهِّل المهمّة كثيرًا.

أخرَجَتْ كتابًا، وقفلت راجعة إلى زبونها الجديد، الذي نظر إليها بفضولٍ تشوبه الحماسة.

وضعت الكتاب على طاولة الحساب أمامه.

ـ هذا الكتاب من أكثر الكتب التي أفضِّلها على الإطلاق على مرّ الزمن. فِنْ وأسرة المومين(84).

ـ نعم؟ رفع الكتاب ونظر إليه بحذر.

- أظنّكما ستحبَّانه. هو كتابٌ مجنونٌ بعضَ الشيء، ولكنّه ظريف. توقّفت ثم أضافت:

- كتابٌ مراوغ بعض الشيء. يحكي قصة أسرة المومين الذين يعيشون في أحد الأودية، ومعهم كلّ أصدقائهم المجانين.

- المومين؟

- ضربٌ من كائنات بيضاء كبيرة يَغطُّونَ في سباتٍ في الشتاء.

قلَب الكتابَ ليقرأ النبذة المكتوبة على غلافه الخلفي، دون أن ينبس ببنت شفة. قالت:

- صدقًا، إنّه كتابٌ لطيفٌ حقًّا. وسأعيدُ لكَ ثمنَه إذا لم يعجبك.

- حقًّا؟

- بشرط ألّا تكون سَكَبْتَ عليه الشاي.

- أعدكِ بذلك.

دسَّتْ الكتابَ في كيس ورقي أزرق كتب عليه اسم مكتبة نايتِنْغيل بخطٍّ مزخرَفٍ. أعطاها عشرة جنيهات وأرجعتْ له باقي المبلغ.

- سأبلغكِ بمدى التقدُّم الذي أُحْرِزُه في القراءة. رفع الكيس مع ابتسامة ثم قال:

- شكرًا.

تابعته إِميليا بنظراتها وهو يغادر. تساءلت إذا كانت ستراه مرة أخرى. ظنَّتْ بأنّها على الأرجح بالغت في التقرُّب منه بعض الشيء. ومن الخطأ، فعليًّا، المبالغة في التقرُّب من الزبائن، ولكنّها لا تأبه لذلك. فقد مرَّت بأوقاتٍ عصيبة في الآونة الأخيرة. على الأقلّ هذا يؤكّد أنَّ الحياة لا تزال نابضةً في عروقها. وأزال ذلك اللسعة العدوانية التي نالتها من ديلِفْين في الليلة السابقة، وموقفها الاستحواذي إزاء مارلو، وكأنَّ إِميليا تشكِّل تهديدًا لها. مع أنّها ليست كذلك على الإطلاق.

عند الباب المغلق خلف أحدثِ زبائنها، شعرت بإثارة ضئيلة، وأملَتْ أنْ يقرأ الكتاب ويقع في غرام القراءة. فذلك هو الهدف الأسمى لمكتبة نايتِنْغيل. فهي تلقي تعويذة على زبائنها من خلال تعريفهم بسحر القراءة. وكم كان مدهشًا، بالنسبة لها أن تفتح عالمًا جديدًا كاملًا...

أدركت بأنّها باتت في أوج سخافتها. كانت تحلمُ أحلامًا رومانسية. لم يكن هذا فِلْمًا هوليوديًّا تغيِّر فيه، دون قصد منها، حياة إنسان ما. كوني واقعيةً، يا إِميليا، قالت لنفسها. فالرَّجُل، نوعًا ما، على خصومةٍ مع زوجته السابقة وهو يحاولُ أن يثبت ذاتَه. على الأرجح أنَّه لن يفتحَ الكتاب اللعين. وبالتأكيد لن يعودَ إلى المكتبة.

* * *

مشى جاكسُن على الطريق متأبِّطًا الكتاب. كان ذلك أسهل ممّا ظنّ. فهو ممثلٌ جيّد. في المدرسة، كان التمثيل المهارة الوحيدة التي أتقنها، ولكن نظرًا لأنّه كان مشاغبًا جدًّا لم يسمحوا له بتمثيل الأدوار الرئيسة في مسرحية المدرسة السنوية. كانت أدوار البطولة دائمًا من نصيب التلاميذ المُجدِّين. وهذا سببٌ من أسباب كره جاكسُن الشديد للمدرسة. الطريقة التي يدار بها العِلْمُ في المدارس ليست منصفةً. إذ لا يمكن للمرء أن يكون جيِّدًا في كلّ شيء. ثم لماذا تعاقب لعدم كونك ذكيًا؟

في الواقع، لم يكن الذهاب إلى المكتبة مَهُولًا كما اعتقد. فإِميليا مِعْوَانةٌ بحقّ، ولم تسخر من رغبته في القراءة لابنه، أو من اعترافه بأنَّه لم يقرأ كتابًا قطّ. هي لطيفة بحقّ ولم تجعله يشعرُ بأنّه أحمقُ على الإطلاق. في الحقيقة، كان يتوقُ من كلّ قلبه لقراءة الكتاب. كتاب المومين.

لم يرغب في التفكير بالسبب الحقيقي وراء ذهابه إلى المكتبة. فمن المفترض به أن يغويَ إِميليا نايتِنْغيل لكي يقنعها ببيع المكتبة. رغم أنّه ظنَّ أن المسألة ستكون سهلة. بادَرَته بعبارات غزلية بالتأكيد. فمن المستحيل بالنسبة لامرأة عدم مغازلة جاكسُن، ما لم تكن رسميًّا جامدةَ المشاعر. وحتّى الرجال غازلوه. الرجال الأسوياء. ورغم ذلك لم يجنِ أيّ مكاسب من وسامته.

ولكن ينبغي له أن يُسْعِدَ إيان مينْدِب. في الوقت الراهن على الأقل. وإلَّا، فسينتهي به الحال بلا عمل.

دقَّ الباب. فَتَحَ له فِنْ وانفجر في وجهه قائلًا:

- بابا! هذا ليس اليوم المخصّص لكَ لتراني فيه، أليس كذلك؟

اعتاد جاكسُن أن يصطحبَ فِنْ أيام الأحد، ولكنّه لم يفهم لماذا لا يستطيع رؤيته كلّ يومٍ إذا ما أراد ذلك.

انحنى فِنْ وبدأ عناق وِلْفِي.

بانت ميا، عليها علاماتُ الحذر.

رفع جاكسُن الكتاب.

- حسبتُ أنّه يمكنني أن آتي وأقرأ كتابًا لفِنْ.

- تقرأ؟ بَدَتْ مرتابة جدًّا.

- نعم. القراءة مهمّة. مهمٌّ أن يقرأ الأبُ لأولاده.

- القراءة مهمّة. نعم. لا داعي لأن تقول لي ذلك.

تابَعَتْهُ بنظراتها وهو يدخل. ارتمى متراخيًا على الأريكة. تذكَّر ذلك اليوم الذي ذهبا فيه لشرائها، من المركز التجاري الكبير الواقع خارج البلدة. اشتراها بأقساطٍ دون فوائد لمدة خمس سنوات. الأريكة ما تزال إحدى الأشياء التي يسدِّد قيمتها حتى الآن. ولذا يمكنه، لهذا السبب، الجلوس عليها لبعض الوقت. قال جاكسُن:

- تعال إلى هنا يا حبيبي.

كان فِنْ لا يزال صغيرًا بما يكفي ليجلس في حضنه.

- اشتريت هذا الكتاب المجنون. فِنْ وأسرة المومين.

اندفعَ وِلْفِي أيضًا إلى الأمام. حَصَرَه جاكسُن بين ساقيه ليمنعه من الوثوب فوق الأريكة. شكَّ بأنَّ ميا لن ترضى إذا ما فعل وِلْفِي ذلك.

فتح الكتاب وشرع يقرأ.

دهش أنْ وجد بأنه وفِنْ سرعان ما وقعا تحت تأثير تعويذة سحر أسرة الومين وعالَمِهِم المضحك الصغير. قرأ فَصْليْن. ثم أتممهما إلى ثلاثة.

- أيكفي هذا القدر؟ ونتابع القراءة غدًا؟

- لا. أريد أن أعرف ماذا حدث. قال فِنْ.

كانت ميا واقفة في مدخل الباب، ناظرة إليهما. ارتسمت شبه ابتسامة على وجهها، تقريبًا. وتفاجأ جاكسُن بها وهي تأتي وتجلس قربه على الأريكة. مدَّت يدها صوب الكتاب وألقت نظرة على غلافه ثمَّ قالت:

- يبدو لي وكأنَّ الومين يعانون من مشاكل تتعلَّق بحجم أجسامهم.

نظر إليها جاكسُن، لو أنَّ أحدًا يعاني من مشاكل تتعلَّق بحجم الجسم، لكانت ميا. لا بل إنّها فَقَدَت المزيد من الوزن. كانت جلدًا على عظم. ولكنّه لم يقل لها ذلك.
قرَّب فِنْ ناحيته وتابع القراءة.

* * *

بينما كانت بِيْ تطهو المريمية وأرزيةً بالجوز الأمريكي المهروس، لخَّصَت لزوجها بِلْ ما حدث معها بعد الظهر، دون أن تتطرَّق لمسألة إرجاع الكتاب المسروق، على نحو واضح. أَخْبَرَتْه فقط بأنها ستصمِّمُ بعض المخططات لمكتبة نايتِنْغيل.

عَبَس بِلْ وقال:

- وما فائدة ذلك؟

- أدين لصاحبة المكتبة بمعروف.

- أي معروف؟

لم يكن فِي جَعبتها ما تقوله له. فبالكاد تستطيع أن تبوحَ له بالحقيقة. تمنَّتْ لو أنّها لم تفاتحه الحديث. صبَّت تركيزها على سكب المرق فوق الرز بينما كانت تفكِّر في ردٍّ مناسب.

- أوقَعَتْ مُوْدْ بعض الأغراض في المكتبة. وكانت صاحبة المكتبة لطيفة معها بحقّ.

- ليس من طباعِ مُوْدْ فعل ذلك.

شعرت بِيْ بشعور قميء، وهي تلوم ابنتها الجميلة التي من النادر أن يتعكَّر مزاجها وتطلق العِنانَ لسورة غضبها.
- كانت متعبةً وجائعةً قليلًا. وأعْطَتْها إِميليا بسكويتة.

- مجموعة من المخطَّطَات مقابل بسكويتة؟

عَبَسَت بِيْ في وجهه وقالت:

- اسمع، أريد أن أصمّم لها المخطّطات. اتفقنا؟ من الجيِّد أن أستفيدَ من خبراتي.

شعرت بالاضطراب. لم يكن من عادة بِلْ أن يكون ناشفًا جدًّا.

أيشعرُ بأنّها أهملته؟ فقد قرأت في موضعٍ ما- ليس في مجلة هِيْرْث؛ لأنَّ الحياة التي تصوّرها المجلّة لم تكن تقل عن مزايا الحياة المثالية- بأنَّ الرجال يمكن أن يشعروا بالغيرة من الأطفال الحديثي الولادة، ويمتعضون من الاهتمام الذي تسبغه زوجاتهن على المواليد الجُدُد. ولكن با لـ عليكم، بِلْ هو من يسبغ الاهتمام على مُوْدْ. فقد دلَّلها أكثر بكثير ممّا دلَّلتها بِيْ.

ربّما كان متعبًا لا أكثر. سأَلَتْه:

- أترغب أن أنظرَ في أمر الاستعانة بمربية أطفال في الغد؟ يمكننا أن نجرِّب مطعمًا من المطاعم الجديدة في بيزبروك؟ جميلٌ أن نسهرَ ليلةً خارج البيت.

نَكَزَ بِلْ شيئًا ما على آي بادِهِ وقال:

- لا. فلنبق في البيت. لا أريد الخروج في مشوار في منتصف الأسبوع.

لم يكن بإمكانهما الخروج إلى العشاء قطّ دون أن يأتيَ كلّ واحد منهما على قنينة نبيذ. لسبب ما لم يكونا على الإطلاق مبذِّرَين في البيت. حسبت بِيْ أنّهما إذا ما بدآ الشرب على تلك الشاكلة في المطبخ فإنهما سيذهبان مباشرة إلى مركز تأهيلٍ في غضون شهر.

هذا إذا لم يأتيهما ضيوف إلى المنزل، بالطبع. حينها يكون عدد قناني النبيذ عددًا يندى له الجبين. ولكنّهما لا يملكان عددًا كبيرًا من المعارف ليتأخَّرُوا عندهم في السهرة.

ربّما كان بِلْ يفتقدُ لوجود صديقٍ يعينه على صروف الدنيا. الضيوفُ عبءٌ ثقيلٌ ولكنّه أمرٌ مسلٍّ على الدوام، كما أنّ مُوْدْ الآن لا تنهضُ باكرًا جدًّا مع صياح الديك، ولذا فالأمرُ أسهلُ. سألَتْه:

- أندعو أسرة موريسُن لزيارتنا في العطلة الأسبوعية؟ أو ندعو سو وتوني؟ لم نعد نختلط بأحدٍ بعض الشيء مؤخّرًا.

تنهَّد بِلْ وقال:

- وماذا نجني من الضيوف سوى الجلي وتبديل أغطية الأرائك والوسائد دون انقطاع!

- الأمر ليس على هذا النحو حقًّا. فكلٌّ واحدٍ منّا يساعدُ الآخر.

لم يحدث أن تولَّى غَسْل الملابس قطّ. إذْ إن بِيْ هي من تنزع أغطية الأسرَّة، وتغسلها وترشها بماء الخزامى قبل أن تكويها.

لم يجب.

عَبَسَت بِيْ.

ربّما أصابه الضجر. ربّما كان يشتاقُ إلى حياتهما في لندن؟ وشخصيتها التي كانت لها في لندن؟ ربّما كانت شخصيتها البيتوتية في بيزبروك أمرًا مملًا جدًّا بالنسبة له؟ فقد عادت لارتداء الجينز وخفَّ عنها عبء الحَمْل، ولكنّها تعلم بأنّهما لم يمارسا الجنس كما اعتادا أن يفعلا. وبالتأكيد لم يعودا يقومان بتلك الجلسات الحميمة وهما مستندان إلى الجدار، تلك العادة التي لازمتهما في بداية تعرُّفهما بعضهما ببعض عندما طغت عليهما حاجة أحدهما إلى الآخر. كانا يعشقان الغرام العلني

الشائن. وقد اعترفا بالإثارة التي تنطوي عليها إمكانية رؤيتهما أو ضبطهما في أزقّة لندن وهما على تلك الحال.

ولكن إلى حدّ ما، ما بدا مقبولًا فعله في أزقّة لندن لم يبدُ مناسبًا في بيزبروك المحافظة. سيكون هناك عواقب إذا ما ضُبِطَا متلبسَين. فالمدن تعيش في غفلةٍ من كلّ شيء. أمّا هنا في بلدة ريفية صغيرة، فَيُنْظَرُ إلى السلوك الخليع نظرة متجهمة. ويمكنها أن تتصور القيل والقال وقد انتشر انتشار النار في الهشيم.

ومع ذلك، لم تكن بِيْ امرأة تقاوم خوض غمار التحدِّيات. عندما صعدا للأعلى لكي يناما، فتَّشَت في دُرْجِ ملابسها الداخلية وأخرجت نهديَّتَها وتُبَّانها من ساتان كوكو دي مير، وسحبت حذاءها اللوبوتان ذا الكعب العالي من الخزانة، وانسلت إلى الحمام لتبدِّل ثيابها. وضعت أحمر شفاه، ومشَّطَت شعرها إلى الخلف على نحو خفيف، وارتدت ملابسها المثيرة.

ترنَّحَت وهي تتّجه صوب غرفة النوم ثم وقفت بمدخل الباب، يداها على وركيها، بابتسامة مغوية.

- يا حُلو! كان بِلْ مضطجعًا تحت الغطاء، مغمض العينين.

- يا حُلو! قالت بصوتٍ أعلى.

حسبت أنّها رأتْ جفنَيه يطرفان. عبست. مشت صوب السرير، أمسكت يدَه ووضعتها أسفل بطنها، ليستشعر دفء جسدها.

تقلَّب في سريره، مغمغمًا بكلام غير مفهوم، وسحب يده عنها.

فغرت فاها من هول المفاجأة. لم يحصل قط طوال المدة التي عرفته فيها أن رفض بِلْ دعوتَها له. جلست على السرير، ناظرةً صوب الحذاء الأحمر اللامع ذي الكعبين الرفيعين كقلمي رصاص وحزام الكاحل الرفيع مثل السباغيتي، وهي تفكر بعدد المرات التي نظر فيها إليها وهي تلبسه، وعيناه ضاحكتان وهي مقبلة عليه.

لم تدرِ أي إحساس ينبغي لها أن تشعر؛ أتشعر بالكدر؟ أم بأذية مشاعرها؟ أم بالحيرة؟

(80) ستيف ماكوين (١٩٣٠ – ١٩٨٠): ممثّلٌ أمريكي.

(81) جيمس دين (١٩٣١ – ١٩٥٥): ممثلٌ أمريكي.

(82)ريتشارد بورتن (١٩٢٥ – ١٩٨٤): ممثلٌ من ويلز اشتُهر بأداء الشخصيات الشكسبيرية وخصوصًا شخصيةَ هامْلِت.

(83) روايةٌ رومانسيةٌ، صدرت عام ٢٠١١ للكاتبة البريطانية إي. إلْ جيمس وما لبثت أنْ تحوَّلت إلى فلمٍ شهير.

(84) وهو أحدُ أجزاء سلسلة عالم المومين الموجَّهَة للأطفال للمؤلّفة الفنلندية التي تكتب بالسويدية توفه يانسن (١٩١٤ – ٢٠٠١) والعنوانُ الأصليُّ لهذا الجزء في اللغة السويدية هو «قبّعة الساحر». والمومين أسرة من المخلوقات البيضاء، لهم جسدٌ مستديرٌ وخطمٌ كبيرٌ يجعلُها مخلوقاتٍ تشبه مخلوقًا وسطًا ما بين فرس النهر والحصان العادي.

الفصل الثالث عشر

بعد أن أَخَذَتْ جون النشرة الدعائية الخاصّة بمِكْ غيلِسبي إلى البيت صبَّت لنفسها كأسَ نبيذ ڤيونييه(85) أبيض منعش وجلست إلى طاولة المطبخ لتطَّلِع عليها.

شعرُه الكثيفُ صار الآن أبيضَ ومقصوصًا قصّةً قصيرةً تمتدُّ على محيط رأسه. ولا شكَّ أنَّ عينيه الزرقاوين الغامقتين المائلتين إلى الخضرة؛ عينيه الشائنتين لُوِّنَتَا يدويًّا لتعزيز حملقتهما المنوِّمَة مغناطيسيًّا. وجهه مشطوفٌ بعناية لإبراز جاذبية هيئته، وبقي فيه فقط بضع تجاعيد وقورة تَظْهَرُ مع ضحكاته؛ لأنّه من السخافة بالنسبة له الادِّعَاء بعدم وجود تجاعيد وهو في هذه السنّ، مهما كانت سنُّه بالضبط، ولكنّه أكبر منها بالتأكيد. حافظ على سرِّ عمره الحقيقي في غياهب الغموض مدّة طويلة جدًّا، ولكن الآن، على ما يبدو، غدَتْ سنوات عمره المهيبة أسلوبًا تسويقيًّا مفيدًا أكثر من كونها سرًّا يُخفيه. فرصة ليجنيَ المالَ من تقدُّمه في السنّ.

ما فتئ كتاب سيرته الذاتية حديث الصحافة. فقد استضافته القنوات التلفزيونية والتقته الإذاعات مرَّات لا تعدُّ ولا تُحْصَى.

ورغم تقدِّمه في السنّ، كان مِكْ (أو مِيكايل، كما يسمّيه الجميع الآن) يحظى بمتابعة كبيرة أثناء ظهوره على التلفزيون أو حديثه في الإذاعة. إذ لا مفرَّ من أنّه سيبدي ملاحظة مشينة أو يطلق إشاعة مثيرة. وكان محاموه دائمًا على أهبة الاستعداد، ولكنّه تمتَّع بذكاءٍ خارق. فحتّى الآن لم تودِ به التلميحات والإساءات المبطَّنة إلى المحكمة، ويرجع سبب ذلك أساسًا إلى أنَّ ما يدَّعِيه يستند إلى حقائق. ولَّت أيام النبرة الإيقاعية، وحلَّت محلّها نبرةٌ هجينة كتلك التي يتحدَّث بها أعضاء الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية أو جماعة هوليود؛ نبرةٌ يلقيها بكمالٍ معسولٍ وبلكنة كيري(86) الصافية.

صوته كان معروفًا، سواءٌ إذا همس همسًا أو إذا زأر زأرَةً هادرة، كان صوتًا يستطيع أي إنسانٍ تمييزه على الفور.

يحمل كتابُه بين دفَّتيه بوادر كشف حقائق صادمة عن سيرته المهنية برمّتها، وتعجّ صفحاته بكل الغراميات والمغامرات الطائشة التي ارتكبها في حياته. وقد راجَعَهُ المحامون صفحةً صفحةً ودقّقوه أشدَّ ما يكون التدقيق، وقيل بأنَّ العديد من النساء ينتظرن بارتياع نَشْرَ الكتاب. ومن المتوقّع أن يتلقَّفَه القرَّاءُ من أرفف المكتبات في ثوانٍ، ليس فقط لأنّ محتواه صادم بل لأنه كُتِبَ ببراعةٍ عظيمة. كتابٌ فيه ظُرْفٌ لمَّاح، ويتطرَّق إلى

تفاصيل التفاصيل إضافة إلى أنّه كتابٌ ملوَّن. سرَت إشاعةٌ بأنَّه لم يستأجر كاتبًا محترفًا ليكتبه له، بلْ تولّى بنفسه كتابته كلمة إثر أخرى.

لم تشك جون في موهبته. فدائمًا ما امتاز بالمقدرة على الحديث بطلاقة وعفوية. تخيَّلَته جالسًا في المعهد الموسيقي في هامبستِد(87)- مقصد راحة الفنانين الرائقين- وهو يشخبط ملاحظاته الذكية بينما أحضر له مساعدٌ رصينٌ القهوةَ، يليها النبيذ، ومن ثمَّ البراندي في ذلك اليوم.

وهي تتأمّل الأمر، رأت جون أنّه إذا ألَّف الكتب إضافة لقدرته على الحديث، وإذا رسم صورًا جميلةً ومقنعةً بكلماته المكتوبة مثلما يفعل أثناء كلامه، فهو بالفعل كاتبٌ موهوب.

وضعت يدها على قلبها لتستشعر سرعة دقّاته. بعد كلّ هذه المدة الطويلة، ها هو آتٍ إلى بيزبروك. آتٍ إلى مكتبة نايتِنْغيل.

ربّما ما كان ينبغي لها اقتراح الفكرة على إِميليا. فمكتبة نايتِنْغيل هي المكان الذي تشعر فيه جون بأنّها أسعد الناس في

العالم. لم يكن يساورها أي تردُّد بخصوص التوجه إلى المكتبة لمساعدة يوليوس عندما بدأت صحّتُه بالتدهور؛ لأنّها تُكِنُّ له تبجيلًا عظيمًا أيضًا. فقد ملأ فراغًا في حياتها. ليس بالمعنى الرومانسي بتاتًا، ولكن بالمعنى الفكري والاجتماعي. فغالبًا ما استمتعَا باحتساء مشروبٍ في أحد المقاهي أو تناول العشاء معًا أو الذهاب لحضور الحفلات الموسيقية. باتت مرحلة التقاعد بالنسبة لها أصعب ممّا ظنَّت. كانت سيدة أعمال ناجحة نجاحًا كبيرًا، والانتقال من الثرثرة والقيل والقال واللفّ والدوران في إبرام الصفقات إلى حياةٍ لا تعمل فيها تقريبًا أيّ شيء شكَّل لها صدمة كبيرة. كما صار الانتقال إلى الكوخ الذي صار معتزلَها في العطلة الأسبوعية أمرًا غريبًا. احتاج منها الأمر وقتًا طويلًا حتّى تشعرَ بأنّه بيتها الدائم. وما زالت أحيانًا تشعر وكأنّه ينبغي لها أن تحزم أغراضها في ليلة الأحد وتستعدّ لسياقة سيّارتها راجعة إلى لندن.

ومع ذلك، فهي تحبّ كوخها. بأرففه الممتدة على طول الجدار، وهي تنوء بثقل المجلَّدات الضخمة التي شهدت مسيرة حياتها وهي تمرُّ بزواجَين فاشلين والعديد من العَلاقات العابرة. كانَتْ تقرأ بنَهَمٍ، وكان الكوخ مثاليًّا لذلك، سواءً أكانت مضطجعةً أمام نار الموقد أم جالسةً في الحديقة صحبة كأس نبيذ.
اعتادت استعراض قوائم أكثر الكتب بيعًا، واطَّلعتْ على مراجعات الكتب في الصحف، وكانت تقوم كلّ أسبوع بزيارة

خاطفة إلى مكتبة نايتِنْغيل لاقتناء أحدث إصدارات السِّيَر الذاتية أو الروايات الفائزة بالجوائز.

اطَّلَعَت على مراجعةٍ لكتاب مِكْ غيلِسبي في الصندي تايمز. تاقت إلى قراءته وخشيت من قراءته في الآن معًا.

حاولت نسيانه، ولكن الزمن خانها؛ إذ لم يكن الزمن طبيبًا عظيمًا على الإطلاق. لم يُحْدِث مرور الأيام أيّ فرق. جرَّبت وسائل لا تُعدُّ ولا تُحصى عساها تنسى ذكراه. جرَّبَت رجالًا غيره. وجرَّبَت الشرب. وجرَّبَت المخدِّرات، مرة أو مرَّتين (فهي في الستينيات من عمرها في نهاية المطاف). جرَّبت الانهماك في الأعمال الخيرية. جرَّبت زيارة أستراليا. ومن ثمَّ، أخيرًا، حقّقت نزرًا من الراحة. تلا ذلك زواجان. ثم صارت أمًّا. ساعدها ذلك على التعافي. ولكنّ أبناءها تركوها وذهبوا، رغم أنهم سيعودون في نهاية الأمر بعد أن يتزوجوا ويرزقوا بأطفال. وستدبّ عندها الحياة في الكوخ.

الذكريات لا تزال مكانها، تنقر نقرًا. بدأ الأمر مثل حلم صار حقيقة: شاركت في مسابقة سخيفة، لاختيار أجمل « ساقين» لماركة جديدة مثيرة من الجوارب النسائية الطويلة؛ وهي حاجة

أملتها الضرورة في زمنٍ باتت فيه أطراف التنانير أقصر وأقصر. فازت جون أغنيو الشابّة بالمسابقة وأقنعت نفسها بأنّها مقبلةٌ على الانطلاق في مسيرة مهنية تدرُّ عليها الأرباح من عملها كعارضة، وتنتشلها من غياهب النسيان في تويكِنْهَام وتقذف بها في حياة من العزِّ يشيب لها الولدان. ونتيجة لعملها ذاك صار عندها وكيل، اسمه ميلتُن، (شخصٌ ظَهَرَ في حياتها بغتة، ولكنّه تميَّز بدرجة عالية من اللطف والمؤازرة) واقترح عليها تبديلَ اسمِها من جون إلى جونو وتنبَّأ لها بأنَّها ستصير نجمة.

بشعرها الأشقر-الأبيض وعينيها الواسعتين وساقيها الطويلتين النحيفتين، صارت جونو ملكة التنانير الصغيرة والجزمات الطويلة التي تتجاوز الركبتين والمعاطف المطرية البيضاء، وكلّ أقلام حمرة الشفاه ذات اللون الوردي المشوب بالسكري والرموش الاصطناعية الطويلة الرفيعة. انهال عليها المال حينذاك (بالنسبة لها بدا مثل ثروة، ولكنّها تدرك الآن بأنَّ الآخرين ظفروا بنصيب الأسد منه وجادوا عليها بالفتات)، واشترت حصةً في شقّة في تشيلسي، إضافة إلى الحفلات، وعدَسات المصوِّرين، والسهرات حتّى آخر الليل؛ ومن ثم أجرت اختبارًا لسبر قدرتها على التمثيل. انبهر الجميع بأدائها. أمّا هي، على ما يبدو، فكانت بارعةً ولم يشقّ عليها الأمر. ويجب عليها أن تعترف بأن الأمور جاءت في صالحها بسهولة.

فقد حفظت عن ظهر قلب النصّ الذي أعطوها إيَّاه، وتصنَّعَتْ الدور. بدا لها أنّ التمثيل ينطوي على تلك الدَّرجة من السهولة. أحسّت بالبهجة تملأ قلب ميلتُن وازدادت حصصهما في الاستثمارات. نصحوها أن تراقب وزنها وسلوكها، وكان يجب عليها أن توظِّب شعرها كلّ صباح قبل مغادرة الشقّة.

طلب منها ميلتُن أن تتحلَّى بالصبر. فالأدوار الكبيرة قادمة. ولكن يجب عليها أن تؤدّيَ الأدوار الصغيرة أولًا. حَصَّل لها دورًا في فلمٍ رومانسي فخم جدًّا يجري تصويره على ساحل أيرلندا الغربي، ويحكي قصةَ فتاةٍ شابّة تَحْمِلُ من أرستقراطي من سكّان المنطقة وتسعى للانتقام. كَتَبَ السيناريو مسرحي معروف وعُرِفَ عن مخرج الفِلم إنتاجاته الرائعة الجَمال. مِكْ غيلِسبي هو نجم الفِلم. وستؤدّي جونو دور الساقية في حانة البلدة. وتألَّف دورها من سطرين.

قرأت جون السيناريو بنهمٍ وأحبّته. تخيَّلَتْ بأنّ الممثلة التي تؤدّي دور البطلة ستصاب بالتهاب رئوي، ومن ثم سيطلبون منها هي إجراء تدريب على التمثيل بدلًا منها والقيام بدورها، لأنهم لمسوا موهبتها. ولكنّ الممثلة بقيت في تمام صحّتها طوال تصوير الفِلم. ولكن مِكْ غيلِسبي انتبه لجونو. انتَبَه لها أشدَّ ما يكون الانتباه.

في أيرلندا، لم ترَ مطرًا قطّ مثلما رأت هناك. فالمطرُ يهطل طوال الوقت. ومع ذلك كان مطرًا ناعمًا. وكأنَّ أحدًا يقبِّل بشرتك قُبَلًا لا نهاية لها.

- ألا يتوقّف المطر أبدًا؟ سألَتْه وضحكت.

- لن يتوقّف المطر طالما فيَّ قلب ينبض.

وفتَنَتْها الرائحة. أحبَّت رائحة الخُثِّ المشتعل التي زادت من شدَّة الرطوبة. والألوان، ملطَّخَة وخفيفة، كل شيء في تركيز ناعم، وكأنك تنظر إلى المشهد دون أن تضع نظّارتك.

أعارها كنزته الصفراء الباهتة المنسوجة من صوف أران فغمرتها غمرًا، ولكنّها شعرت فيها بالأمان وبأنها محبوبة ولها مكانة خاصة. ارتدتها إلى الحانة مع بنطال الجينز، وشعرُها منكوشٌ ولا يوجد على وجهها حتى نتفةٌ من مكياج، وجلسا قرب

الموقد يحتسيان كؤوس غينِس وحسبت بأنها في أسعد لحظات حياتها. أرادت للزمن أن يتوقّف.
ومن ثمَّ، في اليوم الأخير، ذهب حُلمها أدراج الرياح. كانت متأكّدة جدًّا من متانة علاقتهما حتّى إن ما حصل لاحقًا جاء مثل صدمة كبيرة. إذْ ظنت أنّهما سيستمران في علاقتهما. ولم يكن هناك أيّ إشارة على أنها علاقة مؤقَّتة.

كان واقفًا وراءَها على الجرف، يلفّها بذراعيه. وقد ألقت برأسها على صدره في تناغمٍ جميل. الريح لا تكفّ عن الاصطدام بهما، بيد أنّ مِكْ كان قويًّا وواثقًا، ولذا لم تخشَ السقوط. كلّ شيء كان رماديًّا: الغيوم، والسماء، والصخور. رمادية كلّها مثل لون الصوف الخشن المستخدم في خياطة البذلات في دونيغُل(88)، إضافة إلى الأمواج البيضاء القمم، أمواجٌ جافلةٌ ولعوبةٌ مثل خيولٍ شَبِعَة، تطاردُ إحداها الأخرى صوب الشاطئ، وهي تضرب بأذيالها. قال مِكْ:

- حسنًا، قضيْنَا وقتًا ماتعًا، صحيح.

- صحيح. قالت وهي تظنّ أنّه كان يتحدَّث عن تصوير الفِلم.

- آه، حسنًا. قال وقد اكتسى صوته بمسحةٍ من أسف؛ وكآبةِ مَنْ احتسى الكأس الخامسة من نبيذ غينِس رغم أنه لم يحتسِ كأسَه الأولى بعدُ.

- يمكننا دائمًا أن نعودَ مرَّة أخرى إلى هنا. وضعتْ يديها فوق يديه وأضافت:

- فالسيِّدة مالون ستستقبلنا دائمًا بحفاوة، أنا متأكّدة.

السيِّدة مالون هي صاحبة دار الضِّيافة التي نزلوا فيها أثناء التصوير.

شعرت به متوتّرًا وهي تنحني أكثر صوبه. كلّ عضلة في جسده متوتّرة.

- يا عزيزتي. لن يكون هناك مرة أخرى. قضي الأمر.

قال لها، وشعرت بفؤادِها يكاد ينخلع من موضعه.

استدارت بسرعة ليصيرا وجهًا لوجه:

- ماذا؟

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ غريبة.

- يجب أن تفهمي ذلك. وأنتِ تعرفين القوانين. ألم يخبرك أحد، عندما تعاقدتِ للعمل في الفِلم؟

- يخبرني بماذا؟ قالت مضطربة.

- ما هذه سوى... بحثَ عن الكلمات. وجدَ واحدة، ولكنّه أحسّ بأنّها لن تحبّها. أضاف:

- أنتِ أدرى بالأمور.

- أدرى بماذا؟

هزَّ كتفَيه وقال: أنتِ تعرفين أنّها ليست سوى نزوة عابرة؟

رجعت إلى الخلف. مدَّ يده ليسحبها. كانا قريبين جدًّا من حافّة الجُرْف.

- نزوة عابرة!

بالكاد استطاعت قول الكلمة.

- أنتِ تعرفين ذلك! اضطربت عيناه فزعًا.

هزَّت رأسَها:

- وماذا تحسب ما كان بيننا؟

بالكاد استطاعت أن تتنفّس. سحبت نُغبَاتٍ من الهواء لتطفئ تأجّج ذعرها. وضعت يديها بقوة على خصرها. شعرت وكأنَّ جرَّاحًا شرع ممسكًا بمبضعه وباشر تقطيع أعضائها الحيوية دون تخدير. اضطرم الألم في بلعومها.

- يا عزيزتي، يا عزيزتي، يا عزيزتي... وضع يدًا حانية على كتفِها وأضاف:

- هيَّا بنا، الآن.

أبعدت يده بعنفٍ وقالت:

- اِنْقَلِع.

- لا حاجة لهذه الألفاظ. أمامنا ليلة واحدة أخيرة. فلنستمتع فيها أقصى ما نستطيع.

ركضت. ركضت ركضًا لا نهاية له، تحت المطر، عبر الجرف وصولًا إلى الطريق. هناك مشهد آخر لم يصوِّرَاه في الفلم ولكنها لم تأبه بذلك. فليحترق الفِلْم برمّته في نار جهنم.

تعثَّرت على طول الطريق. الضباب الكثيف يقترب رويدًا رويدًا ليحيط بها، مالئًا رئتيها بلزوجته.

سحبت كنزته وهي تركض، وشدَّتْها بقوة لتصير فوق رأسها، ورمتها فوق شجيرات الفُوْشيَّة(89)، وبقيت ترتدي فقط الكنزة

الداخلية الطويلة الأكمام التي ارتدتها قبلًا حتى توقف احتكاك الكنزة بجسدها. تركت كل شيء وراءها. محفظتها. وكل ملابسها تقريبًا.

توقَّفَتْ عند التقاطع، حيث انتصبت علامة طرقية منحنية تمنحها خيارًا للذهاب في اتجاه ما.

وقفت بقربها سيَّارة. سيَّارة الماكييرة.

- اصعدي، يا حبيبتي.

اكتفت جونو بشبك يديها على جسدها بإحكام.

- هيا اصعدي! أنتِ تبعدين مسافة طويلة عن أقرب مكانٍ مأهول وستلقين حتفك إذا بقيت هنا. سأعود بكِ إلى حيث أقيم.

انتظرتها الماكييرة حتّى تستردَّ كنزتها التي رمتها فوق الشجيرات، ثم ذهبت لتحضر أغراضِ جونو من مقرّ إقامتها. أراحَتْ جونو لتنام على أريكتها وغطَّتها ببطانية احتياطية. لم تنم جونو، ولكنها نهضتْ باكرًا لتلحق بباصٍ إلى المطار حيث استقلَّت أول طائرة مُغَادِرةٍ إلى لندن حتّى لا تضطر للسفر مع بقية طاقم الفلم. اختبأت في شقّتها لأيام، إلى أنْ جاء ميلتُن باحثًا عنها. فقد عرف بالقصّة المؤسفة من ألفها إلى يائها من أحد أفراد طاقم الفلم. كانت ذليلة ومهانة وأقْسَمَتْ أغلظ الأيمان أنّها لن تغادر الشقّة مرة أخرى.

صارت مهزولة وفقدت بهاءها. لم تكن تستطيع إخراج البرد من عظامها بسبب المطر الذي بلَّلَها عندما ركضت وخشيت بأنها لن تشعر بالدفء مرة ثانية في حياتها. على أصابعها تورُّمات بسبب البرد، ولكن ألم الأصابع لم يكن شيئًا مذكورًا مقارنةً بالنخر الأجوف الذي يعتمل داخلها.
تعيَّشَتْ من المال الذي تكسبه من عملها في مجلة ذا سيلفر مون(90). كانت مقتصدةً في مصروفها ولكن لم يبقَ معها الآن شروى نقير. غَلَبَ ذُعْرُهَا أَلَمَهَا لحظة. ولكن في الواقع، قرَّرَت أنها لن تكترث بذلك. ستموت من الجوع في شقتها. على الأقلّ سيزول الشعور الفظيع آنئذٍ.

- هل تريدين نصيحتي؟ سألها ميلتُن ثم أضاف:

- اذهبي وسجِّلي في دورة في السكرتارية. الجميع بحاجة إلى طبَّاعة جيِّدة. وحتّى أنا. فعليًّا، خصوصًا أنا. اذهبي وتعلَّمِي الطباعة على الحاسوب والاختزال وسأؤمِّن لكِ وظيفة.

حملقت إليه. وحسبته لطيفًا بسبب ما اقترحه عليها، ولكن هل كان يعي ما يقول؟ فقد كانت في لحظة من اللحظات في مسارها صوب النجومية وعثرت على الحبّ. وها هي الآن تعود محطَّمة ويريد منها وكيل أعمالها أن تعمل طبَّاعةً عندَه؟

لم يكنْ لديها أدنى ذرَّة من قدرة باقية فيها لتقول له ما جال في خاطرها. ينبغي لها أن تصرخ في وجهه لكي يعيدها إلى الوسط الفنّي، ولكي يُحَصِّلَ لها بعض تجارب الأداء للمشاركة في أفلام جديدة. ولكنّها استطاعت أن ترى انعكاس صورتها في المرآة على الجدار. زال هولُ الصدمة المتأجج، وزالت معها البشرة المشرقة والعينان المليئتان بالأمل. حلَّت محلها كتلةٌ من العظام، وشعرٌ فقد بريقَه ونظرة شاردة. من يا ترى سيشغِّل امرأة بهذه الهيئة في السينما؟

أضاف مِيلتُن:

ـ أستحلفكِ با لـ أن تأكلي شيئًا. في الواقع، أودُّ دعوتك على الغداء.

اصطحبها إلى مَطْعَمٍ إيطالي صغير في زاوية الشارع وأشبعها بالمعجنَّات والخبز وحلوى البِّدِنْغ بالكريم.

شعرت بأنها أقوى قليلًا عندما فرغت من الطعام. فالموتُ جوعًا ليس سوى تجارة بائسة. بائسة جدًّا حتّى إنَّها فعلت مثلما اقترح عليها ميلتُن وسجَّلت في دورة السكرتاريا. ضمنت لها الدورة، بعد انتهاء أسابيعها الستة، الحصول على وظيفة، طالما أنّها تحضر كلّ درس وتتدرَّب كلّ ليلة. وعادت أدراجها لتستعيد شخصية جون أغنيو الحقيقية.

أبلت بلاءً حسنًا. وعادت للعمل عند ميلتُن. أصبحت ذراعه اليمنى، وأدركت بعدئذٍ بأنّه يوجد العديد من أمثال ميلتُن ممّن احتاجوا ذراعًا يمنى في المكتب لتنظيم أمور حياتهم، ولذا تركته لتؤسس وكالتها الخاصة التي تُقَدِّم موظّفين إداريين ذوي كفاءة

عالية، وزادت الوكالة نموًا إثر نموّ. تقاعدت منذ ثلاث سنوات، وسلمت مقاليد الأمور إلى اثنين من أولادها. جنت الكثير من المال، وكسبت العديد من الأصدقاء، وعاشت سعيدة مثلما يحقّ لأيّ إنسان أن يكون.

ومع ذلك ما زال في جَعبتها شأنٌ لم ينتهِ بعد.

نظرت إلى النشرة الدعائية ورأت صورته ولم يتغيَّر. استطاعت أن تتذكّر هاتين العينين تحترقان نظرًا إليها وكأنَّ الأمر جرى البارحة. لم تستسغ بحقّ فكرة احتمالية أن تراه في حياتها مرة أخرى. بالطبع، ربّما مرَّت به في شارع من شوارع لندن، أو تلصَّصَت عليه في مطعمٍ مزدحم ذات يوم. وبقيت النشرة وبها صورته في حضنها. كان النومُ يجافيها بين الفينة والأخرى.

يا لـ عليكِ، قالت لنفسها، لم تعودي ممثلةً شابَّةً نحيفةً مُتَمَشْهِرَةً بعد الآن، وصار هو رجل عجوز. فلتتصالحي مع نفسك وتنسي الماضي.

(85) نبيذٌ فرنسيٌّ يعصرُ من العنب الأبيض.

(86) مقاطعةٌ في أيرلندا.

(87) منطقةٌ في شمال لندن تعدُّ مقصدًا للفنّانين و الكتَّاب.

(88) مقاطعةٌ جبليةٌ ساحليةٌ في أيرلندا.

(89) نباتٌ معمِّرٌ، أزهارُه جميلةٌ، أرجوانيّةٌ اللون ووردية. (قاموس المعاني الجامع الإلكتروني).

(90) معناها القمر الفضي.

احتاجَتْ أندريا بضعةَ أسابيع لتطَّلِع على الأوراق كافّة وتُشَكِّل صورةً واضحة عن الوضع المالي لمكتبة نايتِنْغيل. وبدا الأمر بمَنْ يتحرَّشُ بعُشٍّ للدَّبابير.

وكشفت إِميليا النقابَ عن كومةٍ من الفواتير الصورية التي يبدو أنّها لم تُسَدَّد. كانت فواتيرَ من بعض مزوِّدي المكتبة الأساسيين. ولن يكون بمقدورها طلب المزيد من الكتب إذا لم تسدِّد تلك الفواتير.

ومن ثَمّ، وصلت مع البريد الصباحي فاتورةٌ لتسديد مبالغ مترتّبة على بطاقة الائتمان. فَتَحَت مظروفَ الفاتورة وأصيبت بالفزع عندما رأت قيمة الرصيد. لم تحصل أيّ عمليات شراء عن طريق البطاقة في ذلك الشهر، بالطبع، ولكن لم تُسدَّد أيّ من دفعات اقتطاع الحدّ الأدنى؛ لأنّ إِميليا لم تكن تعرف بوجود البطاقة. فهي لم تكن في محفظة نقودِ أبيها.

بحثت في أكوام الأوراق المنتشرة على الطاولة، ووجدت نسختين من فواتير سابقة في مظروفين مغلقين. السحوبات من البطاقة كلُّها سحوبات نقدية. وتراكمت الفائدة المركَّبَة بسبب عدم تسديد أيّ دفعات.

اتصلَت بأندريا، التي طلبت منها إحضار الفواتير معها مباشرة.

تنهَّدَتْ أندريا:

- لا بدَّ أنّ بطاقة الائتمان هي الوسيلة التي لجأ إليها لدفع أجور الموظّفين. فهي بطاقة يمكن الاستفادة منها في اقتراض المال بنسبة فائدة صفر في المئة خلال الأشهر الستّة الأولى. ولا بدَّ أنّه استخرجها لكي يغطّي النقص في السيولة النقدية. ولكن بالطبع سيطبَّق الآنَ سعر الفائدة بقيمةٍ كبيرةٍ. سأتّصل بالشركة حتّى أضع موظّفيها في صورة الأحداث. كما ينبغي لي أن أعطي البطاقة إلى محاميكِ لتقديمها في ملفّ إثبات قانونيَّة الوصية.

- المبلغ تقريبًا أربعة آلاف جنيه إسترليني.

تنهَّدت أندريا:

- من السهل أن تتراكم الفوائد. وأبوك ليس أول واحدٍ يحصل معه ذلك ولن يكون الأخير.

تعكَّر صفوُ إِميليا. لم يمضِ سوى مدّة قليلة على استيعابها للديون الموجودة وشعورها بأنّه يمكنها إدارة الأمور. قالت:

- الديون تزدادُ يومًا إثرَ آخرَ ليس إلَّا.

- يمكننا أن ندمجَها في دَيْنٍ واحد. حاوَلَتْ أندريا أن تبدو عليها أمارات التطمين. ثم أضافت:

- لا تقلقي، أنتِ تجلسين على منجم ذهب. يمكنك أن تسحبي قرضًا إذا لزم الأمر.

- أظنُّ ذلك. المسألة أنّني لستُ معتادة على مثل هذه المبالغ الكبيرة.

- يا ليت كلّ زبائني يشعرون مثل شعورك. فصدقًا، هذا المبلغ لا شيء مقارنةً بما يحصل عمومًا مع الناس.

- ما أسهلَ قولَ ذلك بالنسبة لكِ!

- ما كنتُ لأقول ذلك لو لم أكن أعنيه.

اصطَحَبتْ أندريا إِميليا إلى البنك الواقع في الشارع السريع حيث يوجد حساب مكتبة نايتِنْغيل منذ اليوم الذي وطأت فيه أقدام يوليوس أرض بيزبروك. وتفاوضتا مع مدير البنك حول تقديم

تسهيلات سخيَّة لسحب أموال تزيد عمَّا هو موجود في حساب المكتبة.

- والآن لستِ مضطرة للقلق بخصوص دفع أجور الموظَّفين.

ارْتَعَدَتْ إِميليا:

- لم أتورَّط في مثل هذا النوع من الدَّيْن قطّ. لا بل إنّي لا أسحب مبالغ تزيد عن الرصيد في العادة.

- إنَّه دَيْنٌ مضمون السَّدَاد. دَيْنٌ تستثمريه في الأعمال التجارية للمكتبة. وليس دينًا تنفقيه على شراء أحذية لوبوتان الفاخرة.

نظرت إِميليا إلى حذائها القديم البالي وقالت بتحسُّر: لا. ثم نظرت إلى حذاء أندريا؛ كان حذاءً عالي الكعب ولامعًا وباهظ الثمن بلا ريب.

ابتسمت أندريا ابتسامة عريضة وقالت:

- لقد نلتُ هذا الحذاء بعرق جبيني. فالأحذية هي ملذَّتي الوحيدة. وهناك بعض الأنباء السارَّة. اسمعيني، أرباحك ارتفعت أسبوعًا إثر أسبوع في هذا الشهر. لا بدّ أنَّك تفعلين عين الصواب إزاء ذلك. أضافت على عجل:

- لا يعني ذلك بأنَّ أباكِ ارتكب خطأ ما. ولكن من الواضح أنَّه لم يكن يركِّز على النواحي المالية.

نظرت إِميليا إلى الجداول المحاسبية على شاشة الكمبيوتر، التي تشمل أداء الأسابيع القليلة الماضية، وتبيَّن لها أنّ الحلول أتَتْ أُكلها. فقد بات ديف بارعًا في وسائل التواصل الاجتماعي، حيث غرَّد عبر تويتر بمراجعات الكتب والعروض الخاصة، وشهدت المكتبة ارتفاعًا في المبيعات. وقد فتحوا المكتبة في أيام الأحد في الأسابيع القليلة الماضية، وحقَّقوا مبيعات جيِّدة نوعًا ما. ولكنّ الإيراداتِ لا تزالُ غيرَ قادرةٍ على تغطية النفقات.

- ولكنّ المكتبة لا تجني ما يكفي من المال لتغطية نفقاتها الآن، فما بالكِ بوجود دفعة مالية شهرية إذا ما سَحَبْتُ قرضًا!

- ولكنكِ بحاجة لفعل ذلك حتى تتحسّن أحوال المكتبة. فتلك هي الوسيلة التي تكفل لكِ النجاح.

وضعت إِميليا يدَها على رأسها.

- أفهم الأمر كلّه نظريًّا؛ بالطبع أفهم ذلك. ولكنّه يجعل رأسي يدور. فهناك قرارات ينبغي اتخاذها؛ والتزامات، ومسؤولية. ربّما ينبغي لي أن أتخلّى عن فكرة المكتبة ولا شيء سوى ذلك.

- أأنتِ مجنونة؟ لا تستسلمي بعد كلّ ما بذلته من جهود.

انتبهت أندريا لنفسها وقالت:

- آسفة. لا ينبغي لي أن أحاول التأثير فيكِ.

نظرت إِميليا إليها وقالت:

- عندما جِئْتُ إلى هنا أول مرّة، قلتِ بأنَّه لا ينبغي لي أن أكون عاطفية.

- أعرف. قالت أندريا وهزَّت كتفيها هزَّة تشي بالتحسُّر. ثم أضافت:

- ولكنّني كنتُ أسيرُ في الشارعِ السريع قبل أيام. مررتُ بالمكتبة. رأيتك داخلها وبدا عليكِ وأنَّك جزءٌ منها.

ضحكت ثم أردفت:

- اسمعيني! يفترض بي أن أكونَ سيِّدة القسوة والبراغماتية. ها أنا الآنَ أغدو عاطفية من قمّة رأسي حتّى أخمص قدمي!

تنهَّدَتْ إِميليا وقالت:

- حجزتُ من فوري موعدًا مع مِكْ غيلِسبي ليأتيَ إلى المكتبة ويقيم حفل توقيع كتاب.

التمعت عينا أندريا خلف نظارتها وقالت:

- مِكْ غيلِسبي؟ عظيم!

- لكن حتّى لو بعثُ ستمئة نسخةٍ من كتابه، فلن يكفي ذلك المبلغ لتسديد فاتورة الكهرباء.

- أعلم أنّه قرار مصيري بالنسبة لكِ. والأمرُ يرجع لك، يا إِميليا، إذا أردتِ أن تهبي مكتبة نايتِنْغيل حياتَك. مثلما فعل أبوكِ.

- لا أعرف بعدُ. في قلبي، بالطبع أريد ذلك. ولكن في عقلي...

بادَرَتْهَا أندريا بابتسامةٍ لطيفةٍ.

- يمكننا أن نتَحَايل حتّى نكسب وقتًا أكبر. دعيني أرَ ماذا بإمكاني أن أفعل مع أرقام الحسابات. يمكنني أن أجد طريقة لتصفية بعض الديون.

- إنّه المال اللعين. قالت إِميليا.

- نعم. حسنًا. المال يقلب موازين العالم. لا تقلقي. فمكتبة نايتِنْغيل لا يزالُ خيرُها فيها.

قَفَلَتْ إِميليا راجعةً عبر الشارع السريع، واضعةً يديها في جيوبها. في اللحظة التي خطر في بالها بأنَّ أحوال المكتبة آخذة في التحسُّن، صدمها الواقع. فكلُّ شيء جديد عليها. وهي لا

تملك خبرةً في تدبير المكائد من وراء الكواليس، وها هي الآن متوترة. كان ينبغي لها إيلاء المزيد من الانتباه، ولكن بدت الأمور كلّها وكأنّها تراوح في مكانها دون أن يكون بها حاجة لمعرفة الخفايا والتفاصيل.

ظنّت، في حماقة منها، بأنَّ إدارة المكتبة ستكون أمرًا سهلًا، وأنّها تعرف كلّ صغيرة وكبيرة حول ذلك. ولكن بالطبع الأمر أكبر بكثير من مسألة إيجاد الكتاب المثالي لشخص حتّى يقرأه في رحلته البحرية المقبلة، أو نصح أحدهم بهدية يهديها لعزيزٍ بمناسبة تعميده، أو متابعة البحث عن كتابٍ عندما يقول أحدهم، بأسلوبٍ أقرب إلى الغموض: «إنه كتابٌ ذو غلافٍ أزرق...»

فعلت أندريا ما بوسعها للإبقاء على معنويات إِميليا مرتفعة، ولكنَّ إِميليا شعرت بأنّ الحفاظ على المكتبة مشرعة أبوابها بات رويدًا رويدًا احتمالًا أقلَّ ديمومة؛ إدارة المكتبة غدت عملًا تقوم به لمجرَّد أنّها لم تكن راغبةً في أن تخذل أباها.

مرَّت بمقهى ذي آيسنغ أُنْ ذا كيك، بخزائنه الزجاجية المكتظة بكعكات الدُّوْنَتْ المحلّاة التي ينزُّ منها مُرَبَّى نبيذي غامق وكعكات الشوكولا اللامعة وفطائر الكَسْتَرْد الذهبية. دخلت

المطعم وابتاعت قطعة نقانق- فهي أميل ما تكون للأطعمة المالحة أكثر من الحلوة- وأكلت بنهمٍ المعجَّنات الذَّائِبَة ومعها لحم النقانق في ثلاث قَضْمَات.

* * *

لكي تدخل البهجة على نفسها، اتصلت إِميليا ببِيْ وأبلغتها بنبأ قدوم مِكْ غيلِسبي.

- لن تحزري من دعوتُ لزيارة المكتبة.

زَعَقَتْ بِيْ إذْ سمعتها تتلفّظ باسمه، وقالت:

- أوه يا إلهي! إنّه ممثّلي المفضَّل مدى الدهر. وتعجبني سترته المنسوجة من صوف أران التي يرتديها في فِلم القمر الفضي - وقد اشتريتُ واحدةً مثلها هدية لزوجي بِلْ.

- أتظنين بأنَّ الناس سيأتون؟

- بالطبع! وسوف نزيِّن المكتبة.

- لا تقولي لي إنّنا سنزيِّنُها بصورِ العفاريت(91) وأوراق النَّفَل(92)؟

ضحكت بِيْ.

- لا. سأفكِّر بفكرةٍ أذكى. شهقَتْ وأضافت:

- أتظنّين أنّه يمكننا أن ندعوه على العشاء بعد ذلك؟

- لقد حجزتُ له غرفةً في فندق بيزبروك أرمز.

- يجب أن تعطيني رقم غرفته.

- بِيْ - إنّه رجل عجوز!

- أعرف. أنا أمزح فقط. ولكن مجيئه فكرة رائعة. سيأتي القوم ويقفون في طوابير حول المكتبة. وسنجعل منها ليلةً للذكرى.

أقفلت إِميليا السمَّاعة، وهي تبتسم بينها وبين نفسها. فجأة بدأت كل المشاكل التي أطلَّتْ برأسها خلال الأسابيع القليلة الماضية تتحسر. شعرت ببصيص أملٍ خفيف. ربّما تستطيع أن تقلَب المكتبة رأسًا على عقب، بقليل من المساعدة وقليل من الخيال؟

* * *

تمكّنت سارة، بعد صعوبة كبيرة، من العثور على موقفٍ تركن فيه سيارتها على الطريق السريع في بيزبروك. كانت في

طريقها إلى المستشفى في زيارتها اليومية لابنتها ولكنّ ثمّةَ أمر كانت بحاجة لأن تقوم به حقًّا. أقْفَلَتْ سيَّارَتها وسحبت نفسًا عميقًا. لم تكن متأكّدةً من أنّها مستعدةٌ لما كانت موشكةً على فعله، ولكنّها إذا انتظرت حتّى تكون مستعدةً فإنّها لن تقدّم على ذلك قطّ.

ها هي تشعر به وهي تدخل إلى مكتبة نايتِنْغيل. شعرت بوجود يوليوس جسدًا وروحًا. فالمكتبة ليست سوى يوليوس نفسه. نظرت حواليها، متوقّعة أن تراه منحنيًا فوق طاولة من الكتب، ومن ثَمّ رافعًا رأسَه ليلاقيَ نظرتها، مبتسمًا لها من فوق نظارته.

عصفت بها الذكرى، وعصف بها الشوق والحزن. ما من أحدٍ قطّ جعلها تشعر مثلما فعل يوليوس. ذلك اللقاء؛ لقاء العقل والروح. والجسد... عذَّبَتْ نفْسَها عذابًا شديدًا. ما لهذا جاءت إلى المكتبة؛ لم تأتِ لتتمرَّغ في ذكريات لن تحدث مرَّة أخرى مطلقًا.

بينما كانت إِميليا تضع سمَّاعة الهاتف مضت سارة صوب طاولة الحساب.

- أأنتِ إِميليا؟ أنا سارة. سارة بازِلْدُن.

لم تكن متأكّدةً من أنَّ إميليا ستعرفها بالضرورة. فسارة متواضعة ولم تفترض قطّ بأَنَّ الناس كانوا يعرفونها، رغم أنّهم عادة ما عرفوها بمجرَّد رؤيتها.

- سارة. أنا سعيدة جدًّا بزيارتك. أهلًا وسهلًا بكِ.

- كيف حالكِ؟

- أوه... أنتِ أدرى بالأحوال. كان الأمر صعبًا عليَّ ولكنّني تجاوزته.

- لا بدَّ أنكِ تفتقدين أباك فقدًا كبيرًا.

- أوه، يا إلهي، نعم أفتقده.

ثم تذكَّرت ما قاله مارلو لهنَّ في تجارب العزف الأخيرة عن إصابة ألِسْ في حادث سيارة وإدخالها إلى المستشفى.

- ولكن كيف حال ألِسْ؟ سمعت بالحادث. وحزنتُ كثيرًا لما حصل معها.

- لا بأس. الخبر السار هو أنّها ستكون بخير. أصيبت ساقها إصابة خطرة جدًّا. ولكنّها في أيدٍ أمينة جدًّا. نأمل بأنّها ستسير على قدميها من أجل العرس. وأعني ذلك حرفيًّا! وإلَّا، فإنّها ستمشي في الكنيسة يوم العرس على عكاكيز.

حاولت سارة أن تضحك. واضحٌ أنّها تحاول أن تبدوَ شجاعةً آنئذٍ.

- هلَّا نقلتِ لها أمنيّاتي بالشفاء؟

لم تكن إِميليا تعرف ألِسْ تمام المعرفة، ولكنّها تُكِنُّ لها كلَّ الحبّ. فقد دَرَسَتَا معًا في حضانة أطفال بيزبروك. كانت ألِسْ تصغرها ببضع سنوات، ولكنّ إِميليا تتذكّرها وهي تلعبُ في ملعب المدرسة، بشعرها الأصفر الفاتح ومعطفها ذي القبعة المنسوج من الدَّفِلْ(93). تابعت إِميليا مسيرتها الدراسية في المدرسة الثانوية، فيما انتقلت ألِسْ إلى مدرسة داخلية في مكانٍ ما، ولذا فقد افترقتا، ولكنّ إِميليا كانت تتوق بشغف للعزف في عرسها. ويُتَوقَّعُ للعرس أن يكون عرسًا أسطوريًّا.

ـ ألِسْ هي سبب مجيئي إلى هنا، في الواقع. أريد نسخة من كتاب ألِسْ الأثير على نفسها؛ لأنّني لم أستطع أن أجدَه في أيّ مكان في البيت. ولكنّي ظننتُ بأنّه سيكون أمرًا جيّدًا بالنسبة لها أن يكون معها كتابٌ تقرؤه.

ـ بالطبع. ما عنوان الكتاب؟

ابتسمت سارة وقالت:

- الفرسان لجيلي كوبر(94). أتوجد عندكِ هذه الرواية في المكتبة؟

- بالطبع! فمكتبةٌ ليس فيها رواية الفرسان غير جديرة بأن تكون مكتبة. خصوصًا في هذه المنطقة.

مضت إِميليا نحو أرفف الأدب الخيالي. أمكنها أن ترى مجموعةً من الكتب السميكة ذات الأغلفة الورقية في القسم الموسوم بحرف (ك)(95). القسم الذي يضمّ كتب جيلي كوبر. كانت إِميليا قد قرأت كلّ كتبها؛ فدائمًا ما يكون صدور كتابٍ جديد لجيلي كوبر موضع احتفاء القُرَّاء.

- تفضَّلي، هذا هو الكتاب.

- رائع! ستحبّه ألِسْ. أتذكَّرُ عندما قَرَأَتْه أول مرَّة. انهمكت في قراءته ولم تتكلم معنا لحوالي أسبوع.

ناوَلَتْها سارة ورقةً نقديةً من فئة العشرة جنيهات إسترلينية. بينما وضعت إِميليا الكتاب في كيس، تردَّدَت سارة، وكأنها كانت ترغب في قولِ شيء ما. أخيرًا، تنحنحت وقالت:

- إِميليا، ما رأيكِ في أن أدعوكِ لزيارتي واحتساء الشاي معي؟ هناك موضوع أودُّ الحديث فيه معك. موضوعٌ سرِّي ناقشته أنا وأبوك.

- أوه!

تساءلت إِميليا ما هو ذلك الموضوع. فأبوها لم يذكر قطُّ بأنّه بحث مع سارة بازِلْدُن أية مواضيع. يعني، ليس في موضوع محدَّد. فأسرة بازِلْدُن من أهمّ زبائن المكتبة. ولها يدٌ طولى في دعم المشروعات التجارية المحلية عمومًا، ودائمًا ما اشترى أفرادها الكثير من الكتب، خصوصًا في عيد الميلاد. فهي أسرةٌ معروفة جدًّا في المنطقة. ولم يظنّوا بأنّهم أفضل من كلّ الناس الآخرين لأنّهم كانوا يقيمون في المنزل الكبير والعزبة الفخمة.

- بالطبع. متى تحبِّيْن أن أزورَك؟

- ما رأيكِ بيوم الخميس؟ حوالي الساعة الثالثة؟ ذلك سيمنحني الوقت لزيارة ألِسْ في المستشفى زيارة سريعة للاطمئنان عليها في الصباح، فأنا أحبُّ الذهاب لرؤيتها كلَّ يوم.

ألقت إِميليا نظرة سريعة على الروزنامة وجدول دوام الموظّفين في المكتبة. سيكون هناك حينها شخص واحد في المكتبة، وهو أمرٌ جيّدٌ في ذلك الوقت من النهار.

- بالطبع. توقيت ممتاز.
تابعت إِميليا، مبهورةً، سارة وهي تغادر المكتبة. من الجيِّد الخروج من المكتبة وزيارة عزبة بيزبروك مانُر. إذ يكفيها اليوم هذا القدر من كشوفات الفواتير المقرفة. بعد الاجتماع الذي عقدته صباح اليوم، شعرت فعليًّا بالغضب « قليلًا من أبيها. لم يكن ترك الحسابات دون النظر في أمرِها طريقةً يدار بها مشروع تجاري. ولكنّها بدأت تدرك بأنَّ أباها لم يكن ينظر بحقّ إلى مكتبة نايتِنْغيل كمشروع تجاري، ولكنّه كان يعدُّها أسلوب حياة.

ولكنّ السؤال هو إذا ما كانت المكتبة ستصبحُ أسلوب حياةٍ بالنسبة لها هي أيضًا.

* * *

غادَرَتْ سارة مكتبة نايتِنْغيل وهي تشعرُ بالرَّاحة وتوجَّهتْ صوب المستشفى. ما فتئت تؤجّلُ موضوع زيارة المكتبة خشيةً على نفسِها من اهتياج الذكريات، ولكنّها لا تستطيع أن تقضيَ بقية عمرها متجنّبة زيارتها. إضافة إلى أنها أرادت الاطمئنان على أحوال إِميليا. فقد شعرت بأنَّه عليها الاهتمام بشأنها كعربون وفاءٍ ليوليوس. ففي نهاية المطاف، كانت إِميليا وحدَها، لا أمَّ لها ولا أب.

تذكَّرَت سارة اليوم الذي حكى لها فيه يوليوس عن ريبِكا، والبداية الرهيبة التي واجهها في مشوارهِ كأبٍ.

اعتَرَف لها حينئذٍ:

- كانت صدمةً رهيبة. ولكنّني كنتُ في ريعان الشباب. حسبْتُ حينئذٍ أنّ ريبِكا هي حبيبة العمر. وحدثت الأمور على نحوٍ سريعٍ جدًّا: إذ قرَّرَتْ البقاء في إنجلترا، ومن ثمّ حَمَلَتْ، ولذلك لم يكن أمامنا فعليًّا الوقت الكافي لنتخلَّى عن حبّنا. لا أدري ما المدة التي كنّا سنعيشها في العالم الواقعي، زوجان شابّان يحملان همَّ طفلتهما. من السهل جدًّا أن يحلم المرء أحلامًا رومانسية إزاء ذلك.

- لا بدَّ أنَّكَ شعرتَ بالوَحدة الشديدة بعد وفاتها.

ابتسم يوليوس ابتسامة عريضة متجرّئة وقال:

- أوه، لا تقلقي من هذه الناحية. فلا شيء يجذب النساء أكثر من رجلٍ عازبٍ في رقبته مسؤولية طفلة. وهكذا تَأَقْلَمْتُ مع الوضع.

تظاهرت سارة بأنّها غاضبة وقالت:

ـ وأنا التي كنتُ أظنّ أنّني أولُ امرأة أذابت قلبَكَ المتجمّد.

نظر إليها نظرةً جادَّة وقال:

ـ أنتِ أولُ امرأةٍ شغلت بالي بحقّ.

تذكَّرَتْ ذلك الإحساس الذي يدوِّخ الرأس؛ إحساس إدراكها القيمة الكبيرة التي تعنيها بالنسبة له. كلّ ذلك رغم أنّها تعرف أنّها، وعلى اعترافه بحبِّه لها، ستأتي في المرتبة الثانية فقط بعد إِميليا، وهذا صحيح تمامًا. امتازت سارة بغريزة أمومة قويّة. كان وضعًا محرجًا، ولكنّها أرادت أن توضّح لإِميليا بأنّها مستعدّة لمساعدتها عند الحاجة. وأنّها إذا أرادت يومًا الحديث عن أبيها، أو مجرَّد أن تأتيَ إلى المنزل لتناول العشاء لأنّها أرادت الخروج، فباب سارة عندئذٍ مفتوحٌ أمامَها على مصراعيه.

ذلك أقلّ ما يمكنها أن تفعله كرمى لعيني حبيبها.

ومع ذلك كانت زيارة خفيفة لطيفة. واستنتجت من الأسلوب الذي استقبلتها به إِميليا- وهو أسلوبٌ مؤدَّبٌ ولكنّه دافئ، دون وجودِ ما يدلّ في عينيها على علمها بالأمر بالتأكيد- بأنَّ إِميليا ليس عندها أدنى ذرَّة معرفة بعلاقة سارة بأبيها. ولم تستطع سارة أن تصارحَها بكلّ بساطة بقولها: «بالمناسبة، أنا وأبوك كنَّا على علاقة غرامية مدّة طويلة، ولذا أرجوكِ أن تعديني في مقام أمِّك...».

حسبت أنَّها اهتدت إلى سبيل الطريقة المثلى لهما حتى تبدآ حديثًا وربّما تنشأ بينهما صداقة. ابتسمَت عندما خطرت في بالها تلك الفكرة الرائعة؛ فهي بحقّ فكرة رائعة. ما فتئت تقضي مؤخّرًا الكثير من الوقت في سيارتها، وهي تسوق ذاهبة إلى المستشفى وآيبةً منه، وكانت جولاتها بالسيَّارة المحفِّز المثالي لتذكُّر لحظات خاطفة. وها هي الآن هنا مرَّة أخرى، تسوق سيّارتها متّجهةً صوبَ طريق أكسفورد. نظرت إلى الكتاب الموضوع بجانبها على مقعد السيَّارة. الله وَحدَه يعلمُ أين ذهبت النسخة الأصلية- فقد أهدتها لألِسْ في عيد ميلادها الرابع عشر- ولكنّ النسخة الجديدة ربّما تدخل السرور على قلبِها.

* * *

- هذه أفضل هدية أتلقَّاها في حياتي.

قالت لها أَلِسْ وهي تُخْرِجُ الكتاب من الكيس. ثم أضافت:

- شكرًا لكِ. ولكن ما أريدُكِ أن تفعليه لي فعلًا هو أن تحضري لي حاسوبي المحمول.

قالت سارة بحزم:

- مستحيل. أنتِ بحاجة للراحة، يا أَلِسْ. ينتظرك من العمل ما يكفيك ويزيد عندما تتحسّن صحّتك. كلّ شيء تحت السيطرة. فأبوك تولَّى مسؤولية العمل وهو بالفعل سندٌ كبيرٌ لنا.

لم تضف إلى جملتها عبارة «مرّة واحدة». فقد تولَّى أبوها، رالف، فعليًا زمام الأمور. وفي العادة لا يعرف أحدٌ شيئًا عن مكان وجوده أو ما الذي كان يفعله، وما لم يُكلَّف فعليًّا بمهمّة محدَّدة فقد كان ينصرف لشؤونه الخاصّة به، ولكنّه ما فتئ يؤدّي واجبَه على نحوٍ رائع.

قهقهت ألِسْ وقالت:

- أراهن بأنّه جنَّن الجميع. ولكن صدقًا يا ماما، كلّ ما أفعله هنا الاستلقاء في السرير والشعور بالقلق. وإذا أحضرتِ لي حاسوبي المحمول فيمكنني أن أطَّلع على مستجدَّات العمل كافّة، وإلَّا، فإنّ عيد الميلاد سيتحوّل إلى كابوس. فالنجاح كلّه يكمن في التخطيط.
- يا حبيبتي، نظَّمْنا مناسبات على عدد شعر رأسنا. والموظّفات في المكتب معهنّ كلّ القوائم والجداول التي أعددتِها...

- ولكنّ القوائمَ التي معهنّ تضمُّ أمورًا بسيطة. كما أنَّ هناك العديد من الأشياء الجديدة التي كنت أرغب في فعلها هذه السنة...

قاطعتها سارة:

- هذه مسألةٌ لا نقاش فيها. وإذا لم تجر الأمور على أحسن أحوالها هذه السنة، فالأمرُ غيرُ مهمّ. نريدُكِ على أيّ حال أن تكوني بصحّة جيّدة يوم عرسك. فذلك يومُ العمر بالنسبة للكِ.

أشارت ألِسْ بيدِها على نحوٍ غيرِ مبالٍ. ثم قالت:

- العرس سيُنظِّم نفسَه بنفسه. لَسْتُ قلقةً بخصوص ذلك.

- ولكنّني أريدُكِ أن تستمتعي به.

بدت ألِسْ عنيدة:

- لن أستمتع به إذا ساورني القلق بخصوص العمل، أليس كذلك؟

ضحكت سارة:

- اسمعيني، سأطلب من إحدى الموظّفات في المكتب أن تأتيَ وتبحثَ كلّ المسائل معكِ. ثمَّ تقرِّرِين مقدار حُسن إدارتهنّ للأمور.

- أتودّين القول بأنّه يمكنك الاستغناء عنّي؟ بدت أَلِسْ ممتعضة.

- لا. ما أقوله هو أنّكِ بحاجة لأنْ تعتني بنفسكِ وإلَّا فسينتهي بكِ الأمر إلى ما لا يُحمدُ عقباه.

ميزة أَلِسْ أنّها لم تتوقّف عن العمل قطّ. ولكنّها الآن مجبرةٌ على ذلك، وهذا ما لم يرُقْ لها.

- من سينظِّم موضوع تسليم النشرات الإعلانية في سوق الخضار؟ ومن سيغرِّد لنا عبر تويتر؟ ومن سيطلب الهدايا المخصّصة لزيارات بابا نويل في عيد الميلاد؟ ومَنْ سيرتب أمر إحضار الأيل الذي يجرّ عربة بابا نويل؟

- الأمور كلُّها تحت السيطرة.

أعادت سارة مقولتها؛ سارة التي لم يكن في جعبتها أي جواب عن أي من أسئلة ألِسْ. ولكنها لم تكن لتجعلها تستشعر بذلك. كل ما يهم حقًا هو أن تتعافى ألِسْ. إذا لم يغرِّد أحدٌ على تويتر بضعة أسابيع، أو لم يأتِ الأيل، فتلك ليست نهاية الدنيا.

* * *

بعد انتهاء زيارتها لألِسْ، ساقت سارة سيّارتها راجعة إلى البيت، وهي تراقب كيف بدأت طلائع الأوراق الآن تتساقط عن

الأشجار. بالطبع كانت عزبة بيزبروك مانُر بهية في الصيف، وفيها وفرة من الألوان والخضرة، ولكنّها مع ذلك كانت شغوفةً بقدرتها على رؤية البنية الكامنة تحت ذلك؛ الأغصان العارية، وغياب الألوان، والحجارة الذهبية للجدران والدرابزينات والشُّرُفات التي بهتت واكتسبت لونًا رماديًا خفيفًا. عُريُّ المباني والأشجار يناسب مزاجَها حتمًا، وهي تحملقُ إلى سرب زرازير ينتشرُ في السماء.

نزلت من السيّارة ورأت ديلُن ينقل بعضًا من أحواض نباتات الزينة على الشرفة. ما فتئت تتجنّبه منذُ حادث ألِسْ؛ لأنّها لم تكن متأكّدة من رأيها بما قاله هيو عن الأحداث التي سبقت وقوع الحادث. لم تشأ أن تصدِّق بأنّ ديلُن يمكن أن يكون متسبّبًا في الحادث، ومع ذلك لم تكن لديها الرغبة في سؤاله عن روايته لما حصل. ولذا كان من الأسهل عدم التفكير بذلك. فهناك أساسًا الكثير الكثير من الأمور التي تشغل بالها.

ولكنّها كانت معجبةً بديلُن. ولم يكن من الإنصاف أن تقلب له ظهر المجن. فالرجل تضعضع كيانه لكي يسمع خبرًا عن ألِسْ، ولكن أكان ذلك لأنّه شعر بالذنب؟ هل يعلم بأنّه المسؤول عن سياقة هيو السريعة؟

سارت عبر الشرفة نحو الشبابيك الزجاجية الفرنسية التي تؤدّي إلى صالة الجلوس الصباحية. داعبها برفق نسيم خريفي خفيف، وأدخل السرور إلى قلبها بدرجة خفيفة. على يمينها ويسارها حظيت مروجُ العزبة المخملية للتوّ بآخر قَصَّة لأعشابها قبل حلول الشتاء وتنسَّمْت سارة شذى العشب المقصوص. اصطفت في الأفق مجموعات من أشجار البلوط الضخمة. وامتدّ الشريط الرمادي لدرب السيّارات الممتدّ من المنزل على مدّ النظر، لم تستطع أن ترى سوى البوّابات في نهايته.

رفع ديلُن ناظرَيه وهي تقترب منه. وقفَ، يداه مغمورتان في خُثٍّ كثيف. كان يغرس بصيلات أزهار التوليب التي تفضلها: أزهار التوليب الأرجوانية الغامقة، القريبة من الأسود. سألَها:

- كيف حالها اليوم؟

- لا بأس.

- هلَّا أبلغتيها تحياتي؟ في المرة القادمة التي تذهبين فيها لزيارتها.

- بالطبع.

- متى ستعود إلى البيت؟

- ذلك يعتمد على وضع ساقها. وهي تنتظر فقط إجراء عملية جراحية أخرى لها. نأمل بأن بقاءها في المستشفى لن يطول كثيرًا. ولكن في الوقت الراهن الأفضل لها أن تبقى هناك.

أشاح ديلُن ببصره لحظة. بدا مرتبكًا. وكأنّه على وشك أن يقولَ شيئًا ما.

- أهناك خطبٌ ما يا ديلُن؟

تساءلت سارة ما إذا كان يريد أن يعترف بمسؤوليته عن الحادث. فهي تفضِّل أن يكون كلّ شيء في العلن.

- لا. لا، الأمور بخير. كنتُ أتساءل فقط- إذا- إذا لم يكن هناك أيّ مانع من قيامي بزيارتها؟

فكَّرت سارة لحظة. إذا كان ما قاله هيو صحيحًا، فربما لا تريد ألِسْ أن تراه. ومن جانب آخر، كان ديلُن وألِسْ صديقين دائمًا. فمن هي حتى تمنعَه من الذهاب لرؤيتها؟هي أم ألِسْ، ومن واجبها كأمّ أن تتأكّدَ بأنّ ابنتَها لن تتعرّضَ لأيّ كَدَرٍ يُضافُ إلى ما هي فيه أصلًا.

- أظنّ أنّه ربّما يجب عليكَ ألَّا تزورها، الآن، إذا لم يكن عندك مانع.

التفتت ودلفت إلى صالة الجلوس الصباحية. داهمها شعورٌ فظيع. بدا ديلُن مكسور الخاطر. ولكنّها لم تستطع التحقق من مزاعم هيو في هذه اللحظة؛ لأنّ من شأن ذلك أن يكون له عدد كبير من العواقب. فهي لا تستطيع الاستغناء عن ديلُن، ولذلك لم

ترد أن تتحرَّى في الموضوع أكثر من ذلك. ولكن في حال كان ذلك صحيحًا، فهي بحاجة لأن تبعدَه عن أَلِسْ. في الوقت الراهن، على الأقلّ.

* * *

كان ديلُن غاضبًا من نفسه. لمَ جَبُنَ ذلك الجبن؟ لماذا لا يقومُ فقط بالتجرؤ وإخبار سارة بما حصل في مطعم وايت هورس؟ لم يبدُ الأمر وكأن هناك عروة وثقى تربط بينهما، أو رابط قريب من ذلك. ولم يسخر ديلُن من نفسه بظنه أنَّ سارة حسبته ندًا لها. بالطبع لم تفعل ذلك.

تحدَّث مع بريان بقضية هيو في حانة المطعم.

- لا أفهم لماذا لم يعاقَب على فعلته. فقد رأيتَ كمية المشروب الكبيرة التي شربوها جميعًا، ورأيتَ أنه شاركهم الشُّرب.

ابتسم بريان ابتسامة خفيفة وقال:

- تبدو غِرًّا بعض الشيء أحيانًا، يا ديلُن.

- ماذا تعني؟

فرك بريان أنفه. وقال ديلُن:

- ماذا يعني ذلك؟

- إنَّه مهووس قليلًا بالبودرة البوليفية(96)، أليس كذلك؟

ما زالت أمارات الحيرة مرتسمة على محيّا ديلُن. أضاف بريان:

- ألم تلاحظ عدد المرَّات التي دخل فيها مسرعًا إلى دورة المياه؟

- أذهبَ ليتبوَّل؟

- لا، يا أحمق. ذهب ليتعاطى تحشيشة كوكايين.

رمشت عينا ديلُن:

- كوكايين؟ قبَّحَه الله.

فكَّرَ بالأمر ثم أضاف:

- إذًا لم يكن سكرانَ؟

- لا. بل منتشيًا من المخدِّرات.

- كيف حدث أنّ عناصر الشرطة لم يلاحظوا؟

- لا شكَّ أنّه خدعهم، أليس كذلك؟

- تقصد أنّهم غضُّوا الطرفَ عن فعلته؟

هزَّ بريان كتفَيه.

- تَرَكُوه وشأنه لأنَّ اتهامهم له لم يكن سوى محض شكوك بعد أن اجتاز اختبارَ نسبة الكحول في الدم. لن يشكوا فيه، أليس كذلك؟ فهو سيتزوَّج بفتاةٍ من أسرة بازِلْدُن.

- إذًا أفلت الوغد بفعلته دون عقاب.

- نعم. وفات الأوان كثيرًا على إبلاغ الشرطة بذلك الآن.

- أتعتقد بأن أَلِسْ تعرف بأنه يتعاطى المخدِّرات؟

هزَّ بريان كتفَيه نافيًا:

- على الأرجح لا. فهي فتاة لطيفة. وهو لا يريد أن يُسوِّد صحيفتَه عندها.

- كيف عرفت، على أيّ حال، بأنّه يتعاطى الكوكايين؟

قال بريان هازئًا:

- اسأل بوغو. فكل مال هيو يذهب إلى جيب بوغو الذي يزوِّده بالكوكايين هو وكل أصحابه.

بوغو هو تاجر المخدِّرَات المحلّي الذي يتنقَّل خُفيةً بين المطاعم المشبوهة في بيزبروك ويحسب نفسَه فردًا من أفراد العصابات، بظفائره الطويلة المنكوشة وأسنانه الأمامية الذهبية. زامله ديلُن في المدرسة وكان يعدُّه وغدًا. ولم يكن ديلُن ينوي الحطَّ من قدر نفسه وسؤال بوغو عن دليل يثبت إدانة هيو. فبوغو مستعدٌّ لقول أيّ شيء يعتقد أنّه سينقذُ مؤخّرته اللعينة.

- لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟

- ظننتك تعرف.

هزَّ ديلُن رأسَه. شعر بالصدمة. لم يكن يُقيمُ وزنًا كبيرًا لهيو في المقام الأول، ولكنّ هذا عذرٌ أقبحُ من ذنب. ولكن ماذا عساه يفعَل؟

إذا قال لسارة بأنّ هيو كان يحلِّق في عالم الهذيان بسبب الكوكايين ليلة الحادث، فإنّ هيو سينكرُ ذلك. وما من أحدٍ سيصدِّق ما يقوله ديلُن عن هيو، لأنَّ هيو اجتاز اختبار نسبةَ الكحول في الدم. كلّ ما سيدورُ في خَلدهم أنّ ديلُن يحاول إثارة المشاكل. ولا قِبَلَ لهم بأن يسيئوا الظنون بهيو؛ لأنه منقذ عزبةَ بيزبروك مانُر. الرجل صاحب الجيوب المليئة بالمال. إضافة إلى أنه بات واحدًا منهم.

ومع ذلك إذا لم يقل شيئًا، فإنّ الأمرَ سيؤول بألِسْ إلى الزواجِ به، الزواجِ بمُدْمِن كوكايين ماكر وعديم الأخلاق.

ركل ديلُن كتلة ترابٍ داخل مسكبة زهور. كان الأمرُ محبطًا، ونزل به إلى حضيض المشاعر. عندما يتعلّق الأمر بجوهر القضية، فهو نَكِرةٌ لا شيء سوى ذلك.

قفل راجعًا إلى حجرة الزهور. شعر بالغضب من سارة، رغم أنّها لم ترتكب أيَّ خطأ. ولكنّه شعر بالمهانة لأنها لم تُرِدْ له أن يذهب ويزور ألِسْ. لم يكن الأمر وكأنّها في قمّة البراءة. ماذا سيقول رالف، إذا ما عرف حقيقة علاقتها بيوليوس نايتِنْغيل؟ الأمر لا يتعلق بأنَّ ديلُن سيقول أيّ شيء على الإطلاق، طال

الزمان أو قصر. ولكن ذلك جعل الأمور أسوأ حالًا بدلًا من السير بها نحو الأفضل. كما أنَّ رالف نفسه لم يكن مثالًا يحتذى. فَسَّرَ ديلُن ما كان يجري على مدى سنواتٍ خلت. وهو السبب الذي جعله غاضبًا جدًا من نفسه لأنه لم يكشف هيو على حقيقته. كزَّ على أسنانه غضبًا. ما المنطق في أن يسلك المرء سلوك الإخلاص للآخرين، عندما لا يبادلونك أي إخلاص؟ » سحب سترته المطَرِية ووضع الغلَّاية على النار. أهو الوحيد في العالم الذي لم يكن منافقًا كذوبًا؟ حسنًا، هو وألِسْ بالطبع. لو أنَّ هناك طرفًا بريئًا في كلّ هذه المعمعة فهو ألِسْ.

جلس ديلُن يشرب الشاي، وتوصل إلى قرارٍ وهو يشرب. سيذهب إلى المستشفى ويرى ألِسْ من تلقاء نفسه. ليس بحاجة إلى إذنٍ من سارة. إذا لم ترغب ألِسْ في أن تراه، يمكنها أن تقول له ذلك بنفسها. كَرَعَ كوبه وحمل سترته. ما من وقتٍ مناسبٍ لزيارتها أفضل من هذه اللحظة.

* * *

غالبًا ما ذهب ديلُن إلى قسم الحوادث والطوارئ عددًا لا بأس به من المرَّات. فعمله في تنسيق الحدائق جعل من المخاطر

المهنية والحقن المضادة للكزاز والغُرَز أمورًا تحدث بشكل عادي. ولكنّه لم يدخل قطّ إلى جناح من أجنحة المرضى. فالمستشفى كان مثلَ متاهةٍ، بلافتاته الدلالية التي ترشد إلى طوابق وأماكن مختلفة برموز وحروفٍ مختلفة الألوان، ومصاعده المؤدية إلى أقسام مختلفة.

وجد أخيرًا طريقه إلى المكان الصحيح. فتح الأبواب ذات الدرفتين دافعًا إيّاها وسأل عن ألِسْ في مكتب الممرضات. أرشدنَه صوبَ غرفة خاصّة مقابل الجناح الرئيس.

طرق الباب بلطفٍ وسمع صوتَها تأذن له بالدخول. عندما أطل ببصره من الباب وَجِفَ قلبه إذ رآها. رآها متدثرة في السرير، وساقها في جبيرة وموضوعة خارج الأغطية، ووجهها تكسوه الضمادات، وعينها الوحيدة التي استطاع رؤيتها لا تزال مكدومة بسبب الرضوض.

- ديلُن!

لم تخبئ فرحتها برؤيته.

دخل ورفع علبة شوكولا تيري شوكلِت أورينج التي أحضرها لها.

- أحْضَرْتُ لكِ هذه.

- هذا أفضل نوعٍ بالنسبة لي على الإطلاق! فلنفتحها الآن.
جرجرت نفسَها وربَّتت على السرير بجانبها وقالت:

- تعال واجلس واحكِ لي كلّ شيء.

جلس وشرع يفتح العلبة. طرق علبة الشوكولا على الطاولة التي بجانب السرير لكي تنقسم إلى أجزاء، وأطعمها إيّاها جزءًا جزءًا أثناء حديثهما.

- أشعر بملل شديد وأنا محبوسة هنا. أريد حقًّا أن أنتقلَ إلى جناح من أجنحة المستشفى، بحيث يكون هناك ناس أتحدّث معهم، ولكنّ هيو أصرَّ على أنْ أكونَ في غرفة خاصّة. ويجعلني ذلك أشعر وكأنّ الناس يظنّون أنّني شخصٌ مميّز.

- في واقع الأمر، أنتِ كذلك. قال ديلُن، مبتسمًا.

- لا، لستُ كذلك. كما أنّ هناك الكثيرَ من الأعمال الواجب القيام بها في العزبة؛ وأمي ترفض السماح لي بمعرفة ما يجري هناك وتطلب منّي ألَّا أقلق، ولكنّي أزداد قلقًا عندما لا أعرف ما الذي يجري. كيف الأحوال هناك؟

- أظنّ أنّ كلَّ شيء تحت السيطرة. أمُّك تقوم بالكثير من الأشياء. وكذلك أبوك، فعليًا.

اشْرَأَبَّتْ ألِسْ إذ خطرت في بالِها فكرة مفاجئة.

- أيمكنكَ أن تسدي لي معروفًا؟

- تفضلي؟

- هلَّا أحضرتَ لي حاسوبي المحمول؟ بحيث أستطيع أن أطَّلِع على كلّ صغيرة وكبيرة؟ طلبتُ من أمّي أن تحضره لي ولكنّها ما فتئت تنسى ذلك. وأظنُّها مصادَفة متعمَّدَة منها.

أمالت ألِسْ رأسها إلى أحد الجانبين ونظرت إلى ديلُن، بعينٍ برَّاقة وقالت:

- ستجده في المكتب العقاري. والموظّفات يعرفن مكانه. ولا تنسَ أن تحضر معه الوصلة الكهربائية.

- طيِّب.

قال ديلُن، مسرورًا إذ استطاعَ أن يفعل شيئًا من أجلها. ثم أضاف:

- ولكن أينبغي لكِ أن تقلقي بخصوص العمل؟

- لا يمكنني ألَّا أقلق. مستحيل.

- ينبغي لكِ أن تحاولي. وإلَّا، فإنَّكِ لن تتحسني.

- بصراحة، أنت مثل ماما. فهي قلقة من ألَّا أتحسن حتّى أكون جاهزةً في موعد العرس. حتّى أكون صريحة معك، بدأت أتساءل إذا ما ينبغي لي إلغاؤه. ولكن إن فعلتُ ذلك، فلن أكون قادرة على الزواجِ حتى العام المقبل؛ لأنَّ عيد الميلاد سيحول دون ذلك.

- ما المشكلة في الانتظار حتّى العام المقبل؟

أحس ديلُن بوجود بصيص أمل. فعام آخرُ ربّما يكون كافيًا لِيَظْهَرَ فيه هيو الشنيع على حقيقته.

- لا. فعندنا خطط مُعَدَّة سلفًا. إذ يريد هيو التخلّي عن شقّته والانتقال إلى الكوخ في أسرع وقت ممكن. وسنتابع تنفيذ هذه الخطة.

نظرت إلى ساقها وأضافت:

- هناك عملية جراحية واحدة أجريها لساقي ومن ثَمَّ.. ومن ثَمَّ سيأتي استشاري ليطلع على حالة وجهي... يقولون إنَّه كان يمكن للأمور أن تكون أسوأ بكثير. كان يمكن أن أفقد عيني. لذا فأنا محظوظة حقًّا. أليس كذلك؟

ابتسمت له، وأراد أن يرفعها بين ذراعيه لأنها كانت شجاعة جدًّا، وهي جالسة هناك ووجهها تملؤه الرضوض، وهي تعتقد أنّها كانت محظوظة. لم يدرِ ما يقول. نعم، بطريقة ما حالفها الحظُّ. ارتعد عندما فكر بما يمكن أن يكون قد حدث غير ذلك.

ولكن كان يمكن الحيلولة دون وقوع الحادث برمّته أساسًا. لو لم يكن الأمر يتعلّق بالرجل الفظيع الذي كانت على وشك الزواج به. حدَّثَتْه نفسُه ببثّها الشكوك التي تساوره عن هيو ليلةَ وقوع الحادث. ولكن ألِسْ كانت طيِّبَة السريرة جدًّا، حسنة الظنّ بالناس كثيرًا، ولن تصدِّق كلمة من ذلك. وستعد ما يثار بخصوص هيو محض شكوك لا أكثر. سيبدو ديلُن حقودًا لا شيء أكثر. دون ألّا ننسى أنّه لا يملك في جَعبته أي دليل، ما خلا افتراضات بريان. ليس في جعبته ما يستند إليه سوى الظنّ والقيل والقال.

أشارت ألِسْ إلى كتابٍ على الطاولة الموضوعة بجانب السرير.

- اقرأ لي برهة من الوقت، لو سمحت؟ قالت له، لتغيِّر الموضوع. ثم أضافت:

- أحْضَرَتْ ماما هذا الكتاب قبل مدة. وقد تَعِبْتُ. وهذا ما يؤرِّقُني. إذ إني أشعر بأنّي على ما يرام ومن ثم أشعر بالإرهاق. ثم تنهَّدَتْ.

- استرخي في سريرك إذاً.

قال لها وأمسك الكتاب.

رواية الفرسان، تأليف جيلي كوبر. كتابٌ ضخمٌ. فتحه. ونبَّهَهَا قبل أن يقرأ:

- لستُ قارئًا جيّدًا جدًّا.

- لا يهمُّ. فأنا أحفظ الكتاب غيبًا تقريبًا. قرأته حوالي عشرين مرة.

- ما الفائدة من الاستماع إلى ما فيه مرة أخرى، إذاً؟

- إنه أفضل كتابٍ في العالم بكل ما في الكلمة من معنى.

ابتسرت ابتسامة ثم أضافت:

- يوجد فيه بعض المقاطع الوقحة، مع ذلك. وقحة بحق.

ضحك، وشرع يقرأ. شعر بالارتباك في أول الأمر، ولكنّه بدأ يندمج مع القصّة: ثُلَّةٌ من الشخصيات المذهلة الساعية للظفر بالنياشين والكؤوس. كانت الغرفة دافئة، وتخنق الأنفاس قليلًا، وبعد برهة رأى أَلِسْ وهي تنام، ولذا توقَّف عن القراءة.

فتحت عينيها حالما توقف.

- لستُ نائمة.

- ربّما ينبغي لكِ الخلود إلى النوم. ربَّتَ على كتفها.

أغمضت عينيها مرة أخرى، ودمدمت قائلة:

- أنتَ تذكِّرني بأحدِهم.

- بمَنْ؟

- بِجيك لَقِلْ(97). الصبي الغجري. كان كلّ مَنْ في المدرسة يحبُّ روبرت كامبل-بلاك، ولكنّني دائمًا كنت أحبّ جِيْك قمّة الحبّ. أنتَ تذكِّرُني به.

- أوه.

أطرق ديلُنْ رأسه، غير متأكّدٍ إذا ما كان ذلك مديحًا أو هجاءً. ثم أضافت:

- ذلك أمرٌ جيّدٌ. فروبرت كامبل- بلاك وحش. ولكن جيك حَبُّوب.

بدا الأمرُ وكأنّها كانت تتحدَّثُ عن أناسٍ من لحم ودم. أغلق الكتاب ووضعه على الطاولة التي بجانب السرير. وقال:

- الأفضل أن أذهب. فقد أوشك الوقت المخصّص للزيارة على الانتهاء.

- ستعود مرة أخرى، أليس كذلك؟

- بالطبع.

لم يكن متأكّدًا من قدرته على تقبيلها مودِّعًا. ما كان منها إلَّا أن فتحت ذراعيها.

- عانقني. أنا بحاجة لعناق حارّ.

انحنى وعانقها مرتبكًا.

- أتمنّى لكِ الشفاء.

أجابها ومشى خارجًا من الغرفة.

مغادرًا المستشفى، شعر بنفسه وهو يضمُّ قبضتَيه ويفتحهما. كره أن يراها على تلك الحال، واضح أنّها تتألّم ولكنّها لا تزالُ في قمّة شجاعتها. لا يستحقّها هيو زوجة له. ولكن لا يمكنه أن يفعل أيّ شيء لإيقاف العرس. فحتى ساقٌ مكسورة أو وجه مرضوض ما كان ليثنيَ ألِسْ عن عزمها.

(91) من الرموز المهمّة جدًّا في التراث الأيرلندي. وعادةً ما يجري تصويرِهم على شكل رجالٍ ملتحين وقصار القامة ويرتدون معطفًا وقبعة، ويمتهنون تصليحَ الأحذية.

(92) نبتةٌ صغيرةٌ أوراقُها مكوّنةٌ من ثلاثةِ أجزاء مستديرة، هي رمز أيرلندا الوطني.

(93) نسيجٌ صوفيٌّ خَشِنٌ.

(94) جيلي كوبر (١٩٣٧ – .....): صحفيّةٌ وروائيةٌ إنجليزية.

(95) الحرفُ الأوّلُ من كوبر.
(96) توريةٌ يُقصدُ بها الكوكايين.
(97) جيك لَقِل وروبرت كامبل- بلاك شخصيّتان أساسيّتان من شخصيات رواية الفرسان.

الفصل الخامس عشر

غرفة الجلوس الصباحية في عزبة بيزبروك مانُر أجملُ غرفةٍ رأتها إِميليا في حياتها. غرفةٍ بجدرانٍ صفراءَ بلون زهور الربيع وستائر حريرية خضراء فاتحة وأريكتين مخمليتين زهريتين موضوعتين أمام موقد أنيق. فوقه لوحةٌ زيتيّةٌ على الطراز الڤيكتوري لفتاة تطعم أرْنوبًا سمينًا أوراقَ ملفوفٍ. ذكَّرَتْ الفتاةُ، بوجنَتيها الحمراوين وشعرها الأشقر، إِميليا بألِسْ.

تساءلت إِميليا عن معنى أن يعيش المرء في عالم أسرة بازِلْدُن. ليس مرَدُّ ذلك إلى أنَّ عالمَها كان عالمًا من الواقع المرير- فقد كانت فقط تعي جدًّا بأنّه عالمٌ رفيعُ الدرجة- ولكنّ عالم أسرة بازِلْدُن يعكس الحياة الريفية القُحَّة في أبهى صورها. فهذه الغرفةُ هي المكان الذي تحتسي فيه سارة الشايَ أو القهوة مع ضيوفها، وتكتب الرسائل وتنظر في شؤون أعمالها التجارية. خطر في بال إِميليا المكتب الخلفي في المكتبة وقرَّرَتْ أن تجعل منه مكانًا أبهجَ للعمل. إذ نادرًا ما قضى أبوها أيّ وقت هناك؛ فكلّ ما كان يفعلُه هو أن يرميَ داخله أيَّ شيء لم يكن يرغب فيه. كان المكتب باردًا ورطبًا وقذرًا. ولا بدَّ من تغييره.

دخَلَتْ سارة ومعها صينيةُ شاي؛ عليها إبريقٌ خزفيٌّ صينيٌّ أنيقٌ، وأكوابٌ وصحونٌ أنيقةٌ وإبريقُ حليبٍ وزبدية سكر، وطبقٌ من الكعك الهشّ، المليء بالسكر الناعم. وضعت الصينية على الطاولة بين الأريكتين.

سألتَها سارة إن كانت ترغب بإضافة الحليب إلى الشاي، فأومأت إِميليا برأسها موافقة.

صحيحٌ أنّ سارة بدت عَكِشَةً بدرجة ما ولكنّها بدت جذّابة على نحو يسلبُ الألباب. لا بدَّ أنّها في الخمسينيات من عمرها ولكنّها بدت أصغرَ من ذلك بكثير. ارتدت بنطالَ جِنْز وقميصًا مزركشًا من ماركة ليبرتي بهتت ألوانه وخُفًّا قصيرًا أزرقَ فاتحًا. شعرُها خليطٌ من عسليّ ورماديّ وبدا وكأنّ مصفّف شعر لندني عريق صبغ خصلاته بذينك اللونين بعناية فائقة، ولكنّ سببَ هذين اللونين هو على الأرجح عدم قدرة سارة على صبغ جذور شعرها عدّة شهور. يداها محمرتان متشقّقتان من تنسيق الزهور، وأظافرها مشرشرة، ولكنّ جوهرة ضخمة جدًّا لمعت على بنصرها؛ جوهرة كبيرة جدًّا حتّى إنّه يستحيل معها تقريبًا أن تكون جوهرة حقيقية، ولكنّ سارة لم تكن من صنف النساء اللاتي يضعن مجوهراتٍ غيرَ أصلية. وجهها دون مكياج ما

خلا لمسة خفيفة من أحمر شفاهٍ وردي اللون وضعته على عجل في حمَّام الطابق السفلي قبل لحظات من فتحها الباب. كانت النموذج الذي يمثِّل بحقّ المرأة الإنجليزية في أبهى صورها.

- عدتُ من فوري من زيارة أَلِسْ.

قالت وهي تصبُّ الشاي، ثم أضافت:

- الزحام خارج أكسفورد فظيع.

- وكيف حال أَلِسْ؟

تنهَّدَت سارة:

- إنّها تتوجّع كثيرًا، يا لَها من مسكينة! وبالطبع فإنّ جميع المسكِّنات تجعل المرء مشوشًا جدًّا. ولكنّها تتحسَّن.

جلست على الأريكة قبالة إِميليا.

- طلبتُ منكِ أن تأتيَ إلى هنا لأنّي أردتُ التحدّث معكِ بخصوص موضوع ناقشته مع أبيك مدّة من الزمن.

أومأت إِميليا برأسها. ثم شبكت سارة يديها وبدت مرتبكة ارتباكًا خفيفًا، غير ناظرة تمامًا إلى عيني إِميليا. عبثت بخاتمها المرصَّع بالجوهرة. أصابع يديها نحيفة جدًّا حتّى إنّ الخاتم ما انفك يدور ويدور حول إصبعها.

- أصبحنا صديقين مقرَّبين، أبوك وأنا. فقد تحادثنا، كما التقينا، غالبًا.

رفعت بصرها وأضافت:

- رالفْ ليس بقارئ عظيم ومن الجيِّد أن يباشر المرء حديثًا لطيفًا مع شخصٍ عن الكتب. وكان أبوكِ دائمًا حصيفًا جدًّا في نصائحه بخصوص الكتب الجيدة. كان لديه شعورٌ بما أردت قراءته ولا أظنّ أنّ هناك كتابًا واحدًا اقترحه عليَّ ولم أحبّه. أحيانًا كان ينصحني أن أقرأ كتبًا لأنّها مفيدة لي وكنتُ دائمًا أقتني كتبًا مما اقترحه عليَّ منها. لقد وسَّع دنياي...

ذبلت عيونها الناعسة، وأغدقت في الإطراء على المرحوم.

- كان رجلًا استثنائيًا.

هذا ما ختمت به إطراءها، ورأت إِميليا تلألؤ الدموع في عينيها الزرقاوين الداكنتين، دموع متلألئة مثل تلألؤ الجوهرة في خاتمها.

- أعلم أنّه كان كذلك. قالت إِميليا.

عجزت سارة لحظةً عن الكلام. تأثرت إميليا أيَّما تأثُّر. رأت كم شقّ على سارة وفاة أبيها. لا تزال دَهِشَةً من مدى تعبير الناس عن مشاعرهم العميقة إزاء أبيها. إذ ما زالوا يأتون صوبها في الشارع ويقولون لها إنَّ أباها كان يعني لهم الشيء الكثير.

- أودّ أن أفعل شيئًا يحيي ذكراه. غالبًا ما تحدَّثَ عن تنظيم مهرجانٍ أدبي. كان ذلك حلمه، واقترَحْتُ عليه أنَّه يمكننا أن ننظم مهرجانًا هنا، في عزبة بيزبروك مانُر. لدينا عدد كبير من الغرف ويمكن استخدامها لذلك الغرض. كنا قد شرعنا بالتفكير في الموضوع على نحو جادٍ بدرجة ما عندما داهمه المرض.

وفي هذه اللحظة أطرقت سارة رأسها. ولاحظت إِميليا تلكؤها في الكلام. قالت إِميليا:

- لقد طَرَحَ الفكرةَ عليَّ، مرة أو مرتين. ويوجد عددٌ كبيرٌ من المؤلِّفين والمشاهير على مرمى حجرٍ من بيزبروك، كما أنّه لا تفصلنا مسافة كبيرة عن لندن. ويمكن للمهرجان أن يصير مكان جذبٍ حقيقي. خصوصًا في بيئة مثل بيئة بيزبروك.

استعادت سارة اتزانها وقالت:

- بالضبط. شعرنا بأنّه يمكننا أن نجذب عددًا جيدًا من المتحدِّثين. ولكنّ لبَّ المسألة أنّ ذلك كان بمثابة حلم يراوده، ولكنّه بدأ يصبح ممكنًا فعلًا. ونحن مهيؤون على أكمل وجه لإقامة فعاليات هنا. وأظنّ أنّه من المعيب أن نفوِّت هذه الفرصة. كما فكَّرتُ بإطلاق اسمه على المهرجان الأدبي. ازْدَرَدَتْ متفاجئة وأضافت:

- مهرجان نايتِنْغيل الأدبي.

قالت إِميليا:

- أوه! ذلك سيكون تكريمًا رائعًا له.

- ومع ذلك فأنا بحاجةٍ لمساعدتك ولدعمٍ من المكتبة. نريدكِ أن توفِّري الكتب للمهرجانِ، بالطبع. كما أريد نصيحتكِ بمن ندعو إلى المهرجان من الكتَّاب والمشاهير. أقصد، هناك أشخاص

كثيرون جدًا ممن يخطرون في البال، ولكنّي أريدُ أن أسمعَ منكِ رأيكِ في ذلك. لأنّني لا أستطيع تنظيم المهرجان دونك. يجب أن يكون الجهد جهدًا جماعيًا.

أمسكت إِميليا قطعة من الكعك الهش وقَضَمَتْها. المهرجان فكرة رائعة! هي ذي تتصوَّرها في خيالها. دهاقنة الأدب من كُتَّابٍ وكاتبات يُحَاضِرُون في قاعة الاحتفالات، الجمهور يبدي اهتمامًا بالغًا بكل كلمة تصدر من أفواههم. برنامج متألق؛ سيكون شبيهًا بمهرجان غْلَسْتُنبيري(98) في مجال المهرجانات القرائية. سيكون المهرجان أيضًا ترويجًا رائعًا للبلدة؛ فزوَّار المهرجان يحتاجون إلى سَكَنٍ يقيمون فيه كما أنهم سيرتادون الحانات والمطاعم. كما يمكن أن يحظوا برعاية للمهرجان من الشركات المحلية...

ولكن يجب على إِميليا الحذر. فهي لا تريد أن ترفع آمال سارة إلى عنان السماء. الفكرة ساحرة جدًا، ولكنها لا تستطيع أن تُظْهِرَ مقدارًا كبيرًا من الحماسة. قالت إميليا:

- جل ما في المسألة أنني لستُ متأكدة ما أنا فاعلة بالمكتبة حتى الآن. أخشى ما أخشاه أنها ليست في وضع مالي جيِّد جدًا.

فهي لا تجني أي أرباح حاليًا؛ وأنا أعاني الأمرَّين لكي أغطِّي نفقاتي الثابتة. كما أنها بحاجة لكثيرٍ من النفقات إذا ما كانت ستبدأ حتى بجني أي أرباح، ولم أقرِّر بعد إذا كان ذلك هو ما أريد فعله.

بدت سارة مرتاعة.

- بالتأكيد لا يمكنك أن تتركي المكتبة تقفل أبوابها؟

- لا أريد أن أفعل ذلك. بالطبع لا أريد. ولكني لا أستطيع الإبقاء عليها لمجرَّد وجود دوافع عاطفية. سيكون فعلُ ذلك حماقة. كما أنَّ لدي موظفين يجب أن أفكر فيهم، بالإضافة إلى التفكير في نفسي.

تأمَّلت سارة كلماتها وقالت:

- أفهم ذلك. تنهَّدَت ثم أضافت:

- لم يذكر يوليوس قط بأن المكتبة كانت في أزمة.

الطريقة التي قالتها بها تركت لدى إِميليا الانطباع بأنهما كانا يتحدَّثان غالبًا، وأن سارة تأثَّرَت بسبب تقصيره. ابتسَمَت وقالت:

- لا أظنّ بأنّ بابا حسب أنّ المكتبة كانت في أزمة. الأمرُ كلّه فيه شيء من البلبلة. ولم أطلع بعدُ على ما خفي من تلك الأزمة. ولكنه أدار المكتبة اعتمادًا على حدسه وخبرته وليس اعتمادًا على تخطيطٍ ودراسة.

- أكان مدينًا إذًا؟

- لا شيء مريع أو يدعو للخجل. ولكن هناك عِدَّة فواتير متراكمة بحاجة للدفع.

- يا إلهي! لم يُلَمِّح ولو مرة إلى أنّه كان في أزمة. بدت سارة وقد تعكَّر صفوها.

- كما قلتُ، لا أظنّ أنّه حسب نفسَه في أزمة. فجملة أبي الشهيرة كانت «ليس لي علاقة بالحسابات».

انحنت سارة إلى الأمام وقالت:

- أوه يا عزيزتي. لا أخفيكِ سرًّا، لديّ خبرةٌ في الخروج من الدُّيوْن الشنيعة أكثر ممّا تتصوَّرين. كُنَّا على شفا خسارة العزبة قبل مدة من الزمن. لا طاقة لي بالحديث عن ذلك، ولكنّها كانت مرحلة مخيفة جدًّا. ولذا أفهم شعوركِ. وإذا ما كان بإمكاني تقديم المساعدة أيًّا كانت...

- معي أندريا، محاسبتي، كنّا في المدرسة معًا. وهي مثل آلة حاسبة تمشي على قدمين منتعلةً حذاءً من ماركة لوبوتان. كانت رائعة معي. ولكن حتى هي لا تملك عصًا سحرية. هناك قرارات صعبة أجد لزامًا عليَّ اتِّخاذها. وإن حدث وتابَعْتُ

المشوار، فالأمر يتطلّب الكثير من الجهد والعمل. ولستُ متوجّسة من ذلك، بالطبع...

- سيتبيّن لكِ فحسب بأنّكِ تظنّين بأنَّك تعرفين شخصًا ما، ولكنّك تبقين لا تعرفينه على حقيقته.

إذْ قالت سارة ذلك، تورَّدَت وجنتاها. ثم وضعت وجهها بين يديها، وفي تلك اللحظة أدركت إِميليا بأنَّ أباها وسارة لا بدَّ كانا أقرب أحدهما إلى الآخر أكثر ممّا ظنَّت. لم تكن متأكّدة من شعورها إزاء هذا الظنّ. فهي تحبُّ سارة حبًّا عظيمًا، ولكن لا مفرَّ من إنكار حقيقة أنّها متزوّجة برالف زواجًا لا تعصف به المنون. أعليها أن تضغط على سارة حتّى تبوح بمزيد من التفاصيل؟ أتريد سارة لها أن تعرِف بالأمر؟ حسبت أنّها ربّما أرادت ذلك. فقد ألمحت إلى ذلك أكثر من مرَّة.

ربّما لا يكون اليوم هو اليوم المناسب للبوح. فكلّ شيء ما زال في بداياته بعض الشيء. كانت إحداهما تجسُّ نبض الأخرى. إذا ما اتفقتا على موضوع المهرجان الأدبي، وعملتا معًا، فربّما للقصّة أن تظهر من ألفها إلى يائها في وقت ما، عندما تكونان مستعدّتان لذلك. قالت إِميليا باتَّةً في الأمر:

- أظنّ أنّ فكرة المهرجان الأدبي فكرة رائعة. وإذا قرَّرْتُ إبقاء المكتبة مستمرّة في عملها، فأعتقد أنّه ينبغي لنا إقامته. وكما قلتِ، سيكون ذلك إحياءً عظيمًا لذكراه. وسيكون أبي في قمة الفخر.

ابتسامة سارة كانت متردِّدة نوعًا ما:

- سيكون فخورًا...

وضعت إِميليا كوب الشاي وقالت:

- سأخبركِ بذلك حالما أقرر ماذا سأفعل بالمكتبة.

أعقب ذلك صمتٌ. وسارة تُدَوِّر خَاتَمَها مرَّة أخرى. علقت في الجوّ كلمات تنتظر البوح.

- إِميليا! هناك أمر أريد أن أبوح لكِ به. ولكنّه سرّي للغاية. ولا أَستطيع كتمه بعد الآن.

رأت إِميليا سارة وهي تخوض معركة مع الكلمات التي كانت موشكة على التلفّظ بها. سألتْها إِميليا بلطف:

- هل يتعلّق الموضوع بكِ وبأبي؟

عَلَتْ وجنَتَي سارة حمرةُ الخَجِل:

- كنتُ على عَلاقة حبّ بأبيك. عَلاقة حبّ عظيمة.

إذا فكَّرت في ذلك الحبّ، فما زالت تستطيع الشعور به الآن. اجتاحت حرارةٌ لاهبةٌ تجاويف عظامِها؛ كرة من الدفء أحاطت بجهةِ قلبها. لم يعرفا قطّ ماذا يفعلان بحبّهما. فالإفصاح به على

الملأ كان من شأنه أن يودي بهما إلى عالمٍ آخرَ؛ تحكمُه مجموعةُ ظروفٍ تعرفُ سارة أنّها لا قِبَلَ لها بتحمّلها. فهي محكومة بواجبها تجاه زوجها، وأسرتها وعزبة بيزبروك مانُر. ولا تستطيع المهاودة في ذلك الواجب. لم تكن علاقة حب تنطوي على الإنصاف لأي كان، ولكنها كانت في جلها منصفةً ليوليوس. فقد اعترض بأنه لا يمانع في الإفصاح عن علاقتهما، ولكن سارة مانعت ذلك. فدائمًا ما راودها شعور فظيع بأنه الطرف الخاسر فيها، وأنها كانت نوعًا ما الطرف الرابح من تلك العلاقة.

ولكن ما إن تتحدث معه بشأن إنهاء تلك العلاقة، وهو ما فعلته بين الفينة والأخرى عندما كانت الندامة تنخر جسدها في عتمة الفجر، إلَّا وجذبها إليه وقبَّلَها. يا لعذوبة تلك القبلات! قبلاتٌ لا نهاية لها يصل صداها إلى أعماق أعماقها. أهناك أعظم من ذلك، تساءلت؟ أهناك أعظم من أن تقبِّلي رجلًا ما بحميمية فائقة حتى تشعرين بأن روحكِ ذابت في روحه؟

لم تكن فخورة بعلاقتها بيوليوس لأنها هاوَدَتْ فيها الرَّجُلَين اللذين تحب. فهي لا تزال تحب رالف على طريقتها الخاصة، رغم كل المآزق التي أدْخَلَهَا فيها. رغم أنَّ أحدَهُما كان يعيشُ حياةً منفصلةً عن الآخر فما يزال بينهما الكثير مما يجمعهما،

وليس أقلها ابنتهما ألِسْ. ولن تتخلى سارة عما يجمعهما مهما حدث.

ولكنها احتاجت إلى يوليوس. تعرف أنَّ في الأمر أنانية؛ أنانية أن تستمر في علاقتها به، رغم أنه أصرَّ بأنَّه لا يكترث بالأمر. فطالما أنه يستطيع أن يحظى بقليل من الحب معها، فلم يكن يكترث بالأمر.

لم تستطع أن تشرح كل هذا لإميليا. فإميليا ما زالت في ريعان شبابها. ولن تفهم دقائق الأمور والمهاودات والإشكاليات التي تجتاح حياة المرء عندما يكبر. كما لم ترد أنْ تلوِّث أمثولة يوليوس في ذاكرة ابنته بتصويره وكأنَّه حَادَ عن جادة الصواب والأخلاق القويمة.

ولذا انتقت كلماتها بعناية.

- أحبَبْتُ أباك، ولكنِّي بالطبع، امرأة متزوّجة، وكان مُدرِكًا لذلك إدراكًا كبيرًا. فهو رجلٌ متفهّمٌ جدًّا ويراعي مشاعر

الآخرين مراعاة كبيرة. واحتَرَم وضعي كامرأة متزوّجة. ولكنّنا أصبحنا قريبَين جدًّا بعضنا من بعض...

أملت أنّ ما قالته بدا منطقيًّا. فهي لم تكن تكذب فعلًا. ولم تنكر أيَّ شيء من قبيل ذلك. أقل ما يمكن وصف ما قالته بأنه كان مواربًا. فهي ليست بحاجة للخوض في تفاصيل قوة العلاقة التي جمعتهما. فما بينهما علاقة عاطفة متأججة، رغم أنها لَبِسَتْ لبوس الصفاء والنقاء.

لم تنبس إِميليا ببنت شفَة برهةً. وعندما تكلَّمت لتحسمَ الأمر، قالت بصوت لطيف:

- أنا سعيدة. أنا سعيدة لأنّه حظي بالتعرُّف على امرأةٍ رائعة مثلكِ. امرأةٍ تهتمُّ به. تفكِّر فيه عندما يستيقظ في الصباح.

انسلَّت دمعة على وجنتها ثم أرْدَفَت:

- آسفة. فالمسألة برمَّتِها أنّني... اشتقتُ إليه.

مَسَحَت إِميليا عينها بظهر يدها، وهبَّت سارة واقفة لمواساتها. إذ لم تستطع أبدًا تحمّل رؤية إنسانٍ يبكي. ربّما يحتِّم عليها واجبها أن تضبطَ مشاعرها عندما يخصُّها الأمر، ولكن عندما يتعلّق الأمرُ بالآخرين، فقد كانت رحبة الصدر وحانية. جلست على الأريكة قرب إِميليا وعانقتها وهي تقول:

- وأنا أشتاق إليه أيضًا. أشتاق إليه شوقًا قاتلًا.

- سبب سعادتي أنّه لم يكن وحيدًا.

قالت إِميليا بصوتٍ مرتعش. بدت مثلَ فتاةٍ صغيرةٍ تحاولُ مستميتةً ألَّا يرتفع صوت بكائها، ثمَّ أضافت:
- كنتُ دائمًا قلقةً عليه لأنّه كان وحيدًا. كان رجلًا رائعًا ويستحقّ أنْ يُحَبَّ.

- أوه، نال من الحبّ نصيبَه. كوني على يقين من ذلك.

انحنَت إِميليا معانقةً سارة. ما أروع أن تسرِّي عنكِ الهمَّ امرأةٌ عاشقةٌ لأبيكِ!

- لم يعرف أحدٌ بعلاقتنا بالطبع. لم نستطع أن نخبر أحدًا قطّ. ولكنّني أخاطرُ في البوح لكِ بذلك لأنّني أظنّك ستتفهمين المسألة. ولأنّي أريدك أن تعرفي أيضًا أنّني دائمًا جاهزة للمساعدة عند الحاجة. أعرف بأنّ يوليوس ما كان إلّا ليطلبَ منّي أنْ أعتني بكِ. وإذا كنتُ أستطيع دَعْمَكِ، بأيّ وسيلة ممكنة، فليس عليكِ سوى أن تطلبي ذلك. حتّى لو كان الأمر يتعلّق فقط بالحديث في سيرته. أو مجرَّد الزيارة واحتساء الشاي. أو النبيذ. أو أي شيء. أي شيء.

أمْسَكَتْ إِميليا يدي سارة ونظرَت إليها. ها هي ترى الآن عمق الحزن في عيني سارة. شعرت بدفئها ولطفها اللذين لا شكّ جذبا أبيها إليها. وهي ممتنة لسارة بسبب حنانها وصدقها. لا بدَّ أنّه كان اعترافًا موجعًا. وشعرت بالفخر أنْ ائتمَنَتْها سارة على السرِّ. ظنَّتْ أنّه عندما يسمح لها الوقت بالتأمّل في الموضوع، ربّما ستعتريها الصدمة، ولكنّها لن تطلق الأحكام على أبيها

وسارة بسبب ذلك. وجدت في الأمر سلوى لها، سلوى وراحة أنَّ أباها حظي بوفاء هذه المرأة. وهي تعرف، من خلال كلّ الكتب التي قرأتها، وما زالت تقرؤها، بأنّ الحياة معقَّدة، وأنّ الحبَّ ينبع من مكان مجهول أحيانًا، وأنَّ العشقَ الممنوعِ ليس دائمًا باعثًا على الخزي والعار.

(98) بلدةٌ في جنوب غرب إنجلترا، وفيها العديدُ من المواقع التاريخية، ويُقامُ فيها كلّ صيفٍ مهرجانُ غْلَسْتُنبيري للموسيقا.

الفصل السادس عشر

بعد بضعة أيام، وضعت بِيْ مجلَّدًا عرضَتْه أمام إِميليا مصحوبًا بابتسامة فخرٍ وقالت:

- حاوَلْتُ جاهدةً حقًّا ألَّا أغترَّ كثيرًا بما أنجزْتُه.

أنَجَزَت المجلَّد على شكل كتاب، وكتبَت على غلافه الأمامي مكتبة نايتِنْغيل بخطٍّ فضِّي على خلفية كُحْليَّة. كما صمَّمَتْ شعارًا للمكتبة؛ وَضَعَت فيه حرفَي الميم والنون وقد عانق أحدهما الآخر، مع محلاقٍ(99) اعترشته الورود وبلبلٍ(100) صغير جاثمٍ بينها.

- هذا هو الشعار، ويمكنكِ استخدامه في حسابات المكتبة كافّة على مواقع التواصل الاجتماعي، وطباعته على أكياس المكتبة، واللافتة الموضوعة في الخارج. وله تأثير بصري قوي حقًّا يستطيعُ الناس تمييزه والتآلف معه كرمزٍ للمكتبة.

- يا لَه من شعارٍ لطيف! يمكننا أن نطبعَه على قمصان أيضًا.

قالت إِميليا وقد اجتاحتها دوَّامةُ فَرَح.

- بالضبط. فالهدفُ من الشعار إنشاء علامة تجارية للمكتبة وكذلك تكريس تجربة تسوُّق تُخاطب حواسّ القُرَّاء بحقّ.

- حسنًا...

لم تكن إِميليا معتادةً على مصطلحات التصميم والتسويق، ولكنه يبقى ميدان بِيْ ومربط خَيْلِهَا.

كانت الصفحة الأولى من المجلَّد مخططًا تفصيليًّا للمكتبة مُصمَّمًا بالحاسوب ومُقسَّمًا إلى أقسام، مع استخدام خزائن كتبٍ ذات أرففٍ من جهتيها كلتيهما. في وسط الأرضية طاولة حسابٍ تشرف على أربع جهات، مما يتيح لأيّ موظّف واقف هناك أن

يرى داخل المكتبة من الجهات كافّة. شرَحَتْ لها بِيْ السرَّ وراءَ هذا التصميم:

- أَرَدْتُ أن يشعرَ الزائرُ وكأنّ للمكتبة حُجُرَاتٍ متعدِّدة. حُجُرَاتٍ متعدِّدة بأحاسيس مختلفة. هناك الكثير من المساحة المهدورة حاليًا، ولكنّ هذا التصميم يمنحكِ ضعفي مساحة الأرفف الحالية إضافة إلى مساحةٍ أكبر تمكِّن القارئ من استعراض الكتب.

خصَّصَت بِيْ لكلّ قسمٍ صفحةً في المجلَّد وأبدعت لوحةً تصميمية تعكس محتوياتِ كلّ قسم. تحفة إبداعات بِيْ تتمثَّل في المساحة المخصَّصة للمقهى الواقعة على المَشْرَف، وفيها أيضًا مكان لبيع البطاقات وأوراق التغليف والهدايا الصغيرة. هناك ثلاث طاولات خشبية فقط، وطاولة ذات سطحٍ رخامي عليها ثلاث أوانٍ من الكعك تعلوها أغطية زجاجية مقبَّبَة.

صاحت إِميليا:

- يا لَلجمال! أتظنّين أنّه يمكننا تنفيذ هذا التصميم؟ فهو يبدو في غاية الروعة. كأنَّه التصميم السابق نفسه ولكنّه مختلف.

- أردْتُ الحفاظ على الرُّوح التي أضفاها أبوك على المكان، ولكن مع تعديلها قليلًا. وجَعْلُ المكتبة حديثةً ولكن مع نوستالجيا إلى الماضي، بحيث تصير مكانًا يستطيع فيه الناس استكشاف خيالاتهم: إذ يمكنهم العودة إلى الماضي إذا شاؤوا، أو إلى عالم آخر، أو الولوج إلى المستقبل. هذا ما ينبغي للمكتبة أن تكون؛ فهي في نهاية المطاف بوّابة عبورٍ إلى مكان آخر. ولكنّ الكتبَ وحدَها لا تكفي لتحقيق هذا المراد؛ ينبغي أن تمنحي القُرّاء أدواتٍ تصميمية تساعدُهم على بلوغ ذلك.

قَلَّبَتْ إميليا صفحات المخطّطات. كانت بِيْ ذكية حقًّا. فقد أبقت كلَّ الأشياء المهمّة، ولكنّها أظهرَتها بتأثيرٍ أعظمُ بكثيرٍ ممّا كانت عليه. باتت الألوان أَلطف، فالجدران رمادية فاتحة، والأرفف دُهِنَت باللون الأبيض، ممّا جعل المكتبة تبدو أكبر مساحة من قبل.

- أعْجَبَنِي التصميم برمّته. كما أعْجَبَتْنِي الأضواء!

في اللحظة الراهنة، يضيء المكتبةَ حبلُ أضواءٍ قديمة الطراز، أجمل وصف يقال في حقّه هو أنّه مؤذٍ للناظر إليه. أضافت بِيْ بعض الثريات اللطيفة جدًّا؛ ثريات من زجاج مبروم أبيض لها سلكٌ أحمر يمتدُّ من واحدةٍ إلى الأخرى.

- حسنًا، على الأرجح أنّ هذه الثريات غالية جدًّا، ولكنّها تعطيك فكرة عمّا يمكن القيام به من إضافات.

تَنَهَّدَت إِميليا:

- كم سيكلفنا ذلك برأيك؟ لأنّه، بالطبع، هنا تكمن المشكلة الكبرى. إذ لا شيء من هذه التعديلات يبدو رخيصًا.

عبَسَتْ بِيْ:

- لا بأس، الأشياء الثمينة تستحقُّ الثمن الذي دُفِع من أجلها. ولكن يمكن إجراء بعض هذه التعديلات باستخدام أَلواح الخشب الخفيف وبعض اللمسات السحرية. ويمكننا أن نستخدم المواد الموجودة لدينا سلفًا. فإذا أزلنا السجَّادة عن الأرضية، يمكننا أن نستخدم الأرضية دون سجَّاد؛ ويمكننا أن ندهنَها بلونٍ فاتح ظريف. ومن ثم ندهن كلّ شيء بألوان فاتحة ممّا سيعطي إيحاءً بصريًا بوجود مساحة أكبر. ولستِ مضطرة لإجراءِ كلّ تلك التعديلات دفعةً واحدةً!

- ولكني أريد فعل ذلك كلُّه دفعة واحدة.

قالت إِميليا ضاحكة، ثم أضافت:

- وكم تظنين أننا نحتاج من الوقت لفعل ذلك؟ سنضطر لإغلاق المكتبة أثناء إجراء هذه التعديلات.
- لقد وضعتُ جدولًا زمنيًا بذلك. وأظنّنا نحتاج أسبوعين، شريطة أن تجري كلّ الأعمال معًا على قدم وساق. أمّا السعرُ، فسنضطر لطلب عروض أسعار. فمعظم الأعمال تتعلّق بالنجارة؛ وقليلٍ من التمديدات الكهربائية. والديكور. ولكن

بالطبع، وكما نعرف جميعًا، حالما تبدئين بإزالة شيء ما من مكانه، سيثور في وجهك عُشِّ الدَّبابير.

قالت إِميليا وهي تهزُّ رأسَها:

- إنّها عملية تجديد شاملة. لا معنى من أن يكون المرءُ أخرق أثناء القيام بذلك. سنضطّر إلى إخراج كلّ الكتب خارج المكتبة ووضعها في مكان ما. كما أنّني بحاجة لتركيب نظام حاسوبي جديد أثناء إجراء التعديلات. عدا عن موضوع نظام حماية المكتبة.

وَضَعَتْ وجهها بين يديها وأضافت:

- أنا في غاية الفرح. ولكنِّي خائفة. ينبغي لي اتخاذ القرار ولا أعرف ماذا أفعل. سيكون من السهل جدًّا ترك هذا الأمر والعودة إلى حياتي السابقة. أو بيع المكتبة وافتتاح مكتبة جديدة. وأي من هذين الحلَّين أسهل من خيار تجديد المكتبة!

- ولكن أيًّا من هذين الحلّين لن يكون مربحًا؟

أجَالَتْ إِميليا أنظارها في أرجاء المكتبة. تخيَّلتْ كلّ ما صمّمته بِيْ وقد بُعِثَتْ فيه الحياة، وتخيَّلتْ مقدار الروعة التي سيكون عليها.

ليس عليها سوى أن تستمد الشجاعة من مكان ما.

وكذلك عليها أن تجد المال... قالت إِميليا:

- سأحصِّل بعض عروض الأسعار. فلا معنى للفرحة إلَّا إذا عَرَفْتُ كم سيكلفنا ذلك.

- أعرف بعض الأشخاص الجيِّدين الذين اشتغلوا لي في منزلي. وهُم موثوقون. وسريعون. وجيِّدون. وهذه صفات لا مفرَّ منها لمن يريد أن يتعامل معي.

ضحكت بِيْ وأضافت:

- سأطلب منهم عروض أسعار.

- وهلَّا ساعدتني في إعلانٍ نضعه في الواجهة بخصوص زيارة مِكْ غيلِسبي؟ لا تنسي أنه قادم في العطلة الأسبوعية.

- بالطبع.

التمعت عينا بِيْ ثم سألتها:

- أتمنحينني مطلق الصلاحيات؟

- معكِ مطلق الصلاحيات وميزانية تبلغ خمسين جنيهًا إسترلينيًا. ومقدار ما تشائين من كُتُبِه التي تستطيعين عرضها في الواجهة.

قالت بِيْ متفائلة:

- سيكون حدثًا رائعًا. ستكون مُوْدْ في الحضانة ظهيرة الخميس. سآتي وأرتب أمر الواجهة عندئذٍ.

- لا أستطيع أن أدفع لكِ أجرًا كبيرًا.

- اسمعيني، ما أفعله يحول بيني وبين الإصابة بالجنون بسبب الملل الذي أعيشه. كلّ ما أريده منكِ نسخة من كتابه موقَّعة بخطِّ يده.

- أنتِ رائعة.

- أعرف.

ابتسمت إِميليا بينما غادرت صديقتها الجديدة المكتبة. جعلتها بِيْ تشعر وكأنّ الأمور ممكنة، ومن ثم يغلِّفُهَا المرء بطبقة من البهاء. بِيْ إنسانة مميَّزة. ومن حُسن حظّ إمِيليا أنْ تغرف من نيّاتها الطيبة وموهبتها، ولكنّها لن تكون قادرة على الاعتماد عليها في المدى الطويل. فالاستعانة بخبرات بِيْ ستكون مكلّفةً جدًّا لها.

* * *

لاحقًا في ذلك الأسبوع، عاد جاكسُن إلى إِميليا ليبُثَّهَا رأيَه بكتاب عالم المومين. قال لها:

- لقد اتخذت قراري، وسأحاول أن أكون أقرب ما يمكن من شخصية بابا مومين.

- حسنًا، ذلك قرار جيِّد جدًّا. ولكن ربّما تحتاجُ أن تكسب قليلًا من الوزن.

- لا أرجوكِ! فزوجتي السابقة ما فتئت تتحدَّث عن بدانة كل شخصيات المومين. ولكنّهم على الأقل سعداء. فهم لا يحضِّرون مخيض مشروب الكُرُنب أو يرتبكون إذا أكلوا حبَّة لوز طازجة إضافية.

- أهي مهووسة نوعًا ما بالأمور الصحية؟

- لقد تحوَّلت إلى مهووسة. ولم تكن من عادتها أن تكون كذلك قط. وهي تمارس رياضة الترياثلون وباتت مهووسة بعدد نبضات قلبها ودهون جسمها وعدد المرَّات التي يمكنها أن تتدرَّب فيها.

- يبدو الأمر فظيعًا.

- ليس عندي مانع. إذ إن ذلك يعني أنْ أبقى رفقة فِنْ مدة أطول بينما تذهب هي في جولات لا تنتهي على الدرَّاجة. إذًا، ما الكتاب التالي الذي عليَّ قراءته؟

- وقَعْتُ من فوري على الكتاب المثالي في المكتبة. فأنا أحاول أن أنشئ قسمًا لكتب الأطفال وأظنّ أنّه ينبغي لكَ أن تقرأ هذا.

سارت أمامه نحو طاولة عُرِضَتْ عليها الكتب وأمسكت بكتابٍ مصوَّر.

- لا أعرف أحدًا لم يستطع أن يتعلَّم شيئًا من كتاب الأمير الصغير(101)، رغم أنَّكَ تحتاج على الأرجح لأن تقرأه بضع مرَّات حتى تفهمه فهمًا كاملًا.

أعطته الكتاب. لم يكن كتابًا سميكًا، وعلى غلافه صورة لصبي صغير أشقر يرتدي ثيابًا زرقاء، واقفًا على كوكب. تابعت حديثها:

- إنّه كتاب مضحك. مضحك على نحو فريد. ولكنّه يشرح الأشياء. وهو أفضل كتابٍ في العالم من وجهة نظري.

- ظننتُ أنّ كتاب المومين هو كتابُك المفضَّل.

ابتسمت ابتسامة عريضة:
- هذا كتابي المفضَّل بعد كتاب المومين. حسنًا. أنا أقرُّ بذلك. عندي الكثير من الكتب المفضَّلة. وهذه هي الطامّة الكبرى مع الكتب. إذ لا يستطيع رأيك أن يستقرَّ ألبتة على أيّ كتابٍ تفضِّلُه على غيره. فرأيكَ يتغيَّر تبعًا لمزاجك. ولكنّي أعتقدُ بحقّ أنَّك ستحبُّه.

- سأجرِّبُ قراءتَه.

أعطاها ثمنَ الكتاب ثم أردف:

ـ أحبَّ فِنْ حقًّا فكرة أن يقرأ له أحدٌ ما. وأحدَثَ ذلك فرقًا كبيرًا في علاقتي به. أظنّه كان يراني مثالًا للشخص الذي يلهو معه في ساحة التزلج على الألواحِ وحسب، ولكننا تبادلنا بعض الدردشات الجيِّدة حقًا.

بدا عاطفيًا بعض الشيء وأضاف:

ـ أمر جيد، بعد كل ما جرى. ولا أشعر بأنني فاشل كبير...

ـ أنا متأكدة أنّك لست بفاشل. قالت إِميليا.

بدا جاكسُن مرتبكًا:

ـ آسف لأنّني أشكو لكِ همومي...

- اسمعني، ذلك جزءٌ من عملي. يأتي الجميع إلى هنا ليشكوا همومهم. وأنا لدي وظيفتان: مكتباتية ومعالِجَة نفسية.

أعطتْه الكتاب. بينما كان يأخذه منها، لمح جاكسُن الإعلان الملصق خلف طاولة الحساب، يعلن عن إقامة أمسية مِكْ غيلِسبي.

- مِكْ غيلِسبي؟ هل هو آتٍ حقًّا إلى هنا؟

- نعم، أعجبتك الفكرة؟ أنا في قمّة الفرح لقدومه.

- ألا يزال عندكِ تذاكر؟ وكم سعرها؟

- خمسة جنيهات - ولكنّك تحصل على مأكولات خفيفة وعصير كوكتيل القمر الفضّي مقابل حضورك. كما كلَّفتُ طاهيةً بإعداد حلويات كاناپيه أيرلندية خاصّة. ستكون أمسية مشهودة.

- ستحبّ ميا ذلك. فهي مهووسةٌ بمِكْ غيلِسبي. اشترت لي كنزة منسوجة من صوف أران في عيد الميلاد في إحدى السنوات. بدوتُ فيها كالأحمق.

هزَّ جاكسُن كتفَيه بحزنٍ وأضاف:

- أيمكنني الحصول على تذكرتين؟

- بالطبع!

أخرجت إِميليا تذكرتين من الدُّرْج.

- ستطيرُ من الفرح.

ابتسم جاكسُن ابتسامة عريضة، وهو يُخْرِجُ عشرة جنيهات.

أطلَّت بِيْ قادمة من الواجهة، ترتدي بذلة العمل، ممسكة بيدِها بمسدَّس الصمغ. ابتسمت في وجه جاكسُن، ونظرت إلى إِميليا، وعيناها تموجان بالأسئلة عن هذا الزَّائر.

لم يكن أمام إِميليا خيار سوى أن تُعَرِّف أحدَهُما بالآخر.

- بِيْ، أعرِّفُك بجاكسُن. جاكسُن، هذه بِيْ. وهي تصمّم إعلانًا خاصًّا بأمسية مِكْ غيلِسبي لوضعه في واجهة المكتبة.

أومأ كلٌّ منهما ملقيًا التحيةَ على الآخر. قال جاكسُن:

- إذا احتجتِ مساعدةً في أيّ شيء، فأنا ماهرٌ في الأعمال اليدوية.

رفعت بِيْ مسدسَ الصمغ وقالت:

- أموري بخير. ومع ذلك شكرًا لك.

استدار جاكسُن وهمَّ بالمغادرة، مودِّعًا إِميليا بيدٍ مرفوعة:

- شكرًا على كلّ شيء. أراكِ قريبًا.

تابعته بِيْ بنظراتها وهو يخرج من الباب. قالت:

- أراهن بأنه ماهرٌ كل المهارة. ماذا تنتظرين؟

تظاهرت إِميليا بالصدمة:

- با لـ عليكِ يا بِيْ! فهذا ليس الصنف من الرجال الذي يروق لي. رغم أنّه لطيف. ولكنّه مهووس كليَّةً بزوجته السابقة. واشترى لها من فوره تذاكر لحضور أمسية مِكْ غيلِسبي.

- ولكنّها تبقى زوجة سابقة! هوِّني عليكِ الأمر! فأنتِ بحاجة للترفيه عن نفسِك. وهو بحاجة لنسيانها. اطلبي منه الخروج في موعدٍ معه.

- إنّه زبونٌ! ولن أفعلَ ذلك.

- ولمَ لا؟ فأنتِ لستِ طبيبةً حَنَثَتْ بقَسَم أبقراط. ولا يوجد قانون يمنعكِ من إقامة علاقة مع زبونٍ من زبائنك.

تذكَّرت إِميليا بغتةً أباها وسارة. دار في رأسِها عددٌ كبيرٌ جدًّا من الأسئلة. كيف بدأت علاقتهما؟ هل بدأت في المكتبة؟ حسبت أنّ سارة ربّما تبوح لها بذلك ذات يوم.

في أثناء ذلك، وجدت نفسها بحاجة لأن توقفَ ضغط بِيْ عليها. فجاكسُن لم يكن خيارًا لها. ويمكنها أن تستشف ذلك من عينيه.

- يوجد صمغٌ في شعرِك.

قالت إِميليا، ومضت في سبيلها.

* * *

ما انفكّ ديلُن يزورُ أَلِسْ كلّ يوم بعد انتهاء العمل. وكان قد أحضر لها حاسوبَها المحمول ممّا أدخل الفرح والسرور على قلبها.

- لا تخبر أمّي.

نبَّهَتْه. لم يظنّ أنّ المسألة ذات بالٍ حقًّا؛ فلا ضيرَ في أن تتمكَّن من الاطِّلاع على بريدِها الإلكتروني. فما من أشياءَ أخرى كثيرة تفعلها في المستشفى. قالت له:

- لكي أصدقكَ القول، فهذا يزيح الألم من رأسي.

تابع قراءَته في رواية الفرسان. وبدأ فعلًا يستمتع بالقصّة وأراد أن يعرف ما الذي حصل لاحقًا. كان الأمرُ يشبه المكوث في نُفَّاخَة صغيرة، هو وألِسْ وحدهما في حجرتها الخاصّة في المستشفى. أحضَرَت لهما الممرضة شايًا بنّيًا مائلًا إلى الورديّ في أكوابٍ خضراءَ، وأحضر ديلُن معه المزيد من الشوكولا. قالت ألِسْ متذمِّرةً:

- سأصبح سمينةً جدًّا. ولن يتناسبَ حجمُ جسمي مع فستان عرسي.

استحسن ديلُن ذلك في قرارة نفسه. صحيحٌ أنّه أراد لألِسْ أن تتعافى، ولكنّه كان يأملُ ويدعو ربَّه أن يتأجَّل العرس بسبب إصاباتها. ومع ذلك بدت عاقدةَ العزم على إقامة العرس، رغم معاناتها من ألمٍ فظيع، وأجبرت نفسها على إجراء جلسات العلاج الفيزيائي. قالت له:

- سأدخل دخلة العروس بين المدعوّين في الكنيسة دون عكاكيز حتّى لو كان في ذلك هلاكي.

أتعبها التفكير في ذلك الأمر، رغم أنّها حاولت أن تتظاهر بخلاف ذلك. كانت مستلقية في سريرها بعينين مغمضتين وهو يقرأ. لم يكن متأكّدًا إنْ كانت نائمة ولكن ذلك غير مهمّ. فبإمكانه أن يعاود الكرَّة ويقرأ الفصل الذي كان فيه مرة أخرى.

توقَّف عن القراءة.

فتحت عيناها.

- أتريدينني أن أتابع القراءة؟

- لا.

استقامت في سريرها وأردفت:

- أريدكَ أن تسدي لي خدمة.

- مستعدٌّ لأيّ شيء، وأنتِ تعرفين ذلك.

- سأنزع الضمادَ الموضوعَ على وجهي وأريدك أن تنظر إلى الندبة وتخبرني بمدى فظاعتها. لا أستطيع أن أنظر إليها بنفسي. ولكنّي في حاجة لأن أعرف إذا كان وضعها سيّئًا جدًّا ولا أستطيع إجراءَ مراسم العرس وأنا على هذه الحال.

- حسنًا.

سَحَبَتْ اللاصق الطبّي المثبِّت للشاش الملفوف حول الندبة.

حاول ديلُن ألَّا يظهر حزنه وقال: اسحبيه بحذر.

ثم سحبت الضماد إلى الخلف بلطف. بان تحته جرحٌ أحمرٌ كامدٌ؛ جرحٌ على شكل حرف (V) في أعلى خدِّها.

- لا بدَّ أنّه سيزول؛ ويزول معه الاحمرار وسيتلاشى أثره قليلًا.

قالت ألِسْ وهي تتحسّس موضع الجرح. ثم أضافت:

- ولكن أهي ندبة مخيفة فعلًا؟ أهي من الندوب المرعبة؟ وهل يبدو شكلي مثل هيرمَن مَنسْتِر(102)؟ كل ما يقلقني الآن هو ألَّا أبدوَ فظيعةً يوم العرس. إذا كانت ندبةً سيّئةً فسأضطرُّ لإلغاء العرس. أريدكَ أن تكون صادقًا معي كلَّ الصِّدْق.

نظر ديلُن نظرة متمعنة إلى الجرح. أفكارُه تتسارع في رأسه. إذا أخبرها بفظاعة الندبة، فربّما حينئذٍ، وهو ظنٌّ لا أكثر، ستؤجِّل العرس. وفي أثناء ذلك، ستتاحُ له الفرصةُ ليصيبَ هيو في مقتل بطريقة ما. سيجبره على أن يظهرَ على حقيقتِه بحيث يُلْغَىْ العرس إلى أبدِ الآبدين. ربّما يمكنُه الحصولُ على بعض الكوكايين من بوغو، ومن ثَمّ يقدِّمُه لهيو. ويعرض عليه صفقةً أفضلَ. لم يكن متأكّدًا من أنّه سيقومُ بدور تاجر المخدِّرات المقنع جدًّا، ولكنّه حَسِبَ بأنّه سيكونُ على الأرجح مناسبًا لهيو أن يحظى بشخص يزوِّده بالمخدِّرات ويكون موجودًا في عزبة بيزبروك مانُر...

لا، فكَّر ديلُن. لا يمكنه أن ينجح في هذه المهمّة. فربّما سيشكّ هيو مباشرةً بالأمر.

ومع ذلك، لا يستطع أن يقول لألِسْ الحقيقة. فبالنسبة له، لا فرقَ إذا ملأت الندوب وجهها برمّته؛ فحتّى وإن حصل ذلك فستبقى جميلة في نظره. قال لها:

- ليست سوى ندبةٍ حمراءَ ومتورِّمة قليلًا.

- حقًّا؟ أقصدُ، يمكنني أن أسدلَ شعري فوق وجهي ووضع الطرحة عليه...

- بصراحة، لن يلاحظَها أحد.

تنهَّدت.

- أنتَ الشخصُ الوحيدُ الذي أستطيعُ أن أثقَ فيه حتّى يصدقني القول. وكلّ ما عداك يكذبون فقط ليجعلونني أشعر بالتحسّن. لا أحد منهم يريد للعرس أن يُلْغَى. ولكنّي أعرف أنّ ذلك لا يعني لكَ شيئًا سواء ألغي العرس أم لم يُلْغَى.

فكر ديلُن بأنّ ما قالته ليس بعيدًا كلّ البعد عن الحقيقة. إذا كان هناك أحدٌ يريدُ لهذا العرس أن يلغى فهو أنا.

ـ ما انفكَّ هيو يطلبُ منّي عدم القلق، ولا أريدُ مناقشةَ المسألة معه لأنّ ذلك يجعلني فقط أشعرُ بالندم بسبب وقوع الحادث.

شعر ديلُن بغضبٍ شديد حتّى إنّه بالكاد استطاع التنفّس. إذ لم يشعر هيو الوغد بالندم ولو لحظة واحدة. قالت أَلِسْ:

ـ أأنتَ بخير؟

ـ أنا بخير. المكان خانق قليلًا هنا وحسب.

ـ أعرف. إنّه فظيع في الليل. بالكاد أستطيع النوم. ولكن ينبغي لي الخروج من هنا قريبًا.

ـ تلك أنباء سارَّة.

ـ سأُجَنُّ إذا اضطررتُ للبقاء هنا مدّة أطول. وكنت سأجَنُّ لولا زياراتك. تزورني ماما زيارات خاطفة كلّ يوم، ولكنّها مشغولة مع بابا في العزبة وهيو يعمل كالمجنون لكي يكون أمامه وقتٌ كافٍ للعرس وشهر العسل...

قاطَعَها:

ـ أرجوكِ، لا أريد سماع المزيد عن العرس.

بدت أَلِسْ مضطربة.

مدَّ يده ولمس وجهها بلطف.

ـ أنتِ جميلة. هل تعلمين ذلك؟

كانت تحملق إليه. سكن الزمن لحظة. ربَّتَ على وجنتها بظاهرِ أصابعه.

- أيّتها البنُّوتَة الصغيرة المسكينة!

يعرف بأنّه لمسها مدّة أطول من اللازم. ولكن لم يبدُ أنّها مانعت ذلك. بدت متسمِّرةً حتّى النخاع. قالت:

- أوه يا ديلُن.

- ماذا؟

انقبض وجهُهَا اضطرابًا.

- أنتَ تجعلني أشعر بالكَدَرِ قليلًا. ذلك هو السبب.

ابتسم:

- هذا مضحك. كنتُ أحاول أن أحسِّن مزَاجك.

- وهذا ما حصل! هنا مربط الفرس؛ فقد جعلْتَنِي أشعر وكأنّه لا أهمّية للشكل الذي يبدو عليه وجهي.

- حسنًا، بالطبع لا أهمّية لذلك.

عضَّت شفتها وقالت:

- شكرًا لكَ.

انحنت إلى الأمام. فاحت منها رائحة المُعَقِّم والبودرة والشوكولا. دقَّ قلب ديلُن بقوة، فهي على وشك تقبيله. ومن ثمَّ

سمعا بغتةً صوت هيو في الممر، وهو يتبادل مزاحًا هَذِرًا مع الممرضات. سحبت ألِسْ جسدَها إلى الوراء بحدَّة، ووقف ديلُن على قدميه، مبتعدًا عن السرير. اعتاد ديلُن مغادرة المستشفى في السادسة والنصف؛ لأنَّ هيو كان يأتي في السابعة، حتّى يتسنّى له الذهاب قبل وقتٍ كافٍ. ولكنّ اليوم، بسبب نزع الضماد والحديث عن الندبة، تأخَّرَ في المغادرة.

فُتحَ البابُ وأطلَّ منه هيو، يرتدي بذلته اللندنية الطراز، شعره مملَّس إلى الوراء، معتدًا بنفسه، وحَدَجَ ديلُن بنظرات غاضبة.

ـ ماذا تفعل هنا أيّها اللعين؟

ـ كنت أزورُ ألِسْ.

ـ كان يقرأ لي.

ـ ألا يوجد عندكَ عملٌ تعمله في الحدائق؟

- لا تكن وقحًا جدًّا! قالت أَلِسْ بحنق.

التفت هيو لينظر إليها. قال عندما رأى الندبة في وجهها:

- يا يسوع المسيح!

- اخرس. قال ديلُن بينه وبين نفسه.

بدا هيو مرتاعًا وقال:

- اسمعيني. لا بأس عليك. سنستشير أفضل الأطبَّاء. لا بدَّ من وجود حلّ نلجأ إليه.

انحنى إلى الأمام ليلقي نظرة من كثب.

جالت نظرات ألِسْ بين ديلُن وهيو، ثم قالت:

- قال ديلُن بأنَّها ليست سيّئةً جدًّا.

- من أيّ طينة أنتَ؟ هل أنتَ أعمى؟ قال لكِ فقط ما حسبك ترغبين في سماعه. سنتحدَّثُ مع الاستشاري. أمامنا وقتٌ لعلاجها قبل العرس.

- أظنُّ أنّ ألِسْ بحاجة إلى الدعم النفسي أكثر من حاجتها إلى جرَّاح تجميلي. قال ديلُن.

حملق إليه هيو. ظنّ ديلُن أن عينيه كانتا هامدتين. قال ديلُن:

- الأفضل لي أن أذهب.

- اذهب غير مأسوفٍ عليك.

قالت ألِسْ:

- لستَ مضطرًّا للذهاب لمجرَّد وجود هيو هنا.

- ولكنّ الوقت المخصّصَ لركن سيّارتي يوشك على الانتهاء في أيّ لحظة.

اتّجه ديلُن صوبَ الباب. وتبعه هيو وفتح له الباب قائلًا بصوتٍ هامس:

- لا أريدُ أن أراك هنا مرَّة أخرى.

- حسنًا.

قال ديلُن، وهو يحدِّث نفسه قائلًا: «لن تراني هنا؛ لأنني سأكون قد غادرتُ قبل أن تصل».

- أنا أعني ما أقوله. قال هيو.

وحصل ما توعَّد به هيو؛ لأنّه عندما ذهب ديلُن لزيارة أَلِسْ في اليوم الموالي، منعته الممرضة الجالسة في مكتب الاستقبال من الدخول.

- أنا آسفة فعلًا، ممنوع دخول الزوَّار باستثناء الأقارب المباشرين للآنسة أَلِسْ بازِلْدُن.

- ولكنّها تنتظرني.

بدت الممرضة متعاطفة معه.

- لا يمكنني السماح لكَ بالدخول.

مضى ديلُن مندفعًا وقد تجاوزها. وقال:

- فلنرَ ما رأي الآنسة ألِسْ بازِلْدُن بزيارتي!

وضعت الممرضة يدها على ذراعه.

- أنا آسفة. إذا تقدَّمت أكثر من ذلك، فسأضطرُّ لاستدعاء الأمن.

توقّف ديلُن. نظر إليها وقال:

- إنّه ذلك الوغد، أليس كذلك؟ هو الذي طلب منكِ منعي من الدخول.

- لزامًا عليَّ إطاعة أوامر أسرة المريضة.

- أوامر الأسرة وليس المريضة؟

تنهَّدَت الممرضةُ وأدرك ديلُن أنّه لا يستطيع الدخول رغمًا عنها.

- أيمكنكِ إبلاغُها بأنّي جِئْتُ لرؤيتها؟ اسمي ديلُن. أيمكنكِ إبلاغها بأنَّ شخصًا اسمه ديلُن جاء لرؤيتها؟

- بالطبع.

استدار لكي يغادر، وهو يعرف تمام المعرفة بأنّ رسالته لن تصل إلى ألِسْ.

(99) فرعٌ أو ورقةٌ متحوِّرَةٌ في النباتات المتسلِّقة لمساعدتها في التسلّق. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

(100) جعلتْ بِيْ من التصميم بلبلًا تيمُّنًا باسم المكتبة «مكتبة نايتِنْغيل» إذْ إنَّ (Nightingale) تعني البُلْبُلَ أساسًا.

(101) روايةٌ قصيرةٌ للكاتب الفرنسي أنطوان سانت دو أكزوبيري (١٩٠٠ – ١٩٤٤).

(102) شخصيةُ حفَّار قبور مرعبة في المسلسل التلفزيوني عائلة مَنْستِر.

الفصل السابع عشر

في اليوم المزمع لإطلاق كتاب مكِ غيلِسبي، ذهبت تومَسينا إلى محلّ الأجبان لتبتاع بعض الجبنة الأيرلندية. وقفت في الخارج، ناظرة عبر الواجهة إلى البضاعة المعروضة، وهي تراقب في الآن ذاته طابور الزبائن في الداخل حتى تيقّنت أنّ جِمْ هو الذي سيبيعها. هذا أكثر أمرٍ محسوبٍ قامت به في حياتها.

- أريد بعضًا من جبنة كاشيل بلو، لتحضير بعض فطائر الفاكهة الصغيرة، وبعضًا من جبنة غوبين(103)، بحيث يمكنني أنْ أُحَضِّر منها فطائر جبن منفوشة صغيرة.

- يبدو ذلك رائعًا.

رفع جِمْ قالبًا كاملًا من جبنة كاشيل بلو من البرَّاد وأمسك بطرف قطّاعة الجبن وقال:

- وماذا ستُحضِّرين أيضًا؟

- كعكٌ بالبطاطا مع سلمون مدخَّن. ونقانق پَدِنْغ كلوناكيلتي بلاك مع تُفَّاح مقليّ بالمقلاة وموضوع في أَسياخ. وألواح شوكولا صغيرة وكعكات غينِس.

- رائع.

أعطاها جِمْ قالبَي الجبن، ملفوفَين في مشمع بلاستيكي مدموغ بشعار محلّ الأجبان.

أعقب ذلك صمتٌ ما لبث أن كسره جِمْ قائلًا:

- اثنا عشر جنيهًا إسترلينيًّا وسبعون بنسًا.

دَفَعَتْ له على عجلٍ وانطلقت من فورِها. أرادت أن تدعوه لحضور الأمسية لأنّ إِميليا أعطَتْها تذكرتَين. ولكنّها لم تمتلك الشجاعة لدعوته. هذا بالضبط السبب الذي يجعلها لا تلفِتُ أنظار الناس عندما يتعلَّق الأمر بالرجال، قالت بينها وبين نفسها. فهي لا تملكُ الشجاعة.

قفلت راجعة إلى البيت لتُعلِّم لورين كيفية إعداد حلويات الكاناپيه. قالت لها:

- سأعلِّمُكِ كيف تعدّين المعجَّنَات الهشَّة. صحيح أنّ إعدادَها يتطلَّبُ وقتًا طويلًا، ولكنّها تستحقُّ كلَّ هذا الوقت.

صرفتا الظهيرة في دَعْكِ الزبدة بالطحين، ثم عَجْنِها، وترقيقها، ومن ثم تقطيع الزبدة إلى مكعبَّات، وثني العجين وترقيقه مرة ثانية. صار المزيج طريًّا وليّنًا تحت أنامل تومَسينا كما كانت لورين مبدعة معجَّنات بالفطرة وتتمتّع بسليقة لاستيعاب طريقة تحضيرها؛ والمعجّنات التي تحضِّرها رائعة واحترافية مثل معجَّنات تومَسينا. وهي تنظر إلى نتاج ما عملتاه من عمل في تلك الظهيرة، شعرت تومَسينا برضا عارمٍ.

حَمَدَتْ الله في قرارة نفسها أن حباها موهبةَ الطبخ. فالطبخُ لم يخذلها قطُّ.

* * *

- تبدين رائعة.

قال جاكسُن مخاطبًا مِيا، وكان محقًّا في ذلك. فقد بدت رائعة. كانت ترتدي فقط بنطال جنز وكنزة حريرية من نسيج پيزلي(104)، ولكنّها بدت أكثر صحّة بكثير ممّا كانت تبدو عليه في كلّ ملابس اللياقة البدنية التي كانت ترتديها هذه الأيام، والتي لم تُفِدْهَا سوى أنَّهَا بدت فيها رفيعةً مثل حشرة عصا زاهية(105).

تنبَّهَتْ إذْ لوَّح جاكسُن بالتذاكر. نظرت إليه وكأنّ الأمر بدا فيه مكيدة ما. حداه الأمل ألّا تتمنَّع عن الذهاب، خصوصًا وأنّه رتَّبَ لموضوع مجيء أمّه للاعتناء بفِنْ. فهو على يقينٍ تامٍّ بأنّ ميا لم

تبرح المنزل منذ مدة طويلة ما خلا خروجَها لأداء جلسات تدريبها المضحكة.

سألهما فِنْ:

- أأنتما ذاهبان في موعدٍ غرامي يا جماعة؟

كان يرتدي البيجاما، ومستعدًّا كلَّ الاستعداد لكي تنوِّمَه جدَّتُه سيلا.

لم يدرِ جاكسُن بما يجيبُه. فما كان من ميا إلَّا وردَّتْ ردًّا صريحًا:

- لا. صَادَفَ فقط أنّنا ذاهبان إلى المكان نفسه. ولذا فنحن ذاهبان معًا.

- يا هَنَاكُم!

خارج البيت، وهما في طريقهما إلى المكتبة، التفت جاكسُن إليها وقال:

- هذا ليس موعدًا غراميًا إذًا؟

عبست ميا:

- لا. سيكون ذلك أمرًا غريبًا.

- أوه.

لَسَعَتْ حدَّة جوابها جاكسُن. كرَّرَت ميا:

- صحيح أنّنا ذاهبان إلى الأمسية معًا، ولكن ذلك لا يعني أنّنا ذاهبان في موعد غرامي.

يا لَه من أمرٍ مضحك، حدَّث جاكسُن نفسه؛ ظننتُ أنني اشتريتُ التذكرتَيْنِ لأمسية خلتكِ ستحبّينها ودعوتكِ إلى الذهاب إليها. دأبت ميا على عادة تأويل النيّات الطيبة بنقيضها ورمي مقاصد صاحبها بعرض الحائط. ولكن حينذاك، كان تلك خصلة من بعض الخصال التي أحبَّها فيها. مناورتها التي لا تلين في سبيل تحقيق مرادها. قال لها:

- ومع ذلك فإنّك تنزعجين إذا ما تردَّدتُ على الحانة، أليس كذلك؟

تنهَّدَت ميا:

- اذهب إذا أردت. متى كان ما يزعجني يردعك عن فعل أي شيء؟

ـ لا أريد الذهاب إلى الحانة.

ـ لا تذهب إذًا! بدت حانقة.

بقي جاكسُن هادئًا. كانا يدوران في حلقات مفرغة لا طائل منها، مثل ما اعتادا دائمًا. هكذا كانت علاقتهما. وصلا إلى المكتبة. في الداخل، كانت المكتبة تعجُّ بالحضور. تدلَّت من السقف أقمارٌ فضّية. ووراء طاولة، جلس رجلٌ أبيضُ الشعر خلفَ رزمة من الكتب. صاحت ميا مدهوشة:

ـ مِكْ غيلِسبي! مِكْ غيلِسبي بشحمه ولحمه!

ـ عمره حوالي السابعة والتسعين!

بكلّ صدق، فكَّر جاكسُن بأنَّ الرجل ليس فيه ما يجذب النساء أو يسرُّ خاطرهنّ.

* * *

سلبت واجهةُ مكتبة نايتِنْغيل ألباب جون. كانت قد رأت أعمال التجديد وهي قيد التنفيذ، ولكنّ المكتبة الآن مُنارةٌ من الداخل إنارة كاملة وبدت مذهلةً. شدَّت معطفَها على جسدها وهي واقفةٌ في البرد القارس. كانت معروضات الواجهة تعجُّ بصورٍ من أشهر أفلامه. صُوَرِ خمسين عامًا أدَّى فيها مِكْ غيلِسبي أدوارَ البطل والشرير ورمز الجنس وأدوار الشخصيات الشهيرة. وكان هو بحدّ ذاته أيقونة. ووسط تلك الصور تدلَّتْ أقمارٌ فضّية، أقمارٌ فضّية ترمز للفِلم الذي جعل منه نجمًا. فِلم القمر الفضي...

بدت الواجهة وكأنّها مزارٌ مُقدَّس.

أحصت وجودَ سبعة وثلاثين صورة في الواجهة. سبعة وثلاثون صورة لمِكْ غيلِسبي. وارتعشت. لا يزال يسبّب لها الارتعاش.

قبل أن تخطوَ فوق عتبة المكتبة، وقفت وتلمَّست الشعور الذي خامرها. لا يزال يوجعها، حتّى الآن. لا يزال يوجعُها ذلك الشدُّ الواهن في أعماقها، ذلك الذي لم يبارحها قطّ. تخيَّلته؛ تخيَّلت شعورَها: شبكة من النسيج الذي ملأته الندوب التي لن يُسْمَح لها بالشفاء.

تحلّ كضيفة على المكتبة هذه الليلة، وليست كعضو من فريق موظّفيها؛ لأنها، تقنيًا، ليست فردًا من فريق العمل. فقد فعلت فقط ما في استطاعتها للمساعدة وعند حاجتهم إليها. رفضت أن تتقاضى أيّ أجرة، ولذا فقد أصرَّت إِميليا على أنّ الليلة ليلةٌ مكرّسة لإدخال البهجة على نفسها. واستلم مِلْ وديف الأمور من بابِها إلى محرابِها، فيما تولَّت تومَسينا ولورين توزيع الطعام والمشروبات على الحاضرين.

كانوا قد باعوا سبعين تذكرة- ولن تتّسع المكتبة لأكثر من ذلك- وجلس مِكْ وراء طاولة عريضة، محاطًا بنسخٍ من كتابه. صمَّمَت بِيْ عَرْشًا حقيقيًّا ليجلس عليه: كرسيٌّ ذهبي ذو مسند ظهر مرتفع قرَّرُوا أن يتَّخذوا منه الكرسيّ الخاصّ بتواقيع الكتب في المكتبة عند زيارة مؤلّفيها. في آخر المكتبة، هو ذا مارلو يعزف أنغامًا أيرلندية على كمانه، مضفيًا روعةً على الأجواء. ذكّرَها المكان بالحانة الصغيرة في القرية التي صوَّرُوا

فيها الفِلِم حيث كان أهالي القرية في الغالب هم الأغلبية السائدة في الحانة مساءً، وهم يسلّون‍هم بكمنجاتهم وشبَّاباتهم وطبولهم.

احتست جون كأسًا من كوكتيل القمر الفضّي، لم تكن متأكّدة ممّا فيه من مكوِّنات، ولكنّ طعمَه كان لذيذًا وثُبِّتَ قمرٌ لامعٌ على حافّة كلّ كأس. احتاجت لمشروبٍ يخفف ما تشعر به، رغم أنها لم تكن متأكدة من طبيعة الشعور الذي كان يجتاحها، أو حتى ما الذي كانت تتوقّعه من الأمسية. مجرّد تفكيرها بأنّها ستتنفّس الهواء ذاته الذي يتنفّسه أشعرها بأنّها في موقفٍ بالغ الأثر.

أمسكَتْ بنسخةٍ من كتاب سيرته الذاتية وانضمّت إلى طابور القُرَّاء المصطفِّين للحصول على توقيعه على الكتاب. لم يكن من عادة جون قطّ أن تنتظمَ في صفّ للحصول على أيّ شيء... كانت المكتبة تموج بالنشاط، وأشعرَها ذلك بالسرور. سيكون يوليوس في قمّة الفخر بما فعلته إِميليا؛ إِميليا التي شمَّرَت عن ساعدِ الجد وتابعت المشوار في إدارة المكتبة. هي ذي هناك، وراء آلة دفع النقود، يداها منهمكتان في العمل، باسمة وضاحكة مع الزبائن الذين كسبهم أبوها على مرِّ السنين، وكذلك، أيضًا، مع الزبائن الجدد الذين جذبهم إغواء هذا الزائر الأسطورة.

كانت جون تأملُ أكثر من أيّ شيء آخر بأنّ الأمورَ ستسيرُ في اتجاهها الصحيح وتتابع المكتبة مسيرتها.

حان دورُها. نظر إليها مِكْ غيلِسبي، عيناه مذهلتان كما كانتا على الدوام، ابتسامته تجعلك تشعر بأنّك شخص مميَّز... حتّى لو لم تكن كذلك. وتعرِفُ جون ذلك تمام المعرفة. بينما بادلته الابتسامة وأعطته كتابها مفتوحًا على أول صفحة فارغة ليضع توقيعه، لم يميِّزْها. لم تبدرُ منه أي ارتعاشة تشي بأنّه يتذكَّر ولو شذرة من ذكرى.

- باسم مَنْ أوقع الكتاب؟ سألَها.

- باسم جون.

قالت، وهي تنتظر لحظة، ولكن لم يكن هناك أيُّ ردَّة فعل. كتب اسمها ووقَّع اسمَه بخطٍّ منمَّقٍ قبلَ أن يعيدَ لها الكتاب مع ابتسامة أخرى. كان متمرّسًا جدًّا. ابتسرت ابتسامة ردًّا على ابتسامته، رغم أنّها شعرت في داخلها بالغضب. كيف لها أن تغضب؟ فما جرى جرى منذ زمن بعيد.

انتقلت صوب آلة دفع النقود لكي تسدِّد ثمن الكتاب.

قالت إِميليا:

- لا تكوني سخيفة. مستحيل أن آخذَ منك ثمنَ الكتاب بعد كلّ الذي فعلتيه من أجلي.

في الجزء الخلفي من المكتبة، التفت مِكْ غيلِسبي صوب مارلو وبريقٌ في عينه:

- أتعرف مقطوعة «الويسكي في الدِّنَان»(106)؟

- بالطبع.

- عليكَ بها، إذًا، يا صاحبي. فلنُسْمِعْهُم الغناءَ على أصوله.

هبَّ مِكْ واقفًا. بينما بدأ مارلو عزف الأنغام على كمانه، طفق مِكْ يغنِّي. وتحلَّق الجمهور الغفير المبتهج حولهما وصفقوا بأيديهم.

«بينما كنتُ ذاهبًا إلى جبال كيري الذائعة الصيت...»

استدارت جون فجأةً وغادرت المكتبة. ففي نهاية الأمر، كانت قد سمعته يغنّي تلك الأغنية بنفسها، طوال تلك السنوات المنصرمة في حانة صغيرة ذات أرضية قذرة وبها جمهورٌ يتلقّفُ الأغنية بالتقدير ذاته الذي سيبديه جمهور المكتبة.

* * *

قطعت جون سيرًا على قدميها المسافة القصيرة التي تفصل المكتبة عن كوخها. هناك، في السماء فوقها، تألَّقَ بدرٌ، وكأنّه عرف بأمر الأمسية فظهر احتفاءً بها. وصلت البيت، خلعت جزمتها العالية الكعبين وارتدت جوارب النوم الكشميرية المتهدّلة التي كانت تلبسها أثناء السير على الأرضية المرصوفة

بالأحجار. ألقت بعض جذوعِ الحطب في مدفأة الخشب، صبَّت كأسَ نبيذ وجلست مكوِّرةً ساقيها على الأريكة في غرفة الجلوس.

تصفَّحَتْ كتابَه حتى وصلت إلى الفقرة التي يتحدَّث فيها عن فِلم القمر الفضّي. الفِلم الذي شكَّل نقطة تحوُّلٍ في حياته، وكان فِلَمًا يذكره التاريخ، ولذا فقد خصَّص له فصلًا مستفيضًا.

لم يمر اسمها في الفصل. وما من كلمة واحدة عن ممثلة الكومبارس الشقراء الشَّعر التي أدَّت دور ساقية الحانة وعلاقته معها. ولا تلميحة إلى العاطفة التي اعترف أنّه شعر بها حينذاك. لم تكن لها أيّ أهمّية. تطرَّق الفصل بإسهاب إلى المناظر الطبيعية، والكاتب العبقري، والمخرج الثاقب الرؤية؛ بل حتّى إنَّ السيِّدة مالون، مالكة الكوخ الذي أقاموا فيه أثناء تصوير الفِلم ورد اسمها في الفصل. ولكن بالنسبة لبقية العالم، فلم تكن جون موجودة ولم تسهم بأي إسهام في الفِلم.

صعدت إلى الطابق العلوي. في غرفة نومها الإضافية التي نادرًا ما تدخلها كانت قد خبَّأَتْ صندوقًا في خزانة الملابس.

سحَبَتْه. بداخله كنزة منسوجة من صوف أران وسيناريو فِلْم القمر الفضي. ومساند كؤوس البيرة من الحانة التي شربا فيها. وأصدافٌ وأزهارٌ جُففَت داخل الكتب. هي ذي تشمُّ هواء هاتيك الأيام إذا ما سحبت نفسًا عميقًا. ها هي ترى نفسها هناك، في الرذاذ، تشمُّ رائحة الصوف الندي، تشعر بطعم شفتيه، طعمٌ فيه نفحةٌ من الويسكي...

وها هي الصور. باهتة ومثنية باتت الآن، ولكنّ الصور هي دليلها. دليلها الذي لا يدحض. ها هما معًا، ذراعا أحدهما تحيط الآخر، يضحكان أمام الكامرا. يمكنك أن ترى إشارات الانجذاب بينهما، صاخبةً وفائرة، انجذابٌ واضحٌ رغم اصفرار ألوان الصورة التي كانت بالأبيض والأسود. تذكَّرَت العجوزَ الضعيف صاحب الحمار والعربة ناظرًا إلى الكامِرَا فَزِعًا ولكنّه مع ذلك واقفٌ لالتقاط الصور. ليست بالضبط صورة كتلك التي يلتقطها ديڤيد بيلي(107)، ولكنّها ما فتأت تشكّل لها ذكرى وليست عملًا فنّيًا.

وتذكَّرت الإمساك بالكامِرَا بذراعَين ممدودتين عن آخرهما، من الخلف إلى الأمام، وهما مستلقيان على ظهريهما، مبتسمين،

وهي تلتقط ما يسمّى في أيامنا هذه «سِلْفِي»، شعره الداكن متشابك بشعرها البلاتيني الأشقر.

جال في بالها أنّهما كانا جميلَين. في الصورة نقاءٌ لا تجدُه قطُّ في صور أيامنا هذه. كانا هما على حقيقتيهما، دون تشذيبات، ودون تلاعب، ولم تكن تضع مكياجها، ومع ذلك فقد أشرق جمالهما من الصورة.

أخرجت كل ما في الصندوق ووضعته على السرير. ها هو كلّ شيء هناك، قصتهما، في هذه المقتنيات القليلة. فيها كلّ الأدلة التي تحتاجها.

تلك كانت نسخة أخرى من شخصيتها. فقد توقّفت عن صبغ شعرها، وعاد إلى لونه البنّي الطبيعي، كما زاد وزنها بعض الشيء. ما من أحد سيعرف على الإطلاق بأنّها كانت جونو.

شعرت فجأة بالغضب. فقد تركها بقايا امرأة إذا ما أراد رجل آخر الارتباط بها. أحبَّت زوجيها حبًّا خافتًا، والطلاق منهما كان

ودّيًّا أكثرَ منه مرًّا. ولكنّها لم تشعر قطّ بما شعرته إزاء مِكْ غيلِسبي.

في الصندوق أيضًا مظروف بني كبير، مظروف لم تفتحه بعدُ. رفعته؛ كان مثقلًا بالأوراق. فتحت أعلى المظروف وأخرجت منه مخطوطًا؛ صفحات وصفحات مطبوعة على ورق رخيص ورقيق.

في عام ١٩٦٧، نزع مِيكايل غيلِسبي قلبي من بين ضلوعي ورماه فوق الصخور في شاطئ كومينولي. عجبتُ لحالي إذْ استطعت أن أعيش دون قلبي. وها أنا هنا، حية أرزق، أتنسّم الهواء، وبإمكاني أن أحكيَ لكم قصة ما حصل عندما وقعتْ صبيَّةٌ بريئةٌ في غرام أعظم نجمٍ سينمائي في العالم. إنّها قصةٌ خرافيةٌ، بحقّ. ها أنا ذا أحذِّرُكم وبال قراءتها.

كانت تلك قصّتها، وقصة ما حدث لها. تذكّرت اللحظة التي كتبتها فيها، بعد سنتين من عودتها من أيرلندا. جلست إلى آلتها الكاتبة وكتبت، حتّى وقت متأخّر في الليل، الكلمات وقد خرجت متعثِّرةً وفق إيقاعٍ سريع مجنون، سريع جداً ❞ حتّى إنّها لم تستطع مواكبة سرعة الكلمات.

ابتسمت وهي تتذكّر صوت آلة كاتبة حقيقية. نوعًا ما لم يكن صوت الطِبَاعة برؤوس الأصابع على لوحة مفاتيح الحاسوب يمنح المرء الرضا نفسه. شرعت تقرأ الكلمات، كلمات صبية مجروحة.

في منتصف القراءة، توقّفت. وَجَدَتْها ذكريات حزينة جدًّا. لم تعد تلك الفتاة التي كانتها بعد الذي حدث. كانت جزءًا من شخصيتها التي هي عليها الآن، ولكنّها لم ترد الرجوع وتذكر الألم مرة أخرى. فهي تعرف الآن بأن كلَّ إنسان يتعرَّض لانكسارة في قلبه في مرحلة ما من حياته. وما حدث معها لن يجعل منها شخصية فريدة أو غير عادية. فذلك جزءٌ من طبيعتنا البشرية. فالقلبُ المكسور، في نهاية الأمر، هو المادة الأساسية لتأليف أعداد هائلة من الكتب. وبات بعضٌ من تلك الكتب مبعثَ راحة لها، وجعلها تدركُ بأنّها ليست الوحيدة التي انكسر قلبها.

دسَّتْ الأوراق ثانية داخل المظروف وأغلقته إغلاقًا محكمًا مرة أخرى.

* * *

كان مِكْ ومارلو في أوجِ عطائهما. فتح مِكْ قنينة ويسكي من ماركة پادي وملأ منها كؤوس الحاضرين حتّى حوافّها في حركة مديدة على طريقة «كأس لكَ وكأس لي»، ومن ثم كان ينادي على مارلو ليعزف مقطوعات شعبية من قبيل «الجوَّاب الأيرلندي»، و«مولي مالون»، و«طلوعِ القمر»...بات الجوُّ في المكتبة على شفا التحوُّلِ إلى فوضى.

اضطرّت إِميليا أخيرًا لإيقاف فعاليّات الأمسية. شعرت بأنّ مِكْ سيخرج رويدًا رويدًا عن طوره ويضربه السُّكر. ولم تكن متأكّدةً من قانونية جعل كافّة زبائنها يسكرون في هذه الساعة من اليوم. ولذا فقد أومأت بحذرٍ إلى مارلو لكي ينهي العزف، ورغم اعتراضات مِكْ- الذي لم يكن ليمانع قضاء الليل بطوله في الشرب والغناء لو أعطي الفرصة- فقد فرغت المكتبة من الجمهور تدريجيًا، وبعد الكثير من العناق والتقبيل النابع من المشاعر المتدفّقة، توجَّه مِكْ صوب فندق بيزبروك أرمز. لم يساور إِميليا شكٌّ بأنه لن يضيِّع أيّ وقتٍ حتّى يتعرَّف على أصدقاء جددٍ في حانة الفندق، ولكنّ الإرهاق بلغ بها مبلغًا عظيمًا منعها من مرافقته بنفسها.

احتَدَّتْ عندما رفض مارلو السماح لها بأن تدفعَ له أجرة العزف.

- هذه أجمل مناسبة أحضرها منذ أسابيع. وهل هناك أمتع من العزف على الكمان ومِكْ غيلِسبي يغني لك؟ كنتُ سأتخلّى عن أعزّ ما أملك حتّى أحظى بهذه الفرصة. لا أريد منكِ مالًا.

- ولكنّي ما كنت لأطلب منكَ العزف لو أنّي عرفت بأنّك لن تتقاضى شيئًا.

كانت إِميليا تكره فكرة استغلال الطباع الطيبة لأيّ إنسان كان. قال مارلو:

- أعلم ذلك. وهذا هو السبب في عدم رغبتي بتقاضي أي أجرة.

- ولكنّي لن أطلب منك ذلك مرة أخرى.

- يمكنك أن تدفعي لي في المرة القادمة. ولكن هذه المرة: العزف مجانيّ. شرف عظيم لي أن أفعل ذلك. كما أنني عزفت كرمى لأبيك.

ابتسم مارلو بلطفٍ ثم أضاف:

- أنتِ تملكين سحره، كما تعلمين. والناس يريدون أن يقوموا بتقديم الخدمات لكِ، كما كانوا يفعلون معه. ستكونين في أحسن حال.

- ماذا عساي أن أقول، شكرًا لك.

كانت إِميليا في غاية الامتنان. فبالتأكيد أسهم مارلو في جعل الأمسية أمسيةً للذكرى. أضافت:

- سيتحدّث القوم عنها لأسابيع. ضَحِكَتْ ثم أردفت:

- حسبْتُ أنّ الأمورَ ستخرجُ عن نطاقِ السيطرة. فهو شَكِسٌ حتّى في هذا السنّ.

- إنّه أسطورةٌ بكلّ ما في الكلمة من معنى.

قال مارلو بلهجة قريبةٍ من لهجة منطقة كيري، وهو يزرُّ أزرارَ معطفه.

* * *

عادت بِيْ إلى البيت بعد انتهاء الأمسية منتشية من الفرح. أطرى الجميع على الواجهة التي صممتها؛ والتقطت صورة أمامها وذراعها ملتصقة بذراع مِكْ غيلِسبي، وشعرت بأنّها استعادت ذاتها التي كانتها. لم تشعر بأنها هي بِيْ ذاتها منذ اليوم

الذي تركت فيه العمل في مجلة هيرث. كانت ماما بِيْ مخلوقًا غريبًا قليلًا، مخلوقًا لا تزال تشعر بعدم الراحة معه.

ولذا كانت تفيض بذلك الشعور عندما وصلت إلى البيت، وهي تثرثر مخاطبةً بِلْ الذي عاد إلى البيت من العمل مبكّرًا هذه المرَّة لكي يعتني بالطفلة. ولكنّه بدا محتدًّا ولا مباليًا لا أكثر. قال لها:

- أناشدك با لـ أنْ تكفي عن الثرثرة عن تلك المكتبة اللعينة، با لـ عليك؟

فغرت بي فاها مشدوهة وقالت:

- الثرثرة؟ أنا أحاول كلّ ما في وسعي كي لا أثرثر، شكرًا جزيلًا لك.

- آسف. ولكن يبدو وكأنّهم لم يدفعوا لك أجرة. ولا أظنّني أستطيع الاستماع لكلمة أخرى.

- حسنًا، في تلك الحالة، يمكنك أن تستمع لي وأنا أثرثر عن الغداء الذي تناولته مُوْدْ. وما هو شكل برازها ومدى انسجامه. لأنّ ذلك هو ما تتحدَّث فيه معظم الأمهات الحديثات العهد بالأطفال. لستُ محظوظة مثلك. فليس عندي أعدادٌ كبيرة من الناس لأتحدَّث معهم في مواضيع رائعة. ولذا فأنا آسفة إذا بدوتُ مهووسة قليلًا، ولكن مكتبة نايتِنْغيل هي أروع الأشياء في حياتي حاليًا...
لم تدرك أن صوتها كان يعلو رويدًا رويدًا وقد شابه الغضب.
أشار بِلْ بيده ليوقف سيل الصياح.

- أنا ذاهبٌ إلى النوم. انتصف الليل تقريبًا. وينبغي لي الاستيقاظ في السادسة. المعذرة منك.

ومشى خارجًا من الغرفة.

اعترت بِيْ الدهشةُ. شبكت ذراعيها. لم تكن لتدع سلوك بِلْ يمضي مرور الكرام. لن تتصرَّف إزاءه أيّ تصرف الآن، ولكنّها ستتصل بتومَسينا في الصباح. وتحجز موعدًا على الغداء لها وله في مطعم أَ ديو، وتبحث معه الأمر مرَّة أخيرة، في مكانٍ بعيد عن أجواء البيت، وحدهما. لن تقف هنا مكتوفة الأيدي وتشهد زواجها وهو ينهار أمام ناظريها.

* * *

مشت ميا وجاكسُن عائدَيْن من مكتبة نايتِنْغيل تظلِّلهما أضواء مصابيح الشارع.

شربت ميا كأسي كوكتيل وكانت تهذر هذرًا لا طائل منه. ظنّ جاكسُن أنَّ محتوى الكأسين قد سرى مباشرة إلى رأسها لأنَّها بالكاد أكلت أي طعام في هذه الأيام. مشت مشيةً غير متوازنة قليلًا، وعندما وصلا طرف البلدة أمسك ذراعها. لم يبدُ عليها أنّها مانَعَتْ ذلك. استندت عليه وهما يتّجهان صوب المنزل. داهمه شعورٌ اعتاد أن يشعر به في الأيام الخوالي، عندما التقى أحدهما الآخر أول مرة وكانا يمضيان بعدها إلى إحدى حانات البلدة مع أصحابهما.

ولكن ما إنْ دخلا من باب المنزل إلَّا وضرب السكوت والبرودة أوصال ميا. قالت:

- شكرًا على هذه الأمسية الرائعة.

ولكن شكرها بدا شكرًا روتينيًا أكثر من كونه شكرًا نابعًا من القلب. وأضافت:

- أنا ذاهبة إلى النوم، شكرًا لكِ يا سيلا على رعاية مُوْدْ.

ومضت لتنام.

أصابت اللَّخمة جاكسُن. نظر إلى أمه باحثًا عن تفسير وقال:

- قبل عشر دقائق كانت تهذر عن روعة الأمسية التي حضرتها. وها هي فجأة تتصرَّفُ مثل امرأة حازت أجمد المشاعر في الدنيا.

بدت سيلا فطنة عارفة بخفايا الأمور. قالت:

- إنَّها خائفة.

- خائفة ممّن؟ ليست خائفة منّي، بالتأكيد.

- تشعر بأنها حمقاء. فهي تعرف بأنّها أخطأت عندما طرَدَتْك من المنزل، ولكنّها لا تعرف ماذا تتصرَّف إزاء ذلك.

- لماذا لا تستطيع فقط القول بأنّها مخطئة؟ قال جاكسن محتارًا.

تنهَّدَت أمّه:

- أنتَ لا تفهم النساء، أليس كذلك؟

- لا. ولكن إذا كان ذلك ما تشعر به، فما يفترض فيَّ أن أفعل؟

- أعدها إلى مكانتها في قلبك.

- هذا ما كنتُ أفكّر فيه. هزَّ رأسَه وأرْدَفَ:

- أحيانًا أشعر بأنّني لم أحصل على كتيب التعليمات الخاصّ بالتعامل مع النساء.

- ستنجح في ذلك.

- وكيف تعرفين أني سأنجح؟

- أعرِفُ وحسب.

عانق جاكسُن أمه وقال:

- هيا بنا. سأصعد إلى الأعلى لحظات لأقبِّل فِنْ قبل أن ينام، ومن ثم دعينا نرجع إلى البيت.

بعد عشر دقائق تأبَّط ذراع أمّه إلى سيَّارته، ووضع وِلْفِي على عجلٍ في صندوق السيَّارة وسار باتجاه الباب ليصعد السيَّارة. في اللحظة الأخيرة، نظر ورأى ميا تتلصَّصُ من نافذة غرفة نومها. حالما رأته ينظر إليها، أرخت الستارة وذهبت.

* * *

في هدأة المكتبة الخالية من الناس، جمَّعَتْ إِميليا آخر ما بقي من كؤوس الكوكتيل المتناثرة هنا وهناك وصعدت بها إلى الطابق العلوي لكي تغسلها ثم تضعها مرة أخرى في الصندوق حتى يُرَدَّ إلى تاجر النبيذ.

كانت أمسية رائعة. أمسية رفعت لها معنوياتها. جاء خلق كثيرون لرؤية مِكْ غيلِسبي، منهم زبائن قدامى ومنهم جدُد. ضجَّت أجواء المكتبة بالحركة والنشاط وكأنّها خلية نحل.

تعرف إِميليا بالطبع أنها لا تستطيع إقناع نجمٍ مثله بالمجيء إلى المكتبة كلّ أسبوع. وعلى الأرجح أن بهاء الفكرة سيخبو. ولكن ذلك أعطاها لمحةً عمّا يمكن فعله. وجنوا من المال في تلك الأمسية أضعاف ما يجنوه في أسبوعٍ واحدٍ لأنّ روَّاد الأمسية اشتروا كتبًا أخرى إضافة إلى كتاب مِكْ غيلِسبي. عمل ديف ومِلْ جاهدين ليجعلا طاولات عرض الكتب جذَّابةً قدر الإمكان بحيث يشتري الزبائن كتبًا إذا ما افتتنوا بجمال طريقة العرض، وهذا ما فعلوه.

بالطبع، هناك شخص واحد غائب عن المشهد. كان أبوها سيحبُّ هذه الأمسية. ولكنّها عقدت العزم ألَّا تفكر بمثل تلك

الطريقة بعد الآن. فأبوها رحل، وها هي تسيرُ بخطىً متثاقلة على دربه، محاولةً أن يكون الدرب الذي سلكه مواتيًا لمشيتها. أحيانًا شعرت بأنّه كان دربًا طويلًا جدًّا أو صعبًا جدًّا وهي تمشي مترنحةً في مسالكه.

ومع ذلك، فليالٍ مثل هذه جعلتها تشعر بأن درب أبيها هو الدرب الذي يناسبها أيما مناسبة.

* * *

قبيل حلول منتصف الليل بلحظات، سمعت جون الريح تصفر والمطر يهطل. كان الجو عاصفًا؛ أغلقت الستائر، حامدةً ربَّها أن كوخها الصغير معزولٌ بطبقةٍ مضاعفة عندما انتقلت لتقيم فيه إقامة دائمة. ذهبت إلى المطبخ لتعد كوبًا من الشاي بالبابونج، ثم ما لبثت أن سمعت صوت طرقٍ شديدٍ على الباب المحكم الإغلاق. جمدت مكانها، متسائلة من يكون الطارق في هذا الوقت.
بدا الأمر وكأنّها لن تتحرَّك من مكانها لتقوم بأيّ ردَّة فعل. قرَّرَت أن تتجاهلَ الصوت.

ثم ما لبثت أن سمعت صراخًا. صوت جؤارٍ غاضبٍ حملته الريح العاصفة. جؤارٍ يمكنها تمييز صاحبه من بين ألوف الرِّجال.

- حبًّا با لـ، هلَّا فتحتِ الباب؟

مشت إلى الأمام، وأرخت المزلاج وأدارت المفتاح في القفل.

فتحت فقط الجزء الأعلى من الباب تحسُّبًا لطارئ. وهناك، محيطًا به مدخل الباب، وقف مِكْ غيلِسبي، مبلّلًا في بحارٍ من المطر.

- الحمد لـ أنَّكِ فتحتِ. هلَّا سمحتِ لي بالدخول؟

- أعطني سببًا منطقيًّا واحدًا يجعلني أسمح لكَ بالدخول؟ وضعت يديها على وركيها.

- لأنّ المطرَ منهمرٌ كالسَّيل وأنا مبلّل من قمّة رأسي حتّى أخمص قدمي وسأصاب بالتهابٍ رئوي. فأنا عجوز مسنّ.

لم تستطع كبت ابتسامتها. يا لَلفوضى الرهيبة! تراجعت إلى الخلف ووقفت واندفع بسرعة عبر الباب. شمَّتْ رائحة الصوف الناشف ورائحته هو. أخذت معطفه- معطفه الكشميري الذي لا يحمي من المطر- وعلَّقَتْه على المشجب.

تبرَّم قائلًا:

- قالوا لي في الفندق بأن المشوار إلى هنا يستغرق عشر دقائق فقط مشيًا على الأقدام.

- وكيف عثرتَ على كُوخي؟

- لا يتطلّب الأمر أن أكون شيرلوك هولمز. كما أنّ الناس في هذه البلدة ليسوا كتومين جدًّا، وأنتِ أدرى بذلك.

- عَرَفْتَنِي في الأمسية إذًا؟

- بالطبع عرفْتُكِ. ولكن خانتني الكلمات. لم تقوليْ أي كلمة ولذا ظننتُ أنّه ربّما من الأفضل لي أن أترك الأمر على حاله. ولكنّي ما لبثت أن قلتُ لنفسي: ما كنتِ لتأتي إلى المكتبة لو لم تكوني راغبةً في رؤيتي.

- أنتَ ممثل بارع أكثر ممّا ظننت. لم ألحظ فيكَ أي علامة تدلّ على أنك عرَفْتَنِي.

- لا تنسي أنّني مدرَّبٌ على ذلك.

ابتسامته مُرْبِكَة. وهاتان العينان المحمرّتان المليئتان التجاعيد...

ابْتَسَمَتْ جون وأعطته منشفةً يمسح به شعره، ومن ثم صبَّتْ كأسينِ من نبيذٍ أحمرَ. جلسا إلى طاولة المطبخ، ينظر أحدهما إلى الآخر.

جالَ ببصره في أرجاء الكوخ والإعجاب على مُحيَّاه. تعرف جون أنَّ الكوخ بدا جميلًا. فقد صرفت الكثير من المال لجعله مريحًا وأنيقًا، وتميَّزتْ بذائقة بصرية رائعة فيما يخصّ الفنَّ والتحف العتيقة. أبدعت هيئته التي كانت هيئة منزل ريفي صمّمه مصمّمٌ عالميٌّ: الخزانة الوردية اللامعة، بلاط الأرضية يدفئه نظام تدفئة تحت الأرض، طاولة المطبخ الفرنسية، وأقداح النبيذ القصيرة المكتنزة وقد طبعت عليها صورة نحلة. قال لها:

- أنجزتِ في حياتكِ إنجازات طيبة.

- هذا صحيح.

قالت، غير خجلة من أن تفاخر بإنجازاتها. ثم قال لها:

- كنتُ نَكِرَةً. ولكن إنهاء علاقتنا كان في صالحكِ. كنت سأقودك إلى مجاهل لا تحمدُ عقباها وكان الأمر سينتهي بكِ إمّا بكرهي أو قتلي. لم أكن حقًّا إنسانًا طيِّبًا في تلك الأيام.

- وهل أصبحتَ طيِّبًا الآن؟

أمال رأسه إلى جانبٍ واحدٍ ليفكر بسؤالها.

- لا أظنّ أنّ كلَّ خصالي سيئة.

- جيد أن أسمع ذلك.

ـ أنتِ إنسانة لطيفة، هذا أمرٌ مؤكّد. وقد كنتِ دائمًا كذلك. أناس مثلك لا يتغيَّر معدنهم. لا يتغيَّرون ما لم ينلْهم الأذى من أشخاص مثلي. وآمل بأنَّ أذاي لم ينل منك.

ـ لم يؤذني أحدٌ بمثل فظاعة أذاك.

ابتسم أحدهما للآخر ابتسامة عريضة.

رفع مِكْ كأسه.

ـ حسنًا، فلنشرب احتفاءً بتلك الأيام الخالية. أنا في غاية السرور لرؤيتك.

ـ أحسب أنّ المللَ قضَّ مضجَعَك في غرفتك في الفندق وحسب؟

بدا مرتبكًا بعض الشيء.

- لا. أردت أن أراكِ. في بالي ذكريات رائعة عن أيام لقاءاتنا السالفة.

قالت له جون:

- كتبتُ مذكّرات لاذعة عن القسوة التي عاملْتَنِي بها.

- حقًّا؟

عَبَسَ وأضاف:

- سيكون هذا التوقيت مثاليًّا لنشرها. يبدو أنَّ الجميع مهووسٌ بماضيَّ في الوقت الراهن.

- آه، لا؛ ستبقى المذكَّرات محفوظة في مكان أمين. كانت مجرّدَ تمرين علاجي.

- في الكتابة علاج، بالتأكيد. كنتُ مذهولًا بما أزالته الكتابة من هموم عندما ألَّفْتُ كتابي.

- إذًا أنت تحاول تصحيح الأخطاء الآن؟

- يا يسوع! لم يبق لي في هذه الدنيا ما يكفي من الوقت لتصحيح الأخطاء.

انفجر ضاحكًا. ثم توقف ونظر إليها.

- يكفيني الآن ارتكاب خطأ واحد وحسب.

رمق أحدُهما الآخر بذات النظرات. أرادت أن تضحك. كان رجلًا لا يردعه عن غيِّه رادع، حتى في سنه هذه. لم يتحمَّل نفسَه. أدركت أنّ السحر الذي وقعت تحت تأثيره لعدد كبير من السنوات قد زال. لم يعد له أي سيطرة عليها. كم هي المرَّات التي حلمت فيها بهذه اللحظة على مرِّ السنين؟ لا يمكنها حتى أن تحصيها. ومع ذلك سيبدو من الممل أن تخذله. لم تستطع أن تتذكّر المرة الأخيرة التي بادرها فيها أحدُهم بمبادرة لمطارحة الغرام. كانت تستحقُّ بعض المرح مثلها مثل غيرها. إضافة إلى أنه لم يكن أخرقَ وأنانيًّا في غرفة النوم، تتذكَّر ذلك تمام التذكُّر. شعرت بوجنتيها تتورَّدَان تورُّدًا خفيفًا على توهُّج تلك الذكرى وهي تمسك كأسها. سوف تجعله يذوق الأمرَّين حتى ينال منها ما يريد. قالت له:

- ماذا تقترح علينا أن نفعل يا سيِّد غيلِسبي؟

(103) جبنة أيرلندية.

(104) قماشٌ ملوّنٌ زاهي الألوان والنقوش ينسب أصلًا إلى مدينة پيزلي الاسكتلندية التي اشتُهرت بإنتاجه في القرن التاسع عشر.

(105) حشرة العصا نوعٌ نادرٌ من الحشرات، رفيعة الجسم والأقدام ولذا سمِّيْت بهذا الاسم.

(106) أغنيةٌ فلكلوريةٌ أيرلندية نُظِمَت كلماتُها في القرن السابع عشر في المناطق الجبلية في جنوب أيرلندا، وتحكي قصّة أحد الثوَّار الذي تحوَّل إلى قاطع طريق ما تلبث أن تخونه حبيبته. ويردُ في الأغنية ذكر لمقاطعتي كورك وكيري وكذلك قرية فينيت في مقاطعة كيري.

(107) ديڤيد بيلي (١٩٣٨ – .....): مصوِّرٌ فوتوغرافيٌّ بريطانيٌّ.

الفصل الثامن عشر

بعد أسبوعين، انهمكَت تومَسينا ولورين في المطبخ في مطعم أَ ديو. لورين تضع اللمسات النهائية على قِدْرٍ من طاجَين الدَّجاج والكُمَّثرَى، وتقطِّع اللوز والكزبرة لتنثرهما فوق الكُسْكُسْ.

هَمَسَتْ لها لورين:

- تذكَّري كلامي... هذا عشاءٌ لبحثِ أزمة. فهذه آخرُ وسيلةٍ يلجآن إليها. ذلك مكتوبٌ على جبينيهِما.

لَكَزَتْها تومَسيْنا، التي كانت تقطِّع بسكويت الخُزامَى لكي تُقَدَّم مع الپاناكوتا(108)، لكي تصمت. فالتكتُّم على أسرار الضيوف هو شعار مطعم أَ ديو؛ التكتُّم هو لبُّ المسألة.

بات مطعم أَ ديو يستقبل حجوزات لأمسيّاتٍ عديدة في الأسبوع الآن، وزادت ثقة تومَسينا بنفسها. صارتا هي ولورين ثنائيًّا لا

يُعْلَىْ عليه، وبدأتا تلبِّيَان طلبات الفعاليّات المقامة خارج المطعم. وما فتئت تتلقَّى أعدادًا هائلة من الطلبيات منذ أنْ أعدَّت حلويات الكاناپيه في أمسية مكتبة نايتِنْغيل وكانت على شفا الوصول إلى المرحلة التي ربما تضطر فيها إلى أن تتخلَّى فيها عن التدريس في النهار، رغم أنها، على الأرجح، لن تتخلَّى عنه أبدًا.

كما أنّ رؤية لورين وهي تتعلَّم وتُبْدِع في ظلّ تعليمها لها حمل في طيَّاته جائزة لا تصدَّق أيضًا. فتلك هي متعةُ التعليم: إشغاف تلميذ من تلاميذك، وإلهامه، بحيث يصير عنده هدفٌ يصبو إليه. كانت لورين فتاةً مختلفة. فتركيزها عالٍ، وهي دقيقة في عملها، ومفعمة بروح المبادرة. ولو لم ترَ فيها تومَسينا القدرات واشتغلت عليها، لطُرِدَتْ من المدرَسة الآن، ومُنِحَتْ تذكرةَ ذهابٍ، دون عودة، إلى المجهول.

* * *

في حجرة الطعام، أضفت مجموعات الشموع بريقًا ورديًّا على الضَّيفيْن الجالسين إلى الطاولة. كان كوخ تومَسينا صغيرًا؛ فيه غرفةٌ رئيسةٌ واحدةٌ لا غير، يمكن لكَ أن تدخلها مباشرة من الباب الأمامي، في الموضع الذي وُضِعَتْ فيه الطاولة. كانت قد

اشترت أفضل أنواع لوازم المائدة والأواني الصينيَّة التي استطاعت دفع ثمنها: سكاكين وشِوَك ذات قبضات تنتشر فيها عروق اللؤلؤ، وأوانٍ صينيَّة صفراء باهتة فاتحة ذات طرازٍ فرنسي مزخرف. وأَضفَى اللونُ الثلجيُّ الأبيضُ على غطاء الطاولة والمناديل القماشية جوًّا رسميًّا، ولكن ما خلا ذلك امتازت الغرفة بالدفء الذي يغمرك غمرًا، بجدرانها الحمراء الغامقة وسجّادتها الغالية المصرية الطراز.

تنهَّد بِلْ، ونظر إلى حسائه متمعِّنًا؛ حسائه المحضَّر من القلقاس الرومي(109)، وكأنّه ينتظرُ جوابًا معلَّقًا بكتلة القشدة الدائرية التي تعلوه.

ـ أنا آسف. أنا آسف. الموضوع ليس سوى...

ـ ليس سوى ماذا؟

ـ أظنّني مصاب بالجنون.

رفع بصره، ورأت بِيْ كآبةً في عينيه؛ كآبةً أفزَعَتْها.

- ماذا تعني؟

سألته بِيْ وهي تُفَتِّتُ بين أصابعها بعضًا من الخبز المُنَكَّه بالجوز الذي خبزته تومَسينا.

- أفهم أنّ المسألة صعبةٌ عليكِ. صعبٌ عليكِ التخلِّي عن حياتك السابقة ومباشرة حياةٍ جديدةٍ. ولكنّني سأتخلَّى عن كلّ شيء لأصير مثلكِ.

- أوه!

- لا أظنّني أستطيع الاستمرار.

- ماذا تعني؟ ذُعِرَتْ بِيْ وأضافت:

- الاستمرار في ماذا؟ هل تعني استمرارَنا معًا؟

يا الله! هو ذا يطلب منها أن يتطلَّقا. اجتاحه الملل منها حتى أراد الطلاق، بسبب «ثرثرتها». قال لها:

- لا! بالطبع لا أقصد الطلاق. أقصد الاستمرار في طريقة الحياة هذه.

شربَتْ بِيْ نغبةً من نبيذ. ثم أتبعتها بواحدة أخرى. لن يطيلا المكوث في المطعم، ولذا لم يكونا بحاجةٍ لأن يدخلا في خضم محادثة حادَّة.

- أنا أكره ذلك. أكره أن أتركك أنتِ ومُوْدْ. إنّها لحياةٌ مرهقةٌ جدًّا، النهوض في ذلك الوقت الباكر اللعين والهَرَع للحاق بالقطار. وعندما أعود إلى البيت، أكون منهكًا للغاية بسبب

التعب حتّى أفتح حديثًا أو أستمتع بطعامي كما أنّ العطل الأسبوعية تمضي في لمح البصر. ما إنْ أضطجع متناسيًا لحظات نومي النادرة، إلّا ويحلُّ يوم الأحد. واعتبارًا من منتصف نهار الأحد، تصاب معدتي بتشنّج، بسبب الرعب الذي يصيبني من انتظار صباح الإثنين.

- لم يكن عندي فكرة أنّك تشعر بتلك المشاعر.

- حسبتُ أنّ الأمور ستكون أسهلَ. ولكنّ كلَّ ما أردته حياة طبيعية يا بِيْ. يطيبُ لي المقامُ هنا في بيزبروك. أريد أن أكون رجلًا طبيعيًّا. أنْ أنضمَّ إلى فريق لعبة السهام المُرَيَّشَة في الحانة. أن أتسكَّعَ في الحديقة. أن أستمتع صحبة أسرتي. تنظر إليَّ مُوْدْ أحيانًا وكأنّها تجبرُ نفسها على أن تميِّزني من أكون ولكنّها غير متأكّدة تمامًا...

فرَك وجهه ورأت بِيْ فجأة مقدار الفظاعة التي بدا فيها. شاحبًا محمرَّ العينين. عَزَتْ سبب ذلك إلى شربه كميات كبيرة جدًّا من النبيذ الأحمر.

نظر إليها.

- لا أريدُ أن أكونَ شخصًا عالي الطموحِ بعد الآن. لا أريدُ أن أكونَ جزءًا من نادي اللاهثين وراء الرِّزْق، لا أريد أن أكون زوجًا وأبًا بصورةٍ غيابية.
عبثت بِيْ بجوانب زبديتها بالسكّين والشوكة. فَقَدَت شهيَّتَها فجأةً ولم تستطع إكمال شرب حسائها. سألته بنبرة صوت خفيضة جدًّا:

- ماذا يسعنا أن نفعل بشأن ذلك؟ أنا آسفة جدًّا، لا يخطر في بالي أيّ فكرة.

- لا أعرف يا بِيْ. ولكنّي لا أستطيع الاستمرار. ولو لم أكن حذرًا، لطُرِدْتُ من عملي. أنا متعبٌ ومتوتّرٌ وممتعضٌ وأرتكب الأخطاء ومصدر قلق كبير لكلّ من يعمل معي.

مدَّت بِيْ يدَها ووضعتها على يده. قالت له:

- أنا آسفة. لقد عَلِقْتُ في عالمي الصغير الخاصّ، محاولةً القيام بدور الزوجة والأمّ المثاليّتَين. ولكي أكون صادقةً معكَ، لم أكن سعيدةً كلّ تلك السعادة أيضًا. يبدو وكأنّنا أُجْبِرْنَا على أسلوبِ حياة لا نريده، لكي نحافظ على هذا الأسلوب الفانتازي في الحياة.

- بالضبط. أعرف أنّ الملل أصابَكِ. أعرف أنّكِ تهيمين حبًّا بمُوْدْ، ولكنّي أستطيع رؤيتكِ وأنت تحاولين إيجاد السبل لقضاء يومِك.

- إنَّ غسل سترات الصوف الكشميري لا يلبِّي لي طموحي في الحياة.

قالت بِيْ، ثم ابتسرت ضحكة وأضافت:

- ولا حتّى لو استطعتُ تعليقها على حبل الغسيل بملاقطَ ثيابٍ خشبية صنَعَها حرفيٌّ ماهر.

تكوَّنَت لديها صورة ذهنية عن شخصيّتها، فهي تصميمٌ حقيقيٌ من تصاميم مجلّة هيرث. ولكنّها لم تكن لتسمح لذلك بهزيمتها. تحلَّت بِيْ بفكرٍ استراتيجيّ. فدائمًا ما كان في جَعبتها خطّة. قالت:

- ما رأيكَ أن نتبادلَ الأدوار؟

قطَّب بِلْ حاجبيه:

- نتبادلُ الأدوار؟

- يمكنني العودة إلى العمل. فهناك أشخاص يتصلون بي طوال الوقت ويعرضون عليَّ وظائفَ لا رغبة لي حقًا برفضها. أحبّ أن أعودَ إلى العمل وأن أكونَ امرأةً ناضجةً بمعنى الكلمة في لندن. ويُمْكِنُكَ أنتَ أن تخرج في مشاوير هنا مع مُوْدْ.

عبس بِلْ وقال:

- تريدينني أن أصير ربَّ منزل؟ لَسْتُ متأكّدًا من رغبتي في فعل ذلك.

جعَّدتْ بِيْ أنفها وقالت:

- لا! لن تصير كذلك، إذ يمكنك العمل في بعض الأعمال وأنت في البيت أثناء وجود مُوْدْ في الحضانة. رغم أنّك ستضطر للقيام بقليل من الأعمال المنزلية، مثل شراء الطعام، ونشر الغسيل بين الفينة والأخرى. ولكن ذلك ليس بصعبٍ يا بِلْ. لماذا تظنّ أنّني في قمّة المَلَلْ؟ أظنّ أن هذه الحياة الرِّيفية تناسبك أكثر بكثير منّي. كلّ ما في الأمر أنّني لا أرى نفسي امرأة قادرةً على تحضير المربَّى، ولستُ من صنف النساء اللاتي يحببن الانضمام إلى الجمعيّات النسائية. ولكنّني أعتقدُ بأنّك ستحبُّ حقًّا العمل في الحديقة وقطع الأخشاب والزيارات التي لا تنتهي إلى الحانة.

- أتظنّين فعلًا أنّ هذا الحلّ سينفع؟ هناك طوابيرُ من الناس يريدونني أن أؤدّيَ لهم أعمالًا استشارية.

- نعم!

- ستضطرين لأن تصيري معيلة أسرتنا. ليس عندكِ مانع من الذهاب إلى لندن والإياب منها يوميًا؟

- لا! فأنا أشعرُ بغيرة كبيرةٍ جدًّا جدًّا جدًّا كلَّما رأيتُكَ متّجهًا صوب القطار الذاهب إلى لندن.

- حقًّا؟ أهلًا وسهلًا بكِ على متن القطار.

- سأحتاجُ إلى قليل من الوقت حتّى أجد الوظيفة المناسبة لي. ولكنّي أظنّه حلًا عظيمًا. لا تفهمني خطأً. فأنا لا أريد أن نعود إلى لندن. أظنّ أنّ هذا المكان مثالي، وهو المكان الصحيح لمُوْدْ.

بدا بِلْ وكأنّ ثقلَ الدنيا انزاح عن كاهليه.

- راقت لي الفكرة يا بِيْ. أشعرُ وكأنّ الحياة رصاصة تئزُّ مسرعة فوق رأسي، وليس لدي الوقتُ للاستمتاع بالأشياء التي أريدُ الاستمتاع بها، وما هي إلّا لمحاتٌ من البصر وتبلغ مُوْدْ السادسة عشرة من عمرها. أريد لإيقاع حياتي أن يبطِّئ من سرعته. أعرف أنّني لا أزال في الأربعين فقط، ولكنّي لا أريد أن أقضيَ السنوات العشرة القادمة وأنا أشقّ جسدي في العمل المُنْهِكْ. وإذا كان ذلك يعني الكفَّ عن ذلك الهراء الذي أفعله فلا يهمّني ذلك...

- أن تحترق مثل مئة شمعة؛ ولكنّك لا تتقاضى سوى جنيهٍ واحدٍ مقابل احتراقك.

فهم ماذا تعني بذلك: نعم!

- كسبتَ لنفسك صفقة أيُّها السيِّد.

صافحت بِيْ زوجَها بيديها فوق الطاولة.

بينما أحضرت لورين الطاجَين، استرخت بِيْ في كرسيّها وهي تتنفّس الصُّعداء. ما فتئ الذعر يسكنُها ظنًّا منها أن بِلْ كان موشكًا على إعطائها إنذارًا نهائيًّا. أو أنّه سيقول لها إنَّه عثر على امرأة أخرى غيرها. جلّ ما في المسألة أنّ بِيْ أحبَّت تمامًا دور بنت الرِّيف ولكنّها فعليًّا لم تكن سوى بنتَ مدينة خلفًا عن سلفٍ. وستكون كلّ ملامح الحياة الريفية بانتظارها هنا في العطلة الأسبوعية؛ القُفَف وجزَرَات بيتر رابِتْ المدبّبة الرأس والبيض الذي لا يزالُ مغطّى بفضلات الدَّجاجة الذي باضته.
آنَ هذه اللحظة، عندما رجعا إلى البيت وبعد قنينتَين من النبيذ الباهظ الثمن الذي يفوقُ إمكاناتهما والذي شرباه احتفالًا بقرارهما، كان بِلْ لا يزال مستيقظًا عندما خرجت من الحمَّام وهي ترتدي فستانها من ماركة كوكو دي مير؛ مستيقظًا كلّ الاستيقاظ.

(108) حلوى إيطاليةٌ مكوَّنَة من الكريم المحلَّى والجيلاتين. ويمكن أن تضاف إليها نكهات القهوة أو الفانيلا وغيرها.
(109) يُعْرَفُ أيضًا بقلقاس القدس أو كمأة بيت المقدس، وهو نبات له جذور ويشبه البطاطا.

الفصل التاسع عشر

في يوم الأحد الموالي، قرَّرَت إِميليا أن ترتاحَ في البيت. فقد عملَت بأقصى ما استطاعت لأسابيعَ، وسُرَّ ديڤ لأنه سيتولّى إدارة شؤون المكتبة لذلك اليوم.

كان مارلو قد عرض عليها إعطاءَها درسًا في العزف على التشيلُّو؛ لكي تكون على اطِّلاع على مقطوعات لم تكن متآلفة معها ولكي تتدرَّب على مقطوعة هاندِل(110). ينبغي لها أن تتقنَ بالذات عزف هذه المقطوعة من بين كلّ المقطوعات الأخرى؛ لأنّها المقطوعة التي ستدخل على أنغامها أَلِسْ الكنيسةَ يوم عرسِها.

قال لها:

- تشتهر هذه المقطوعة بصعوبة عزفها على التشيلُّو. ولكنّنا سنتمكَّن من عزفها، لا تقلقي.

كان يومًا من تلك الأيام الخريفية التي تأخذك على حين غرّة. رغم وجود حدَّة في الجوّ عند الاستيقاظ، فقد اختفى الخريف وراء أشعة الشمس الدافئة والسماء الخالية من الغيوم. ارتدت إِميليا فستانًا أصفرَ وسترة صوفية خضراء فاتحة وساقت سيَّارتَها متّجهةً إلى منزل مارلو، وهو مسكنٌ صغيرٌ على الطراز الفكتوري يقع في أطراف بيزبروك. كان مثلَ كوخٍ من أكواخ الحكايا الخيالية، كلّ نوافذه مدبَّبَة وله سقفٌ مثلثُ الشكل وباب أمامي مُقَنْطَر.

ضربت الفوضى أطنابها داخل المنزل. وتناثرت الكتبُ والنُّوتَاتُ الموسيقية وأقداح النبيذ الفارغة، وماجت بينها قطَّتَان بلونٍ رمادي أدْخَنْ. صدحت موسيقا جون كولترين(111) وشمَّت إِميليا رائحة قهوة أُعِدَّتْ قبيل لحظات. بغصَّة ألم، أدركت أنّ الأجواءَ ذكَّرتها بعض الشيء بالشقّة عندما كان أبوها حيًّا: كان دائمًا منهمكًا وسط عشرات الأشياء في الوقت ذاتِه؛ الموسيقا تصدح دائمًا، وصوت وجبةٍ ما تُطْهَى على النار.

- يا الله! أنا آسف. كنت أنوي ترتيبَ المنزل.

قبَّلها مارلو مستقبلًا ثم قال:

- أُعرِّفكِ بكروشيه وكويڤر.

رفع إحدى القطَّتَين عن أحد الكراسي وربَّت عليها قائلًا:

- تفضّلي بالجلوس هنا. سأحْضِرُ لكِ فنجان قهوة بينما تهيّئين نفسك.

أخرجت إِميليا التشيلُّو الذي أحضرته معها من صندوقه، وبينما نظرت في أرجاء الغرفة لمحت آثارًا تدلُّ على ديلْفِين. وشاحٌ حريري من ماركة هيرمِز على الأريكة؛ آثارُ أحمر شفاه على كأس، وحذاءٌ مسطَّح من ماركة شانيل.

- دِيلفْ في باريس لقضاء العطلة الأسبوعية؛ ذهبت لحضور حفلةٍ عند أحد أقاربها. ولذا فأمامنا اليوم بكامله إذا لزمك ذلك.

حسنًا، فكَّرت إِميليا في قرَارة نفسها. لقد فهمت الرسالة. فكلمة «دِيلفْ» ليست سوى تدليع يشي بألفة الشغف الذي يربطه بديلْفِين كلَّمَا سمعته إِميليا يتلفظ باسمها على هذا النحو.

نال منها الإرهاق بعد مرور ساعتين. كان مارلو معلِّمًا رائعًا وصبورًا، ولم يجعلها تشعر ولو مرَّة واحدة بأنّها أقلّ منه شأنًا في العزف. ساعدها في وضعية الوقوف وفي طريقة الإمساك بالقوس. في لحظةٍ ما، وضع يده على كتفِها. غاصت أصابعُه في كتفِها حتّى أمسكَ بعضلةٍ من عضلاتها.

- عليكِ أن تُرْخِي هذه العضلة. أنزلي كتفكِ.

حاولت إِميليا الاسترخاء بأقصى ما استطاعت، ولكنّ ذلك شقَّ عليها. إحساسُها بيدِه جعَلَهَا تفكّرُ بأشياءَ ما كان ينبغي لها أن تفكِّرَ فيها على الأرجح. نجَحَتْ بعد جهدٍ في التخلّص من التوتّر.

- أحسنتِ! انتشى مارلو منتصرًا وأضاف:

- إذا أرخيتِ تلك العضلة، تستطيعين العزف مدة أطول، وبطريقة أفضل بكثير.

في الثانية عشرة والنصف، لخَمَهَا التعب. قال مارلو:

- هيا بنا. فلنمشِ إلى المطعم ونُحْضِر بعض الغداء.

مشيا إلى مطعم وايت هورس وابتاعا لفائف خبز الشيباتا(112) المحشوّة بلحم الخنزير الساخن مع صلصة التفاح وقِطَعٍ من قشور لحم الخنزير المحمَّرة المملَّحة، وجلسا إلى طاولةٍ في الخارج بجانب جهاز التدفئة المنتصب في ساحة المطعم. لم ترغب إميليا في ترك أشعة الشمس، والصحبة اللطيفة، ونصف قنينة عصير التفاح الذي أصابها بالنعاس وجعلها ترغب في أن تندسَّ في السرير نائمة...

قال مارلو:

- فلنرجع عبر الغابة. المسافة عبر الغابة أطول من العودة على الطريق ولكن يمكننا أن ننهيَ ما بقي معنا من غدائنا ونحن ماشيان.

مشيا عبر الغابة منعطفَين مع انثناءات النهر. ارتفعت معنويات إِميليا بسبب أشعّة الشمس وشدو الطيور؛ فقد قضت ردحًا كبيرًا من الزمن وهي حبيسة الأماكن مؤخّرًا. ينبغي لها بذل جهدٍ للخروج والاستمتاع بالرِّيف المنتشر المحيط ببيزبروك. كان منظرًا رائعًا بحقّ، الأشجار وقد اشتعلت بألوان قرمزية ومرجانية وصفراء مائلة إلى البرتقالي والرائحة الفوّاحة للأوراق الذابلة تحت الأقدام تفوحُ في الأجواء.

وصلا أخيرًا إلى جزءٍ من النهر أعمقَ من أجزائه الأخرى، حيث اتسعت ضفّتَاه لتشكّلا حوضًا على شكل زبدية. الماء صافٍ جدًّا؛ ورأت إِميليا الصخور الملساء في قاعهِ، تكسوها الطحالب، وهناك صفصافةٌ على الضفّة البعيدة، وقد مدَّت أغصانها داخل الماء.

سألها مارلو:

- أتودِّين السباحة إذًا؟ فلا شيء أكثر متعةً من ذلك.

- لا بدَّ أنكَ تمزح. أكيدٌ أنَّ الماء باردٌ جدًا؟

- أبدًا. فأنا أسبح هنا طوال الوقت، حتّى في عيد الميلاد. السباحة هنا نشاطٌ منعشٌ.

- منعش؟

بدت إِميليا متشككة. بيدَ أنّها لم تستطع أن تقاومَ كلّيًا هذا التحدّي.

- وهل تسبح ديلْفِين في هذا النهر؟ لم تستطع إِميليا أن تتصوَّرها وقد فعلت ذلك.

- يا إلهي! لا. فهي أجْبَنُ من دجاجة.

ذلك كان كلّ ما احتاجته إِميليا حتّى تتشجَّع. وستتثبت لمارلو بأنّها ليست خائفة مثل الصوص. هناك أمرٌ واحدٌ فقط يحول بينها وبين السباحة.

- ليس معي أيُّ ملابس سباحة.

قالت، ولكن ساورَها شعور بأنَّ تلك الحجَّةَ ما كانت لتردع مارلو عن قراره. قال لها:

- يمكننا السباحة بملابسنا الداخلية. فلا فرق إذا ما سبح المرء في شورت سباحة رجالي أو في بيكيني.

ضحكت إِميليا.

- أنتَ الفائز في النقاش.

قالت، ثم خلعت حذاءها وبدأت تحلّ أزرار فستانها.

ما كان مارلو بحاجة إلى من يشجِّعُه. نزع قميصه، وبنطاله الجينزي ورَأَت إِميليا سطوعًا لبشرةٍ مصبوغة وعضلات بطن مشدودة قبل أن يغطس في الماء.

برز إلى سطح الماء يدمدم ويشهق من وقع الصدمة ببرودة الماء. صاحَ بها:

- هيَّا! تعالي! لا تتردَّدي وإلَّا فإنك لن تفعليها مطلقًا.

وضعت فستانَها فوق ملابسه، وقبل أن يتاح له كثير وقت لكي يتأمّلها وهي في نهديتها وتُبَّانِهَا وثَبَتْ إلى الماء أيضًا.

خَطَفَتْ برودة الماء القارس أنفاسَها. ولكنّه كان شعورًا مثيرًا. قالت:

- أوه يا إلهي! أشعر وكأنَّ عروقي تجمَّدت في رأسي.

عَامَا في الماء برهة وهما يحرِّكان أقدامهما. قال مارلو:

- أعشق هذا المكان. آتي إلى هنا كلما أثقلتني الهموم. السباحة في الماء البارد تصفِّي البال.

أومأت إِميليا برأسها موافقة، ولكنّ أسنانها كانت تصطكُّ من البرد.

- لا يخطر في بالي أنَّك شخص تثقله الهموم أبدًا.

ضحك ضحكةً جوفاء. ثم قال بنبرةٍ سوداوية:

- كما هو معلوم لكِ، تضيق بنا الدنيا عندما نصل بأنفسنا إلى وضعٍ لا يمكننا الخروجُ منه؟

تساءلت إِميليا ماذا قصد بقوله ذلك. أكان يشيرُ إلى ديلْفِين؟ ولكنّه لم يوضِّح قصده. قال مارلو:

- هيا بنا. لقد بردتِ.

صعدا جهة الضفّة. أمسك مارلو قميصَه وقال لها:

- نشِّفي جسمك بهذا القميص. يمكنني تدبّرُ أمري دونَه. فنحن قريبان من الكوخ.

شعرت بارتباكٍ شديد وهي تمسحُ الماء عن جسدِها بقميصه، ولكنّه أذهب عنها معظم الماء البارد قبل أن ترتديَ فستَانها مرة

أخرى. وجدت نفسها مفتونة إذْ رأت وشمًا على صدره؛ كان سطرًا من علامات موسيقية على بشرته المشدودة.

انحنَتْ إلى الأمامِ حتى تقرأ الوشم. لم تكن بارعة في قراءة النوتة، ولكنّها تمكَّنَتْ من قراءة السطر رغم ذلك. صاحت مبتهجةً من الفرحة:

- هذا سطر من سيمفونية بيتهوفن الخامسة!

- أحسنتِ! نجحتِ في الاختبار.

- أي اختبار؟

نظر إليها. عيناه ترمقانها بنظرةٍ مداعبة وأضاف:

- لا أنام مع أيّ امرأة لا تعرف قراءة ما هو مكتوب في الوشم.

اتسعت عيناها مشدوهةً.

بدا مرتبكًا: لا أقصد أنـ...

- لا! بالطبع لا تقصد.

مشت، مرتبكة. لماذا قال ما قاله؟ الأمر ليس منصفًا نوعًا ما، إذا ما أخذنا في الحسبان علاقته بديلْفِين. بالتأكيد كان يغازلها، تلك اللحظة لا أكثر.

بعد أن عادا أدراجهما إلى الكوخ، بدأت ترتجف؛ فالماء شديد البرودة وتسلَّلَت برودته إلى عظامها. أعدَّ لها شوكولا ساخنة، وأعارها كنزة كشميرية رمادية. حالما لبستها، شمَّت رائحته تفوح منها. شعرت بالدفء من فورها، وكأنّها كانت منهمكة في عناق. قالت بينها وبين نفسها بأنّ سبب ذلك الشعور هو الكنزة الكشميرية.

- اشربي بعضًا من هذا لتزدادي دفئًا.

رفع مارلو قنينة نبيذ پادي التي أحضرتها له عربون شكرٍ على تدريبها على العزف. صبَّ كمّية سخيّة في كأسها. بينماً شربته، وهي متكوّرة على الأريكة، شعرت بالنوم يتسلَّل إلى عينيها. العزف الصباحي، المشي، الغداء، السباحة، دفءِ النار والوِيسكي...

- يا سلام، يا سلام، هذا مكان دافئ ومريح.

صَحَتْ على كلمات ديلْفِين وهي واقفة بمدخل الباب.

نهض مارلو عن الأريكة بحركة انسيابية. لم تكن إِميليا تدري أنه كان جالسًا بجانبها. قال:

- أهلًا ديلْف.

جالت عينا ديلْفِين، متمعنة، في أرجاء المشهد. لحُسنِ الحظّ ما زال تشيلُّو يوليوس خارج صندوقه، أمام مسند النوتة الموسيقية. فالتشيلُّو هو ما يحتاجانه كمسوِّغٍ لوجودهما معًا في الكوخ.

ثمَّ إنَّ وجودها هنا ليس بحاجةٍ إلى مسوِّغ. فهما لم يفعلا شيئًا. رغم أنَّ إِميليا تعرف أنّها كانت ترتدي كنزة مارلو. قال مارلو مخاطبًا ديلْفِين:

- لقد عُدْتِ باكرًا. تفضَّلي واشربي كأس ويسكي.

أحضر كأسًا من الرف.
قالت إِميليا: ينبغي لي أن أذهب.

- لستِ ذاهبة لأنّي جئت؟

قالت ديلْفِين، وهي تأخذ كأس الويسكي من يد مارلو وتلقي جسدها فوق الأريكة. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا أحمر وطاقية من اللون ذاته. بدت معتدَّةً بنفسها على نحوٍ لا يصدَّق، وشعرت إِميليا بموجة مفاجئة من الكره الشديد لها.

- أتمانعُ إنْ بَقْيْتُ مرتديةً كنزتك؟ سألَتْ مارلو، وهي تعرف بأنّ هذا الطلب يشي بنبرة استفزازية. فعلت ذلك فقط لأنّها تعرف بأنّه ما من شيء يخفيانه هي ومارلو. فهي نقيَّة السريرة.

لم يهتزّ لديلفين طَرْفٌ. أومأ مارلو برأسه موافقًا:

- بالتأكيد. أعيديها لي عندما تأتين إلى تجارب الأداء الموسيقية في المرَّة القادمة.

ساقت إِميليا سيَّارتها راجعة إلى البيت، وهي تحاول ألَّا تشعر بالغيظ من حضور ديلْفِين العدائي. ركَّزَتْ عوضًا عن الانشغال بذلك بما حقّقته من تقدُّمٍ في العزف. شعرت بكثير من الثقة بعد تدريب مارلو لها. ربما لن تخيِّبَ آمال أصحابها في نهاية الأمر.

* * *

لم يهدأ بالُ جاكسُن في يوم الأحد ذاك.

فقد اتصل به إيان ميندِب لكي يناقره بسبب موضوع المكتبة. قال إيان متذمِّرًا:

- لا تحتاج عادةً هذه المدة الطويلة لإغواء فتاة من الفتيات.

أغلق جاكسُن هاتفه المحمول في وجهه. وسيتذرَّع بضعف إشارة شبكة الاتصالات في بيزبروك.

لم يعد يرغب بعد الآن بأنْ يكون له أيّ ضلعٍ في خطّة إيان الملتوية. فقد أُعْجِبَ فعلًا بما تفعله إِميليا في المكتبة وكَرِهَ فكرة استيلاء إيان عليها. فمكتبة نايتِنْغيل ليست سوى مكانٍ ينشر

الفائدة، وما إيان ميندِب سوى وحشٍ جَشِعٍ. وإذا طرَدَه من عمله، فليكن ذلك إذن.

مشى صوب منزله. كانت ميا متوجّهة خارج المنزل في جولةٍ على درّاجتها مسافة عشرين ميلًا كجزء من تدريبها على سباق الترياثلون، وقد عرض عليها أن يتولّى رعاية فِنْ. لم ينظر إلى ذلك على أنّه عبءٌ من أعباء المنزل؛ ولم عليه أن يعده كذلك؟

- درَّاجة جميلة!

قال لها، وهي تجهز مستلزمات تدريبها من الكمَّادَّات الباردة وقناني الماء ومعدَّات التصليح.

نظرت إليه وقالت:

- هذه الدرَّاجة كلّ ما أملك. فأنا لا أصرفُ المال على شراء الملابس.

- لم أقصد أيّ إساءة ممّا قلته. قال جاكسُن؛ لأنه لم يقصد أيّ إساءة فعلًا.

لماذا وقَفَتْ موقفًا دفاعيًّا جدًّا؟ لماذا تُصَعِّبُ عليه السبُل في محاولته أن يكون لطيفًا معها؟

نظر إليها، وهي ترتدي ملابسَها الرياضيَّة السوداء المشدودة من ماركة لايْكرا والخوذة التي جعلَتْهَا تبدو مثل مخلوقٍ فضائي، وفكَّر بمدى الهشاشة التي تميِّزها. وَجَفَ قلبُه وجيفًا خفيفًا، ثم قال لها:

- بالتوفيق. اتَّصلِي بي إذا تعبتِ واحتجتِ أن أرجعكِ إلى البيت.

- سأكون بخير. قالت له، واضحٌ أنّها لا تريد أن تُظْهِرَ أيّ اعتمادٍ عليه مهما كان نوعه.

قفل راجعًا إلى المنزل.

شعر وكأنَّه عالقٌ في منتصف المسافة الواصلة بين إنسانٍ يمشي على ساقين وبين نكرةٍ لا قيمة له. وكأنّه في قاع بئرٍ معتمة، وهناك ضوء في أعلاها، وينبغي له أن يتسلّق صوبَ الضوء. لم يكن متأكِّدًا ما الذي سيعثر عليه إذا وصل إلى الضوء، ولكنّه إذا وصل إلى هناك، فالأمور ستكون أحسن، شعر بأنّه متأكّد من ذلك.

قلَّب صفحات الكتاب الذي ابتاعه من المكتبة ليقرَأه مع فِنْ بناءً على اقتراح إِميليا. كان كتاب الأمير الصغير كتابًا غريبًا، ووجد فيه مقدارًا كبيرًا عصيًّا على الفهم. بدا أنّه يضمُّ بين دفتيه كلّ الحكمة الموجودة في العَالَم:

أحاطَتْنِي بعبيرها وألقِها. ما كان ينبغي لي أن أفرَّ منها ألبتة. كان ينبغي لي أن أعرف كل المحبَّة الكامنة وراء كلّ حيلها البسيطة الواهية. فالزُّهور لا تشابه بعضها بعضًا! ولكني كنتُ صغيرًا جدًّا ليتسنَّى لي معرفة أسلوبٍ أحبُّها به...(113)

* * *

ذلك صحيح. فهو صغير جدًّا لكي يتسنَّى له معرفة أسلوبٍ صحيح يحبُّ فيه ميا. فقد جعلها تنفرُ منه بسبب سلوكه. ها هو يدرك ذلك الآن.

لم تكن تثق به؛ وكيف لها أن تثق به؟ فقد كان غير ناضجٍ وعديمَ الجدوى وأنانيًّا.

حملق إلى جدار غرفة الجلوس. أدرك أنه استسلم. استسلم متخلّيًا عن آماله، وأحلامه، وعلاقاته. بات تائهًا في دوَّامةٍ جعلته يكره نفسه أكثر من قبل. أغلقَ الكتاب.

ذلك إذًا السرُّ الذي يجعل الناس يقرؤون؛ يقرؤون لأنّ الكتب تشرح طبائع الأشياء: تشرح كيف تفكِّر، وكيف تتصرَّف، وتجعلك تدرك بأنَّك لستَ وحدك في تلك الأفعال والأحاسيس.

اصطحب فِنْ وخرجا إلى ساحة التزلُّج، وملايين الأفكار تعصف في رأسه، وهو غير متأكدٍ كيف يقبل المنطق الكامن فيها، ولكنه يعرف أنَّه بحاجة لأنٍ يفهم منطقها، وبأنه يوجد جوابٌ في مكان ما. يجب عليه ألَّا يهيم على وجهه في هذه الدنيا، وارتكاب الأخطاء، وفعل أشياء لا يرغب في فعلها، دخولًا عند رغبة شخص آخر.
فجأةً، بدا كل شيء واضحًا في ذهنه: واضحٌ ما يريده من الحياة. يريد الفرصة ليكون زوجًا صالحًا لامرأة أحبَّها ولم يغادر حبُّها فؤادَه قطّ. يعرف أنَّه أبٌ رائعٌ، ولكنّه أراد أن يكون أبًا في أسرةٍ حقيقية، وليس أبًا أعزب كلّ ما يقوم به ركل كرة قدمٍ أو الوقوف منتظرًا حتى يفرغ ابنه من اللَّعِب في ساحة التزلُّج.

ماذا عساها تقول؟ كيف له أن يقنعها بأنه قد تغيَّر؟ ما من دليل لديه، باستثناء أنه يشعر بأنه بات إنسانًا مختلفًا. كيف له أن يقنعها بأن شخصًا ما، إِميليا لا أحد سواها، قد أنارت له الطريق دون أن تدري. ستضحك ميا إذا حاول أن» يشرح لها ذلك. ستظنّ بأنه يحاول تجريب اللجوء إلى هذه الوسيلة؛ يحاول أن يكسب الثقة من وضعه الجديد لأن ذلك يناسبه.

عليه أن يسألها. عليه أن يتصرَّف كرجل ويجابه الصعاب من أجل ما يريده. من أجل أن تبقى زوجته وابنه معه. لقد تعلَّم من أخطائه. وأراد أن يشعر بالمسؤولية والأمان.

ابتاع من المتجر الواقع على زاوية الطريق المؤدّي إلى البيت بعض علب البيتزا ليأخذها معه حتّى يأكلَها مع فِنْ. أَكَلَاهَا على عجلٍ في المطبخ، دون حتّى أن ينتظرا وضعها في صحون، أَكَلَاهَا مباشرة من العلبة الكرتونية.

كان جاكسُن منهمكًا في ترتيب المطبخ عندما عادت ميا من جولتها التدريبيَّة على الدرَّاجة. بدت مرهقة.

- هل أنتِ بخير؟

- أنا بخير. قالت بابتهاج، ونظرت شَزَرًا إلى بقايا البيتزا، رافعة حاجبها في استنكارٍ بسبب ما تحتويه من الدهون والكربوهيدرات.

إما أنْ يقولها الآن وإلَّا فلن يقولها أبدًا، دار في خلد جاكسُن.

- اشتقتُ لكِ.

طرفت عينا ميا وقالت: ماذا؟

- اشتقتُ لكِ. اشتقتُ لنا. لا أفهم، لماذا أنا عالقٌ في بيتٍ متنقّلٍ مع أمي، رغم أنّني أحبّها حبًّا عظيمًا، وأنتِ مهووسةٌ بـ...

لوَّح بيده في الهواء وأضاف:

- بإرهاق نفسك حتّى الثمالة بكلّ تلك الرشاقة والأكل الصحيّ. ينبغي لنا أن نخرج اليوم، كأسرة واحدة.

شبكت ذراعيها، وأشاحت ببصرها عنه. بدت على وشك البكاء. نظرَتْ إليه أخيرًا.

- ولكنّنا لم نعد أسرة واحدة بعد الآن يا جاكسُن.

مشت لتضع غلَّاية الماء على النار، وأدارت ظهرها له معلنة انتهاء الحوار، وشعر جاكسُن بالانكسار وخيبة الأمل. خيبة أمل كبيرة جدًّا لأنّه تجرَّأ وفاتَحَها في الموضوع.

تنهَّد قائلًا:

- أوه. اكفهرَّ وجهه وأضاف:

- أهناك... أحدٌ آخر في حياتك؟

تخيَّلها على عَلاقةٍ برجلٍ مهووس بسباقات الدرَّاجات؛ رجلٍ مفتول العضلات يخطّط لسباقات درَّاجات لا نهاية لها على تطبيق من تطبيقات الرشاقة على جوَّاله.

قهقهت ضاحكة:

- لا. لا، لا يوجد أحد. لا أريد أحدًا آخر يا جاكسُن. فأنا أحاول أن أكتشف ذاتي، بعد كلّ العناء الذي أدْخَلْتَنِي فيه. أحاول بدء حياةٍ جديدةٍ.

حياة لا وجود له فيها. كان ذلك واضحًا وضوح الشمس.

أومأ برأسه: حسنًا...

خرج من المطبخ وذهب ليجد فِنْ الذي كان يلعب على جهاز الْوِيْ(114) في غرفة الجلوس.

- إلى اللقاء يا صديقي.

ضمَّ ابنه إليه.

طالما أنَّ فِنْ معه، ما كان ليكترث بما سوى ذلك. وإذا لم تستطع ميا أن تجد موضعًا في قلبها لتسامحه على تجاوزاته، ففي ذلك كلّ العدل والإنصاف. ولكنّه يبقى والدُ فِنْ شاءَتْ أم أبَتْ. لا يمكنُها أن تجرِّدَه من ذلك الحق.

طفق راجعًا إلى المطبخ ليودِّعها ويذهب. نظرت إليه ميا، مرتبكةً ونادمة. كانت تأكلُ شريحةً من البيتزا الباردة التي كانا يأكلانها؛ كانت تأكلُ بنهمٍ شديد وكأنَّها آخرُ شريحةِ بيتزا باقية على وجه الأرض.

- إلى اللقاء.

قال جاكسُن، مقاومًا الرغبة في قول كلمات حاسمة. لأنّه لم يشعر بالمرارة. شعر فقط بالحزن. ولكنّه أَمِلَ أن يكون إقبالُها على أكل البيتزا بصيصَ أملٍ في تغيير في موقفها.

(110) جورج فريدرك هاندل (١٦٨٥ – ١٧٥٩): موسيقيٌّ إنكليزيٌّ ولكنّه ألمانيُّ الأصل والمولد. (الموسوعة البريطانية).

(111) جون كولترين (١٩٢٦ – ١٩٦٧): موسيقيّ جاز وعازفُ ساكسفون أمريكيّ.

(112) نوعٌ من الخبز الإيطاليّ الأبيض الذي يُحضَّر باستخدام زيت الزيتون.

(113) المقطع من الرواية القصيرة «الأمير الصغير» للكاتب الفرنسي أنطوان سانت دو أكزوبيري (١٩٠٠ – ١٩٤٤). ويصفُ في هذا المقطع الزَّهرة التي كانت تعيش في كوكبه.

(114) جهاز (Wii) وهو جهازُ ألعاب إلكترونية أطلقته شركة نينتيندو عام ٢٠٠٦.

الفصل العشرون

دَعَتْ بِيْ إِميليا على الإفطار في أحد المقاهي لتخبرَها بالقرار الذي توصّلت إليه مع بِل.

كانت إِميليا تشعرُ بشعور فظيع. لم تشعر بأنّها على ما يرام منذ أن سبحت تلك السباحة المجنونة في الماء البارد صحبة مارلو. قاومتْ الإصابة بنزلة بردٍ، ولكنّها خسرت المعركة. طلبت عجينةً بالبيض مع حبّات بندورة صغيرة ناضجة محمَّرَة على النار لكي تمنحَها القوة، فيما كانت بِيْ تطعم مُوْدْ قطعًا صغيرةً من الموز.

غرَفَتْ إِميليا الرغوة عن كوب الكابوتشينو الذي طلَبَتْه. واعتاد العاملون في المقهى تحميص القهوة بأنفسهم، وأقسمت دائمًا أغلظ الأيمان بأنها لن تشرب أبدًا قهوةً سريعة التحضير مرة أخرى عندما تأتي إلى هنا. قالت بِيْ:

- هناك موضوع أودُّ إخباركِ به.

أنهت وجبة الغرانولا(115) وأضافت:

- لم أرغب في إخبارِكِ إلَّا بعد أن بات الأمر مؤكَّدًا، ولكنِّي سأعود إلى العمل في لندن. وصلني عرض العمل الرسمي صباح اليوم.

- أوه، مبارك!

حاولت إِميليا أن تبديَ ملامح السرور كرمى لها، وأضافت:

- هذا تغيير في الحياة نوعًا ما.

- سيعمل بِلْ من البيت ويرعى شؤون مُوْدْ عندما أكون في لندن. أدركنا معًا بأننا قلبنا حياتنا بطريقة خاطئة.

- ولكنّني أحتاجكِ!

كانت إِميليا تمزح، ولكنّها لاحظت أنّها باتت تعتمد على رؤية بِيْ ونصائحها. وكانت تقدِّر صداقتهما تقديرًا عاليًا.

- أعرف. ولكن لا يزال بإمكاني مدُّ يد العون لكِ في شؤون المكتبة. فمعرفتكِ والعمل معكِ هما ما جعلني أدرك شوقي الشديد إلى العمل.

- هذا إذا بقيت المكتبة مستمرةً في عملها.

- ماذا تقصدين؟

- يبدو الأمر برمّته وكأنّه بحاجة إلى الكثير الكثير من الجهد في الوقت الحالي.

قرصَتْها بِيْ في ذراعها وقالت:

- اخرسي! لا أريد الاستماع إلى تلك السلبيَّة. فلديك خططٌ للمكتبة يا إِميليا!

لم يكن بإِميليا طاقة على محاجَجَتها. فحلقها يغلي مثل النار ورأسها يئُنُّ عليها. ولهذا اكتفت بابتسامة. فقد كانت سعيدة من أجل صديقتها. بالطبع كانت سعيدة.

* * *

بحلول يوم الأحد، شعرت إِميليا بالعجز عن الحركة كما لو كانت ميِّتة. لم تُرِدْ شيئًا أكثر من البقاء في السرير، ولكنها كانت مرتبطة سلفًا بموعد تقضِيه في تجارب الأداء مع فرقة الرباعي. فالعرس يقترب يومًا بعد يوم. مكثت تحت اللحاف ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، ومن ثمَّ ارتدت ملابسها وهي تترنَّح دون أن تستحم وهرعت مسرعة إلى قاعة البلدة.

تعرف أن هيئتها بدت فظَّة وهي تلبس بنطالًا رياضيًا وكنزة ذات طاقية. ومما زاد طين ضيقِها بِلّةً أنّ ديلْفِين بدت بمظهر أخَّاذ حدَّ الدهشة وهي ترتدي كنزة حريرية زرقاء برَّاقة لها رباطٌ منسدِحٌ على الصدر ارتدته مع تنُّورةٍ جلدية قصيرة.

ذهب مارلو ليعانقها، ولكنها ابتعدت عن طريقه.

- لا تقترب منّي. فأنا موبوءة بالجراثيم.

ألقت له كنزته الكشميرية المغسولة يدويًّا التي لبستها يوم سبحا في النهر.

عادةً ما كان العزف على التشيلُّو يسرِّي عن إِميليا همومَها. فالموسيقا تهدئ روحها، ولكن العزف يهدِّئها حتّى الثمالة. كانوا يعزفون مقطوعة «تحية الحبّ» من مؤلّفات إلغر، وهي أحد الألحان التي سيعزفونها للجمهور أثناء انتظاره بداية مراسم العرس. ذكَّرت هذه المقطوعةُ إِميليا بمقطوعة إلغَر التي عزفتها فرقة الرباعي في حفل تأبين أبيها؛ مقطوعة «نشيد الليل».

عزفت عزفًا سيّئًا. وانتشرت أصابعها في كلّ مكان، انزلق قوس التشيلُّو من يدها وحادَت عن ركب العازفين.

أوقفهنَّ مارلو جميعهنَّ ونظر إليها ثم سألها:

- هل أنتِ بخير؟ أنتِ تعرفين تمام المعرفة بأننا سنعزف هذه المقطوعة؟

نبرة صوته على سوية واحدة، ولكنّها شعرت بأنّه كان يكظم غيظه. ففي نبرة صوته اتهام غير معلَن بأنّها لم تتدرَّب على العزف استعدادًا لتجارب الأداء. تدرَّبَتْ؛ ولكنّها بشر، وليست عازفةً آليةً قميئة. وضعت قوسها على مسند النوتة الموسيقية وقالت:

- آسفة. هناك كثيرٌ من الهموم تثقل كاهلي. ولا أشعر بأنني في صحة جيدة...

كانوا ينظرون إليها جميعًا. بِثْرا هي الوحيدة التي بدت متعاطفةً معها. بدا ردُّ فعل ديلْفِين عصيًا على الفهم.

وبدت على مارلو أمارات الضيق الشديد فقط. قال لها:

ـ إذا كنتِ تشعرين بهذا التعب الشديد كان ينبغي لكِ أن تلغيَ تجارب الأداء اليوم. فنحن نضيِّع الوقتَ لا أكثر.

نهضت إِميليا ويمَّمَت شطرَ الباب. وتبعها مارلو إلى الخارج.

ـ أنا آسف. فدائمًا ما يداهمني التوتّرُ قبل إقامة المناسبات. جُلُّ ما أريده أن نعزف على أكمل وجه وأنا أعرف أنك تستطيعين ذلك. كان عزفكِ مذهلًا يوم جئتِ إلى منزلي. أتقنتِ عزفها إتقانًا رائعًا حينها. ماذا دهاكِ اليوم؟

- يصادف اليوم ذكرى ميلاد أبي.

قالت إِميليا مطرقة رأسَهَا.

لاَنَ جانب مارلو فورًا:
- أوه، يا صغيرتي المسكينة! اللعنة على هذه الحال؛ ما أنا سوى وغد. أنا آسف. تعالي إلى هنا.

بينما كان على وشك أن يضمها بين ذراعيه خرجت ديلْفِين من الباب وقالت له:

- لقد حجزنا القاعة حتى الساعة الرابعة فقط.

ابتعد مارلو عن إِميليا مثلما يبتعد المرء عن مصابٍ بالطاعون. وهو ما شعرت به فعلًا: شعرت أن الطاعون أصابها. قالت إِميليا:

- لم يعد بإمكاني العزف بعد الآن. حسبت أنّني عازفةٌ جيّدة ولكنّي لستُ كذلك. ينبغي لكَ أن تعيد فيلِسيتي إلى الفرقة.

- لا تكوني سخيفة. قال مارلو.

- بصراحة، الأفضل لي أن أنسحب اليوم بدلًا من إفساد الأمر عليكم يوم العرس. فيلِسيتي تعرف المقطوعات الموسيقية كافّة، أنا متأكّدة منذ ذلك. آسفة.

عادت راكضةً ووضعت التشيلو في الصندوق. لم ترد أن تتحدّث في الموضوع. ولم يبدُ أيضًا أنّ الآخرين يريدون الخوض فيه، وهذا ما أكدَّ لها أنّ قرارها كان صائبًا. كانوا توَّاقين على نحو واضح لكي تتوقّف عن العزف ولكنّهم لم يمتلكوا الشجاعة لإخبارها بذلك. غادرت القاعة بأسرع ما استطاعت، بحيث يتسنّى لهم الاستمرار في تدريباتهم. دون أن تفسد عليهم العزف كلّه.

مرَّت بديلْفِين التي كان أقصى ما استطاعت فعله أن تبتسم لها ابتسامة متعاطفة، ولكنّها لم تكن فعلًا تلك الممثلة البارعة.

* * *

عندما وصلت البيت، لم تتوقّف حتى للذهاب إلى المكتبة والاطمئنان على إدارة ديف لأمورها. لم تشعر بأنّها قادرة على التظاهر بأنّ الأمور بخير. فما هي إلَّا بضع ساعات ويغلق ديف المكتبة، إذ إنَّ المكتبة تغلق أبوابها يوم الأحد في الساعة الرابعة.

بدلًا من ذلك، صعدت إلى الأعلى إلى الشقّة وشعرت بأنّها تغرق في كآبة خانقة. قرّرت الاتصال بسارة بازِلْدُن. ربّما يمكن لهما أن تحتسيا كأسي نبيذ، وتتشاركان بعض الذكريات عن أبيها، وتشربان كأسًا في صحة ذكراه. قالت لها سارة:

- أنا آسفة جدًّا بالفعل. فليكن ذلك في أيّ وقت آخر، فألِسْ راجعة إلى البيت اليوم من المستشفى. أنا على وشك الذهاب مع رالف لاصطحابها من هناك. أهلًا وسهلًا بك إذا أردتِ المجيء إلى هنا، بالطبع، سنقيم حفلة شاي للترحيب بعودتها.

استلقت إِميليا في سريرها. فحتّى سارة بازِلْدُن انشَغَلَتْ عنها بأمور أخرى. لم تأتِ حتّى على ذكر عيد ميلاد أبيها. حملقت إلى السقف. تاقت إلى أبيها أكثر من قبل.

ربما يكون العيش في بيزبروك خيارَها الخاطئ؟ ربّما يكون إبقاء المكتبة مستمرّة في عملها لفتاةً رومانسية، ولكنّها لفتة حمقاء؟ ينبغي لها ألّا تعيش في جلباب أبيها. ينبغي لها أن تعيش حياتَها هي.

قرَّرَت أن تستحم، وأن تدفِّئ نفسها وتضع أغطية نظيفة على السرير وترتدي بيجاما نظيفة وتخلد إلى النوم باكرًا. سكبت نصف قنينة باديداس(116) في البانيو وفتحت صنابير الماء، ثم مضت إلى المطبخ لإعداد كوبِ ليمسِب(117)، مضيفة ملعقتَي عسل لتلطِّف به حلقها. جلست على الأريكة وهي ترشفها: كانت ذاتَ طعمٍ لاذعٍ جدًا، ولكنّها تعرف بأنّها مفيدة لها. في الوقت الذي وصلت فيه إلى العسل غير الذائب في قعر الكوب، شعرت بثقلٍ في عينيها اللتين كانتا تصارعان النعاس وتغمضان. تكوَّرَت في زاوية الأريكة وسمحت لسلطان النوم بالسيطرة

عليها.

* * *

كانت ألِسْ تحزم آخر غرضٍ من أغراضها قبل الذهاب إلى البيت. لم يعد بمقدورها الانتظارً. بدأت حجرة المستشفى تصيبها بالجنون. رغم أنَّ موظّفي المستشفى جميعهم كانوا رائعين، فقد شبعت من المكوث هنا. تكلَّلت العملية الأخيرة التي أجريت على ساقها بالنجاح وباتت الكرة الآن في ملعبها لكي تستجمع قوتها. لا تزال ساقها تؤلمها ألمًا فظيعًا، وبلغ منها التعب مبلغًا كبيرًا، ولكنّها تاقت إلى العودة إلى البيت، تاقت إلى عزبة بيزبروك مانُر، وشعرت يقينًا بأنها ستتعافى بسرعة أكبر هناك.

أغلقت حقيبتها ونظرت في أرجاء الحجرة لتتبيَّن إذا ما نسيت أي شيء فيها. هو ذا كتابُها، الفرسان. أخذته بيدها. يذكِّرها هذا الكتاب بديلُن. أحبَّت لحظاتِ قراءته لها. كم كان ذلك مريحًا جدًّا! وهي مستلقية هناك تصغي إليه، وإذا ما تشتَّت فكرُها عمّا يقرأ فلا بأس؛ لأنّها تعرف الكتاب من ألفه إلى يائه. لم يأت

لرؤيتها مؤخّرًا ولم تكن متأكّدةً من سبب ذلك. افترضت أنّه مشغول في استكمال تنسيق الحدائق استعدادًا للشتاء.

رفض هيو أن يقرأ لها. فلم تكن القراءة ميدانه. بدا عليه التوتر دائمًا كلّما جاء لزيارتها. سوَّغ لها ذلك بأنه يكره المستشفيات. لم تكن ألِسْ متأكّدة من أنّ أيَّ إنسانٍ يحبّ المستشفيات ذلك الحبّ العظيم، ولكنّها لم تنبس ببنت شفة. دَرْدَشَتْ معه فيما تَظَاهر بالإصغاء وقضى معظم الوقت على هاتفه المحمول من طراز بلاك بيري. كان يُجْرِيْ بضع صفقات أراد أن يزيحها من طريقه قبل موعد العرس ولذا فهي تتفهَّم أنه تحت الضغط.

- لستَ مضطرًا للمجيء ورؤيتي كلّ ليلة إذا لم تكن راغبًا بذلك.

قالت له، ولكنه أصرَّ على المجيء. ومع ذلك لم يكن يقضي وقتًا طويلًا في زيارته البتة.

وضَعَتْ الكتاب على عجل في حقيبتها وأغلقت سحَّابها. لم تستطع الانتظار حتى تعود إلى العزبة. كان هناك الكثير الكثير من الأعمال التي تنتظرها. ليس فقط من أجل العرس، ولكن لاستكمال الاستعدادات لعيد الميلاد. دون أن ننسى تجهيز إكليل

زهور عيد الميلاد. وهو حبل طوله ستون قدمًا من أزهار الحدائق في عزبة بيزبروك مانُر. وما انفكّ ديلُن يقطف الزهور ويجفّفها في أحد البيوت الزراعية على مدار العام. تجميع الزهور على الإكليل عملٌ شاق ولا مكسب من ورائه ولكنّه عمل يؤدّيه المرء شغفًا به، ولكن ألِسْ كانت عازمة على ذلك. سيكون احتفالًا بكلّ صنوف الزهور التي تنمو في العزبة على مدار العام. كانت تتوق شوقًا لترى الإكليل وقد اكتمل.

فُتِحَ باب حجرتها، ها هما والداها، سارة ورالف، يتمايلان فرحًا. شعرت باندفاعة من الحبّ نحوهما، فما انفكا ينهالان عليها برعايتهما في الأسابيع القليلة الماضية.

قال أبوها وهو يحمل حقيبتها:

- هيا بنا إذًا. فالسيَّارة بانتظارنا.

* * *

بينما سلكوا بالسيارة الدرب الداخل إلى العزبة، رأت أَلِسْ كافة الموظفين وقد احتشدوا خارج الباب الأمامي منتظرين عودتها؛ لم يقتصر الحضور على موظفي يوم الأحد فحسب، بل جاءت أيضًا موظفات المكتب العقاري. قالت أَلِسْ:

- يا الله! الجميع هنا.

- بالطبع يا حبيبتي، فقد اشتاقوا لكِ جميعًا. قالت سارة.

نزلت من السيَّارة وصعدت الدَّرجات المفضية إلى الباب الأمامي. الجميع يصفِّقون ويطلقون صيحات الترحيب. شعرت بمزيجٍ من الفرحة والإرباك؛ فبالتأكيد لا تستحقّ كلّ هذا الاهتمام؟

في الصالة، فتح رالف الشمبانيا وأُعْطِيَ كل الحاضرين كؤوسهم. قال رالف:

- فلنشرب نخب أمنياتنا بالشفاء العاجل.

وردّد الجميع صدى أمنياته.

ذهبت أَلِسْ ووقفت على الدرجة الثالثة من الدَّرج، بحيث يمكن لكل الحاضرين رؤيتها.

- أودّ فقط أن أشكركم فردًا فردًا على تحمّل المسؤولية أثناء وجودي في المستشفى. أعرف أنّكم بذلتم جميعًا قصارى جهودكم لضمان سير العمل كما هو. وأظنّكم استمتعتم بعدم وجودي هنا لكي لا أواصل النقَّ على رؤوسكم!

ضحكوا جميعًا. إذ لم تكن أَلِسْ نقَّاقةً على الإطلاق.

- ولكن نظرًا لأنّي عُدْتُ الآن أريد أن أتأكّد بأن عيد الميلاد القادم سيكون أفضل عيدٍ على الإطلاق. ولذلك، إذا خطرت في

بالكم أيّ أفكار عن جعله أفضل ممّا خطّطنا حتَّى، فأرجو منكم أن تأتوا وتطرحوا أفكاركم. إن عزبة بيزبروك مانر حقّقت ما حقّقته من نجاحٍ بفضل تعاوننا وتكاتفنا جميعًا. ولذا أردتُ فقط أن أشكركم لأنكم أفضل فريقِ عمل رأيته في حياتي.

رفعت كأسها مع ابتسامة وشاركها الحاضرون شرب نخب عودتها.

بينما رشفت الفقاعات المتجمّعة في أعلى كأسها، نظرت أَلِسْ في أرجاء الصالة ودار في خلدها كم كانت محظوظة. في تلك اللحظة بالذات أدركت غياب شخص عن حضور استقبال عودتها. ديلُن. أين ديلُن؟ أرادت فجأة أن تراه أكثر من أي شخص آخر. فُتِحَ الباب الأمامي ونظرت بحماسة لترى إن كان الداخل هو.

لم يكن ديلُنْ، بل هيو.

- أهلًا وسهلًا بعودتك يا حبيبتي.

سحبها ليعانقها. تلك هي اللحظة التي أدركت فيها أنّها حتى لم تلحظ تغيُّب هيو عن مراسم استقبالها.

* * *

استيقظت إِميليا فيما بعد. لم يكن لديها أيّ فكرة عن طول المدة التي نامتها، أو لماذا شعرت بشعور رهيب بعدم الراحة؛ شعور بأنّ هناك خطبًا ما. حاولت أن تستجمع أفكارها في ظلِّ تشوِّش ذهنها.

ومن ثم تذكَّرت. تذكّرت أنّها فتحت صنابير الحمام لتملأ البانيو. أغمضت عينيها، داعية ربّها أن تكون قد أغلقت الصنابير قبل أن تخرّ نائمة. ربّما نسيت أنّها أغلقتها؟ لم تستطع أن تتذكّر أنّها فعلت ذلك. نهضت عن الأريكة ومشت مذعورة نحو الحمَّام، حيث استقبلها منظر المياه الطافية في البانيو، شلالات من المياه تتدفّق جياشة على جانب البانيو وتسيل فوق ألواح الأرضية الخشبية.

هرعت ودخلت الحمَّام وأغلقت الصنابير، ومن ثم أخذت مفاتيحها من جيب معطفها ونزلت راكضة على الدَّرَج، وفتحت الباب المؤدّي إلى المكتبة بأسرع ما أمكن. باح لها توثُّبٌ غير متوقّع للمنطق السليم ألَّا تشغل الأضواء، ولكنّ الوهج القادم من مصابيح الشوارع في الخارج أسرَّ لها بكل ما تريد معرفته.

كان الماء يتصبَّب من خلال غطاء الضوء الواقع فوق المَشْرَف بشكل تيّارٍ قويّ، ساقطًا فوق الكتب في الأسفل. وبينما كانت تشاهد المنظرٍ برعب، انهار السقف ببطء، تاركًا مكانه تجويفًا كبيرًا مُثلَّمًا.

لن تستطيع التعامل مع هذه الأزمة. لا يمكنها أن تتعاملَ مع هذا الأمر وتتنجح فيه أكثر من أيّ شيء آخر. شعرت❞ تقريبًا بالامتنان لحصول ما حدث، فعلى الأقلّ لن تضطرَّ بعد الآن أن تجرِّب أيّ حلٍ آخرَ. يمكنها أن تستسلم، وما من أحدٍ سيظنّ بها ظنّ السوء.

ذهبت إلى وراء طاولة الحساب وأخرجت البطاقة التي أعطاها إياها إيان ميندِب وبحثت عن عنوانه المدوَّن عليها. أخرجت مفاتيح سيّارتها ومضت نحوها، دون أن تنظر وراءها. إذا

تريَّثتْ لتفكر في الأمر، أو تحدَّثت فيه مع أيّ شخص آخر، فإنّ الأمور سيختلط بعضها ببعض. في هذه اللحظة من الزمن، امتلكت وضوحًا مطلقًا لما ستفعله.

ساقت سيّارتها متّجهة صوب منزل ميندِب، على مسافة ميلين خارج البلدة عبر طرق ضيِّقة. اجتازت بسرعة مجموعة جميلة من البوَّابات ومن ثم سارت عبر الدرب المؤدّي إلى منزله الفاخر المبني حديثًا، والأضواء تنير طريقها بشكل تلقائي.

قَرَعَتْ الباب. فتح إيان ميندِب، عابسًا، ولم يعرفها وهي على تلك الحالة الشعثاء المشتَّتة الذهن.

- أنا إِميليا نايتِنْغيل. أيمكننا التحدُّث في موضوع؟

- أهلًا إِميليا. بالطبع. تفضَّلي بالدخول.

تنحَّى جانبًا ليفسح لها المجال بالدخول. دخلت إلى مدخل صالة كهفي، تعلوه ثريا متدلية منه، ودَرَج يشغل حيزًا كبيرًا ويصعد نحو الأعلى، مفروش بتارتانٍ أرجواني غامق. كانت في العادة تستمتع في تحرِّي هذا النقص في الذوق، ولكنّها اليوم قادمة في مهمّة عمل. قالت له:

ـ ما جِئْتُ إلَّا لأبلغك أني قرَّرَت بيع المكتبة. هي لكَ إذا ما زلت تريد شراءها.

ارتسمت ابتسامة على محيَّاه.

ـ حسنًا، هذا نبأ سار.

ـ أريد أن نوقِّع عقود البيع بأسرع ما يمكن.

أرادت أن تغادر بيزبروك بحلول عيد الميلاد، أي بعد بضعة أسابيع فقط. أرادت أن تكون في الجهة الأخرى من العَالَم.

- سأكلِّف موظفيَّ بالاستعجال في إعداد العقود.

وقف مستندًا على أحد جانبي جسده وأشار لها بالتفضُّل إلى المطبخ. قال لها:

- هلَّا تفضلتِ لنشرب شيئًا بهذه المناسبة؟ فأنا أحتفظ دائمًا بشمبانيا بولانجيه في البرَّاد لمناسبات مثل هذه.

- لا، شكرًا لك. قالت رافضة الفكرة.

- طيِّب، على الأقل فلنتصافح مباركةً للصفقة.

إيان من نمط التُجَّار التقليديين. فالصفقة لا تصير صفقة ما لم يتصافح الطرفان مباركين أحدهما للآخر.

تردَّدت إميليا لحظة. لم ترد حقًّا أن تلمسَه. شعرت وكأنّها كانت تبرمُ صفقة مع الشيطان. ولكنّها مضطرة لإيلاء مصالحها الخاصّة الاهتمام، وأن تحصل على أفضل سعرٍ للمكتبة، ولذا فقد أجبرت نفسها على مضض وصافَحَتْه.

حاولت ألَّا تتساءل إذا ما كانت تخون ذكرى أبيها: ماذا كان سيفعل لو علم بأنها ستبيع المكتبة لإيان ميندِب؟ حدَّثت نفسها بأنّها فعلت أقصى ما استطاعت، وأنّ المكتبة ليست من نصيبها. ما من منطق يقف وراء استمرارها بالعمل في مكتبة نايتِنْغيل كنوعٍ من إحياءٍ غير محدود لذكرى أبيها. أحبَّ أبوها المكتبة حبًا جمًا، ولكن آن الأوان لها أن تمضيَ وتبيعها. وسيكون من السخافة بمكانٍ عدم الظفر بأفضل سعر ممكن لها. قالت له:

- أعطني بيانات محاميك، وأنا سأعطيك بيانات محاميَّ الخاص حتى يُجهِّزا عقد البيع.

نظر إليها وهي تخرج ومن ثم ذهبت وجلست في سيارتها. أرادت أن تشعرَ بأنّها منتصرة، وكأنّها حقّقت إنجازًا ما

بالتخلّص من الماضي. بدلًا من أن تشعر بالنصر، شعرت فقط بحزن لا يوصف.

وحيدة، أدارت مفتاح تشغيل السيارة، غير متأكّدة إلى أين تذهب.

هي ذي بلا عمل، بلا التزامات، لا تربطها أيّ علاقة بأيّ إنسان أو بأيّ شيء، وقد أبرمت من فورها صفقة ستدر عليها مالًا كثيرًا. رَجعت بالسيَّارة إلى الوراء.

كوبا، خطرت كوبا في بالها. ستحجز إجازة لمدة شهر في كوبا وتذهب إلى هناك عساها تجد ذاتها. ستُغْرِقُ نفسها في شرب الرَّم والرقص حتى الفجر، وتشعر بالشمس تلسع وجهها وتتنسم الموسيقا داخل روحها. فهاقانا مجنونة وماجنة وصاخبة؛ أبعد مكان يمكن لها أن تكون فيه عن بيزبروك. وستكون بعيدة عن نفسها بقدر ما تستطيع. في الواقع، يمكنها أن تترك إِميليا نايتِنْغيل في البيت وتعود وقد صارت إنسانةً أخرى. تخيَّلَتْ نفسها فتاةً وقد سمَّرَت بشرتها وارتدت فستانًا أحمرَ مكشكشًا ووضعت زهرة في شعرها. تلك هي الشخصية التي ستصيرها منذ اللحظة.

* * *

رنَّ هاتف جاكسُن. كان المتصل إيان ميندِب. ارتعدت فرائصه.

سيضايقه بالحديث عن موضوع مكتبة نايتِنْغيل. هيَّأ نفسه لمنازلته. سيطلب منه أن يَنْقَلِعَ ويتركه وشأنه. لم يعد بعد اليوم راغبًا في أداء أي دورٍ في الخداع. إذا كان ذلك يعني خسارة وظيفته، فليكن.

ردَّ على المكالمة بحذر:

- آلو؟

- أحسنتَ الأفعال يا بطل الأبطال.

- ماذا؟

- استطعتَ أن تظفر براتب وظيفة مجزية بسبب قدراتك على الإقناع. أنتَ ماهر في الإقناع.

ضحك ميندِب ضحكة رهيبة. سأله جاكسُن:

- عن ماذا تتحدَّث؟
- الآنسة نايتِنْغيل ستبيعني المكتبة. وتتم الآن صياغة العقد وأنا أكلِّمك. حالما نوقِّع العقد، ستكون مسؤولًا عن معمل القُفَّازات. ينبغي أن نباشر العمل مع رأس السنة الجديدة. عملٌ رائعٌ يا جاكسُن!

أغلق السمَّاعة. سألته أمه سيلا:

- ماذا هنالك في كلّ تلك المكالمة؟

- لا شيء. لا شيء سوى تفاهات ميندِب المعتادة.

شعر بالكَدَر. ينبغي له أن يشعر بالسعادة لأنّ إِميليا قرَّرت أن تبيعَ المكتبة دون أن يمارس أيّ ضغوطٍ عليها. ففي نهاية الأمر، كان مقبلًا على أن يظفر بوظيفة مجزية من حيث النتيجة. وظيفة مراقب العمال الرئيس في معمل القفَّازَات؛ وظيفةٌ تستدعي منه الفرح والبهجة. ولكن جاكسُن لم يشعر بالفرحة على الإطلاق.

فآخرُ ما أراد لإِميليا أن تفعله هو أن تبيعَ المكتبة.

(115) وجبة فطور تتكوَّن من الشوفان والقمح وبذور السمسم والسكَّر البني والعسل والزبيب والجوز وغيرها.

(116) سائلُ تنظيف تنتجه إحدى الشركات البريطانية.

(117) مسكِّن آلام مضاد لنزلات البرد والإنفلونزا يمكن شربه أو يأتي بشكل كبسولات.

الفصل الحادي والعشرون

كانت أَلِسْ جالسةً في البيت الزراعي، متدثِّرة بسترةٍ شتَوية مبطّنة بالرِّيش ولها طاقية، وتنتعل حذاءً صوفيًّا، وتلبَس في يديها قفَّازًا يصل حتى منتصف أصابعها. الموظفتان اللتان ساعدتاها في تنسيق أزهار العُرْس تجلسان معها.

أمامهنَّ حبلٌ طويل مصفوف على طاولات متربِّعةٍ على حوامل خشبية، وهنَّ يثبِّتْنَ مجموعات عروق النباتات الخضراء على الحبل باستخدام قطعٍ من الأسلاك. حالما يكتسي الحبل بالعروق الخضراء، فسيعلَّق على السِّقالة بحيث يتسنَّى لهنَّ إضافة الزهور زهرة إثر أخرى، بعد إزالة الأوراق يدويًّا عن ساق كلّ زهرة بحيث يسهل حشرها على الحبل. اختلطت أزاهير صفراء ووردية وزرقاء وأرجوانية مع العروق الخضراء إلى أنْ اكتمل الإكليل، وصار جاهزًا للتعليق في الكنيسة. كان عملًا صعبًا ولكنّه نابع من الشغف به، ولكن إكليل عيد الميلاد بات تقليدًا من تقاليد عزبة بيزبروك مانر.

نظرت أَلِسْ إلى كلّ الزُّهور المجفَّفَة المنتظرِة في أُصُصِها. قَطَفَ ديلُن تلك الزهور زهرة زهرة، منتقيًا أكثرها بهاءً وألقًا،

ووضعها جانبًا بكل ما أوتي من عناية وحرص لكي تجفّ. لم تره على نحو كافٍ منذ خروجها من المستشفى. وسبَق أن لمَحَتْه في حدائق العزبة، ولكنّها كلَّما نهضت على قدمَيها وذهبت لتناديه، اختفى.

ظنَّتْ أنه يتحاشى لقاءها. لم تكن متأكّدة من السبب. أَفَعَلَتْ ما يؤذيه؟ عليها أن تتحرَّى عن سبب تواريه. ولذا قررت الذهاب والبحث عنه. وَقَفَتْ وقالت للموظَّفتين:

- هلَّا أكملتما تجهيز الإكليل معًا؟ سأعود لاحقًا.

* * *

توارى ديلُن عن الأنظار متعمِّدًا إثر عودة أَلِسْ إلى البيت بعد خروجها من المستشفى. بدا استقبالهم لعودتها أشبه باصطفاف الممثِّلين في مسلسل داونتاون آبْي(118)؛ حيث اصطفّ جميع الموظّفين لتحيَّتها عندما عاد بها والداها في سيارة الرانج روڤر. راقَب من مَبْعَدةٍ الجميع وهم يعانقونها. فمَا من أحدٍ إلَّا ويحبُّها. حُضِّرَتْ قناني الشمبانيا في الصالة وكان هيو هناك، بالطبع،

ناظرًا إليها نظرةَ إعجاب. بدت ألِسْ في قمّة سعادتها، رغم أنّها لا تزال تستخدم عُكَّازًا إذا تعبت.

سيتوارى ديلُن عن أنظارها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. على الأقلّ حتّى ما بعد انتهاء العرس. وإذا كان شجاعًا، فسيجد وظيفة أخرى، ولكنَّ وفاءَه لسارة أعظم من الإحراج الذي يلمُّ به من جرَّاءِ الوضع الحالي. ذلك هو لبُّ المسألة. إضافة إلى أنّ الرغبة نازعت بعضًا من معدنه العنيد في أنْ يثبت لهيو بأنه لم يكن خائفًا منه.

ولهذا فقد هالَتْه المفاجأة عندما حشَرَتْه ألِسْ قرب بوَّابة المدخل وهو يقلِّم النباتات المزروعة في الأصص ويضفي عليها صورة جميلة قبل أن تُزيَّن استعدادًا للعرس. قال باسمًا:

- مرحبًا.

- وجدتُكَ أخيرًا. هل كنتَ تتحاشى لقائي؟

- شغلني العمل. فهناك الكثير من الأشياء التي علي فعلها.

- أشغالٌ كثيرة حتى أنك لم تستطع حتّى القدوم لشرب فنجان قهوة؟

لم يستطع النظر إليها مباشرة. أضافت:

- لا عليكَ. أريد الذهاب واختيار شجرة عيد ميلادٍ للصالة. وأريدُك أن تأتيَ معي. أريد أن أتأكَّدَ بأنّني سأنتقي أفضلَ شجرةٍ قبل أن يسبقني أحدٌ غيري إلى هناك.

هناك حقل صغير في طرف العزبة كانوا يزرعون فيه أشجار عيد الميلاد المخصَّصَة للبيع. اعتاد القوم المجيء مع طلائع ديسمبر لاختيار الشجرة التي تعجبهم. كلّ شجرة معلَّمة بإشارة دُوِّن عليها الموعد الذي يرغبون فيه بالحضور لاستلامها، ومن ثم كان ديلُن يحفر حولها ويقلعها في اليوم المحدَّد لتبقى في عزِّ نضارتها. عادت عليهم الأشجار بما يكفي من المال لتسديد كلفة تزيين العزبة وتحضير وليمة غداء للموظفين.

ـ أمتأكدةٌ أنه يمكنكِ الذهاب؟

بدا ديلُن متوجّسًا ولكن ألِسْ لوَّحت له بعُكَّازِها وقالت:

ـ سأكون بخير.

أمسك ذراعها ومشيا عبر الأرض الطريَّة نحو طرف العزبة. سألته:

ـ لماذا لم تعد لزيارتي في المستشفى؟ وَعَدْتَنِي أنك ستعود.

اعتراه التردُّد ثم قال:

ـ لم تكن عودتي ملائِمة.

عَبَسَتْ:

- ملائِمة؟ لا أفهم ماذا تقصد؟

لا تفهمين، فكَّر في قرارة نفسه. نعم أنتِ لا تفهمين ماذا أقصد. وهذا سبب حُبِّي لكِ. قال بعد طول تفكير:

- لا أظنّ أنّ هيو كان سيحبّ عودتي لزيارتِك في المستشفى.

- ذلك سخيف.

عبست. توقَّفَتْ ثم قالت:

- يا ديلُن، أريدُك أن تكون صادقًا معي. أنت لا تحبّ هيو، أليس كذلك؟

أسقط من يد ديلُن. هذه فرصته ليبوحِ لها بما يجولُ في باله من ظنون. قال بعد انتظار:

- بل المسألة هي أنّه هو الذي لا يحبّني...

- ولكن لماذا؟ ما الذي يدفع إنسانًا، كائنًا من كان، ليكرهك؟

- لأنَّه... لأنَّه يظنّ أنّني أعرفه على حقيقته؟

- أي حقيقة؟
تردَّد ديلُن. ينبغي له أن يكون حذرًا جدًّا في كلامه. فأيُّ كلمة يقولها الآن يمكن لها أن تحسب عليه بكل بساطة. ولكنه مدين لألِسْ بأن يبثها شكوكه. إذ لا يستطيع الاكتفاء بالقول إنَّه يظن أنَّ

هيو شخصٌ متعجرفٌ، ولكنه يستطيع أن يحذِّرَها مما سمعه عنه. فذلك ربّما يكون كافيًا لها لتعيد النظر في زواجها به. قال:

- على الأرجح أنّها ليست سوى إشاعات. ولكن تسري أقاويل بأنه يتعاطى المخدِّرات إلى حدٍّ ما.

- هيو؟ ضحكت أَلِسْ وأردفت:

- مستحيل. وإلَّا لكنْتُ عَرَفْتُ ذلك بالتأكيد؟

هزَّ ديلُن كتفيه وقال:

- لستُ سوى ناقلٍ لما سمعته.

فكَّرت أَلِسْ لحظة. ومن ثم نظرت إليه بابتسامة بهيَّة:

- على الأرجح أنّها من الإشاعات التي يتداولها القوم في الحانة. فهم يقولون أشياء لا يعرفون مدى صحتها. يفبركونها ليس إلَّا. إضافة إلى أنَّ هيو لم ينشأ في هذه المنطقة، ولذلك فقد حاولوا فحسب فبركة ما لا يعرفونه عنه. وسبب ذلك أنه يعمل في لندن ويملك سيارة فخمة. الموضوع ليس سوى نوع من التنميط الذي يلجأ إليه الناس.

خَفَتَتْ نبرة صوتها. رأى ديلُن اليأس الذي ألمَّ بها رغبةً منها في نيل الطُّمأنينة. ما من أدلة كافيةٍ في جعبته حتى يناقضها فيما قالت. قال:

- ربّما.

- من المهمِّ لي أن تتصالحا. أنت عزيز جدًّا عليَّ يا ديلُن. وأعرف أنّك تخشى عليَّ نسمةَ الهواء، ولكن هيو شخص طيِّبٌ بالفعل. هو فقط مختلف كثيرًا عنك. ولكنه سيكون زوجًا مخلصًا. فهو يحبّ عزبة بيزبروك مانُر وسيساعدنا في إعلاء شأنِها. ولا تنسى بأنَّك ستكون جزءًا من ذلك النجاح أيضًا.

لم يُعلِّق ديلُن. فهم الأمر. الأمر كلّه يتعلّق بالمال والنفوذ. فمع هيو المال والنفوذ والمعارف. بالطبع سيعلي من شأن العزبة. ليس بوسعه الانتظار حتّى يصير سيِّدًا للعزبة الملعونة. تلك هي الطريقة التي تجري فيها الأمور. لا يستطيع إجبار ألِسْ على رؤية الحقيقة؛ لأنَّ لألِسْ حقيقتها التي تعرفها. وليس لديه أيّ قدرة على تغيير ذلك.

- أريدكِ فقط أن تنتبهي لكلام الناس. كما أنّكِ محقّة. سبب ذلك أنّني أريد حمايتك.

عانقته ألِسْ وشكَرَتْه. ثم ألْقَتْ بشَعرِها إلى الخلف وأرَتْه الندبة.

- انظر، لقد تحسنَّت كثيرًا. فبالكاد تستطيع رؤيتها الآن.

لم أرَها قطّ؛ قال ديلُن بينه وبين نفسه.

ـ كما أنّني وضعت بعض المكياج الخاصّ. ينبغي لها ألا تظهر على الإطلاق في يوم العرس...

نظرت إليه. لم يَكُنْ متأكّدًا حقًّا ماذا يفترض به أن يقول لها.

توقّفت لكي تستند على البوّابة التي نصبَها لمنع روَّاد العزبة العاديين من الدخول إلى النُصُب. بدأ المطر يهطل من فوره؛ عاصفةٌ مفاجئةٌ حاقدةٌ ذكَّرت أهالي البلدة بألَّا يغترُّوا بصَلَيَات الطقس الجميل وأشعة الشمس التي تدفئ العظام والتي يمكن طرْدُها بسهولة في ومضة عين.

بدت شاحبة، شاحبة شحوبًا مرعبًا. قالت:

ـ يا ويلي! ساقي الرعناء تؤلمني. ظننت أنني أستطيع المشي، ولكنّي لا أستطيع. ليس بي طاقة على المشي.

نظر إليها. حسب أنّه يستطيع حملها والرجوع بها إلى المنزل، يمكنه أن يحملها على ظهره وتستند إلى كتفيه أو يحملها بين ذراعيه، ولكن المسافة من هنا نصف ميل، إضافة إلى أنَّ الأرض زَلِقَة.

- لدي فكرة. سأذهب وأحضر الدرَّاجة الرباعية العجلات.

- فكرة رائعة! أنتَ بطل. أنا آسفة على الإزعاج.

ارتجفت ثم أضافت:

- سأنتظر هنا.

- لا، دعيني أحملكِ إلى النُصُب. ستموتين من شدَّة البرد إذا انتظرتِ هنا. سيبلِّلُك المطر كليَّة هنا.

رفع ذراعيه ليحملها، واضعًا ذراعًا تحت كتفيها وذراعه الأخرى تحت ركبتيها. رفعها بسهولة.

- لا بد أن وزني ألف كيلو بسبب الشوكولا التي أطعمتنيها.

- لا تهتمّي لذلك.

دفع البوّابة وفتحها وخطا عبر الممر إلى النُصُب، شاقًّا طريقه عبر الجنبات المنتشرة. عندما وصل إلى النصب، شهقت أَلِسْ دهشةً:

- يا إلهي! ما أجمل هذا المكان!

ابتسر ديلُن ابتسامة. كان النُصُبُ مشروعَه السرّي. لم يخبر أحدًا بما كان يفعله. احتاج منه الأمر مدةً من الزمن، لأنّه عمل فقط مدّة نصف ساعة هنا وهناك عندما توفَّر له قليلٌ من وقت. ولكنّه رمَّمَه تدريجيًا حتّى عاد إلى مجده السابق. قطع كل نباتات

اللبلاب المعترشة والجنبات الشائكة، حتى كشف عن الحجارة الذهبية الواقعة تحتها. أَصَلَح الوصلات الواقعة بين قطع الطوب، وصنْفَر خشب النوافذ والباب وأعاد دهانها باللون الأزرق الداكن المائل للخضرة المستخدم في الأثاث الخشبي كافة في العزبة. وصنْفَر ألواح الأرضية في الداخل أيضًا. قال لها:

- هذه مفاجأة لأمكِ.

- آه يا ديلُن! يا له من عمل رائع!

أجلَسَهَا على الأريكة العتيقة. كان ينوي إخراج الأريكة من النُصُب لأنّها باتت عتيقة ورطبة ومتعفّنة. نزع وشاحه ليلفّه حول عنقها ليمنحها الدفء. رفضت، ولكنّه أصرَّ على ذلك.
- لا أريدكِ أن تصابي بالبرد. انتظري هنا فقط. سأعود إليكِ في لمح البصر.

* * *

اضطجعت أَلِسْ على الأريكة. شعرت بألمٍ فظيع. ما فتئت تحاول بجهدٍ عظيم تحمُّلَ وجع ساقها، ولكن الألم نخرَ عظامها، وزال مفعولُ المسكِّنَات التي تعاطتها، وكانت تتجمَّد من البرد. فكَّرت بديلُن العزيز. كان رائعًا جدًا. لم تستطع أن تصدِّق ما قام به لترميم النُصُب. سُتَسرُّ أمها بما فعله أيَّمَا سرور.

حاولت أن ترتاح على الأريكة. فكَّرَت بما قاله لها ديلُن وشعرت برعشةِ ذُعر. فهي تعرف أنَّ بعضًا من أصدقاء هيو كانوا يحيون حياة صاخبة إلى حدٍّ ما، وعلى الأرجح أنهم انغمسوا في ما يشبه حفَلَات تعاطي المخدِّرات؛ فهي ليست بساذجة كُليَّةً. ولكن هيو لم يلمِّح إلى أنه شاركهم مجونَهم ولم ترَ أي دليل على ذلك قط. حسبت أنها لا تستطيع أن تجد أيّ دليل على ذلك. فخبرتها في هذه المسائل قليلة بدرجة ما، وهي تعرف ذلك.

ولكن لِمَ يُقْدِمُ هيو على الزواج بها إذا كانت تلك أجواؤه؟ أَوْلَىْ له أن يبحث عن زوجةٍ أكثر تَمَظهُرًا وسحرًا، ألا يستطيع ذلك بالتأكيد؟ فلديه العديد من الصديقات اللاتي كن يحملن تلك الخصال، ولكنه في نهاية المطاف اختارها هي. فقد كان يحبّها. وهي تعرف أنّه يحبّها.

أغمضت عينيها وسرحت أفكارُها. آهٍ يا عزيزي ديلُن؛ لقد قضَّ القلق مضجعه خوفًا عليها. تذكرت تلك اللحظة في المستشفى، يومَ ظنَّتْ أن ديلُن كان ينوي رسمَ قبلةٍ على شفتيها. لم تستطع التظاهر بعدم رغبتها في أن يفعل ذلك، ولكن كان من شأن ذلك أن يُدْخِل الأمور في أبواب الموارَبة. ففي قلبها دائمًا شذرة حبّ لديلُن، ولكنه لم يَكُنْ قد عبَّر عن أي اهتمام فيها قط حتّى تلك الظهيرة في المستشفى. رغم أنها تدرك الآن أنّه لم يكن مهتمًّا بها على الإطلاق فعليًّا. لا شكّ أنّ مسكِّنَات الألم التي تتعاطاها جعلتها تشطح في خيالها. ولحُسن الحظ جاء هيو في الوقت المناسب حينئذٍ. شعرت بوجنتيها تتورَّدان خجلًا وهي تفكّر بما يمكن أن يكون قد حدث لو قبَّلها ديلُن. كيف كانت ستصير أحوالها؟ وهي تطلق لخيالاتها العنان سارحةً في دِلْ(119) اللطيف الرائع. ديلُن الذي بدا من الواضح ارتباكه كُلِّيَّةً حول كل ما جرى آنئذٍ. وهذا سبب تحاشيه لقاءها. فهي لحوحةٌ بامتياز.

ضحكت على نفسها، ومن ثم وضعت يديها وراء ظهرها لكي تحاول أن تحرف جسدها قليلًا. سمعت صوت سقوط زاوية كتابٍ خلف وسادة الأريكة.

نحَّتْ الوسادة وسحبت الكتاب. رواية آنا كارينينا. كتابٌ سميكٌ ضخم من كلاسيكيّات پينغوِن. فتحت الكتاب وقلَّبَت صفحاته الرطبة المصفرَّة.

حَمَلَت الصفحة الأولى الفارغة من الرواية إهداءً مكتوبًا بقلم حبر:

أنتِ أشجعُ وأجملُ من آنا، وآمل أن أكون رجلًا أفضلَ من ڤرونسكي.

هذا كل شيء. ما من أيّ إشارة إلى اسم المُهْدِي أو المُهْدَى إليه. ما من تاريخ للإهداء. قلبت ألِسْ الصفحة وشرعت تقرأ:

«كلُّ العائلات السعيدة تتشابه، لكنّ لكلّ عائلةٍ تعيسةٍ أسلوبَها الخاصّ في التعاسة».

لا بأس، قالت أَلِسْ بينها وبين نفسها. على الأقلّ أسرتي أسرة سعيدة. لا تدري ماذا سيكون مصيرها لولا أسرتها. وبدأت تقرأ.

* * *

كان ديلُن يَرْجِعُ بالدرَّاجة الرباعية إلى الخلف خارجًا من فناء المنزل عندما جاءت سارة صوبه، تجرجر وراءها معطفًا من ماركة باربُر. وهذا ما لم يرغب في حصوله. ولكنّه لا يستطيع أن يتجاهلها. بدت ملامح القلق على سارة.

- أرأيتَ أَلِسْ؟ كانت تساعد الموظّفات في تجهيز الإكليل ومن ثمَّ ذهبت إلى مكان ما ولكنّها لم ترجع. ذهبت منذ مدة طويلة جدًّا والمطر يهطل الآن.

- وجدْتُها هناك. أجاب ديلُن وهو يتعمَّد الغموض في إجابته. ثم أضاف:

- كنْتُ على وشك الذهاب وإحضارها إلى هنا بالدرَّاجة.

- أهي بخير؟

- بلَّلها المطر قليلًا. وأظن أنها متعبة.

- وهل تركْتَها تحت المطر؟

توقف ديلُن لحظة ثم قال:

- أخذتها إلى النُصُب، وهي في حرزٍ من المطر.

نظرت سارة إلى الدرَّاجة الرباعية وقالت:

- سآتي معك.

بالكاد يستطيع الاعتراض على مجيئها. ولكنه كان راغبًا في إخفاء سر المفاجأة حتى يكتمل العمل في ترميم النُصُب على أكمل وجه. فهي لن تراه وهو في ذروة ألقه؛ إذ ما يزال هناك قليل من الأعمال التي لم تنجز فيه بعد. ولكنه لا يستطيع الاحتفاظ به سرًا إلى الأبد.

ـ اصعدي إذن.

ساق الدرَّاجة الرباعية بأسرع ما يستطيع عابرًا المروج وشق طريقه عبر الأشجار الباسقة متوجهًا إلى النُصُب. فهو الشخص الوحيد الذي ما فتئ يأتي إلى هنا خلال الأسابيع القليلة الماضية. أوقف الدرَّاجة وأطفأ محرِّكها.

صعدت سارة إلى النُصُب وحملقت مشدوهة. ثم سألته:

ـ أأنتَ من فعل هذا؟

ظنّ ديلُن للحظةٍ أنّها غاضبة. غاضبة منه لأنّه تجاوز علامة التحذير بعدم الدخول إلى النُصُب وقيامه بترميمه.

- لم أرد له أن ينهار. كانت حالته يرثى لها. لذا ظننت أنّه يمكنني إجراء بعض الإصلاحات فيه.

حدَّقت والدموع تترقرق في مقلتيها. بدا النُصُبُ رائعًا ويحظى بالعناية مجدّدًا. كانت حاله شعثاء غبراء، مثل امرأة في متوسط عمرها وقد كفَّت عن الاكتراث بهيئتها. وها هو الآن ينتصب بهيًّا ومتألقًا، بدهانه الناصع، والأخَّاذ، والجذَّاب. قالت سارة برقة:

- يبدو رائعًا. شكرًا لك.

- فلنذهب ونطمئن على ألِسْ. قال ديلُن، بنبرةٍ مبحوحة مرتبكة.

سحبت سارة نفسًا عميقًا ودفعت الباب وفتحته. لم تأتِ إلى هنا منذ وفاة يوليوس. ها هو ديلُن قد أضاف لمسته السحرية مجددًا. إذ دهن الجدران، وصنْفَر الأرضية، وأصلح الأشغال الخشبية.

على الأريكة، جلست ألِسْ مستغرقة في قراءة آنا كارينينا.

- حبيبتي!

قالت سارة واندفعت وشرعت تطمئن عن أحوالها. ثم أضافت:

- يداكِ باردتان كالثلج يا طفلتي المسكينة! ما الذي خطر في بالك حتى تأتي إلى هنا؟ تعالي، فلنرجعكِ إلى المنزل.

رفعت ألِسْ الكتاب وقالت:

- انظري ماذا وجدت هنا على الأرض وراء الأريكة.

للحظة، وقفت سارة جامدة بلا حراك، وكأنّها تحوَّلت إلى صخرة. ومن ثم أخذت الكتاب من أَلِسْ وقالت:

- أوه نعم. اشتريته من متجرٍ يدعم الأعمال الخيرية. قرأتُ منه نصفه. واستغربت أين ضاع مني.

قال ديلُن وهو يحمل أَلِسْ مرة أخرى:

- هيا بنا. أخشى أنّه لا يوجد متّسع لنا ثلاثتنا معًا على الدرَّاجة الرباعية.

قالت سارة:

- لا بأس. سأعود ماشية. خذها إلى المطبخ وحضِّر لها شوكولا ساخنة. سألحقكما في لحظات.

فشخ ديلُن خارجًا عبر الباب وأَلِسْ بين ذراعيه وكأنَّها لم تكن تزن أكثر من ريشة.

وقفت سارة وسط النُصُب. رائحتُه العفنة المألوفة هيَّجَت في بالها ذكريات الماضي. نظرت إلى الأريكة، التي باتت رمادية يعلوها الغبار، وتذكّرت كلّ المرَّات التي جلسا فيها هناك، يحضن أحدهما الآخر، بينما كان المطر، وأحيانًا الثلج، يتساقط في الخارج. كان النُصُبُ مخبأَهما الصغير؛ مخبأَهما المريح المكنون.

لو التَفَتَتْ، ربَّما رأته يشقّ طريقة عبر الجنبات الشائكة، ومن ثم ترتسم البسمة على محيَّاه لحظة مرآها.

ضَمَّت الكتاب إلى صدرها. لن تراه مرة أخرى ألبتّة. تساءلت إذا ما كان الجرح الهائل الذي أحدثه فقدان يوليوس في قلبها سيلتئم؟

نظرت في أرجاء النُصُب، مفتونةً حتى النخاع بلطف ديلُن وفطنته. لا بدَّ أنّه قضى ساعاتٍ وهو يرمّمه. قرَّرت أن تضع في النصب مدفأة حطب، وأن تؤثثه ببعض الأثاث المحترم. يمكنها أن تأتيَ إلى هنا وتقرأ كلما أثقلتها الحياة بهمومها وكدرها. يمكن لهذا المكان أن يصيرَ مخبأها الصغير مرَّة أخرى.

جعلها ذلك تدرك أمرًا آخر أيضًا. أيًّا يكن ما قاله هيو عن ديلُن، وأيًّا تكن المزاعم التي ادَّعَاها عنه، فلا يمكن أن يكون لها أساسٌ من الصحّة. يمكنها أن تتفهّم قلق هيو على ألِسْ. فهيو مخلصٌ وثقةٌ وشديدُ الشكيمة. فأنَّىْ لها أن تشكَّ فيه ولو لحظة واحدة؟

* * *

في ذلك المساء استجمعت ألِسْ شجاعتها لتواجه هيو. ينبغي لها أن تطلق ما يعتري صدرَها. فما قاله ديلُن لها عن تعاطي هيو قضَّ مضجعها. كانت جالسةً وهيو في غرفة الاستقبال الصغيرة قبل الغداء. أشعَل هيو الموقد وها هو يصبُّ لنفسِه

كأسًا من جِنٍّ ومشروبٍ فوَّار. اكتفت ألِسْ بالمشروب الفوَّار، فهي لا تزال غير قادرةٍ على شُرْبِ المسكرات.

- أريدُ أن أسألكَ سؤالًا.

- تفضَّلي. قال هيو، وهو يضع بعض مكعَّبات الثلج في كأسه.

- هل سبق لكَ أنْ تعَـ... تعَاطيت المخدِّرَات؟

سألته ألِسْ، وهي تشعرُ بالارتباك من مجرِّد لفظها للكلمة. بدَت كلمةً خرقاء جدًّا وهي تخرج من بين شفتَيها. ثم أضافت:

- أقصد؛ هل سبق وتعاطيت الكُوكَايين؟

نظر إليها مندهشًا:

- وما الذي جعلكِ تسألينني هذا السؤال با لـ عليكِ؟

- سمعتُ... سمعتُ إشاعة وحسب. وما انفكَّ ذلك يقلقني.

- إشاعة؟ أين؟ ممن؟

- أوه، ليستْ سوى إشاعة من تلك التي يطلقها القوم في الحانة. قال أحدُهم بأنّك تتعاطَى.

صَمَتَ هيو لحظة. أطرق برأسِه ناظرًا إلى كأسِه. عندما رفع رأسه بدت على وجهه سَيْمَاء الجدية والهدوء:

- أتريدين الصِّدْق؟

- بالطبع.

قالت ألِسْ، وهي تشعر بمعدتها تتقلَّى على جمرِ الخوف.

تنهَّد هيو وقال:

- اعتدتُ التعاطي في الماضي. فقد تورَّطتُ بصحبة رفاقِ سوءٍ وتعاطيت قليلًا معهم بضع سنوات. فالجميع اعتاد فعل ذلك.

- أوه.

- ولكنّنا جميعًا نفعل أشياء غبيَّة أيام مراهقتنا. ولكن ما فاتَ مات الآن. ما كنت لأفعل ذلك اليوم مهما كلَّف الثمن.

ابتسم ثم أضاف:

- أنا سعيدٌ أنّنا تصارَحنا بذلك علنًا. لا أريد لأيّ منّا أن يخفيَ أيّ أسرارٍ عن الآخر. ولكنّ مسألة الكوكايين ليست بالمسألة التي يمكنكِ أن تثيريها فجأة دون سابق إنذار، وأنا سعيدٌ لأنك سألتيني.

أومأت ألِسْ برأسها موافقة:

- شكرًا جزيلًا لك لأنّك كنت صادقًا معي. فقد نهش القلق روحي!

قَهْقَهَ هيو وقال:

- أظننتِ أنّني كنت سأتعاطى المخدِّرات في العزبة؟

- لا. أردتُ فقط معرفة الحقيقة.

- حسنًا، ها قد عرفتِ الآن ماضيَّ العَفِنْ. ولكني صرتُ إنسانًا مستقيمًا. ولذا يمكنكِ أن تُبْلِغِي الدسَّاسِين أن يلتقموا حَجَرًا في أفواههم.

ابتسم ابتسامة عريضة وسألها:

- وماذا عنكِ؟ ألديك أيّ اعترافات عن ماضيكِ؟ أيّ أسرار مُشينة تظنّين أنّه عليَّ معرفتها قبل فوات الأوان؟

وجدَتْ ألِسْ نفسَها غارقةً في بحارٍ من الخجل. قالت لنفسها إنّ سبب ذلك الخجل ليس سوى الحرارةِ المنبعثة من الموقد.

- كي أكون صادقةً معك، لا أظنّ أنَّ عندي أسرارًا. فلا أسرار في جعبتي.

قال هيو مُداعبًا:

- أأنتِ متأكّدة؟ تبدين آثمة قليلًا بالنسبة لي. ما من غشٍّ وتدليس في مخيَّم پوني كْلَبْ؟

قالت ألِسْ بجرأةٍ وثبات:

- حتمًا لا يوجد أيّ غش. فقد حقَّقتُ كلّ فوزٍ في السباقات بكلّ صدقٍ وأمانة.

- حسنًا، أنا سعيد لسماع ذلك.

شربَتْ ألِسْ نغبةً من كأسها.

لم تكن لتخبره عن رغبتها بتقبيل ديلُن. ظنَّت أنّ إفشاء ذلك سيؤدّي إلى نتائجَ لا تحمدُ عقباها أبدًا.

(118) مسلسلٌ تاريخيٌّ بريطانيٌّ تدورُ أحداثُه في مكانٍ متخيَّل يدعى داونتاون آبْي.

(119) المقصود ديلُن بالطبع.

الفصل الثاني والعشرون

ذات صباحٍ إثنيني، اتَّصَلت إِميليا بموظفي المكتبة وأخبرتهم كلًّا على حِدةٍ بموضوع فيضان الماء في المكتبة وطلبَتْ منهم عدم المجيء. اختلقتْ عذرًا مسهبًا عن عقد اجتماعٍ صعبٍ يجمعها بشركة التأمين، وإلاَّ، فهي تعلم علم اليقينِ بأنّهم سيحضرون من فورهم إلى المكتبة لمدِّ يد العون لها في تنظيف المكان. فهي لا تزال غير قادرةٍ على مواجهتهم بالحقيقة بعد. تَعرِفُ بأنّها تخونهم ببيع المكتبة، وعلى أنّها تعرف بأنَّها ليست في حاجة لإبقاء المكتبة مستمرة في عملها كرمى لعيونهم فقط، فلا يزال الموضوع يؤرِّقُها ويُعَكِّرُ صفوَ بالها.

وقفتْ في منتصف المكتبة وتأمَّلتْ الخَرَابَ الذي أحدَثَه فيضان الماء. ضربت الفوضى العارمة أطنابها في أرجاء المكان. سيكون عزل الكتب التي لم تتأذّ عملًا مضنيًا في حدِّ ذاتِه ولم تكن تدري ماذا ستفعل بالكتب الباقية. أتبيعُها بحسمٍ كبير؟ أم تهديها إلى مكتبة من المكتبات العامة؟ أم تفتح أبواب المكتبة على مصراعيها لأهالي البلدة حتى يأتوا وينتقوا ما طاب لهم من الكتب؟

تحامَقَت بمحاولتها إبقاء حلم أبيها حيًّا. ولكنّه لم يكن حلمها، أو عالَمَها. مكتبة نايتِنْغيل كانت لها اسميًّا فقط. ومحاولة إبقائها مستمرة انطوت على مشاكل أكثر ممّا تستحق. وما فتئت تستمر في عملها في المكتبة انطلاقًا من إحساسها بواجبها وعاطفتها ووجدانها. آن الأوان لتتخلّى عن المكتبة.

عليها أن تتحلَّى بالشجاعة لتُبْلِغَ سارة بازِلْدُن بما عزمت على فعله أيضًا. فهي تعرف بأنّ سارة ستنزعج، ولا يقتصر سبب ذلك فقط على أنَّ بيع المكتبة سيَعْنِي تَبَخُّرَ فرصة إقامة المهرجان الأدبي الذي حلمت به في قادمات الأيام. أكانَتْ أنانية؟

لا، قالتْ لنَفْسِها. لا يمكنها الاحتفاظ بالمكتبة لمجرَّد أنّها لا تودُّ إزعاج سارة. لو أرادت سارة إقامة مهرجانٍ مستقبلًا، فبإمكانها أن تجد شخصًا آخر يديره لها. فهناك العشرات من الأشخاص في بيزبروك ممن هم مستعدون للمساعدة.

شعرت بأنَّها جوفاء؛ بأنَّ أحدهم وخزها بدبوس وأفرغها من روحها. وكأنَّ روحها تبخَّرت. لم تكن متأكدة من أنها تستحق أن يداهمها ذلك الشعور، ولكنّها حسبته في جانب منه حزنًا، وفي

جانب ثانٍ توترًا وفي جانب آخر عدم تيقنٍ ممّا هي مُقدِمة على فعله في حياتها.

أرادت كتابة فصل جديد في حياتها. ابتسمت على هذه الاستعارة. وتمنَّت لو أنّها تستطيع إعادة كتابة الأحداث وحسب. إلى أي نقطة ستعود يا ترى إذا ما قُدِّرَ لها أن تعيد كتابة سطور حياتها؟

وقف شخصٌ بمدخل الباب. تمنَّت ألَّا يكون أحد موظفي المكتبة. فليست لديها الشجاعة للدخول في نقاشٍ عن مستقبل المكتبة.

ما كان الواقف بالباب سوى جاكسُن. قال وهو يجول ببصره على الفوضى العارمة في المكتبة:

- يا ويلي!

عبَسَتْ إِميليا وقالت:

- تَرَكْتُ الصنابير مفتوحة. وفاضت المياه من البانيو.

- يمكنني أن أحْضِرَ لكِ بعض المواد المزيلة للرطوبة. وستساعد في تنشيف المياه.

نظر إلى السقف وأضاف:

- كما يمكنني أن أصلح لكِ السقف إذا أردتِ. مؤقتًا.

- شكرًا، ولكن لا جدوى من كل ذلك. كل ما أحاول فعله هو إنقاذ أكبر عدد ممكن من الكتب. يمكن للشخص الذي سيشتري المكتبة مني أن يهتمَّ بشأن الأضرار الحاصلة فيها.

نظرت إليه وقالت:

- سأبيع المكتبة.

لم يقل لها جاكسُن أنه يعرف ذلك سلفًا. قال لها:

- لا يعقل أنك ستبيعينها. غير معقول، أليس كذلك؟

- مكرهٌ أخاكَ لا بطلُ.

- ولكنّها مكتبة مذهلة. إنّها مكتبة مذهلة حقًّا. فما تفعلينه يغيِّر حياة الناس نحو الأفضل.

- با لـ عليك؛ كفاكَ مثاليات رومانسية.

- أنا جادٌّ فيما أقول. لقد غيَّرتِ حياتي بتلك الكتب التي أعطَيتِيْنِيها. جعلتِنْي أرى الأشياء كما ينبغي لها أن تكون. جعلتِنْي أدركُ ما ينبغي لي أن أكونه. فات الأوان كثيرًا بالنسبة لي ولميا، ولكن... لا بأس، أنا أعي الآن الموضِعَ الذي حِدْتُ فيه عن جادة الصواب. ولن أرتكب الأخطاء نفسها مرَّة أخرى. ويرجع الفضل لكِ في ذلك.

- حسنًا، هذا عظيم. بل رائع. قالت إِميليا وهي تحاول أن تبتسم.

- ولكن إذا أغْلَقتِ المكتبة، فلن يكون بمقدورك أبدًا تغيير حياة أي إنسان مرَّة أخرى.

- بالطبع سأغيِّر حياة الناس، فثمَّة طرق أخرى للتغيير.

- أظنّك ستندمين على قراركِ.

نظر إليها جاكسُن بعينين تموجان حدَّة وقال:

- عندما جئتُ إلى هذه المكتبة بَدَتْ عليكِ ملامح السعادة الغامرة بما كنت تقومين به. لم تطيقي صبرًا حتى تجدي لي كتابًا أقرؤه. كُنتِ تفيضينَ بهاءً عندما رجعتُ ورَاقَ لي ذلك. أي وظيفة أخرى غير بيع الكتب ستمنحك ذاك البهاء؟

هزَّت إِميليا رأسها قائلة:

- لا أعرف حتى الآن!

- لا تبيعيها، فهي جزءٌ من شخصيتكِ.
- يا الله، يا جاكسُن، يا لمشاعرك اللطيفة حقًا! ولكن المكتبةَ غارقةٌ في الديون. وليس بإمكاني توفير المال اللازم للإنفاق على التجديد الذي تحتاجه. فهناك... هناك ألفُ سببٍ وسبب لعدم جدوى فكرة المكتبة. على أي حال، لقد اتفقنا علىٰ إتمام صفقة البيع، ولا يمكنني التراجع عن ذلك.

- بل تستطيعين. سأبوح لكِ بسر.

- أيُّ سر؟

- ما جئتُ إلى هنا عندما رأيتك أول مرة لشراء الكتب فعلًا. بل جئتُ متخفّيًا لهدف آخر.

امتقع وجه إِميليا. ما الذي يرمي إليه هذا الرجل؟ سَأَلَتْهُ:

- لا تقل لي إنَّكَ من دائرة جباية الضرائب؟

- لا. سَحَبَ نفسًا عميقًا وأردف:

- أنا أعمل لصالح إيان ميندِب. كان من المفروض أن أحاول معكِ وأقنعكِ ببيع المكتبة له.

حاولت إِميليا أن تستوعبَ ما قاله:

- وغد!

- مَنْ الوغد؟ أنا أم هو؟

- لا أعرف. كلاكما وغد. بدت عليها أسارير الغضب الشديد، وأضافت:

- إذًا لم تكن تريد القراءة لفِنْ على الإطلاق. تلك العبارة عن رغبتك في أن تصير أبًا صالحًا ليست سوى خدعة...

- لا! بل كانت بداية اللعبة، على ما أظن...

- اخرج من هنا.

قالت إِميليا وهي تشير نحو الباب.

واجه جاكسُن الموقف مواجهةً شجاعة.

- اسمعيني، لستُ مرتاحًا لما فَعَلْتُه. ولكن حالما التقيتكِ، لم يعد بمقدوري المضي في الخدعة. لم أدرك بأنك سترضخين.

هزَّت إِميليا كتفيها قائلة:

- في الواقع، لقد فات الأوان كثيرًا. ليس معي ما يكفيني من مالٍ للاستمرار في العمل في المكتبة. وخاصة الآن. انظر إلى حالها. باتت أثرًا بعد عين. يلزمنا مبالغ طائلة لإصلاح الأضرار.

حَمْلَقَا إلى الفوضى العارمة. قال جاكسُن:

- لدي اقتراح.

بَرَمَتْ إِميليا عينيها تضجُّرًا. ولكنه لم يفهم الرسالة.

- شكرًا لكَ على اهتمامك يا جاكسُن، ولكن أيمكنك رجاءً أن تتركني وحدي دون أي اقتراحات؟ فلستُ في مزاجٍ يؤهِّلُنِي للاستماع لما تقول.

- اسمعيني دقيقة واحدة فقط، با لـ عليكِ؟

حَدَجَ أحدُهما الآخر. تنهَّدَت إِميليا وقالت:

- معكَ دقيقة واحدة.

ـ لقد اطَّلَعتُ على مخطَّطَات معمل القُفَّازَات. كما اطَّلعت على مِرْأَبِ السيارات وقِسْتُ أبعاده. ثم أجريت الحسابات اللازمة. إذا هَدَمْتِ ذلك الملحق المستوي السقف في الخلف، حيث يوجد المكتب، وبعتِ ميندِب ثُلثَ المِرْأَب فسيمنحه ذلك المساحة المطلوبة ليتخذها مرأبًا لأربع شقق سكنية إضافية، ممّا سيمنحه مئتي ألف جنيه إسترليني إضافية.

ـ مئتا ألف جنيه؟ قالت إِميليا في دهشةٍ عارمة.

أومأ جاكسُن برأسه موافقًا:

ـ وهكذا بإمكانه أن يدفع لكِ نصف ذلك المبلغ.

استوعبت إِميليا ما قاله وقالت مندهشة:

ـ مئة ألف جنيه؟ ثمن جزءٍ من المِرْأَب؟

- أعرف بأنّك ستخسرين الملحق الذي يشغله المكتب، ولكنّي لا أظنّ ذلك مشكلة؛ لأنّه يمكنكِ أن تنقلي المكتب إلى القبو. ربما يحتاج القبو إلى بعض الإصلاحات ولكن طالما أنه متين البنيان ولم تصله المياه فـ...

- فكَّرْتَ في ذلك مليًّا بحقّ، أليس كذلك؟

- نعم. لأنّي لا أريد للمكتبة أن تباع. كما أنّني لا أريدكِ أيضًا أن تفوِّتي الفرصة لربح بعض الجنيهات من ميندِب، وأن تتغدَّي به قبل أن يتعشَّى بكِ. فهو حقير طمَّاع.

- أأنتَ متأكّد من أنه سيوافق على ذلك؟ سيُجنّ جنونه إذا لم أبعه المكتبة حتمًا؟ فلا رغبة لديه بجعلي أربح مالًا على حسابه.

ابتسم جاكسُن ابتسامة عريضة وقال:

- إذا لم يحصل على تلك القطعة الصغيرة من المِرْأَب، سينتهي به الأمر وقد خسر ماله. سوف يسلِّم بالأمر في النهاية. أعرف طبعه. فالمال عنده أهمُّ من الكرامة.

- لن يكون مسرورًا جدًّا لأنَّكَ أفشيْتَ لي السرّ، أليس كذلك؟

- لا بأس، لا يهمّني ذلك؛ لأنّي لن أعمل معه بعد الآن. سأقدِّم له استقالتي. وسأباشر عملي بنفسي. ابتسم ابتسامة عريضة أخرى وأضاف:

- في الحقيقة، يمكنكِ أن تكوني أولى زبائني إذا شئتِ.

- هكذا إذًا، فأنتَ مستفيدٌ من ذلك؟

- كنت أمزح ليس إلَّا...

شبكت إِميليا ذراعيها وجالت ببصرها في أرجاء المكتبة. ما حصل فيها كارثة. فاحت منها رائحة فظيعة وستضطر لسحب قسم كبير من السجَّادة. لم تتخيَّل أنه يمكن إعادة الترتيب إليها.

- ستضطرين إلى إخلاء المكتبة على أيّ حال لإصلاح الأضرار. ولذا وبينما تقومين بذلك، يمكنك أن تجدِّدي كسوة جدرانها وسقفها وتمديداتها الكهربائية وإضافة نظامي إنارة وصوت بديعين.

نظرت إليه إِميليا نظرة مباشرة:

- ولماذا ينبغي لي أن أثق بك؟ ها قد اعترفت سلفًا بمحاولتك الإيقاع بي لكي أبيع المكتبة.

رفع جاكسُن يديه: معكِ كلّ الحق.

خيَّم الصمت لحظة. ثم سألتْهُ إِميليا:

- كم نحتاج من الوقت لتنفيذ كلّ تلك المقترحات؟

- ألا تريدين أولًا عرض أسعار؟ كما أن الأمر يعتمد على ما تريدين من موادَّ وتشطيبات.

مَشَتْ إِميليا إلى طاولة الحساب ووجدت المخططات التي صممَّتها بِيْ. أعطتها لجاكسُن وقالت:

- هذه المخططات تتضمَّن ما أريده.

شرع جاكسُن يتأمّل المخطّطات.

- أفكار جميلة حقًّا، ولكن يمكنك تنفيذها، ما من مشكلة. أظنّ أنّ ثلاثة أسابيع كافية لذلك.

- كم ستكون الكلفة برأيك؟ فلنحوِّل الفكرة إلى واقع.

- أأنتِ جادة؟

أخرجت إِميليا هاتفها المحمول وقالت:

- أتريد أن تسمعني وأنا أقول لميندب أنـ...؟

* * *

استشاط مينِدب غضبًا، ولكن جاكسُن توقَّع له أن يذعن لشروط إِميليا في نهاية المطاف. فنتيجة لعلمها بجَسَامة مهارته في الغش، لعبت إِميليا ذات اللعبة القذرة التي دأب عليها. وضمنت الحصول على مبلغٍ ضخمٍ منه نتيجة الصفقة، مما سيتيح لها تمويل أعمال التصليح في المكتبة.

اجتاحَت الدهشةُ محيًّا أندريا إعجابًا بدهاء إِميليا. صحيحٌ أن ميندِب زبونها، ولكنَّ وجهها تهلَّل فرحًا لسماع النبأ. قالت لإِميليا:

- لا تدعي ضميرك يؤنِّبُكِ كثيرًا لأنك حشرتيه في الزاوية. سيجني الكثير من المال من معمل القفَّازات. فالصفقة مربحة لكما معًا.

أبدى ميندِب هدوءًا على نحو مفاجئ عندما سمع بأنَّ جاكسُن سيستقيل من العمل عنده، رغم أنه لم يعرف بأن جاكسُن هو الذي أفشى لإِميليا تلك المعلومات السرِّية. قال لجاكسُن:

- كنتُ أعرف بأنني سأخسرك يومًا ما. ما كان ينقصك سوى الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة.

- سأتقدَّم بعرض أسعار لتجديد المكتبة. قال له جاكسُن، يحدوه الأمل بأنه لن يتمكن من فهم خفايا ما حصل.

أومأ ميندِب موافقًا ومدَّ يده:

- أنتَ رجلٌ طيِّب. ستكون في أحسن حال. وأنا آسف لأني خسرتك. ثم تَنَحْنَحَ وأردف:

- ليس عندي مانعٌ من الاستفادة من خبرتك في التعاقد على بعض المشروعات.

مَشَّىْ جاكسُن ولِفْيِ راجعين إلى البيت تلك الليلة ودَيْدَنُهُ الحبور. أتت خطته أكلها على أكمل وجه؛ لا بل إنَّ نجاحها فاق توقعاته. إذ سيعمل بمفرده للمرة الأولى، كما كسب وعودًا بمزيدٍ من العمل. وكل شيء وفق شروطه هو.

سألَ أمَّه:

- هلَّا بقيتِ لرعاية فِنْ ليلة الغد؟ أريد أن أصطحب ميا في دعوة على العشاء.

- بالطبع يا حبيبي. قالت أمُّه، وهي تستشعر تغيّرًا هائلًا يعصف بابنها. أصابها القلق أحيانًا من أنَّ الدنيا ستصرعه ويضِلُّ الصراط كليَّةً، ولكن هو ذا يرتِّب شؤون حياته.

* * *

في اليوم التالي قال جاكسُن لميا بأنّ هناك موضوعًا يريدُ مفاتحتها فيه.

- لن أفتح الموضوع إلَّا أثناء العشاء. فقد حَجَزْتُ طاولةً في مطعم فندق بيزبروك أرمز.

مانَعَتْ في البداية، لكنّها وافقت بعد لَأيٍ. سأَلَتْهُ، مشوبةً بالحذر:

- ما القصة إذًا؟

- سأبدأ العمل وحدي. لقد تركت مينِدب أخيرًا. سيكون الأمر صعبًا علي، ولكنّي أظنّ أنّني سأصير أيسر حالًا في المدى البعيد.

- أوه. أهذا هو الموضوع؟

- إنّها صفقة كبيرة جدًّا لي.

خاب أمل جاكسُن لأنّها لم تظهر انبهارًا أكثر بالنبأ.

تنهَّدت واكفهرَّ وجهُ جاكسُن. حَسِبَ أنّ الدموع ترقرَقتْ في عينيها.

- العمل مع ميندِب ليس بالوظيفة المأسوف عليها. لا تقلقي. سأظل أدفع لكِ مصروفكِ.

لم تجرِ الرياح كما اشتهتْها سفنه. فقد أراد أن يطلب منها أن يفتحا صفحة بيضاءَ مجدّدًا. ولكن من الواضح أن كل ما كانت تعبأ به هو المصدر الذي يوفِّر لها منه المال. لم تكن مهتمة...

بدأت تبكي.

- ما الأمر؟ ما الأمر يا ميا؟

- لا بأس. حسبت فقط بأنك كنت ستقول لي بأنَّكَ على علاقةٍ بامرأةٍ أخرى.

اكفهرَّ جاكسُن وقال:

- لا! لم أخنك حتى ولو لحظة واحدة.

أومأت ميا برأسها:

- جيِّد. لأني لا أعتقد أنه بإمكاني تحمُّل ذلك.

- لا تتحملين أن أكون على علاقةٍ بامرأة أخرى؟ ولماذا تهتمين أساسًا بذلك؟

أطرقت ميا برأسِها ناظرة إلى غطاء الطاولة.

- لأنـِّ...لأنِّي مشتاقةٌ لك.

- مشتاقةٌ لي؟

أومأت برأسها. سالت دمعة كبيرة على خدِّها.

- أنا آسفة لأني طَرَدْتُكَ من البيت. كان ذلك خطأً.

- ماذا؟

لا رَيْبَ أن ذلك ما يُحْدِثُه شُرْبُ كأسِ نبيذٍ على معدةٍ خاوية؛ أكانت تعي ما تقول؟

- كنتُ قاسيةً جدًا عليكَ يا جاكسُن. ولكني كنتُ مذعورةً بعد أن صرتُ أمًا، فالأمومة بثت الذُّعْرَ في أوصالي حقًا. أعرف أنني كنتُ صعبة المراس، ومنفِّرة، وعصبية.

- لم تكوني على تلك الدَّرَجة من السُّوء!

لِمَ يكذبُ هذه الأكاذيب الصغيرة؟ جعَلَتْه يشعر بأنه أسوأ زوجٍ وأبغض أبٍ على وجه الأرض.
كذَب عليها لأنَّ استعادته ميا أهمّ من إثبات وجهة نظره إزاء أمرٍ ما. كذب عليها لأنَّ الحياة قصيرة جدًا وقضاها دون إحساسٍ بالمسؤولية، وفي خذلانها، أحيانًا. ولكنّه تعلَّم الدرس، وهو يحبّ ابنه بشغفٍ كبير، وأهم من كل ذلك أنه أدركَ بأنّه يريد لِفِنْ أن يعيش في أسرة. الأسرةُ التي كان يعيش هو في كنفها أساسًا.
قالت ميا:

- ظننتكَ تكرهني.

ذُعِرَ جاكسُن:

- ماذا؟ لا!

- ظننتُ أنكَ كُنْتَ تنتظر على أحرٍّ من الجمر حتى تغادر البيت.

نظر إليها وقال:

- ظننتكِ تكرهينني.

هزَّت ميا رأسها:

- كَرِهْتُ نفسي.

- وأنا أيضًا. تذكَّر مشاعرَ كره الذات التي كانت تنتابه بعد أن يثمل من شرب عدَّة كؤوسٍ من البيرة.

حملق أحدهما إلى الآخر. ثم قالت ميا:

- ارجع إلى البيت.

اللعنة على تماسك أعصابي، دار في خلد جاكسُن. كان على وشك الدخول في موجةٍ من النحيب في هذه اللحظة.

* * *

عادا إلى البيت مشيًا، يده بيدها.

فَتَحَتْ ميا الباب المقفل وسارت أمامه إلى الداخل، إلى داخل بيته؛ إلى داخل بيتهما.

- تعالي هنا. قال جاكسُن، ومشت إليه وارتمت في حضنه.

أطلَّ جاكسُن بناظريه من فوق رأسها وهو يعانقها. رأى الصور الكبيرة بالأبيض والأسود التي التقطاها لفِنْ عندما كان صغيرًا. رأى مشجب المعاطف، معلقًا عليه المعطف الأبيض الذي أهداها إياه في عيد الميلاد الذي سبق مغادرته البيت. سَمِعَ فِنْ ينزل متقافزًا على الدَّرَج ورآه يقفز عن آخر درجةٍ ومن ثمَّ يجمد مكانه إذ رأى أمه وأباه متضامَّيْن.

- ماما؟

تقدَّمَ فِنْ إلى الأمام، ذائدًا عن أمّه، وشعر جاكسُن بالفخر به. ثم مدَّ ذراعه وقال:

- تعال إلى هنا يا بطل.

وقفوا ثلاثتهم بضع لحظات في عناق جماعي.

بانت سيلا في مدخل باب غرفة الجلوس. اجتاحتها موجة من الفخر بولدها. كان ولدًا عاقًا، ولكنه أثبتَ علو همته في نهاية المطاف. قالت أمّه مبتسمة:

- الأفضل أن تأخذني إلى البيت. وتُحْضرَ معكَ من هناك فرشاة أسنانك.

الفصل الثالث والعشرون

بعد أسبوعٍ من ذلك، استكملت تومَسينا التحضيرات لعشاء ذلك المساء: عشاءٌ حجزَه زوجان شابَّان رُزِقَا منذ مدة ليس ببعيدة بطفلٍ وأرادا الاحتفال بعيد ميلاده.

انطلقت إلى بيزبروك منذ الثامنة والنصف، واشترت اللحم من اللحَّام، وانتقت أفضل الخضراوات من سوق الخضار، وختمت تبضُّعَها بالذهاب إلى محلِّ الأجبَان، حيث اشترت ثلاثة قطع من الجبنة الفرنسية: واحدة طريَّة، وأخرى قاسية وثالثة زرقاء(120). خاب أملها عندما لم تحظَ بفرصة ليقوم جِمْ ببيعها بل باعها أحد الباعة الآخرين في المحلّ، رغم أنّ جِمْ حيَّاها تحيَّةً بشوشةً ومُرَحِّبَة من مكانه البعيد في آخر طاولة الحساب. كان مشغولًا جدًّا ببيع الزبائن ولم تسنح له الفرصةُ للحديث معها. وغادرت تومَسينا قبل أن يفرغ من انهماكه في البيع.

قفلت راجعة إلى كوخها حيث كانت لورين تنتظرها على أهبة الاستعداد، وقد رتَّبَت المطبخ وبات يشعُّ نظافة، وكل أدوات الطبخ جاهزة في مواضعها. قسَّمَتَا العمل بينهما. إذ حضَّرت لورين شوربة جذور الكرفس وأضافت لها مرقَ دجاج غني جدًّا

كانت قد حضَّرَتْه سلفًا خلال الأسبوع وقامت بتصفيتها ونخلها حتّى صارت ناعمةً نعومة الحرير، ثم وضعتها جانبًا وقَلَتْ بعض شرائح البانشيتا(121) المقرمشة وجهَّزَتْها لتسكبها فوق الشوربة.

الطبق الرئيس سيكون لحم خاصرة غزال، مزيَّنٍ من الأعلى بقطعٍ من الفطر وملفوف بعجينة رقيقة. مع الطبق الرئيس أوانٍ نحاسية صغيرة فيها بطاطا محمَّرَة، مقطّعة إلى قطع صغيرة باستخدام قطَّاعة الخضار، إضافةً إلى قُنَّبِيْط مهروسٍ ناعم.

أما التحلية فتتألف من كعكة موس الإجاص الشهية؛ كعكة خفيفة ومنتفشة، مضافًا إليها في وسطها شوكولا فاخرة ساخنة.

في الرابعة والنصف، اكتملت التحضيرات جميعها المفترض إعدادها سلفًا، ونُظِّفَ المطبخ، وأضافت تومَسينا اللمسات الأخيرة على حُجْرَة الطعام.

وفي الخامسة إلَّا ربع رنَّ الهاتف. لم يكن المتصل سوى الزوج الذي حجز طاولة العشاء. أصيب طفلهما بنزلة برد، ولا

يمكنهما أن يتركاه مع المربِّيَة. سيدفعان بالطبع ثمن العشاء، ولكنهما لن يأتيا.

أرجعت تومَسينا سمَّاعة الهاتف إلى موضعها. نظرت إلى المائدة المخصَّصَة لشخصين ومن ثم نظرت إلى المطبخ، حيث كانت تبرِّد طبق لحم خاصرة الغزال الذي لُفَّ لفًا متقنًا. عرفت بأن هذه اللحظة كانت اختبارًا لها. تعرف أنها إذا لم تفعل ما يدور في بالها، فإنها ستبقى وحدها إلى الأبد، وبأنها ستقضي بقية عمرها تطهو للآخرين وهم يحتفلون بأعياد ميلادهم وذكرى زواجهم. وستبقى تراقبهم إذْ يحملق أحدهما في عيني الآخر، وبأنها لن تحظى أبدًا بفرصة النظر إلى عيني رجلٍ يجلس قُبَالَتَها إلى الطرف الآخر من المائدة.

من حقّها أن تحملق في عيني رجل. تعرف أنّها تستحقّ أن تحظى بتلك النعمة. قالت لها لورين:

- ماذا ستفعلين؟ إنها لخسارة فادحة ألَّا يأتي الزبونان.

- على رِسْلِك.

قالت تومَسينا ثم مضت إلى المطبخ وسكبت كأس نبيذٍ من القنينة التي استخدمتها في الطبخ. شرِبَتْها نُغبَةً واحدةً. ثم اتصلت بمحلّ الأجبان. ربما يكون قد أغلق أَبوابه، فهي لا تعرف موعد الإغلاق. الساعة الآن الخامسة وعَشْرُ دقائق وربما أغلق في الساعة الخامسة في أهون الأحوال. رنَّ الهاتف مرارًا وتكرارًا. كانت على وشك إغلاق السمَّاعة عندما ردَّ شخصٌ على مكالمتها.

- هنا محل أجبان بيزبروك.

- أيمكنني التحدّث مع جِمْ؟

- أظنّه ذَهَبَ يا عزيزتي، فنحن نغلقُ في الساعة الخامسة.

- خسارة.

لم تستطع أن تطلب رقم هاتفه المحمول. كل ما في الأمر أنّها لم تستطع ذلك. أردفت:

- لا بأس.

اكْتَشَفَتْ أنَّ انكسار الخاطر له طعمٌ باردٌ ووقعٌ ثقيلٌ وشكل عالقٌ في الصدر مثل وجبة تابيوكا(122) بائتة.

- لحظة؛ انتظري. ها قد عاد جِمْ من المخزن. يا جِمْ! مكالمةٌ لكَ.

سمعتْ صوت السمَّاعة وقد وُضِعَتْ إلى جانب الهاتف، وسمعت أصواتًا ووقع أقدام. بإمكانها أن تقفل السماعة ولن يعرف جِمْ أنها اتَّصلت أبدًا. يمكنها أن توفِّر على نفسها الإهانة. تخيَّلت الإهانة لاهبةً وحارقةً بمقدار برودة انكسار الخاطر.

- آلو؟

جاء صوت جِمْ عبر الهاتف، وشعرت بدفئه. منحها صوته الشجاعة. أرادت أن تشعر بذلك الدفء مرة أخرى، وجهًا لوجه. فهي تتوق لذلك.

- أنا تومَسينا. التقينا في المكتبة. أنا صاحبة مطعم أَ ديو.

- أوه! بدا جِمْ مبتهجًا، ثم أضاف: أهلًا وسهلًا.

استدْعَت تومَسينا آخر ذرَّة من ذرّات شجاعتها وقالت:

- الموضوع هو أنّ أحد الزبائن ألغى منذ عشر دقائق حجزه لعشاءٍ في مطعمي. والعشاء كلّه جاهز ولا يلزم سوى تسخينه في الفرن. لا يمكنني أن أضع أيًّا ممّا حضَّرْتُه في البرَّاد فعليًّا. ولذا كنت أتساءل إذا...

- تريدين إرجاع الجبنة التي اشتريتها؟

- لا! بالطبع لا. لا...

- آه. أترغبين أن آتي وأساعدك في أكل العشاء؟
- نعم.

- أوه. ساد صمت ثم قال جِمْ:

- كنت أمزح فقط.

- هناك شوربة جذور الكرفس ولحم خاصرة الغزال وكعكة موس الإجاص.

- لستُ بحاجة لإقناعي بالمجيء. أي ساعة آتيكِ؟

صُعِقَتْ تومَسينا وكأنَّ على رأسها الطيرَ. سيأتي ليتناول العشاء. وبدا مسرورًا بالفكرة. يا إلهي! ماذا فَعَلَتْ؟

- أيناسبُكَ في السابعة والنصف؟ ثم أردفت: فليكن في الثامنة تمامًا.

- سأكون هناك. وسأحضر معي بعض النبيذ. إلى اللقاء.

أقفل السمَّاعة وحملقت تومَسينا إلى الجدار والسمَّاعة لا تزال في يدها.

قالت لورين، الواقفة في مدخل الباب، وهي تبادرها بابتسامة عريضة:

- وماذا ستلبسين؟

- لن أرتدي ملابس غير هذه التي أرتديها.

أشارت لورين إليها قائلة:

- ما شاء الله عنك! بل ستلبسين ملابس مناسبة. انتظري مكانك.

عادت لورين راكضة بعد عشرين دقيقة ومعها حقيبة مكياج كبيرة، ومرآة مكبِّرة، وفرشاة شعر كهربائية وعلبة مليئة بالمجوهرات ثم قالت:

- هيا بنا نصعد إلى الأعلى.

تبعتها تومَسينا إلى غرفة نومها خانعةً طائعة. قالت لورين وهي تُجْلِسها أمام المرآة وتعطيها عصابًا ترفع به شعرها:

- حسنًا، ضعي هذا على رأسكِ.

اعترضت تومَسينا: لا أريد وضع الكثير من المكياج!

تجاهلت لورين ما قالته. عَصَرَت عَصْرَةً من كريم الأساس على قفا يدها اليسرى، ومن ثم بدأت بدهنه على وجه تومَسينا إلى أن اطمأنت إلى اكتمال طبقة كريم الأساس. قالت لورين:

- تلك بثرة أخرى. ينبغي ألا تظهر أي بثرة على وجهك. لا يعني ذلك أنّ وجهك مملوء بها، فبَشَرَتُك رائعة.

حسبت تومَسينا بأنها بدت وكأنّها تضعُ قناعًا على وجهها، ولكنّها لم تنبس ببنت شفة. جلست صامتةً بينما أخرجت لورين من علبة المكياج ما لا يعدُّ ولا يحصى من الظلال الملوَّنة وفُرَشِهَا. ثم وضعت طبقةً سميكة من الكُحل الأسود على رموشِها، ومن ثم لوَّنَتْ محيط عينيها بلونٍ رمادي داكن برَّاق.

وبعدها لوَّنت حاجبيها، وشكَّلتْهما على شكل قوسين بديعين، ثم وضعت صفًّا من الرموش الاصطناعية رمشًا إثر رمش. ثم انتقلت إلى تحديد أطراف شفتَيها بلونٍ وردي فاتح ومن ثم لوَّنَتْهُما بحُمرَةٍ شفافة، دون أن تنسى إضافة لمعةٍ خفيفة فوق الشفة العليا وعلى الجزء المكتنز من شفتها السفلى.

ثم جاءت بفرشاة الشَّعر الكهربائية وصفَّفَتْ شعر تومَسينا حتّى صار مسترسلًا ولامعًا، ومن ثم سرَّحَته إلى الخلف وثبَّتَتْ نصفه في الأعلى، وتركَتْ نصفه الآخر ينسدل على كتفيها. ثم وضعت قرطين فضّيين كبيرين مستديرين في أذنيها.

- وماذا ستلبسين؟

هزَّت تومَسينا كتفيها قائلة:

- لا شيء سوى بنطالي وقميصي الأسودين اللذين اعتدت ارتداءَهما.

هزَّت لورين رأسها: لا، لن ترتديهما.

وقفت لورين أمام خزانة ملابس تومَسينا وقلَّبَت كل ما فيها، مبديةً امتعاضها ومطلقةً تنهُّدَاتها. ما إنْ وجدت شيئًا نالَ إعجابها إلَّا ووضَعَتْه على ذراعها. ثم قالت:

- حسنًا، أظنّ أنّه يمكننا الاستفادة من هذه المجموعة من الثياب.

ثَنَتْ طرف تنُّورة سوداء قابلة للشد إلى أن وصلت فوق الركبة بقليل، ومن ثم وضعت سترة صوفية حمراء فوقها، تاركة أول زرين مفتوحين، وثبتتها حول خصر تومَسينا بزنَّار أسودٍ لامع نزعته من فستان قديم من خزانة تومَسينا. ومن ثم قصَّت الجزء السفلي من جوارب نسائية طويلة وألبستها إياهما في حذاءٍ أسود مسطح.

ومن ثم طلبت من تومَسينا الوقوفَ أمام المرآة.

ضربت تومَسينا بيدها على فمها من الدهشة.

- تبدين مذهلة. قالت لورين.

- هذه ليست أنا.

قالت تومَسينا، ومدَّت يدها لتعقد أزرار السترة. صفعتها لورين على يدِها وقالت لها بنبرة آمرة:

- دعيها. تبدين في قمة الجمال. مثل فرنسيةٍ...

- مثل فرنسية عاهرة. قالت تومَسينا، وهي تنظر إلى نفسها من كافة الزوايا.

- لا! بل مثل فرنسية من نجمات السينما.

- سأشعر بالضيق فعلًا ولن أكون قادرة على الطهي بهذه الملابس.

- لن تطهي أنتِ.

- ماذا؟

- أنا الطاهية الليلة. فقد راقبتك وأنتِ تطهين بما فيه الكفاية.

- كنتُ على وشك إرسالِك إلى البيت.

- لا عليكِ أنتِ! فأنت ضيفة المطعم الليلة، وسأقوم بالعمل كله. وإذا لم أعرف ما أفعل، يمكنك أن ترشديني، ولكنّي لا أريدُك أن تبذلي أيّ مجهود مهما قلّ شأنه. فقد رأيتك تدورين حول

ضيوف المطعم عددًا لا بأس به من المرَّات، حتى تتيقني من أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّهم يقضون لحظاتٍ رائعةً. حان دورك هذه المرَّة على الأقل.

- ولكنّي لا أعرف كيفية التصرّف مثل...

قالت تومَسينا وهي تشير بلا حول ولا قوة إلى صورتها في المرآة. بادلتها المرأةُ الغريبة البادية في المرآة وذات العينين الكبيرتين النظرات.

- تصرَّفي على طبيعتك.

- ولكنّي مملّة جدًّا.

هزَّت لورين رأسها:

- لا، لستِ مملة. أنتِ رائعة. أنت مُلْهِمَة. صحيحٌ أنك لستِ ثرثارةً مدعية مثلي، ولكنك على الأقل لا تقولين سوى كلام رائع.

- كلام رائع؟

- أنا جادة فيما أقول؛ فأنتِ الوحيدة التي تحول بيني وبين الجنون في تلك المدرسة. وأنا أحبُّ دروسكِ وأخرج منها وأنا أشعر وكأنّي مليئة بالطموح. لولاكِ لهربتُ منها منذ زمنٍ بعيد. فأنتِ تحكين الحكايا أثناء الطهي. وتجعلين من يصغي إليكِ راغبًا في الاستماع والتعلُّم أكثر.

- عجبًا!

- لستُ وحدي من يظن ذلك أيضًا. فأنت الأستاذة الأثيرة على نفوس الكثير من الطلاب.

- ما ذلك إلا حكيٌّ وحسب. لم تكن تومَسينا تعرف كيف تتعامل مع كل هذا المديح غير المألوف بالنسبة لها. قالت:

- نعم، أنا أقول إنني مملة لأن تلك حقيقتي فعلًا.

برَمَتْ لورين عينيها تضجرًا وقالت:

- اخرسي. واذهبي لشرب كأسٍ من البروسيكو(123). كأسٍ واحدةٍ قبل أن يصل إلى هنا.

دفعت بتومَسينا خارج غرفة النوم.

في الأسفل، أُعِدَّت المائدة؛ أدواتها تلمع، وأوانيها الزجاجية تتألق.

ومُلِئَتْ زبادٍ صغيرة بورودٍ كريمية وزهورٍ جربارة(124) برتقالية مائلة إلى البني.

الليلة ليلتها، وها هي ذي تضيء الشموع وتخفف الأضواء.

الليلة ليلتها، وها هي ذي تعثر على مطلعٍ موسيقي لشوبان وتطلق له العنان صادحًا في الأجواء.

ليلتها هي وجِمْ.

ليلةٌ وعشاءٌ لشخصين.

* * *

عندما فتحت تومَسينا الباب لِجِمْ بعد نصف ساعة، ابتسم لها ابتسامة متألقة.

- تبدين رائعة. غصَّ بأنفاسه من فرط ولعه بمرآها. ثم أضاف:

- ورائحة العشاء مدهشة. أحضرت معي قنينتَي نبيذٍ؛ قنينة نبيذ أحمر وقنينة نبيذٍ أبيض. كما أحضرتُ لكِ...

قدَّم لها باقة ورود حمراء بطريقة بدت أقرب ما تكون إلى الارتباك الخَجِل منها إلى التصرف الأحمق. ثم قال:

- إنـها زهور نضرة وليست مستعملة. وأقسم على ذلك.

أخذت تومَسينا منه الورود.

وأخذت لورا القنينتين قائلة:

- سأضعُ قنينة النبيذ الأبيض في البرَّاد وأفتح قنينة النبيذ الأحمر وأتركها حتى تصفى، ما رأيكما؟

حاولت تومَسينا ألَّا تَهْلِسَ ضاحكة على اهتمام لورين. ثم قالت لجِمْ:

- أنا سعيدة حقًّا لأنَّكَ استطعتَ المجيء. وإلَّا، كانت خسارة كبيرة لو أنَّك لم تأتِ.

عادت لورين حاملةً صينية عليها كأسا پريسيكو رفيعان، والفقاعات الذهبية تفور داخلهما. قالت تومَسينا لجِمْ:

- هناك من سيتولى خدمتنا الليلة. فهذه تجربة جيِّدة بالنسبة للورين. ممّا يعني بأنني أستطيع أن أكتب لها رسالة توصية تشيد بمهارتها في فنون الطبخ.

- رائع! قال وهو يأخذ كأسه ويرفعها.

رفعت تومَسينا كأسها أيضًا. شعرت بالثقة، وبالفرح، وبالسعادة، ثم قالت:

- فلنشرب نَخْبَ أولئك الذين ألغوا حَجْزَهُم في المطعم في اللحظة الأخيرة.

(120) الجبنة الزرقاء نوع من أنوع الجبنة التي يوجد فيها عروق زرقاء، وهي تشبه جبنة الروكفورت، تُحضَّر عادةً من حليب الأبقار.

(121) وجبة لحم خنزير على الطريقة الإيطالية حيث تُعَالَج اللحوم بالملح والبهارات بدلًا من تدخينها.

(122) طعامٌ يتألّفُ من حبوب بيضاء، تشبه الأرُز، مصدرُها نباتُ الكسَّاڤا، وتقدَّمُ كتحليةٍ.

(123) نبيذٌ إيطاليٌ أبيضُ.

(124) نوعٌ من نباتات الزينة، وأخذت اسمها من العالم الألمانيّ تروغوت جيربر (١٧١٠ – ١٧٤٣).

الفصل الرابع والعشرون

مذهلٌ ذاك الذي أمكن عمله في مدة زمنية قصيرة، والجميع يعملون على قدمٍ وساق مع فريق عملٍ تملؤه الهمَّة والعزم. بعد مرور يومين على فيضان الماء، فُرِّغَتْ مكتبة نايتِنْغيل من كل محتوياتها، وجُمِعَت كل الكتب غير المتضرِّرة في صناديقَ وخُزِّنَت في مكانٍ آمن في مِرْأَبِ جون. جالت إِميليا وبِيْ أرجاءَ الريف وهما تبتاعان المواد، من أرففٍ وأضواءٍ ودهان. واستكرى جاكسُن ثلاثة شبَّانٍ لمساعدته في كساء الجدران والسقف وأعمال النجارة كما استكرى كهربائيًّا مُحْتَرِفًا؛ أفضل كهربائي يعرفه. وعمل الجميع ساعات طويلة امتدّت إلى الليل.

في صباح يوم عرس أَلِسْ بازِلْدُن، فُتِحَ باب المكتبة بقوة. التفتت إِميليا مرتاعة. كانت حينئذٍ تساعد في صنفرة بعض الأرفف القديمة.

كان القادمُ مارلو.

لم يتحادثا منذ انسحابها من فرقة الرباعي. ظنَّت أنه ربما سيتواصل معها، وأنّه ربّما سيتّصل بها ليطمئنَّ عن أحوالها، ولكنّه لم يفعل. قال مارلو:

- أنا بحاجة إليكِ.

شعره أشعثٌ، وكأنه نهض من النوم للتو. يُفْتَرَض به في هذه اللحظات أن يكون قد ارتدى بذلته وانتعل حذاءه وسرَّح شعره إلى الوراء كعادته؛ فموعد العرس في الثانية عشرة.

تنهَّدَت إِميليا: لماذا تحتاجني؟

- تركتني ديلْفِين ورجعت إلى باريس وأحتاجك في فرقة الرباعي.

- ماذا قلت؟ ولماذا تركَتْك؟

بدا مارلو مراوغًا بعض الشيء.

- لماذا يا مارلو؟ ماذا فَعَلتَ لها حتى تركتك؟

- اسمعيني، ليس عندي وقت للنقاش. فالعرس يبدأ خلال أزيد من ساعة بقليل، ونحن نريد للرباعي أن يعزف مقطوعة «وصول ملكة سبأ» مهما كلَّف الثمن. ونحن الآن ثلاثة عازفين فقط...

- ثلاثة عازفين يمكنهم أن يفوا بالغرض.

- يا إِميليا، هذا عرس أَلِسْ بازِلْدُن. وأنت تعرفين أنها فتاة رائعة جدًا. ولا يمكننا أن نخذلها.

- لن تلاحظ غياب التشيلُّو.

- ولكن سارة بازِلْدُن ستلاحظ ذلك.

أشاحت إِميليا عنه ببصرها. رغبَتُها في الرفض تفوق أي رغبة أخرى، ولكنها فكرت بألِسْ وهي تمشي في ممر الكنيسة بين الضيوف، بعد كل ما جرى لها، وأرادت لعُرْسِهَا أن يكون عرسًا مشهودًا. كما أنها لم ترَ مارلو منذ أن انسحبت من تجارب الأداء الأخيرة.

- رغم أنني لا أستطيع العزف ببراعة؟

- بل تستطيعين إذا ما حاولتِ.

نظر إلى ساعته، بدا عليه الاضطراب، وأضاف:

- هيَّا يا إِميليا. أمامنا خمسون دقيقة. لا تستحق ألِسْ أن نخذلها...

وضَعَتْ عُدَّة الصنفرة من يدها، وهرعت صاعدة إلى غرفتها، فتحت خزانتها على عجل، وأخرجت بحركة خاطفة فستانًا طويلًا أسود وحملت التشيلُّو ونزلت مسرعة على الدَّرَج، مرورًا بالمكتبة وخروجًا إلى الشارع، ومن ثم وثبت إلى المقعد الخلفي في سيَّارة مارلو الذي انطلق من فوره بينما كانت هي تتلوَّى حتى تكمل نزع ملابسها القذرة وارتداء الفستان.

رأتْ في مرآة الرؤية الخلفية مارلو وهو يضحك.

- لا تضحك عليَّ!

هزهزت جسدها لكي تكمل ارتداء الفستان الذي كان جزؤه العلوي ضيقًا، وهي تدعو الله أن لا يتمزَّق قماشه احتجاجًا على بطشها به. ومن ثم نظرت نحو الأسفل إلى قدميها. وَلْوَلَتْ قائلة:

- لقد نسيتُ حذائي!

- ما من وقتٍ للعودة.

- لا يمكنني انتعالُ حذاءٍ رياضي مع الفستان.

- اذهبي حافية القدمين. مثل دَسْتي سپرنغفيلد(125).

- مَنْ؟

برم مارلو عينيه تضجّرًا.

- يا سيِّدتي سمِّ نفسكِ عازفة التشيلُّو الحافية القدمين. فهذه حيلة بارعة.

- ولكن البرد قارس جدًّا هناك.

وصلا تلك اللحظة بوَّابَات عزبة بيزبروك مانُر المزيَّنة بورود الآس البِّري واللبلاب والورود الحمراء وشرائط بيضاء وأضواء زينة صغيرة برَّاقة. تنهَّدَت إِميليا مسحورةً بالمشهد:

- يا للجمال! يبدو عرسًا فاتنًا. انظر يا مارلو.

- أجل، أجل، أجل.

قال وهو يلقي نظرة خاطفة، ثم هدرت سيّارته عبر الدرب الموصل من البوّابة إلى العزبة. وُجِّهَ ضيوفُ العرس بالتفضُّل إلى بقعة معشوشبة يُحدِّدُها شريطٌ خاص، ولكنه ساق حتى وصل إلى مرأب السيَّارات الرسمي قرب الكنيسة.

ربط مارلو بابيونَته(126) وهو ينظر في مرآة السيارة بينما مدَّت إِميليا رأسَها بين المقعدين الأماميين.

- لماذا تركَتْكَ ديلْفِين بتلك الطريقة؟ يا لَهُ من تصرف سخيف منها صباح يوم العرس! تصرُّفٌ في منتهى الأنانية.

- في الواقع، إنّه تصرّفٌ أنانيٌّ. فالأنانية من طِبَاعِ ديلْفِين.

بدا مارلو غير راغبٍ في الخوض في الموضوع. ثم ما لبث أن أضاف:

- رغم أنني لست آسفًا على ما فَعَلَتْه، فقد خرجت الأمور عن زمام السيطرة منذ مدة.

- لستَ بحاجةٍ إلى شخص في حياتِكَ يخذلك مثلما فَعَلَتْ.

التَقَتْ عيناهُما للحظة، ثم أشاح مارلو ببصره قائلًا:

- لا ...

عضَّت إِميليا على شفتها ندمًا على ما قالت. واضحٌ أنه يوغر في صدره غضبًا أكثر مما يبدو عليه. قال مارلو:

- فيلِسيتي وبِتْرا تهيَّأتا سلفًا للعزف. قلتُ لهما بأنك ستأتين.

- وكيف عرَفْتَ أنني سأوافق على المجيء معك؟

ابتسم مارلو ابتسامة عريضة وهزَّ كتفيه دونما جواب.

أمسكت إِميليا التشيلُو ثم رفعت فستانها.

بعد عشر دقائق جلست على كرسيها في مقدمة الكنيسة، مواجهةً المدعوِّين. مدَّت طرف فستانها وهي تأمل ألَّا يلاحظ أحد قدميها الحافيتين. حمدًا لـ أنها لوَّنت أظافرَ أصابع قدميها قبل أسبوع وإلَّا لكانت فضيحة ما بعدها فضيحة.

دَوْزَنَ مارلو وإِميليا وبِثْرا وفيلِسيتي آلاتهم استعدادًا لبدء العزف.

اجتاح إِميليا من أخمص قدميها حتى قمة رأسها إحساسٌ بالسَّكينة إذ بدؤوا العزف أمام الجمهور. شعرت بقوة التركيز، والموسيقا تصدَح أمامها بهية رائعة، وداعبت أناملُها الأوتارَ وكانت لها مطواعة. ابتسمت مع ازدياد وتيرة ثقتها بنفسها وشعرت بإثارةٍ خفيفةٍ لحظة أومأ لها مارلو إيماءة سروره بعزفها. كان الأمر تقريبًا يشبه التحليق مع الموسيقا مع ارتفاع الألحان وانخفاضها.

ومن ثمَّ، وعندما تَلَقَّيْن ثلاثتهن أكثر الإشارات انضباطًا من مارلو، بدؤوا جميعًا عزف مقطوعة «وصول ملكة سبأ».

* * *

بدا الممر الفاصل بين صفوف المدعوين لا نهايةَ له أمام أَلِسْ.

لم تنم منذ قبيل بزوغ الفجر. هي ذي ملايين العصافير ترفرف بأجنحتها الصغيرة في بطنها. ولكن ما كان يرفرف في بطنها لم تكن عصافير القلق التي تسبق يوم احتفال المرء بعيد ميلاده، أو عصافير ليلة عيد الميلاد. بل عصافيرٌ أشعَرَتْها وكأنَّ أجنحتها غُمِسَتْ في الأسيد. أجنحةٌ جَعَلَتْ معدتها تتعكَّر بالقلق ومنحتها شعورًا بمصيرٍ وخيمٍ وشيك الحدوث.

بينما كانت أمها تثبِّت لها أزرار فستان عرسها، شعرت بانقطاع في أنفاسها، لم يكن سبب ذلك أن الفستان كان مشدودًا جدًّا.

جزء فستان العروس العلوي مصنوعٌ من قماش الكريب والحرير الحليبي اللون الذي لبس جسمها لبسًا، وكان مثبتًا بأزرار من الخلف. أمّا تنورة الفستان فمصنوعة من نسيج التول(127)، طُرِّزَ عليها صفّ من زهور اللبلاب والورود. كان الجميع قد تَفَكَّه بأن ألِسْ ستحضر إلى العرس وهي تنتعل على الأرجح جزمة الشغل وفستَان حفلات بدلًا من فستان عرسها، ولكنّها انتعلت خفًّا من أجمل خفاف الساتان المطرَّز بالخرز. هو ذا عُكَّازُها بانتظارها في الصف الأمامي في حال

احتاجت إليه، ولكنها عازمةٌ على عبور الممر الفاصل بين الجمهور دون أن تستخدمه.

قالت سارة:

- ما أجملك يا عزيزتي! تبدين في قمّة الجمال. وهيو أكثر الرجال المحظوظين على وجه الأرض.

نظرت أَلِسْ من شبَّاك غرفتها. الدرب الواصل بين البوّابة والعزبة مكتظٌّ بالسيَّارات التي جاءت بضيوف العرس وهم في أبهى حللهم، سيَّارات تسير بتؤدة وبطء، والهدايا المغلَّفة تغليفًا بديعًا موضوعةٌ على مقاعدها الخلفية. ها هي ترى القبَّعات؛ وتكاد تشم العطور تفوح من الجموع. إذ سيحضر عرسها اليوم كلّ من هبَّ ودبَّ وكل معارفها.

رأتْ ديلُن وهو يزيح شريطًا ليسمح لسيلٍ جديدٍ من السيارات بالدخول إلى المِرْأَب. مرتديًا بنطاله الجَيْشي المموَّه وسترة الطوارئ الفوسفورية. لماذا يشعر قلبها بالدفء عندما تراه،

بينما تشعر عندما تفكر بهيو وكأن قلبها غُمِسَ في سطلٍ من الجليد؟

أجابت نفسَها بنفسِها: لأنَّك لن تتزوَّجِيْه يا سخيفة. كانت بالطبع تشعر بالأمان لمرأى ديلُن لأنّ وجودَه لا يحمل في طيّاته أي مخاطر. فهو صُلب لا يتغيَّر. وكان قويًّا وموضعَ ثقةٍ ومستعدًا دائمًا للخدمة، هذا كلّ ما في الأمر. وسيبقى دائمًا على هذه الشاكلة.

- أشعر بالتوتّر. قالت لأمّها.

- أتذكَّرُ أنّني شعرتُ بالخوف في صباح اليوم الذي تزوَّجْتُ فيه أباك. وسبب ذلك أنّ حياتك برمّتها ستتغيّر منذ هذه اللحظة. ولكنّه تغيير يحمل معه تباشير الخير.

- أكنتِ دائمًا سعيدة مع أبي؟ أَخَطَرَ في بالِك ذات يوم أنّ الزواج به كان غلطة؟

نظرت أمها إليها وقالت:

- أظنني سأكذب عليكِ إذا قلتُ بأنّه لم يكن هناك لحظات تمنَّيْتُ فيها لو سارَت حياتي في اتجاهٍ مختلف. ولكن لا أظنّ أنّني الوحيدة التي تشعر بذلك. فهناك دائمًا صعوبات في دروب الحياة. أوقاتٌ لا تتفقين فيها دائمًا مع الرجل الذي تزوجتيه، أو أوقاتٌ لا ترين فيها الأشياء من منظورِه هو. ولكنْ إجمالًا، أنا سعيدة لزواجي بأبيك. فهو إنسان طيِّب، وزوج صالح. دون أن ننسى أنه أبٌ رائِع.

لو اختارت سارة ألَّا تخبرها بأنها هي من كانت الشخص السيّئ، هي التي كانت الزوجة الطالحة- رغم أنّها لا تزال تعدّ نفسها أمًّا رائعة- فلأنها أرادت أن ترى ابنتها تستمتع في يوم عرسها، وذلك لكي تطرد أي وساوس من تفكيرها، حتى تَدْخُل في زواجها بهيو طيِّبة السريرة وشديدة الالتزام. ضمَّت أَلِسْ إلى صدرها وقالت:
- مرَرْتِ بأوقاتٍ عصيبة وبرهنتِ على شجاعة كبيرة. تستحقّين عرسًا رائعًا وحياة ملؤها السعادة. أنا شديدة الفخر بكِ. ولكنّي أريدكِ أن تعرفي أنّه مهما حصل، فأنا وأبوك بجانبك لمساعدتك. مهما حصل.

كان لوقعِ كلماتِ أمِّها أثرٌ بالغ في شدِّ أزْرِها. فأمّها هي الإنسانة الأولى في العالم في سلَّم احترامها وثقتها. ولألِسْ مطلق الحرية في تولّي زمام الأمور، واستلام دفَّة المسؤولية وجعل عزبة بيزبروك مانُر حياتَها، ويسندها هيو في ذلك. الكوخ بانتظارهما، متلألئًا بدهانه الجديد وستائره المعلَّقة حديثًا.

هي ذي تطلُّ الآن، في أعلى الممرّ الفاصل بين صفّي المدعوين، وفرقة الرباعي تُرْسِل ألحانها في أجواء الكنيسة. تأبَّطَت ذراع أبيها ووقفت رافعةً رأسها قدر ما استطاعت. رأتْ ظهر هيو المستقيم واقفًا عند المذبح، بطول قامته وبهائه في بذلته الأنيقة، شعره الأسود مسرَّحٌ إلى الوراء. التفتَ وهَمَسَ بضعَ كلماتٍ لإشبينه، ورأتْ ألِسْ ابتسامتَه العريضة المألوفة.

بلغت فرقة الرباعي منتصفَ أغنية دخول العروس. ما هي إلَّا لحظات وينتهي عزف المقطوعة. التفتَتْ جموع المدعوِّين ليتبيَّنُوا سبب تأخُّرِ دخولها.

حثَّت ألِسْ الخُطَى. لم يكن باستطاعة أحد رؤية وجهها حتى الآن؛ لأنّه مخفي وراء الشريط الحليبي المخرَّم الذي يميِّز طَرْحَة عرس أسرة بازِلْدُن. لم يكن باستطاعة أحد رؤية الندبة في وجهها.

لم يروا سوى ابتسامة ألِسْ. فالابتسامة لا تفارق وجهها أبدًا.

خَفَتَتْ ألحان الموسيقا حالما وصلت بالضبط إلى جانب هيو. استمرّت ممسكة بذراع أبيها، غير راغبة في إفلاتها. فهذه لحظاتها الأخيرة في كنف أبيها. ما هي إلَّا برهة قصيرة وتصيرُ زوجةً بشكل رسمي.

* * *

كان ديلُن قد أخبر سارة بأنه لن يحضر العرس بصفته ضيفًا.

- لن أشعر بالراحة. أفضِّلُ أن أبقى وراء الكواليس، حتّى أتأكدَ أنَّ كلّ الأمور تجري على أحسن ما يرام.

- لا أريدكَ أن تشعر بأنك شخصٌ غريب.

- لا بأس. أعرف أنني لستُ غريبًا. وكل ما أفضِّلُه ألَّا أحضُرَ العرس، إذا لم يكن عندكِ مانع. وهلَّا تفضلت بإيضاح موقفي لألِسْ؟

- بالطبع سأخبرها.

قالت سارة، ولكنّها كانت حزينة لأن ديلُن راودَه ذلك الشعور. كانت تفخر بنفسها لأنّها وطَّدَت علاقة طيّبة مع موظّفيها. رغم أنّها شكَّت بوجود سبب آخر لتحفُّظِ ديلُن على حضور العرس أكثر من مسألة الإحراج الاجتماعي. لم يكن هناك أدنى ذرَّة حب بين ديلن وهيو، يمكنها أن ترى تلك الحقيقة الآن ماثلةً نصب عينيها.

كان ديلُن أول شخص يستيقظ في صباح يوم العرس، لكي يتأكَّد من أنَّ الحدائق في أبهى حللها، وأنَّ الأمور اللوجستية المتعلّقة بمرأب السيّارات كانت تحت السيطرة وأنَّ موظِّفي الحدائق يعرفون بالضبط المهام الملقاة على عاتقهم. سيمشي الضيوف من الكنيسة إلى الصالة الكبرى، حيث وُضِعَتْ موائد الغداء، كما تأكَّد من عدم وجود قطع من الحجارة أو الأخشاب الشاحبة في غير مكانها على الممرَّات. ونُصِبَ السرادق المحاذي بدقة متناهية، ونُصِبَت الحمَّامات المتنقلة من ماركة پورتالوس على نحو متأنٍ وراء صفٍّ من الأشجار.

أضمَرَ في نفسه مغادرة المكان حالما يصل جميع المدعوين إلى صالة الاستقبال. لم يكن يرغب في الاختلاط بالقوم وأن يشهد بعينيه ذلك النوع من العربدة الثملة التي رآها ليلة حادث ألِسْ. لا مناص من حدوث تلك العربدة. ولم تكن به رغبةٌ لرؤية وجه هيو المغرور.

مشى ديلُن مباشرة إلى سيارته. لم ينظر إلى الكنيسة. وهو في السيارة، سمع صوت موسيقا دخول العروس المهيب. منع صورة ألِسْ وهي في فستان عرسها من الولوج إلى ذهنه. شغَّل المحرِّك وساق سيّارته صوب مطعم وايت هورس، حيث طلب

كأس نبيذ التفاح ووجبة بيضٍ مطهيّ على الطريقة الاسكتلندية(128).

* * *

- عَزَفْتِ عزفًا رائعًا.

قال مارلو باسمًا في وجه إِميليا وهي تحزم التشيلُّو وتحمله.

- لم تكن مباراة كرة قدم. قالت له، ولكنّها كانت تبتسم. عزَفَتْ عزفًا رائعًا. لسبب ما، جاءت الألحان متناغمة. فقد تراقص قوسها مرسلًا النغمات، في كلّ مقطوعة عزفوها. وحتّى المقطوعات التي لم تتدرَّب عليها على الإطلاق واضطرت لعزفها قراءة من النوتة؛ لأنّهم قرَّرُوا إدراجها في برنامج العُرْس بعد أن انسحبت من جلسة تمارين الأداء الأخيرة.

- أنتِ عبقرية موسيقية. قال مارلو.

- لستُ سوى هاويةٍ موهوبة.

خالفته إِميليا الرأي. كانت متأخّرة عنه بمسافة كبيرة حتّى تصبح عازفة بارعة مثله أو، على كرهها الإقرار بذلك، مثل ديلْفِين. ولكنَّهم أبلوا بلاءً حسنًا في العزف، والآن ها هم الضيوف يتفضَّلون لكي يتناولوا غداءهم ولم تعد هناك حاجة إلى فرقة الرباعي.

خيَّم صمتٌ يكتنفه قليلٍ من حَرَج.

- الأفضل أن أعود إلى المكتبة. فالعمل جارٍ على قدم وساق الآن.

- أوه.

قال مارلو. حسِبَتْ أنه بدا خائب الأمل بعض الشيء. ربما أراد الذهاب ودفن أحزانه؟ ومع ذلك لا يمكنها أن تذهب معه. شعرت بندمٍ يكفي لردعها عن الرغبة في اللهو. وينبغي لها العودة إلى المكتبة.

- سأوصِلُك بسيَّارتي. اقترح عليها مارلو.

- عظيم. شكرًا لك.

وضعت التشيلُّو في صندوق سيَّارة مارلو وصعدت في المقعد الأمامي. أمسكت حذاءَها الرياضي وانتعلته في قدميها. أرْخَتْ رأسَها على مسند الرأس في المقعد بينما ساق مارلو على الطريق. سألَتْهُ:

- هل أنت بخير فيما يخصّ موضوع ديلْفِين؟

هزَّ رأسَه وقال: سأكون بخير.

- أتريد أن تتحدَّث في موضوعها؟

صمت مارلو لحظة ثم قال:

- لا رغبة لي في التحدُّث في موضوعها فعلًا، إذا أردْتِ أن أكونَ صادقًا.

- لا بأس، تعرف أين تجدني إنْ احتجتني.

أومأ مارلو برأسه وقال: تحياتي لكِ.

حسبت إِميليا أنّه لا يريد بالطبع أن يتحدَّث معها في الأمر. على الأرجح أنه سيعود إلى البيت ويشرب ما بقي من قنينة الويِسكي التي أهدَتْه إيَّاها. فهذا ما يُقْدِمُ عليه الرِّجال عند انكسار قلوبهم. ولن تتدخل في هذه المسألة.

* * *

صارَت الآن امرأةً متزوِّجة؛ هذا ما دار في خاطر ألِسْ بعد بضع ساعات. وجهها يوجعها من الابتسامات مثلما كانت ساقها توجعها. كانت بحاجة لأنْ تجلس. وكانت بحاجة للذهاب إلى الحمَّام. انسلَّت من صالة الاستقبال. كانت هناك مجموعة من الفتيات يدخنَّ في الخارج؛ فتياتٌ لا تعرفهنَّ.

لا بدّ أنّهن من شلة هيو. كنَّ أكثر أناقةً من صويحباتها البيزبروكيات: إذ إنَّ لهنَّ سيقانٌ طويلة، وشعر طويل، ويرتدين ملابس فخمة وتفوح منهن روائح عطور فارهة، ينفثن دخان سجائر المِنْثُل كل منهنَّ صوب صاحبتها.

- مرحبًا!

ألْقَتْ عليهن التحية جميعهن، وتجمهرن حولها في حشدٍ يهمهمنَ بأصواتٍ خفيضة، مبديات إعجابهن بفستان عرسها، مثنياتٍ على حسن طالعها. قالت إحداهنَّ، بعد أن عرَّفت بنفسها باسم لولو:

- تبدين في قمّة الجمال. رغم أن هيو قال بأنّ الإصابة أسوأ ممّا هي عليه بكثير.

- إنها بخير. وقد بدأت توجعني قليلًا، ولذا فإني سأضطر على الأرجح للجلوس. قالت ألِسْ.

- أوه، لا أقصد ساقَكِ، بل الندبة التي في وجهك. قالت لولو ثم أشارت إلى وجهها هي وأردفت:

- قال إنها ندبة فظيعة بالفعل. إنَّ الماكيير الذي وضع لكِ المكياج أبدع عملًا مدهشًا؛ كائنًا من كان ذلك الماكيير.

حدجتهنَّ ألِسْ بنظراتها، غير متأكدة إذا كانت سمعت ما قالته على نحو صحيح. أو كيف يمكن لأحدٍ أن يكون على هذه الدَّرَجة من الغباء وانعدام اللباقة. أو أن زوجها، هيو، ربما كان فظيعًا جدًا في اغتيابه لها أمام أولئك الفتيات السطحيات التافهات.

- المعذرة مِنْكُنَّ. قالت ألِسْ ومَضَتْ صوب الحمَّامات.

أغلقت على نفسها باب المرحاض وحاولت كبت بكائها. قالت لنفسها إنَّ هيو لم يقل على الأرجح بأن ندبتها فظيعة على الإطلاق، وبأن الفتاة سكرانة من جانبٍ وتافهة من جانبٍ آخر. وأنها، أي ألِسْ، مفرطةٌ في حساسيتها، لا أكثر ولا أقل. ويجب عليها أن تتحلَّى بالصلابة.

هي ذي تسمع طرق الكعوب العالية عندما اندفعت الفتيات أنفسهن إلى الحمَّامات. سَمِعَتْ صوتَ لولو أكثر من غيرها وهي تقول:

- قال هيو إن العرس ليس عرسًا دون كيس الهدايا الصغير.

سمعت أَلِسْ شهقات البهجة. قالت فتاة أخرى:

- أوه يا إلهي! هذا مذهل! هيو مجنون بالحفلات.

- قال بأن ننتظر وحسب إذْ أنه سيقيم هنا حفلات لا نظير لها.

ثم قالت فتاة أخرى:

- اقطعيها على بلاط المغسلة. لن أشمها وأنا على كرسي المرحاض.

وَقَفَتْ أَلِسْ، وأعادت ترتيب فستانها وخرجت من المرحاض. ابتسمت لها لولو بفرحٍ وسأَلَتْها:

- أتريدين بعضًا من هذا؟

رفعت كيسًا صغيرًا فيه بودرة بيضاء.

حسبتهن ألِسْ في منتهى الغباء وذروة السُّكْر ليَكُنَّ مستهترات فيما يفعلْنَ، أو لأنهنَّ أدركْنَ أنها لا تشبههنَّ في سلوكهن. افترضن أنها، ونتيجة لزواجها بهيو، ستكون نسخةً عنهنَّ. مدَّت ألِسْ يدها وقالت:

- أيمكنني أن آخذ هذا الكيس، لو سمحتِ؟

طرَفَت عينا لولو لحظة ثم قالت:

- بالتأكيد، إذا ما كنتِ راغبةً في إكرام ضيوفكِ.

- شكرًا لكِ.

أخذت أَلِسْ الكيس ونظرت إليه. قالت لولو:

- يوجد الكثير من هذه الأكياس. أكياسٌ تكفينا جميعًا لقضاء وقت ماتع.

قَهْقَهَتْ ثم أردفت:

- قال هيو إنَّ مجرَّد انتقاله إلى الرِّيف لا يعني بأنه سيتحول إلى ريفيٍّ غشيم.

أَحْكَمَتْ أَلِسْ قبضتَها على الكيس وقالت:

- آسفة يا بنات، ولكني سآخذ هذا الكيس.

استشاطت لولو غضبًا:

- لا يمكنكِ أن تأخذيه بهذه السهولة!
- امنعيني إنْ استطعتِ. قالت ألِسْ.

شعرت بهدوءٍ بالغٍ وهي تنزل الدَّرَجات وتعبُر المرج راجعةً إلى صالة الاستقبال. لمِ تجرؤ أيٌّ من الفتيات على اللحاق بها. هي ذي ترى هيو، يترأَّس طاولةً جلس إليها نفرٌ من المدعوِّين. حسبته ادَّعى قول الحقيقة ولكنّه كَذبَ عليها. تكاد، تكاد بدرجةٍ ما، أن تصفح عن تعاطيه الكوكايين ولكنّها لن تغفر له الكذب عليها. لا يمكنكِ أن تتزوَّجي شخصًا مستعدًا لإخفاء مثل هذه التفاصيل عنكِ.

مشتْ صوب طاولة هيو الذي رآها ووقف ترتسم على وجهِه ابتسامة.

- أهلًا بعروسي الجميلة.

لم تكن تنوي مجادلته بما قاله عن الندبة التي في وجهها، فتلك مسألةٌ لا تهمُّها قيد أُنْمُلَة.

عوضًا عن ذلك، أمسكت بالكيس الصغير ولوَّحت به أمام ناظريه. شَحُبَ وجهه وصار بلون البودرة التي في الكيس. قالت له:

- إليكَ ما سأعرضه عليك: غادِرْ صالة العرس الآن دونما تأخير. وفي صباح يوم الإثنين اتصل بمحاميك واطلب منه صياغة العقد لفسخ الزواج. وعليك أن تتحمَّل كافة المصاريف المترتبة عليك وعليَّ. ولا أريد رؤيتك بعد ذلك مرة أخرى أبدًا.

فغر هيو فاه مبادرًا في الاعتراض. ورفع يده لينزع منها الكيس، ولكنها سحبته بسرعة.

- إما أن تفعل ما قلته لكَ وإلَّا، فإني سأتصل بالشرطة. ولكن حينئذٍ سينتشر الخبر في الجرائد، وحتى أكون صادقة معك، لا نريد فضائح.

رَأَتْ، بطرف عينيها، والديها يقتربان منهما. قالت أمها:

- ما الأمر يا عزيزتي؟

- سيشرح لكما هيو الأمر. أليس كذلك يا هيو؟ قالت ألِسْ.

وقف أبوها قرب صهره متأهبًا: ما القصة يا هيو؟

- القصة ليست كما تبدو عليه. أظن أنَّ ألِسْ...

سألته ألِسْ:

- ما بها ألِسْ؟ اسمعني، لا أريد أي جَلَبَة. أريد للضيوف أن يتابعوا سهرتهم ويستمتعوا بالحفل. ومن المعيب إنهاء الحفلة

الآن. بابا، ربما يَجْدُرُ بكَ أن تطلب سيَّارة أجرة حتى تقل هيو؟ فلا أظنُّه يستطيع السياقة. ماما، هناك شخص سأذهب لرؤيته. هلَّا أخذتِ مكاني في الترحيب بالضيوف؟ سأعود لاحقًا.

تردَّدَتْ أمها للحظة. فما حصل محرجٌ جدًا. ولن تجري الأمور على خير ما يرام كما توقَّعَت لها أن تكون. ولكنها تثق بألِسْ، وقد وَعَدَتْهَا في صباح ذلك اليوم بالوقوف معها. ستكون هي وأبوها في صفِّها، مهما حَدَث. وظنَّتْ أنها تعرف الشخص الذي ستذهب للبحث عنه. قالت لألِسْ:

- بالطبْع يا حبيبتي.

ضمَّتْ ألِسْ أُمَّهَا وغادرت صالة الاستقبال.

قرَّرَت ترك هيو ليشرح لوالديها خلفيّات الموقف. ابتسمت وهي تفكِّر بجعجعته. وكيف سيحاول ويَمْلَص كالأفعى من هذا الموقف. سيتعامل والداها معه على النحو المناسب، كانت متأكدة من ذلك، وسيعملان جاهدين على إخراج الأمر بأقلِّ ضجّة ممكنة.

مَضَتْ صوب الفناء المحيط بالجزء الخلفي من المنزل، حيث رُكِنَت سيارتُها العتيقة. بَحَثَتْ عن المفتاح في أعلى الجدار. دائمًا ما كانت تضعه هناك، لأنها ستضيِّعُه إذا لم تضعه هناك. شغَّلت السيارة ورجعت بها إلى الخلف. لحسن الحظ أنها لم تشرب سوى كأسٍ واحدة من الشمبانيا، لأنها لا تزال تتناول المسكِّنات. انعطفت بالسيَّارة وسارت بها على الدَّرب المؤدّي إلى بوّابة العزبة.

* * *

كان ديلُن يشرب كأسه الثانية من نبيذ التفاح. حَرِيٌّ به التوقّف عند هذا الحدّ، وربّما يطلب ما يأكله. أو ربّما ينبغي له العودة إلى المنزل الآن. فالطّامة الكبرى مع المشروب تتمثَّل في أنه يخدعك فتحسب نفسك في حالٍ أفضل.

جاء بَرَيَان صوبه وربَّت على كتفه قائلًا:

- لا تقل لي إن سبب حزنك هو ذلك العرس الأسطوري يا صاحبي؟

- مستحيل أن يكون ذلك سبب حزني.

فكر ديلُن في قرارة نفسه أنها صارت زوجةً لهيو في هذه اللحظة. ارتشَفَ رشفة أخرى من كأسه، ومن ثم وضَعَهَا على الطاولة. طعمها مرٌّ ولم يرغب في شرب المزيد.

سادت موجة من الفزع قرب باب المطعم. نظر مليًا واكفهرَّتْ ملامحه. الظلام دامس في الخارج ولذا لم يكن متأكدًا مما رآه. ولكن الكائن الواقف بالباب يرتدي فستانًا أبيض. فستان عرس. انسدلت الطَّرْحة عن رأسها وتلطَّخت أطراف الفستان بالطين.

- ألِسْ؟

مشت صوب طاولته وقالت له:

- أظنني راغبةً في كأسٍ من شراب البيلسان المنعش وربما بعض شرائح البطاطا المقرمشة بالملح والخل.

جَلَسَتْ على المقعد المتهزهز. سألها:

- ما الذي فَعَلْتِيه؟ ألا يفترض بك أن تكوني...؟

- لقد أفسدتُ الأمر على نفسي قليلًا، ولكني أتوقَّع أن محاميًا شاطرًا سيخرجني من هذا المأزق. كان ينبغي لي أن أدرك ذلك سابقًا.

- تدركين ماذا؟

نظر إليها، المَسْكَرَة تسيل من عينيها وتسريحة شعرها الأنيقة منسدلة وحمرة شفتيها ملطَّخة بعضها ببعض. قالت له:

- أنَّكَ أنْتَ مرادي ومناي.

- أنا؟
- أنتَ دائمًا موجود لتشد من أزري. دائمًا ما نقضي أوقاتًا رائعة معًا. وأنت تحب العزبة بمقدار حبِّي لها. وأكثر شيء أرغب فيه الآن هو أني أريدكَ أن تقبِّلَنِي.

للحظة، تساءل إذا ما كان ذلك نكتة أو ما شابهها. تساءل إذا ما كان هيو سيأتي ومعه بندقية إذا ما أقدَمَ ديلُن على تقبيلها مثلما أراد منذ ذلك اليوم في المستشفى.

لا بأس، فقبلةٌ على شفتي ألِسْ تستحق أن يُقْتَلَ المرء في سبيلها.

كانت طرحتها قد سقطت على وجهها. رفعها ديلُن، بحيث يتسنى له رؤية كل معالم وجهها: عيناها الجميلتان، وشفتاها الرائعتان.

ومن ثم قبَّلَها. بينا كان يفعل ذلك، أقْسَمَ أغلظ الأيمان أنه سيعتني بها ويحميها طالما فيه قلب ينبض، ومهما حدث.

(125) دَسْتي سپرنغفيلد (١٩٣٩ – ١٩٩٩) مغنّية بوب بريطانية لامعةٌ واسمها الحقيقي ميري أوبرين.

(126) ربطة عنق قصيرة على شكل فراشة.

(127) نسيجٌ ناعمٌ من الحرير أو النايلون أو غيرهما، وهو ذو بنية شبكية حيث يستخدم خصيصًا للأوشحة وطرحات العرائس. وسُمِّي كذلك نسبة إلى مدينة تول الفرنسية التي صنع فيها أول مرة.

(128) وهو طبقٌ بريطانيٌّ عمومًا، ويتكوَّن من بيضٍ مسلوقٍ مغلَّف بلحم نقانق ويُدْلَكُ بالخبز ثم يُقْلَى.

الفصل الخامس والعشرون

بعد انقضاء أسبوعين اكتملت أعمال التجديد في مكتبة نايتِنْغيل.

لا تزال المكتبة تحتفظ بهويتها السابقة، ولكنها بدت أكثر نضارةً وأبَّهَة بجدرانها الرمادية الفاتحة، وأرففها البيضاء، ويافطاتها التعريفية المرسومة رسم اليد.

أُثِّثَتْ بِيْ كل قسم من أقسام المكتبة ليعطي شعورًا للزائر وكأنه يجلس في غرفة. فقسم الأدب الخيالي فيه أريكة ناعمة وردية مع طاولتين صغيرتين من كلا جانبيها، على كل طاولة أصيص ورود نضرة. ووُضِعَ قسم كتب الجريمة قرب الموقد، وفيه كرسي بذراعين من قماش ذي مربعات وسجَّادة فارسية، ويكاد يشطح بكَ الخيال وترى شيرلوك هولمز مسترخيًا في الكرسي مع غليونه. وصُمِّمَ قسم كتب الطبخ على شكل طاولة اللحَّامين وقد عرضت عليها مكونات من وصفةٍ بعينها. أضافت إكسسوارات إلى الأقسام الأخرى كافّة في المكتبة؛ فقد صمَّمَت مسندَ لوحات الرسم ووضعتْ عليه كتب الفن، وخصّصت لكتب السفر والرحلات قسمًا على شكل كرة أرضية تدور.

أعادوا افتتاح المكتبة في الأسبوع الأول من ديسمبر، وباتت مستعدة لاستقبال عيد الميلاد. لم يكن هناك متسع من وقت لتنظيم حفلة افتتاح، ولكن إِميليا أقامت حفل افتتاح صغير لكل من شارك في أعمال التجديد: جون ومِلْ وديف وجاكسُن ومساعِدِيه الشباب وبِيْ وأندريا... خاطبتهم إِميليا قائلة:

- إن هذا يعني لي الدنيا وما فيها. شكرًا لكم جميعًا. وأعرف بأن أبي يشكركم جميعًا أيضًا.

ومن ثمَّ قلبت اليافطة الموضوعة على الباب معلنة افتتاح المكتبة.

كان الناس ينتظرون على الرصيف، متحمسين لشراء الكتب، واستمر توافدُهم طوال اليوم. اصطفت طوابير منهم أمام طاولة الحساب وشعرت إِميليا براحة عظيمة لأنها ارتأت أن تخصِّص ثلاثة موظفين جدد من طاقم موظفيها لتغطية فترة عيد الميلاد.

مع نهاية اليوم، وبعد أن شكرت من فورها الموظّفين وودَّعتهم على أمل اللقاء بهم في الغد دون أن تقفل الباب، رنَّ الجرس الداخلي للباب. ستقول للزبون، كائنًا من كان، بأنّ المكتبة أقفلت أبوابها لهذا اليوم.

لم يكن الزبون الزائر سوى مارلو. واقفًا هناك بابتسامة ومعه قنينة من مشروب پيرپير-جوي.

- هل أغلقتِ المكتبة؟

- يمكنني أن أمنحك استثناءً. استثناءً لكَ فقط.

- أرَدْتُ شراءَ كتابٍ في يوم المكتبة الأول احتفالًا بافتتاحها.

- حسنًا، تفضَّل واستعرض ما تودّ اقتناءه من كتب.

وضع القنينة على طاولة الحساب ونظر في أرجاء المكتبة نظرة إعجاب.

- إنها رائعة يا إِميليا.

نظرت حواليها ورأتها من خلال عينيه. كانت رائعة. وفجأة شعرت بموجة قهرٍ تجرفها؛ لأن الشخص الذي أرادت له أن يرى المكتبة لم يكن هنا. شعرَتْ بدموعها تفيض في عينيها.

- ما خطبكِ؟ قال مارلو الذي صار قربها في لحظات.

- آسفة، ولكني كنت أتمنى فقط لو أنَّه هنا ليراها.

- أنت فعلت بالطبع ما يرضيه. ضمَّها مارلو بين ذراعيه، ورفع إصبعه ليمسح دموعها ثم أضاف:

- سيكون شديد الفخر بك. وأنتِ تعلمين ذلك تمام المعرفة.

أومأت إميليا برأسها موافقة. ينبغي لها أن تستجمع رباطة جأشها، وأن تذهب وتفتح قنينة شمبانيا أو غيرها. ولكنها لم تكن راغبةً في ترك حضنه. على النقيض من ذلك، أرادتْ أن تقترب منه أكثر. ثم أغمضتْ عينيها.

وقفا مكانهما للحظة، متضامين متحدين، أنفاسهما متناغمة في إيقاعها. سألته في نهاية المطاف، وهي بالكاد عاجزة عن الكلام:

- ما الكتاب الذي تريد اقتناءه؟

- أعندكِ كتابٌ يحكي قصة رجل احتاجَ زمنًا طويلًا حتى يدرك بأن المرأة التي يحبها كانت أمام ناظريه طوال الوقت؟

- هناك الكثير من أمثال هذه الكتب. أيمكنكَ أن تحدِّد طلبكَ أكثر؟

- طيِّب. الرجل عازف كمان. والمرأة بائعة كتب.

فتحت عينيها، وقد أدركت قصده بغتةً. ثم قالت:

- أوه، لا أظنّ أنّنا نملك هذا الكتاب.

قال مارلو مبتسمًا لها:

- إذن يجب على كاتبٍ من الكُتَّاب أن يؤلفه.

ازدردت إِميليا، وهي تحاول أن تفهم بالضبط ما المقصود بذلك. سألته:

- أصحيح ذلك؟

- صحيح. مذ رأيتكِ تعزفين مقطوعة «البجعة» في حفل تأبين أبيكِ. كنتِ حينها خائفة جدًا ولكنك كنتِ شجاعة جدًا وعزفتِ المقطوعة بفيضِ حبٍّ دافق... لم أسمع أحدًا يعزفها بمثل براعتك من قبل.

- أوه.

لم تعرف إِميليا ما تقول. كانت مصعوقة باعترافه بحبّه وبتعليقاته على عزفها. قال مارلو:

- عَرَفَتْ ديلْفِين أني أحبُّك قبل أن أعرف أنا. ولذلك فقد ذهبَت. كان موقفها موقفًا رائعًا إزاء ذلك. قالت بأنها لا تريد أن تقف في طريقنا.

شعرت إِميليا بالذهول. أراحت رأسها على كتفه وشعرت بذراعيه تشدَّان على جسدها. قالت له:

- كيف ستكون نهاية الكتاب إذاً؟

- أوه، نهاية سعيدة. مثل كل الكتب الأثيرة. وسيكون عنوان الكتاب... أنْ تجدَ الحبَّ في مكتبة.

وقفا يضمُّ أحدهما الآخر، ضمّةً لا يمكن لشيء أن يفصم عراها. قالت إِميليا:
- يبدو أنّه أفضل كتابٍ على مرِّ العصور. سأطلب منه خمسين نسخةً من فوري.

هو ذا عيد الميلاد يحطُّ رحالَه في بيزبروك.

غصَّت شوارعُها منذُ الصباح الباكر بالناس. وامتدَّت أمام اللحَّام طوابيرُ أولئك الذين جاؤوا لاستلام الدِّيَكة الرُّومية والإوز الذي أوصوا عليه قبلًا، فيما انهمك الجميع في العمل في محلّ أجبان بيزبروك، فهذا يبيع قطعًا دائرية من جبنة شيدر إلى هذا الزبون، وذاك يبيع قطعًا صغيرة من جبنة ستيلتن وعلبًا من جبنة ڤاشرا(129) إلى زبونٍ آخر. وغنَّت فرقة كورالية غناءً مفعمًا بالحيوية حول شجرة الميلاد المنتصبة في السوق. الهواء عاصفٌ وبارد؛ والسماء ملبَّدَةٌ بغيومٍ بيضاءَ ريَّانَة. محملقًا بنظرة عارفةٍ مرتسمة في عينيه، قال والد جِمْ:

- سيتساقطُ الثلجُ قبل انتهاء النهار.

أضفى ترقُّب تساقط الثلج شعورًا بضرورة الإسراع في كلّ شيء في ذلك اليوم. فالعيون مشرقة، والأنوف وردية،

والابتسامات عريضة والناس مسرعون في الطرقات لشراء حاجياتهم والعودة إلى بيوتهم.

في مكتبة نايتِنْغيل، لم تحظَ إميليا بفرصةٍ تلتقط فيها أنفاسها منذ فتحت المكتبة في الساعة التاسعة صباحًا وكادت تغرق في هذا الاندفاع الفجائي للزبائن. لم يكن عندها أي فكرة كيف يتحمل الناس الانتظار حتى وقت متأخّر جدًّا لكي يشتروا هدايا العيد، ولكنّها لم تتذمَّر من ذلك. فقد كانوا يشترون بفرحة غامرة. وكانت تومَسينا قد أعدَّتْ غالونات من النبيذ المحلَّى بالسكَّر، والمُنكَّه بالتوابل لإكرام وفادة الزبائن وهم يستعرضون الكتب، وعَلِقَتْ في أجواء المكتبة روائح القرنفل والقرفة. كما حضَّرَتْ ولورين أيضًا بسكويت خبز الزنجبيل بأشكالٍ دمى بشرية لإعطائها للأولاد التائهين حتّى يتسلَّوا بقضمها بينما انهمك آباؤهم وأمهاتهم في شراء الكتب.

استلمت بِيْ مسؤولية قسم التغليف. فالكتب تمنح المرء متعةً كبيرة أثناء التغليف، بحوافّها المستقيمة وزواياها الحادّة التي تريح النفس، ولكن بِيْ، التي لا يعجبُها سوى الكمال، أضافت على التغليف لمسة بهيَّة. إذْ إنَّها غلَّفت الكتب بالورق البني الخالي من أيّ كتابات؛ الورق ذاته الذي اعتاد يوليوس استخدامه دائمًا، وربطتها بشريطٍ أحمر، ومن ثم ختمتها بعناية

وحرص في إحدى زواياها بعبارة مكتبة نايتِنْغيل تتمنَّى لكم عيدَ ميلادٍ سعيد.

وانشغلت جون وإِميليا بمدِّ يد العون للزبائن من خلال تقديم الاقتراحات لهم بكتبٍ يقرؤونها؛ ويمكن تمييزهما بسهولة بقبعتَيهما المخمليتين الحمراوين اللتين تعتمرها جنيات الحكايات واللتين صمَّمَتْها لهما بِيْ. باعت إِميليا رواية القط ذو القبعة وأعمال إنيد بلايتُن(130) وسلسلة تومَس القاطرة الجبَّارة وهدايا كتب جنيات الزهور(131)؛ وكتب مختصرة عن شيرلوك هولمز وموسوعات العناية بالنباتات ومجموعات كاملة لأعمال أجاثا كريستي؛ وأعدادًا لا حصر لها من كتب الطبخ والسير الذاتية والأطالس الجغرافية.

أقبل زبونٌ مستعجلٌ يرتدي معطفًا كُحْليًّا طالبًا أن تقترح عليه كتابًا يهديه لزوجته. تخيَّلَتْها إِميليا امرأةً جميلةً تسكن منزلًا جميلًا ذا طراز معماري جورجي(132) وباعته كتاب حوليّات أسرة كازاليت، مستندةً في اختيارها إلى أنّها لم تلتقِ في حياتها شخصًا قرأه ولم يعجبه.

في الساعة الرابعة فرغت المكتبة فجأة من الزبائن وكأنّما بسحر ساحر. ارتدت إِميليا معطفَها، وأغلقت الباب وأدارت فيه المفتاح لتقفلَه. خطرت في بالها كلّ تلك الكتب التي باعوها، وتخيَّلت المكتبة فاتحةً أبوابَها صباحَ اليومِ التالي، وقد هرع إِليها الزبائن وهم جالسون على الأرضية يحيطُ بهم ورق التغليف، أو متكوِّرون فوق أريكة وبيدهم كأس شمبانيا، أو جالسون قرب الموقد وحبوب الكستناء تفرقع في ناره.

التفتت ورأت مارلو واقفًا هناك مبتسمًا.

- أأنتِ جاهزة؟

قال لها وأومأتْ موافقة، ثم تأبّطت ذراعه.

مشيا عبر الشارع السريع نحو الكنيسة بينما أغلقت بقية المتاجر في بيزبروك أبوابها. ومن ثمَّ، في برودة هواء الليل، تعلوهما السماء المخملية الملبَّدة بالغيوم، رأت نجمًا ساطعًا؛ ورغم معرفتِها بأنَّ ما جال في خاطرها ليس سوى هراءٍ في هراء، فلم تستطع أن تقاوم الشعور الذي اعتراها بأنّ ذلك النجم

ربّما يكون أبوها، مبتسمًا لهما ومبديًا شعوره بالفخر بهم جميعًا. أطلقت لخيالها العِنان لتظنّ أنّه أبوها فعلًا، ورفعت وجهها صوب السماء ترد الابتسامة بابتسامة، واجتاحها شعور عارمٌ بالدفء والبهجة والانتماء. سألها مارلو:

- ما سرُّ هذه الابتسامة العريضة؟

- أشعر بالسعادة. لم أحسب أنّني سأصل إلى هذا الشعور؛ لأنَّ هذا أول عيد ميلاد دونه، وبالطبع أتمنّى من صميم قلبي لو أنّه كان هنا ولكنّي... أشعرُ بالسعادة.

أحاطها مارلو بذراعه وضمَّها إليه بقوة. ما من حاجةٍ لأنْ توضِّحَ له بأنّه واحدٌ من أسباب سعادتها، فهو يعلم ذلك دون أن تقول له ذلك. ويعرف مارلو ذلك دائمًا.

الكنيسة ممتلئة على بكرة أبيها، لكنّ إِميليا استطاعت رؤية جون بقفازاتها الحمراء وهي تلوِّح لها، رَدًّا تحيتها وشقًّا طريقهما عبر الجمهور الجالس حتّى وصلا إلى مكان قريب من الصفوف الأولى، وهما يهمسان عبارات الاعتذار ويرسلان تحيَّات باسمة إلى الناس المحيطين بهما. جلست أسرة بازِلْدُن في الصف الأول بالطبع؛ فهذه سارة تعتمر قبّعة من الفرو وهي جالسة قرب

رالف، فيما اتّكأت ألِسْ على ديلُن، الذي بدت عليه أماراتُ دهشة خفيفة لوجوده في هذه المكانة المرموقة.

الكنيسة هادئة هدوءًا مطبقًا بينما اعتلى مِكْ غيلسبي مقرأ الكنيسة وقرأ قصيدة «رنِّي أيّتها الأجراسُ الصاخبة»، وجَرْسُ صوتِه الذي لا تخطؤه الأسماع مشوب بلكنة ويست كورك ممّا جعل الجمهور ينتشي طربًا.

«رني أيّتها الأجراس الصاخبة، وأسمعي السماءَ الهائجة

والسحابةَ العابرة، والضوءَ المهول بالصقيع...»

رأت إميليا، إذ نظرت إلى جانبها، عيني جون تفيضان فخرًا وإعجابًا بمِكْ. بشعره الذي صار الآن أبيضَ، ونظارته المستلقية على أرنبة أنفه، لم يعد مِكْ يشبه ألبتّة ذاك النجم السينمائي الشابّ المشرق الذي وقعت في حبائله ذات يوم، ولكنّه لا يزال يأسر الجمهور ممسكًا بهم كمن يمسك شيئًا في راحة يديه وهو يتغنّى بكلمات تينيسُن(133) وهي تصدح في أرجاء الكنيسة.

رنّي واطردي الأسى الذي يضني التفكير»

بأولئك الذين لم نعد نراهم معنا ها هنا...»

شعرت إِميليا بمارلو وهو يشدُّ على ذراعها وأحبته أن يفعل ذلك مرة أخرى حتّى تدرك أنّه بجانبها. نظرت صوب سارة وتساءلت أي شعور كان يخالجها آنئذٍ. ثم استشعرت في جيبها الهدية الناعمة التي ستعطيها لها فيما بعد. كانت قد وجَدَتْها في دُرْجٍ من أدراج المكتب وهي تفرغه. عرفت أنّها تخصّ سارة وأنّ الواجب يملي عليها أن تعيدها إليها، رغم أنّها تعرف بأنّ من شأن ذلك أن يحملَ مشاعر مختلطة، مشاعر فرح وحزن.

لاحَقَتْ بنظراتها مِكْ وهو يغادرُ المقرأ ويطفق راجعًا ليجلس جوار جون ورأتها وهي تهمس له بكلمات تثني على قراءَته، وأحبَّت ابتسامةَ الشكر والتقدير التي أظهرها لجون رغم أنّه ممثّل حاصل على الأوسكار ولا حاجة به لأحدٍ لأنْ يمتدحَ براعته. وشعرت إِميليا بالفخر لأنّها جَمَعَتْ بينهما في مرحلةٍ من حياتهما ربّما كانا يخشيان فيها أن يبقى أحدهما وحيدًا إلى الأبد.

وها هم جاكسُن وميا وفِنْ. تعرف إِميليا بأنّه إضافة إلى كرات القدم وألواح التزلج وبنادق الخرز التي ستهدى إلى فِنْ صباح اليوم التالي، فإنّه سيحصل أيضًا على كتاب هاري پوتر أول مرة في حياته، وحَدَاها الأمل بأنّه في أواخر ظهيرة يوم عيد الميلاد سيتكوَّر جاكسُن وميا معًا ويبدآن الرحلة إلى هوغوُرتس(134).

أينما ولَّتْ وجهها رأت وجوهًا مألوفة.

ذهبت بعدئذٍ مع مارلو إلى عزبة بيزبروك مانُر لتناول مشروبات ليلة الميلاد في الصالة الكبيرة. انتصبت هناك، قرب الدَّرَج، شجرة ميلادٍ عملاقة، بارتفاع طابقين، وموقد حطبٍ تتأجّج نيرانه، ومن ثم اندفع رالف ممسكًا بقنينة نبيذ بيديه وجَالَ على الضيوف ضيفًا ضيفًا ليتأكّد من أنَّ كؤوسهم مملوءة حتى حافّتها.

انسلَّت إِميليا من الحفلة ووجدت سارة في المطبخ، وهي تُخْرِج لفائف النقانق من الفرن وتقلّبها على صينية فضّية. قالت لها إِميليا:

- وجدت شيئًا في درج المكتب. وأنا متأكّدة أنّه يخصّك. وأعرف بأنَّ أبي يريدني أن أعطيَه لكِ.

وقفت سارة، ممسكة الصينية بيديها كلتيهما. والحيرة تفور من عينيها.

- أوه.

هذا كل ما قالته. ومن ثم وضعت الصينية ومسحت يديها بمنشفةٍ صغيرة.

- سأتركُه لكِ هنا وحسب...

قالت إِميليا وهي تشيرُ إلى طاولة المطبخ.

- لا. أرجوكِ. أريدك أن تبقَي هنا وأنا أفتحِ الهدية.

نظرت سارة حواليها لتتبيّن إذا كان أحد يستمع لهما، ولكنّ المطبخ كان هادئًا، بعيدًا عن صخب الحفلة البهيجة. أخذت منها الرزمة الصغيرة. كانت إِميليا قد أغلقتها بشريط لاصق جديد بعد أن فتحتها سلفًا، ولكنّها دسَّتْ إصبعها تحت اللصاقة بعناية وحرص وأخرجت من الرزمة وشاحًا: وشاحًا مخمليًّا طويلًا مزركشًا زركشةً ناتئة، بألوانٍ زرقاءَ تميلُ إلى السواد ورمادية فضّية، وله ذؤابات فيها خيوطٌ من حرير.

أومأت برأسها، وكأنَّها تبدي اعترافًا منها بأنَّ هذه الهدية هي بالضبط ما كان يوليوس سيختارها لها. رفعته نحو وجهها وتحسّست نعومته على خدِّها.

صوتها بدا أجشَّ على نحو خفيف وهي تتكلّم:

- أشعرُ وكأنّه سيدخل عليَّ الحجرة في أيّ لحظة. ويقول لي إنَّه اختاره لي بسبب لون عيني.

تخيَّلتْ إِميليا أباها في متجر الملابس، يقارن ألوان الأقمشة وأنواعها، وهو يرفع الأوشحة صوب الضوء إلى أنْ وَجَدَ اللون المطلوب.

- كان أبي أبرع شخصٍ في انتقاء الهدايا.

- شكرًا لكِ يا إِميليا على إيجاد هذه الهدية. وشكرًا لكِ على إهدائها لي.

- ذلك ما كان أبي يريدني أن أفعل.
طوته سارة مرة أخرى ووضعته في رزمته في اللحظة التي دخل فيها رالف من الباب وقال:

- أتريدين النقانق يا عزيزتي؟ فكلنا نتضوَّر جوعًا، ونحن بحاجة لشيءٍ يطفئ نار كلّ ما شربناه من نبيذ.

التفتت إِميليا مبتسمةً وأمسكت سارة الصينية وقالت:

- سآتي في لحظات.

خرجتا معًا إلى معمعة الجموع الصاخبة، ومن ثم افترقتا بين الضيوف. ستبقى بينهما تلك الرابطة على الدوام، يجمعهما السرَّ الذي تعرفانه، ولكن ما من حاجة لفضح السرُّ على الملأ. تعلمان أنّهما جاهزتان لتؤازر إحداهما الأخرى، إذا ما خطر في بالهما أن تتشاركا رأيًا عابرًا أو ذكرى، وأنَّ إحداهما ستمنح الأخرى طمأنينة البال.

ظنَّت إِميليا في قرارة نفسها أنّه وضع غير عادي، ولكن إذًا، ما الوضع العادي؟ ففلسفة الحياة برمّتها تقومُ على أنَّك لا يمكن أن تكون متيقّنًا أبدًا ممّا سيحصل معكَ في المستقبل. فأحيانًا تحدث أشياء جيدة، وأحيانًا لا، ولكن هناك دائمًا مفاجآت.

ابتسمت بينها وبين نفسها وهي تمعن النظر في أرجاء الغرفة، ولمحت مارلو واقفًا قرب الموقد، وهو يدردش مع سيِّدَتين مسنتَين ما زالتا تفيضان نشاطًا وكانتا تتفرسّانه كما تتفرَّس ثعلبَتَان دجاجةً هاربةً من خُمِّها.

صاح أحدهم: يا إلهي انظروا! بدأ الثلج يتساقط!

هرع الجميع إلى النوافذ وحملقوا إلى الخارج حيث ندف الثلج شبه المضيئة تتراقص في الوهج الذهبي الصادر عن مصابيح الحديقة. تساقطت أسرع وأسرع، كراقصات الباليه تحفّهنَّ أضواء المسرح.

سألت إِميليا مارلو:

- أتظنّ أنّه ينبغي لنا الذهاب؟ لا نريدُ أن يحبسنا الثلج هنا.

- فلنذهب. أشعر وكأنَّ إحدى هاتين السيدتين ربّما تأكلني حيًّا في أيّ لحظة.

انسلَّا بقدر ما استطاعا من رزانة، فتحيات الوداع وأمنيات عيد الميلاد التي لا تنتهي من شأنها فقط أن تؤخِّر عليهما فرحتهما الموعودة. شغَّل مارلو السيَّارة ثم المكيِّف، ومن ثم ساق بحذرٍ عبر العاصفة الثلجية مشغلًا مسَّاحات الزجاج في طاقتها القصوى. أدار مذياع السيارة على ترانيم قدَّاس الميلاد الذي كان يُبَثُّ من كينغز كولج في كيمبردج. بدا الأمر وكأنهما داخل حجرة وثيرة، مختبئة في صقع بعيد عن العالم الخارجي.

- إنّه عيد ميلادٍ أبيض.

قالت إِميليا متنهّدة، بينما تحول المنظر الطبيعي حولهما إلى أرض عجائب شتَوِيّة. هذه أول ليلة لهما، ابتسمت بينها وبين نفسها، وسرح خيالُها ورأت نفسها مستيقظة في كوخه صباح اليوم التالي، وجواربها النسائية الطويلة التي ارتدتها له تتدلَّى قرب الموقد.

عند دخولهما إلى بلدة بيزبروك، أوقف مارلو السيَّارة تمامًا فوق مطب الجسر ونظرت إِميليا إلى مكتبة نايتِنْغيل، والضوء الخارج عبر النوافذ لا يزال يتوهّج في الداخل، وسقفها مكسوٌّ سلفًا بالبياض، وقالت في سرِّها: «عيد ميلاد سعيد يا أبي»، ومن ثمَّ انطلقت السيَّارةُ وهي تقرقعُ على الجهة الأخرى من الجسر، ثم اتّجهَت صوبَ الشارعِ السريع مولجةً في الثلج المتساقط.

* انتهت *

(129) جبنة فرنسية أو سويسرية طرية من حليب الأبقار.

(130) إنيد بلايتُن (١٨٩٧ – ١٩٦٨): كاتبةُ قصصِ أطفالٍ بريطانية.

(131) سلسلة رسومات بديعة رسمتها الفنانة الإنجليزية سيسيلي باركر (١٨٩٥ – ١٩٧٣) التي لم تذهب إلى المدرسة بسبب إصابتها بالصَّرَع.

(132) نسبة إلى طراز معماري ساد بريطانيا في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، تولَّى فيه عرشَ بريطانيا أربعة ملوك هم جورج الأول والثاني والثالث والرابع. أي بالتحديد بين عامي ١٧١٤ و١٨٣٠.

(133) ألفرد تينيسُن (١٨٠٩ – ١٨٩٢): شاعر إنجليزي؛ وكان أمير الشعراء الإنجليز (أو ما يعرف بشاعر البلاط) خلال مدة لا بأس بها أثناء حكم الملكة ڤكتوريا.

(134) الاسم الذي أطلقته جي. كي. رولنغ على مدرسة السحر التي يرتادها الطلاب بين سن الحادية عشرة والثامنة عشرة في روايتها الشهيرة هاري پوتر.